الاتجاهات الوطنية

في الأدب المعاصر

الجزء الأول

من الثورة العرابية الى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)

تأليف

الدكتور محمد محمد حسين

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الاسكندرية

الناشر — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية

٦ حكر الباشا خلف الحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

. كان اتجاهى أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية فى شعر شوقى . ولما اجتمعت لى مادة البحث ، رأيت أن الذين كتبوا عن هذا الشاعر قد ظلموه ظلما بيّنا فى وطنيته . ونظرت فإذا شوقى ليس وحده هو الذى مدح السلطان عبد الحميد ، فقد كان ذلك اتجاه شعراء العصر جميعا . ونظرت فإذا شوقى لم يكن وحده الموالى لتركيا ، فقد كانت مغاضبة تركيا وقتذاك لا تعنى إلا موالاة أعدائهم وأعداء مصر الإنجليز . ونظرت فإذا الرجل لم يكن وحده هو الذى مدح عباس — وإن تكن صناعته ووظيفته قد أقتضته ذلك — فقد كان عباس فى الفترة الأولى من حياته موضع مدح كل الشعراء ، بل وموضع حب المصريين جميعا وآمالهم.

ورجعت إلى كتابات العصر وصحفه وتاريخه ، فإذا كل ذلك يوحى بأن وطنية هذه الفترة لم تكن هى وطنيتنا ، وأن قيمها لم تكن هى قيمنا ، وأن تفكيرها لم يكن هو تفكيرنا فالخطأ فى الحكم يرجع فى معظمه إلى تغير مفهوم (الوطنية) على مر الأيام . فالذين يدرسون أدب الصحراء والفطرة فى الجاهلية لا ينصفون إذا وزنوه بموازين الحضارة والمدنية فى القرن العشرين . والذين يدرسون شعراء ما قبل الإسلام يظلمون إذا وزنوهم بموازين الإسلام . والجيل الذى يولد فى هذه الأيام يخطىء إذا درس آداب آبائه بعد عشرين عاما أو ثلاثين فحكم على الذين مجدوا (الملكية) بالخيانة . وكذلك كان شأن الدارسين مع شوقى . لاموه لميوله التركية حين كانت الرابطة العثمانية حديث كل الأمم الإسلامية . وغضوا من قدره لأنه كان رجل القصر حين كان عباس ساكن القصر موضع أمل الوطنيين من المصريين وقدوتهم فى مقاومة الاحتلال فى شطر من حياته .

وعندذلك خطر لى أن لا أقصر تاريخ الوطنية على شوقى وأن أؤرخ للاتجاهات الوطنية فى الشعر المصرى جملة ، ورأيت أن مثل هذا البحث قد يصحح كثيرا من الأحكام السابقة العاجلة ، وقــد يعين على وضع مقاييس صحيحة للقيم الوطنية وتطورها . فليس من الإنصاف أن يحاسب الناس على أسس مباينة كل المباينة أو بعض المباينة لأسس العصر الذى عاشوا فيه وعبروا عن قيمه واتجاهاته . وليس من البحث العلمى أن يدرس الشاعر منفصلا عن بيئته التى استمد منها تجاربه . ومن هذا يبدو أن البحث فى لبه يستهدف تصحيح القيم الوطنية والقيم النقدية فى دراسة الشعراء المعاصرين .

وقد تبين لى من بعد أن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) كانت حدا فاصلا بين عصرين متباينين فى فهم مدلول (الوطنية) . ولذلك رأيت أن أقسم بحثى عن (الاتجاهات الوطنية فى الشعر المعاصر) إلى قسمين، ينتهى أولهما إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وهو موضوع بحث هــذا الكتاب الذى أقدمه بين يدى القراء .

وقد قسمت البحث إلى خمسة فصول .

تكلمت فى الفصل الأول عن (الجامعة الإسلامية) ، فبينت أنها كانت هى النزعة الغالبة على تفكير العصر ، حين لم تكن الفكرة القومية بمعناها الحديث قد سيطرت على الأذهان ، وحين كانت العاطفة الدينية هى المسيطرة على القلوب والأفهام ، وحين كانت الظروف التى تسود العصر توحى بأن الخصومة بين الشرق والغرب هى خصومة بين الإسلام والمسيحية ، أو هى استمرار للحرب الصليبية كما تصور بعض زعماء الوطنية وكتابها . وكان يعين على تدعيم هـذا التصور ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة فى اقتسام أملاكها من ناحية أخرى . هذه تنادى بتحرير الشعوب الأوروبية فى جنوب أوروبا من وحشية المسلمين ، وتلك تنادى بتماسك الشعوب الإسلامية واتحادها أمام الجشع الأوروبى . كما أعان عليه مهاجمة كثير من ساسة الغرب وكتابه للإسلام .

والمسلمين ، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين ، ورد تخلفهم هذا إلى جمود الإسلام الذى لايصلح لأن يكون شريعة أمة متمدينة راقية ، وأعان عليه كذلك ما كانت تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على تركيا ،بتشجيع كل مناوئ لها وخارج عليها ومذيع لمساوئها ومصور لفساد الحكم فيها .

وبينت فى هذا الفصل أن موالاة تركيا والإشادة بها ومدح الشعراء للسلطان عبد الحميد لم يكن فى حقيقة أمرة إلا تمسكا بخليفة المسلمين الذى يلى أمرهم ويجمع شملهم ، وأن الخروج عليه ومهاجمته لم يكن يعنى فى أفهام كثرة المعاصرين إلا موالاة المستعمرين أعداء المسلمين. وتتبعت ذلك فى مختلف المناسبات والأحداث، مثل الحركة العربية التى كان يُظَن أن إنجلترا هى التى تثيرها ، مستعينة بها على قتل الخلافة الإسلامية التى كانت تريد أن تنقلها إلى أمير عربى تضعه تحت حمايتها ، فتتسلط عن طريقه على الرأى الإسلامى العام . ومثل حرب اليونان سنة ١٨٩٧، والدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ، وسقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ ، وحرب البلقان وسقوط أدرنة سنة ١٩١٢ . وقدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ .

ثم بينت آخر الأمر أن المنادين بالجامعة الإسلامية لم يكونوا جميعا من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر . وأن كثرتهم كانت مدفوعة إلى ذلك بعاطفتها الدينية ، وأن بعضهم كان يتخذ ذلك وسيلة لمناوأة الاستعمار الإنجليزى،وهو يرى بعد ذلك أن التخلص من النفوذ التركى سهل ميسور .

وتكلمت فى الفصل الثانى عن (الجامعة المصرية) ، فتتبعت تطور القومية المصرية التى كانت فكرة ناشئة فى ذلك الحين ، انتقلت إلى مصر مع ما انتقل إليها من الأفكار الغربية . فكانت صدى للاتجاه العام نحو تبلور القوميات فى القرن التاسع عشر . وقد رددت بذور هذا الاتجاه نحو الجامعة المصرية إلى الثورة العرابية ، التى كانت تعبيرا عن شعور المصريين بالاضطهاد إزاء عنصر غريب عنهم هو العنصر الجركسى . ورأيت أن فكرة الوطنية فى ذلك الوقت كانت مختلفة

بعض الاختلاف عما نعنيه منها اليوم ، وأنها كانت مختلطة بالفكرة الإسلامية ، لا تدعو إلى الانفصال عن تركيا ، وإن كانت تدعو إلى مقاومة استبداد العنصر الجركسى والنفوذ الأوروبى . وقلت إن هذه الحركة كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه ، تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . ثم تطورت الفكرة القومية على أيدى أصحاب الثقافات الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطرا يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ويضعف تكتلها أمام الدول الأوروبية الطامعة فى استعمارها.

ثم خفت صوت القومية وركدت الدعوة إليها زمنا بعد فشل الثورة العرابية، حتى انبعثت من جديد فى مختتم القرن التاسع عشر ، متأثرة بفكرة القوميات الأوروبية ، واتخذت شكلين متباينين ، أحدهما يتحدث عن الوطنية حديثا عاطفيا ، ويتغنى بها كما يتغنى العاشق بمعشوقته ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد . والآخر يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة ، ولا يستهدف إثارة الناس ولكنه يحاول إقناعهم ، ولا يتغنى بالوطن المحبوب ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه . وكان الفريق الأول ممثلا فى مصطفى كامل وهو يدعو إلى جامعة مصرية إسلامية ، ولا ينكر الرابطة العثمانية ، ولكنه يتخذها وسيلة لمناوأة الإنجليز . وكان الفريق الثانى ممثلا فى حزب الأمة . وهو يدعو إلى جامعة مصرية خاصة ، ولا يعترف بالرابطة العثمانية لأنها لون من ألوان الاستعمار ، كما أنه لا يعترف بالجامعة الإسلامية لأنها وهم لا سبيل إلى تحقيقه من الناحية العملية . وبينت أن الدعوة الأولى كانت أقرب إلى القلوب، وأن كثرة الناس قد آزرتها والتفت حولها ، وأن انصراف الناس عن الدعوة الثانية كان يرجع إلى أن دعاتها من كبار الملاك الذين لا يعنون إلا مصالحهم الخاصة حين يتحدثون عن النفع المادى والمصالح المشتركة ، وإلى أنهم قد انصرفوا

إلى الكلام عن الإصلاح ولم يهاجموا الاستعمار الذى كانوا يُوادُّونه حرصا على مصالحهم .

وختمت هذا الفصل بالإشارة إلى ما صحب هذه الحركة المصرية من اتجاه تاريخى فى الشعر نحو إحياء المجد الفرعونى والمجد العربى ،اللذين يمثلان العنصرين الأصيلين فى الدم المصرى والحيـــاة المصرية ، واتخـــاذ ذلك وسيلة إلى استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى الناس الذين تمكن منهم سوء الظن بأنفسهم حتى قتل فيهم روح الأمل والطموح .

وتكلمت فى الفصل الثالث عن (محنة الجامعة المصرية) التى بدت فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١٠ والمؤتمر المصرى سنة ١٩١١ . وبينت أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وإلى عدم توافر الثقة بين العنصرين اللذين يكونان الجامعة المصرية ، وإلى الجهل الذى يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين ، وإلى التقاليد الفاسدة التى دعت القبط إلى أن ينطووا على أنفسهم ويقصروا اهتمامهم على مشاكلهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن تتحدث صحفهم عنهم وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر . وهاجت الفتنة فبرزت عارية ، بعد قتل بطرس غالى رئيس الوزراء القبطى سنة ١٩١٠ . واعتبر القبط أن عنصرهم هو المقصود بالاعتداء . ودافع الفريق الآخر عن نفسه بأن الرجل لم يستحق القتل إلا بوصفه مصريا خان وطنه وأعان عليه المستعمرين. وبلغت الخصومة قمتها حين تم انعقاد المؤتمر القبطى فى أسيوط فى ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، مطالبا ببعض المطالب التى كانت موضوع نقاش عنيف حاد فى الصحف ، دعا إلى عقد مؤتمر مصرى تم انعقاده فى ٢٩ إبريل سنة ١٩١١ ، رد على مطالب المؤتمر القبطى التى لا تقوم على أساس من المواطنة المصرية ، ولكنها تقوم على أساس الدين وحده .

ثم تكلمت عما استتبعته هذه الخصومة العنيفة من محاولات صادقة للتوفيق بين عنصرى الأمة وتصفية ما بين الأخوين من سوء الظن وانتهيت إلى أن هذا

الشقاق كان محنة امتحنت بها الدعوة الناشئة إلى الجامعة المصرية فانتصرت عليها ، وأنه إن كان قمة الخلاف بين عنصرى الأمة فهو فى نفس الوقت البداية الصحيحة لوحدتها القومية التى بدت فى أروع مظاهرها فى ثورة سنة ١٩١٩ .

وتكلمت فى الفصل الرابع عن (تيارات سياسية) كانت تتنازع الناس فى هذا العصر . وجعلت الثورة العرابية هى نقطة البداية فى اهتمام الناس بالمسائل السياسية . فقد كثر فيها حديثهم عن الظلم والظالمين ، وعن حقهم فى محاسبة السلطان ، وعن الدعوة إلى النظام النيابى وإلى العدالة الاجتماعية وإلى الحد من تغلغل النفوذ الأجنبى . وظهرت فيها آراء جريئة تدعو إلى التخلص من النظام الملكى مفضلة عليه النظام الجمهورى .

ثم تكلمت عن نشأة الصحافة الوطنية بعد ما كان من ركود الحركة حينا واستكانة الناس للهزيمة. فظهرت صحيفة المؤيد سنة ١٨٨٩، ثم صحيفة الأستاذ سنة ١٨٩٢ . وبينت أن ظهور الحركة الوطنية الحديثة بعد الاستعمار الإنجليزى قد اقترن بحكم عباس . فتكلمت عن وطنيته فى أول حكمه ، مما جمع قلوب المصريين حوله ، وما كان من تأييده لقادة الحركة الوطنية وعدائه للإنجليز ، مما أدى إلى اصطدامه بكرومر ثم تكلمت عما كان من تراجعه أمام الإنجليز ، وعدم صبره للكفاح، وانصرافه إلى تنمية ثروته من كل طريق ، واستعرضت سياسته المضطربة المتقلبة التى أدت إلى انصراف الشعب عنه ، بعد أن ساد الوفاق بينه وبين الإنجليز. حين أرضى جورست — خليفة كرومر — جوعه إلى السلطة وإلى المال .

وبذلك استنفدت الحركة الوطنية جهدها فى مهاجمة عباس، واستراح الإنجليز من اجتماع الشعب والخديوى على حربهم . وقدمت صورا من شعر الشعراء الذين كانوا يمدحون عباسا فى أول حكمه ، فانصرفوا عن ذلك إلى نقد سياسته ، منهم من يعنف فى ذلك حتى يبلغ حد الهجاء الذى يعرضه للسجن ، ومنهم من يرفق فى ذلك فلا يتجاوز العتاب الهين الرقيق

ثم تكلمت عن السلطتين اللتين كانتا تتنازعان تصريف الشئون فى ذلك

الوقت ، سلطة الاستعمار وسلطة الخديوى ، أوالسلطة الفعليةوالسلطة الشرعية ، كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين ، وعن انقسام الصحف بين مؤيد لعباس ومؤيد لكرومر . وتكلمت عن سعى الاستعمار لخلق بطانة له من المصريين ، تحقيقا لسياسته التى رسمها لنفسه منذ الاحتلال فى أن لايحكم بطريق مباشر ، وفى أن ينفذ إرادته بأيد مصرية يقع عليها وزر أعمالها أمام الرأى العام ، فتواجه ثورته ، وبذلك يقع بأس المصريين بينهم ،ويستنفدون جهدهم فى هذه الخصومة .

ثم بينت أن المصريين كانوا موزعين بين النفوذ التركى والنفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى والقصر . منهم من يلتمس العون على الاستعمار عند الخليفة التركى حامى المسلمين ، ومنهم من يلتمسه عند الفرنسين المنافسين للاستعمار الإنجليزى . ومنهم من يحرص على وحدة الصفوف ويشفق من انشقاق المصريين فهو يدعو إلى الالتفاف حول القصر . ومنهم من يؤثر العاجلة ويعيش فى حاضره ولا يطمح إلى خير منه فهو يهادن الإنجليز ولا يطمع فى أكثر من دعوتهم إلى الإصلاح . ومنهم من يتعلق بسيد من هؤلاء السادة لأنه باع نفسه له فهو يؤيده بالحق وبالباطل .

ثم تكلمت عن تأسيس الأحزاب السياسية فى سنة ١٩٠٧ : الحزب الوطنى ومن ورائه الكثرة المثقفة من الشباب ، وهو عنيف فى خصومته للاستعمار . بدأ عهده مؤيدا لعباس وانتهى إلى مخاصمته ، ولكنه لم يهاجم الخلافة العثمانية فى الحالين . وحزب الأمة ومن ورائه أعيان مصر وكبار الملاك فيها ، وهو يهادن الإنجليز ولا يتجاوز جهده الدعوة إلى الإصلاح . وهو يرى أن ذلك هو الطريق الطبيعى إلى الاستقلال . وحزب الإصلاح وهو حزب قليل الأنصار يدعو إلى عباس ، فهو لسانه المعبر عن ميوله واتجاهاته . وحزب كان يسمى نفسه بالحزب الوطنى الحر ، وما هو بوطنى وما هو بحر ؛ فهو دخيل باع نفسه للمحتلين ، ويتمثل فى صحيفة المقطم . وعرضت لما آل إليه أمر هذه الأحزاب من تطرف فى الخصومة وإسراف فى الاتهام ضاق به المصلحون ، فارتفعت صيحاتهم منكرة هذه

المهاترات ، داعية إلى الاتحاد وجمع الصفوف .

وتكلمت فى الفصل الأخير عن (نزعات إصلاحية) لازمت هذا التطور الفكرى والسياسى . وكان دعاتها خليطا من المشتغلين بالسياسة، وممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم فى هـذا المعترك العنيف وآثروا أن يسلكوا طريقا لا يعرضهم لغضب السلطان . وكان بعض هؤلاء ينظر إلى علل المصريين الخلقية والاجتماعية ، يحاول أن ينبه إليها ويرسم الطريق إلى معالجتها ، مستوحيا فى ذلك الحضارة الغربية وأساليبها ونظمها . وكان فريق آخر ينبه إلى عيوب الأمم الإسلامية وسوء فهمهم للإسلام، محاولا أن يقيم الإصلاح على أساس دينى. ثم بينت أن التفكير الأوروبى قد تجلى فى دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة ،شغلت الرأى العام فى مستهل القرن العشرين ؛ وهى : الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية ، والدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب وتمكينها من المشاركة فى الحياة وبينت أن الدعوتين الأوليين كانتا متأثرتين إلى حد بعيد بما شاع فى الحكم العثمانى الفاسد من ظلم ومن استغلال لنفوذ رجال الدين

ثم تكلمت عن حركة الإصلاح الإسلامى التى تزعمها محمد عبده ، وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه . وقسمت جهوده فيها إلى قسمين ، اتجه فى أولهما — أيام اتصاله بالأفغانى — إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن جهاد الاحتلال . واتجه فى الشطر الثانى إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة ، وإلى الرد على ما كان يوجه إلى الإسلام من شبهات ، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه ، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع . وكان من أهم ما اتخذه لذلك من وسائل مشاريعه فى إصلاح الأزهر ، وفتاويه التى كان يجيب بها على السائلين من مختلف الأقطار الإسلامية ، ودروسه التى كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء .

ثم بينت أثر تجاور هذين التيارين فى انقسام المفكرين والناس فى مختلف

نواحى الحياة إلى مجددين ومحافظين ، مما جر إلى احتدام الخصومة بين المتطرفين من الفريقين . فكان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بالجهل والتخلف والجمود. وكان الفريق الثانى يتهم الفريق الأول بالخروج على تقاليد الإسلام ،وربما ذهب فى ذلك إلى اتهام أصحابه بالكفر وبأنهم أذناب المستعمر وأعوانه ، يساعدونه عن قصد أو عن غير قصد ، بتحبيب الناس فيه بدلا من تنفيرهم منه . وقد نشأ عن تجاور هذين التيارين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأساليب المدنية الغربية ، فى البيت الواحد فى بعض الأحيان ، مما وضح أثره فى شاعر كشوقى ، تجاور فى شعره وصف المرقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الإسلام .

وانتهيت إلى أن هذه الصيحات المتباينة المتنافرة ، التى كانت تأخذ الناس من كل الجهات ، قد ساعدت على تنبيه الوعى القومى وإنضاج التفكير ، فكانت أشبه شىء بالفوضى التى خلقت النظام ، وبالسديم الذى تكشف عن الأجرام ، وبالشك الذى يلد اليقين .

ولم يكن يعنينى فى هذه الفصول أن أستقصى الأحداث ، وأن ألم بالتفاصيل. ولكن عنايتى قد انصرفت إلى توضيح الخطوط الرئيسية ، والاتجاهات العامة ، والتيارات الأساسية، التى ظهرت فى هذه الفترة وسيطرت عليها ، مستنبطا ذلك من النصوص الشعرية والنثرية ، مع مطابقتها بالأحداث التاريخية. وأرجو أن أكون قد عاونت بذلك على تصحيح بعض المعايير النقدية ، وتوضيح ما يكتنفها من لبس أو غموض .

ولا يفوتنى فى ختام هذا التقديم أن أشكر السيد ماهر حسن فهمى لما قدم لى من عون فى تأريخ كثير من قصائد شوقى بالرجوع إلى تاريخ نشرها فى الدوريات، وفى إعداد فهارس هذا الكتاب .

وعلى الله التوكل والاعتماد ، ومنه العون والتوفيق والسداد ؟

رمل الإسكندرية ٢ مايو سنة ١٩٥٤ — محمد حسين

الفصل الأول

الجامعة الاسلامية

كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية فى مصر إلى أوائل القرن العشرين. ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة فى الاعتراف بسلطة الخليفة التركى. وحين ثار عرابى على فساد أساليب الحكم فى مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبى لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه، فهو يعرض عليه خطواته، مستمدا منه السلطة فى كل ما يفعل (١). ويضع مستر بلانت فى مقدمة برنامج الحزب الوطنى الاعتراف بسلطة الباب العالى وبأن « جلالة السلطان عبدالحميد مولاهم وخليفة الله فى أرضه وإمام المسلمين»(٢). وهذا هو قرار الجمعية العمومية الذى صدر بتأييد عرابى عند ماعزل الخديوى توفيق يختم بالاعتراف بالولاء للسلطان، إذ ينص على وجوب « عرض القرار على الأعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات(٣). ويقول عرابى فى مذكراته « وبعد إمضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية، وصار إبلاغه إلينا رسميا وإلزاما بالمداومة على الدفاع وإعطاؤنا لقب (حامى البلاد المصرية)»(٤). وهذه هى المنشورات التى كان يصدرها الخديوى توفيق، تستعين على تنفير الناس من عرابى بتصويره خارجا على الخلافة، عاصيا عن أوامر أمير المؤمنين (٥). وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الحض على

---

١ — مذكرات عرابى ١ : ٧١، ٢٢٢

٢ مذكرات عرابى ١ : ١١٧

٣ — الثورة العرابية ٣٩٠

٤ — مذكرات عربى ١ : ١٩٧

٥ — مصر للمصريين ٥ : ١٨٥ — ١٩٣، مذكرات عرابى ١ : ١٩٨

الدفاع عن الدين الإسلامى[1]. وظل عرابى يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده، حتى أعلن عصيانه تحت ضغط انجلترا، فكان لهذا الإعلان أسوأ الأثر. كما يقول عرابى نفسه فى مذكراته[2].

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة بلون دينى يكاد يكون امتدادا للنزاع الصليبى فى العصور الوسطى. وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ماكان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوروبية فى هذه الشعوب جميعا. فكانت روسيا لاتنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين(٣). وكانت العرائض تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ المسيحيين من مذابح المسلمين(٤). وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بانجلترا يلقى الخطب الرنانة، ويؤلف الرسائل المطولة، ناسبا إلى تركيا اضطهاد المسيحيين، مشيرا إلى السلطان عبدالحميد بقوله «الشيطان» و «عدو المسيح»(٥). وهذا هو المستر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) سكرتير سفارة انجلترا فى الأستانة يكتب تقريراً مطولا عن المسألة البلقانية، يذكرنا بتقاريره المشهورة عن مصر، ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة فى الانتقام من المسيحيين، مقترحا أن تكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين(٦). وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلا للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر فى باريس(٧).

---

١ — مصر للمصريين ٥ : ١٩١ — ١٩٨

٢ — مصر للمصريين ٥ : ٢٠٠ — ٢٠١ ، مذكرات عرابى ٢ : ١٧ — ٢٠

٣ — عبدالحميد ظل الله على الأرض ٧٢ — ٧٣ ، تاريخ الدولة العلية ٣٤١ ، صداقة أربعين عاما ص ٢٧٤

٤ — عبد الحميد ٧٤

٥ — عبدالحميد ٨٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩

٦ — تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ — ٣٤١

٧ — تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٨٠١

وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنهال عليها الأمداد بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الإسلامية ، وينبث الدعاة فى كل مكان ، ، يحرضون الناس على الدفاع عن الإسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الامبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أى مسيحى آخر (١). وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، وحين كانت تتجاوب الصيحات فى بلاد البلقان « اقذفوا بالمسلمين إلى البحر » ، كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا ، فتتجاوب صيحاتهم « الآن سوف يسود الإسلام »(٢) .

ويغذى هذه الفتنة الدينية ما يتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة فى البلقان ، التى لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم(٣). ويجيب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها فى إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤(٤) . ويكتشف السلطان عبد الحميد فى مختتم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التى يستطيع بواسطتها أن يحفظ الامبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانفراط وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعاره المعروف « يا مسلمى العالم اتحدوا ! »(٥)

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذى يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها ، فيدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والمتأمل لأدب هذه الفترة فى مصر ، شعراً ونثراً ، يجد ذلك واضحاً كل

---

١ — عبد الحميد ٩١

٢ — عبد الحميد ٩٣ ، صداقة أربعين عاما ٢٧٤

٣ — عبد الحميد ٩٤ و ١٠٣ — ١٠٤ ، الدولة العلية ٢٦١ — ٢٦٢ ، صداقة أربعين عاما ص ٢٦٨ — ٢٨٣

٤ — عبد الحميد ١٣٤ — ١٣٥

٥ — عبد الحميد ١٦٨ — ١٦٩ و ١٧٢ — ١٧٥

الوضوح . فجريدة العروة الوثقى تكتب فى سنة ١٨٨٤ مجموعة من المقالات فى الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، منها مقال عنوانه (الجنسية والديانة الإسلامية) جاء فيه :

« وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية ، التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة. وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها . وكل فخار تكسبه الأنساب ، وكل امتياز تفيده الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض . بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهى ممقوتة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمعتصب لها ملوم . فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) . والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا . ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكافة فى التقوى — اتباع الشريعة — (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف فى جنسه ، ولا امتياز له فى قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشىء من حسبه ونسبه . وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه . . . . . هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين . لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يتقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها .... »(١)

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ٢ ٢٢٣ — ٢٢٧

وفى مقال اخر عنوانه (التعصب) ، يرد جمال الدين الأفغانى(١) على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية . ويرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين فى كل ما تجرى عليه سياستهم(٢) . ويقول فى مقال ثالث له عنوانه (الوحدة الإسلامية) :

« لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة والسلاطين فى جنس واحد . . . . وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم . . . . ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى ، وصلت عنهم غايات المجد المؤثل ، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة ومايتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجئوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل .»(٣)

ويتخيل الكواكبي فى كتابة (أم القرى) مؤتمراً فى مكة جمع ممثلين من مختلف الأقطار الإسلامية يبحثون فى حالة الإسلام والمسلمين ، ويرسمون سبل الإصلاح ، محاولين تنقية العقيدة من الشوائب التى أفسدتها ، والنهضة بالأمة الإسلامية لاستعادة مجدها القديم .

ويقول عبدالله النديم فى مقال طويل له فى مجلة (الاستاذ) سنة ١٨٩٢ ؛ عنوانه

---

١ — المعروف أن جمال الدين الافغاني هو صاحب الفكرة في مقالات « العروة الوثقى » التي كانت تصدر في باريس ، وأن محمد عبده هو الذى يصوغ هذه الأفكار بعبارته

٢ — تاريخ الاستاذ الامام ٢ : ٢٤٩ — ٢٥٨

٣ — نفس المرجع ٢ : ٢٧٦ — ٢٨٢

(لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) :

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة . ولكن المغايرة وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيراً من ممالك الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . وإننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة . فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوربا العدوانى ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة فى قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ، مع اتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للتنقل والتحول ، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان فى غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى ، إن شاء أمطرها فأخصبت أومنعها فأجدبت ، وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوروبية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى .»(١)

ويقول مصطفى كامل فى مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذى ظهر سنة ١٨٩٨ :

« وإنى أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق ، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدى ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر فى سؤدد ورفعة ، وأن يحفظ للدولة العثمانية حامى حماها ، وللإسلام إمامه وناصره ، جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازى عبدالحميد الثانى ، وأن يحفظ لمصر فى ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم

---

١ — سلافة النديم ٢ : ٦١ — الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣

سمو الخديوى عباس حلمى الثانى . إن ربى سميع مجيب.»(١)

ويقول : « اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسئلة الشرقية هى مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها. وبعبارة أخرى هى مسئلة وجود الدولة العلية نفسها فى أوروبا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسئلة الشرقية هى مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أى مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية . »(٢)

ويقول بعد ذلك ، فى تصوير إثارة إنجلترا للأقليات المسيحية فى الإمبراطورية العثمانية «وأما العناصر التى كالأرمن ، تستعملها بعض الدول كإنكلترا ، فهى تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جليا فى المسئلة الأرمنية ، وشوهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكينة تامة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكايد ضد الحكومة العثمانية . فمسئلة الدين فى الدولة العلية هى الآلة القوية التى يستعملها أصحاب الدسائس والغايات. وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة إنما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعبثهم وجنونهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الأرمن فى الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . والذين ماتوا فى كريد ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان فى تساليا ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها(٣) .»

ويقول فى تمجيد السلطان عبد الحميد « وإن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم

---

١ — المسئلة الشرقية ص ٤

٢ — المسئلة الشرقية ص ٥

٣ — « « ص ٨ ، ٩

هو جلالة السلطان الحالى . فقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا فى الدولة ومصيبة المصائب فعمل بحكمته العالية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون لإعلاء قدرها . »(١)

ويقول فى ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية وتصوير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية « ولكن الحقيقة هى أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى، وأن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق . . . . وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار ، ومشعلة لنيران يمتد لهبها بالأرض شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية .

وإن الذين يدعون العمل لخير النصرانية فى الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحيي الشرق عموما قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجرى كالأنهار والبحار فى كل واد . »(٢)

ويقول فى سعى إنجلترا لهدم الخلافة التركية وتعضيدهم لكل خارج عليها « وقد علمت إنجلترا أن احتلالها لمصر كان ولا يزال ويكون مادام قائماً سبباً للعداوة بينها وبين الدولة العلية ، وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع إنكلترا على بقائها فى مصر . . . ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية فى طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات فى سبيل امتلاكها مصر ، وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء فى مصر ووضع يدها على وادى النيل هى هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدى رجل يكون تحت وصاية

---

١ — المسئلة الشرقية ص ١
٢ — « « « ص ١٣ — ١٤

الإنكليز وبمثابة آلة فى أيديهم . ولذلك أخرج ساسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان فى وجه الدولة العلية . . . ولذلك أيضاً كنت ترى الإنكليز ينشرون فى جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية مشروع تقسيم الدولة العلية حماها الله ، جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة العامة على المسلمين .

والذى يبغض الإنكليز على الخصوص فى جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية . . . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الإنـكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافى وسعهم . . . . فإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الإنـكليز وحمايتهم هو مشروع ابتـكره الـكثيرون من سواسهم منذ عهد بعيد. وقد كتب كتاب الانكليز فى هذا الموضوع، ومنهم المستر بلانت المعروف فى مصر . فقد كتب كتابا قبل احتلال الإنكليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل الإسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأمانى الإنـكليز فى مستقبل الإسلام . وقد كتب فى فاتحة كتابه :

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن فى النظام وأجملا

أى أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين ، بل إن هذا العقد العثمانى ينثر ليعود عقداً عربيا أحسن وأجمل . ولـكن مالم يقله المستر بلانت هو ان قومه يريدون هذا العقد العربى فى جيد بريطانيا لا فى جيد الإسلام ! ! . . . ويبين المستر بلانت أيضاً أن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون مكة ، وأن الخليفة فى المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً لاملـكا دنيوياً ، أى أن الأمور الدنيوية تترك لإنكلترا لتدبر أمورها كيف تشاء ! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله ، إن خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لحليف ينصره ويساعده ، وما ذلك الحليف إلا إنكلترا ! ! ، وبالجملة فحضرة المؤلف لـكتاب مستقبل الإسلام يرى — وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه — أن الأليق بالاسلام أن ينصب إنكلترا،

دولة له . ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً !! »(١)

ويختم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه بالدعوة إلى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنكلترا للدولة العلية فبين لا ينكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم فى هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لاعبيدا . وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة . »(٢)

وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقا معه فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا ، لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين . يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية) يقول فى مقدمته « على أن الملك العثمانى قد لم من شعث الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها مارد على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرقية . على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الدينى فى الممالك الأوروبية ، واتفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثمانى ، وأخذت تحاربه مثنى وثلاث ورباع لتقويض عرشه ورده إلى مهده الأول . . . فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هى الحامية لبيضة الدين الإسلامى زمنا طويلا ... رأيت من الواجب على خدمة للحقيقة ونفعا لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ ... راجياً منه تعالى أن يوفقنى لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد مابين مصرنا والدوله العلية من روابط

---

١ — المسئلة الشرقية ص ١٩ — ٢٢

٢ — » » ص ٢٣

التابعية ، وأن يحفظ خديوينا المعظم عباس حلمى الثانى ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذاً لهامن ورطتها إ ه السميع المجيب »

ومما يدل على حسن تقبل الرأى العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٨٩٣ ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ، مع قلة عدد القراء فى ذلك الوقت . ومما يدل على ثبات مؤلفه على آرائه فيه أنه طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩١٢ حين بلغ الخصام بينه وبين الخديوى عباس ذروته .

وقد صور كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) الذى ظهر عقب مغادرته مصر سعة انتشار فكرة الرابطة الإسلامية بين المصريين ، واعترف بما تتمتع به الخلافة التركية من نفوذ واسع فى مصر فتكلم عن الحجاب الكثيف من التعصب الدينى الذى يقوم بين الإنجليزى الراغب فى إصلاح مصر — حسب زعمه — وبين المصريين(١) . كما تكلم عن تمسك المصريين بعقيدتهم الإسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الإقليمى ، والتى تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر أقطار الأرض (٢) . وتكلم فى موضع آخر من كتابة عن هيبة المصريين المركوزة فى أعماق نفوسهم للترك المستعمرين(٣) . وعن عطفهم على الخليفة التركى كلما وقع فى محنة ، مستشهداً على ذلك بما حدث سنة ١٨٩٢ حين عارضت إنجلترا صدور الفرمان التركى ، وفى سنة ١٩٠٦ حين اختلفت إنجلترا وتركيا على حدود مصر الشرقية فى سينا . فقد أثار شعور المصريين — كما يقول — أن تذل دولة مسيحية خليفة المسلمين (٤) .

* * *

هذه النزعة الإسلامية التى رأيناها واضحة فى كتاب العصر وقادته ومفكريه،

---

١ - Modern Egypt ٢ : ١٣٠
٢ — نفس المرجع ٢ : ١٣٢ ١٣٣
٣ نفس المرجع ٢ : ١٦٩
٤ — نفس المرجع ٢ : ١٧٠

نستطيع أن نتتبعها فى الشعر فنجدها فى مثل هذا الوضوح . فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك ، على اختلافهم وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر فى مدح الخليفة التركى ، والإشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على إعلاء كلمة الدين . وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره فى حروب تركيا وأحداثها الجسام ، مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثمانى وسقوط عبدالحميد . وهم يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين ، وأنه حين يحارب إنما يحارب دفاعا عن الإسلام وتمسكا بإعلاء كلمته بين الدول التى تتربص به . وهم يدعون إلى اتحاد كلمة المسلمين فى ظل راية الخلافة ، محذرين من الإصغاء إلى دعوة التفرقة التى لا تصيب الأمم الإسلامية جميعا إلا بالشر .

يقول شوقى : (١)

رَضِىَ المسلمون والإسلام ... فرع عثمان دُمْ فِداكَ الدوام
إيه عبد الحميد جلَّ زمان ... أنت فيه خليفة وإمام
عُمَرٌ أنت بيد أنك ظل ... للبرايا وعصمة وسلام
ما تتوجت بالخلافة حتى ... تُوج البائسون والأيتام
ولأنت الذى رعِيَّتهُ الأُسْدُ ... ومسرى ظلالها الآجام
أمة الترك والعراق وأهلو ... ه ولبنان والربى والخيام
عَالمٌ لم يكن لِيُنتَظمَ لولا ... أنك السِّلْمُ وسْطه والوئام

ويقول حافظ من قصيدة له أنشدت فى عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ : (٢)

لقد مكن الرحمن فى الأرض دولة ... لعثمان لا تغفو ولا تتشعب
بناها فظنتها الدرارى (٣) منزلا ... لبدر الدجى تبنى وللسعد تُنصب
وقام رجال بالإمامة بعده ... فزادوا على ذاك البناء وطنّبوا

---

١ — الديوان ١ : ٢٩٦
٢ — الديوان ٢ : ١٧
٣ — الدرارى الكواكب المضيئة . جمع درى

وردوا على الإسلام عهد شبابه ومدوا له جاها يُرَجىّ ويرهب
أسود على البسفور تحمى عرينها وترعى نيامَ الشرق والغربُ يرقب

ويقول محرم :(١)

يا آل عثمان من ترك ومن عرب وأى شعب يساوى الترك والعربا
. . . صونوا الهلال وزيدوا مجده علما لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا
أبو الخلائف ذو النورين(٢) مورثنا مُلكَ الهلال وهذا المجدَ والحسبا
. . ياتاج عثمان إن اليوم موعدنا نجدد العهد والتقَ الحبَّ والرَّغَبَا
لو ضاع عهدك أو حام الرجاء بنا على سواك لقينا الحَيْن والعطبا

ويقول :(٣)

لولا بنو عثمان والسَّنَن الذى شرعوا لما وضح السبيل الأقوَم
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلى عنها من الحدثان ليل مظلم
فهمو ولاة أمورها وكماتها وهمو حماة ثغورها وهمو همو
تهتز آنا بالسلام وتارة بالحرب يزخر فى نواحيها الدم
فبتلك يُكفى الملك ذا شجنائه ويصان من كيد الخصوم ويعصم

ويقول : (٤)

إنا بنو عثمان أعلام الورى والأرض تشرف فوقها الأعلام
إنا السنام إذا الأنام تفاخرت والناس فيهم منسِمٌ(٥) وسنام
إنا يسوس أمورنا ويقيمها ملك بأمر إلهه قوّامَ
رحب الذراع كفى الذى نعنى به رأىٌ له فى المشكلات حسام
عبد الحميد اتاح فى أيامه للملك ما ذهبت به الأيام

---

١ الديوان ٢ : ٤

٢ — ذو النورين هو عثمان الأول الذى تنسب إليه دولتهم المتوفى ٧٢٦ هـ ١٣٢٦ م

٣ الديوان ٢ : ٤٣

٤ الديوان ١ : ٢٣

٥ المنسم خف البعير ، أي أن فى الناس الكبير والحقير

لولا حَزامَتُه وشدة بأسه ومضاؤه لتضعضع الإسلام
ما زال يحمى حوضه مذ جاءه وكذاك يحمى غِيله الضرغام
... دُمْ يا أمير المؤمنين فما لمن عاداك بين العالمين دوام
لا زلت ياركن الخلافة شامخاً تعنو لك الأعراب والأعجام

ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٠ :(١)

يا ناصر الإسلام إن زماننا بك صار فى عز وفى استكبار
ومعزّ كل مسالم لك خاضع ومذلّ كل معاند جبار
ومعيد أدوار الشباب لموطن كم للحوادث فيه من أدوار

ويقول من قصيدة له يرثى بها خاله ، مبيناً فضله عليه فى إرشاده وتربيته تربية إسلامية صحيحة :(٢)

وقد كنتَ المعين على صلاحى ومرشدى العظيم إلى الكمال
تعلمنى الرماية والقوافى وآداب الخطابة والجدال
وتلهمنى المعانى باهرات أسيل بهن كالسحر الحلال
وتوضح لى المسالك والمساعى فأبلغ كل ممتنع المَنال
وتُشْرِبنى بعلمك حبّ دينى وقومى والخليفة والهلال

ويقول نسيم من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر :(٣)

أقمت عرشك بين الحق والسدَدِ فزاده الله تثبيتا إلى الأبد
... فكيف نفزع فى الدنيا لطارئة وأنت تحمى ذمار الفازع الخضد(٤)
خليفة الله يا ابن الغر من نُجُبِ لله درك يوم الرَّوْع من عضد
جاهدت فى الملك تحميه وتحفظه جهاد طه مع الأنصار فى أحُد

---

١ — الديوان ١ : ٨
٢ — الديوان ١ : ١٤٧
٣ — الديوان ١ : ١٦
٤ — الخضد العاجز عن النهوض

والسيف يكتب آيَ الفتح محكمة ... على البلاد بنفس من دم جَسَدِ (١)
وقد أعدت إلى الإسلام نضرته ... حتى زهى بك واستذرى إلى سند

ويقول فى قصيدة أخرى :(٢)

وقد أعدت إلى الإسلام نضرته ... حتى أرتدى روضة باليانع الخَضِل
وبت ترعى الرعايا فى مراقدها ... وصرت تحمى ذمار الفازع الوجل
وكان قبلك قلب السيف مضطربا ... فقرّ بعدك قلب السيف فى الخلل
فلا برحت لهذا الدين تكاؤه ... حتى يعود إلى أيامه الأول

ويقول عبدالمطلب من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبدالحميد بعيد الدستور: (٣)

يا عيد حَىّ وأنت خيرُ نهار ... عبدَالحميد بدولة الأحـــرار
ملك أقام على الخلافة منْهُمُ ... حرما وقاها صولة الأشرار
من بعد ماكاد الزمان يحِلها ... بالجور دار مذلة وهوان
... عهد مضى ، لاعاد ، كبَّل دولة الـ ... إسلام فى الأغلال والآصار(٤)
فرمت مَقَاتِلها يدُ الأطماع من ... دول كَلِفْنَ بحب الاستعمار
هذى تطالب بالدخول وهذه ... تحتال فى وَطَر من الأوطار(٥)
لولا أمير المؤمنين يحوطها ... لرأيتها خبراً من الأخبار

ويقول فى قصيدة له تزيد على مائتى بيت فى الحرب العالمية الأولى ، حين أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ٩١٤ ، (٦) وقد بدأ قصيدته بتحية العلم التركى :

هلالَ الهدى فى دارة المجد أشرق ... ودونك ليل الغىّ بالرشد فامحق

---

١ — الجسد الدم ، وهو توكيد
٢ — الديوان ١ : ٩ — ١٠
٣ — الديوان ٩٣ — ٩٤
٤ — الآصار جمع إصر (بكسر الهمزة) وهو الثقل والذنب
٥ — الوطر الحاجه والجمع أوطار
٦ — الديوان ١٥٩ — ١٧٤

ويا علم الأعلام كم خفقت قلو ... ب قوم إلى مرأى حفافيك فاخفق

ثم مضى فى تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها إذ يساقون مرغمين إلى الموت ، مقاتلين تحت الراية البريطانية ، مخلفين وراءهم أرامل وأيتاما وأمهات ثاكلات . ثم تكلم عن مهاجمة أساطيل الحلفاء للقسطنطينية مقر خلافة المسلمين ، مظهرا شماتته بعودة أساطيلهم خائبة مهزومة :

فأبلغ بنى التاميز عنا وحِلفَهم ... بباريس أنباء النذير المصدَّق

عشية يحدون الأساطيل شُرَّعا ... على اليم تحبو فى الحديد المطبْق

تشن على دار الخلافة غارة ... من البحر إن تقرع بها الدهر يَفْرَقِ

... تألفْن بالعدوان يجرين باسمه ... إلى غرض من مُدحَض الهُون مزلق

فأقبلن فى شمل من البغى جامع ... وعدن بشمل بالهوان مفرَّق

... ومن يتحرَّشْ بالردى يكرَعِ الردى ... زعافا ومن يستنبث النار يُحرَقِ (١)

* * *

وشعراؤنا المعاصرون فى هذه الحقبة يعلقون على تركيا آمالا جساما ، فهم يعلنون ولاءهم لخليفة المسلمين فى شتى المناسبات ، شاكين إليه ما نابهم من ضر وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لإنقاذهم . بل إنهم ليرون ذلك واجباً على خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه رعاية شئونهم وحياطة دولهم ، يعاتبونه — وقد يقسون فى العتاب — إن تخلف عنه .

يقول شوقى :(٢)

عالِيَ الباب ، هزَّ بابُك منا ... فسعينا وفى النفوس مَرامُ

وتجليت فاستلمنا كما للنا ... س بالركن ذى الجلال استلام

نستميح الإمامَ نصراً لمصر ... مثلما ينصر الحسامَ الحسامُ

فلمصر — وأنت بالحب أدرى — ... بك ياحامى الحمى استعصام

---

١ — يكرع أي يشرب . استنبث النار كشف عنها التراب

٢ - الديوان ١ : ٢٩٩

يشهد الله للنفوس بهـذا ... وكفاها أن يشهد العلاّم
وإلى السيد الخليفة نشكو ... جور دهر أحراره ظلاّم
وعدوها لنا وعودا كبارا ... هل رأيت القرى علاها الجَهَام(١)

ويقول فى ختام قصيدته الطويلة فى الوقائع العثمانية اليونانية(٢) :

وإنى لطير النيل لاطير غيره ... وماالنيل إلا من رياضك يُحسَبُ
... فلازلت كهف الدين والهادى الذى ... إلى الله بالزلفى له نتقرّبُ

ويقول حافظ من قصيدة له، يشكو فيها نُوَب الزمان سنة ١٩١٠ ، ويبكى مجد الترك والعرب ، ويصور مايلقى المصريون فى ظل الاحتلال من هوان، عاتبا على الترك إهمالهم أمر مصر وتركها لقمة سائغة فى يد المستعمرين (٣) :

فإن تكن نسبتى للشرق مانعتى ... حظا فَواهاً(٤) لمجد الترك والعرب
وقاضبات لهم كانت إذا اختُرِطَتْ ... تدثر الغرب فى ثوب من الرَّهَبِ
وجمرة لهم فى الشرق ماهمدت ... حتى علاها رماد الختل والكذب
متى أرى النيل لا تحلو موارده ... لغير مرتهب فى الله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت ... جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب(٥)
... يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ... ونحن فى الله إخوان وفى الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا ... فى الدين والفضل والأخلاق والأدب

ويقول الكاشف من قصيدة له فى عيد جلوس الخديوى عباس سنة ١٩٠٣ ، مشيرا إلى سعى ممدوحه فى توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبينا نفع هذه السياسة فى القضية المصرية :(٦)

---

١ — الجهام (بفتح الجيم) السحاب لاماء فيه . يشبه وعودهم بالسحاب الذى لا يمطر
٢ — الديوان ١ : ٤٧
٣ — الديوان ٢ : ١١٨ — ١١٩
٤ — واها كلمة تعجب ، وتأتى للتحسر (فتقول واها على مافات) أى ياحسرتى على مافات .
٥ — اللؤلؤ الرطب أى الدمع . وهى ستعارة فى غير موضعها ، فليس هذا موضع تشبيه الدمع باللؤلؤ
٦ — الديوان ١ : ٣٢

إن اتصالك بالخليفة ضامن ... رد المغـــير مروّعا مغلوبا
والحجة البيضاء فى يدك التى ... فتحت مجالا للجهاد رحيبا(١)

ويقول من قصيدة له فى الثورة العرابية يختمها بالحسرة على احتلال انجلترا لمصر، مترقبا اليوم الذى تجلو فيه عنها، فتعود إلى راية الإسلام ورعاية خليفة المسلمين (٢)

ويا بلادىَ مالى كلما نظرت ... عيناى مافيك من جند وأعوان
وسطوةٌ للدخيل المعتدى اضطربت ... روحى وقرح سكب الدمع أجفانى
واحر شوقى إلى يوم أراك به ... فى مأمن منه بل واطول تحنانى
فلا نطيع سوى عبد الحميد ولا ... نرضى أميرا سوى عباسك الثانى
هناك أهتف بالأشعار منتشيا ... مهنئا أطرب الدنيـــا بألحانى
يامصر دام لك النيل الوفى ولا ... أقلّنى فيك غصن غير ريان

ويقول من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١١، يحض فيها المصريين على التمسك بعرى العثمانية، داعيا عباسا إلى العودة لأحضان الخلافة بعد ما كان من جفاء (٣).

إن الذى جعل الخلافة فيكمُ ... جعل المودة والمحبـــة فينا
إن ائتـــلاف قلوبكم وقلوبنا ... ليمـــد أيديكم إلى أيدينا
يا آل مصر وفى الحوادث عبرة ... فتصفحوها اليـــوم معتبرينا
... فدعوا القضية للخليفة علكم ... بعـد الوداد إليهم ناجونا
ماكان من حرج على مصر إذا ... جربتُمُ بعـد الجفـاء اللينا

ويقول من قصيدة يهنىء فيها عباسا بعودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود

---

١ — يقصد أنه حجتك الكبرى فى عدم شرعية الاحتلال ؛ لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن سنه ١٨٤٠ ، التى اعترفت فيها انجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر و بقائها تحت السيادة العثمانية .

٢ — الديوان ١ : ٥٤

٣ — الديوان ٢ : ٢٢

سنه ١٩٠٦ ، مستبشراً بوصل ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبدالحميد ، مفنداً أقوال الذين يزعمون أن الاستعمار الإنجليزى العادل خير من عودة مصر إلى أحضان الحكم التركى الظالم ، مهاجما الإنجليز الذين استعدوا للحرب دفاعاعن مصر فيما يزعمون وكأنها قد وكلتهم فى الدفاع عنها . وليس معقولا أن يستعين عباس بعدوه على أهله(١)

تغدو تَبُوعاً للخليفة مخلصاً … وتروح بالهِمَم العُلى مشغولا
هل بعد ما حدثته وشهدته … جذلان يحسبه العداة عليلا
... صف للرعية كيف مكّنَ عرشه … فى المشرقين وشيد الأسطولا
وانصح عباداً يزعمون الشرَّ فى … أن يستعيد إلى الفرات النيلا
هم أرجفوا بالحرب يبتدرونها … وتوقعوا التدمير والتقتيلا
وتسلموا عدد الدفاع كأنما … أضحى حمَاكَ إليهمُ موكولا
قالوا استعان بنا على سلطانه … من أن يمد يداً إليه طوْلَى
هل تستغيث بضيفك المملول(٢) من … أهليك والمولى الأعزّ قبيلا
... متباينون همُ ونحن شرائعا … وطبائعا ومنازعا وأصولا

ويقول رداً على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنما يريد أن يستبدل استعماراً باستعمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفتها ألمانيا من احتلال مصر بعد طرد الإنجليز . وذلك من قصيدة له فى عيد جلوس الخديوى عباس(٣) .

ولأى ذنب صدَّ عنى معشرى … يوم الحساب وخاننى إخوانى
لم أدر من أغضبته وأثرته … قومى ؟ أم الخصم الذى أعيانى ؟
أو كلما سمعوا بمصر مناديا … قالوا أجير الترك والألمان

---

١ ـــ الديوان ٢ : ٣٧
٢ ـــ يقصد بالضيف المملول الاستعمار الانجليزى و بالأهل تركيا
٣ ـــ الديوان ٢ : ٤٠

قومان متحدان يومَهما على ... خصميهما وغدا سيختصمان
إن يرضيا ـ ومن المحال رضاهما ـ ... دَفْعَ المقيم ، فمن لنا بضمان ؟
هل نبدلن مسيطراً بمسيطر ... ونفر من نَمِرٍ إلى عرثان

يجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :

ماذا ينال التركُ من مصر إذا ... سلمَتْ وساورها مغيرٌ ثانى
أنقول : غير صحيحه دعواكم ... فينا ، وإن شقَّتْ على الآذان ؟

ويقول، من قصيدة كتبها فى عيد جلوس السلطان عبدالحميد سنة١٩٠٣ ، وقسا فيها على الترك حين عاتبهم على تخليهم عن القضية المصرية ، بعد ما وقع من جفاء بين السلطان عبد الحميد والخديوى عباس بسبب جزيرة طاشوز :(١)

كنتم إذا ما شكونا جوْر غالبنا ... كذَّبتُمُ وادَّعيتم أنه بَطَرُ
واليوم لانشتكى حُكما ولا حَكَما ... ولا نعوذ بكم مما أتى القَدَرُ
ولا نكلفكم حرب الطبيعة إذ ... لابَيْضُكم عندها تغنى ولا السمر(٢)
ولا سألناكمُ مالاً يكون لنا ... عونا ، فلسنا إلى ذى الفقر نفتقر
لكننا نرتجى منكم مجاملةً ... نسلو بها وعلى الأهوال نصطبر
بكى بنو الصين من أخبارنا جزعاً ... وما استفزكم من أمرنا خبر
... هلا ذكرتم لنا صنعاً ومأثرة ... إن كان الذكر فى ألبابكم أثر
فكم جهرنا وأعلنا محبتكم ... رغم الذين بقاسى بغضكم جهروا
وأنذرونا(٣) فزدنا كم مظاهرة ... حتى اكتفيتم وما اغنتهم النُذَر
ولا نمن عليكم أو نفاخركم ... بطائلات أيادينا ونفتخر(٤)

---

١ — الديوان ١ : ١٠٥ وتراجع تفاصيل مشكلة طاشوز فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ . ٢٩٥ وما بعدها .
٢ — البيض جمع بيضة وهى غطاء الرأس للمقاتل ، والسمر الرماح
٣ — الضمير فى أنذرونا مقصود به الانجليز الذين كانوا يحاربون النفوذ التركى فى مصر
٤ — يشير إلى مساعدات مصر لتركيا فى حروبها

فالقوس منكم ، ومنا السهم والوتر   والأُسْد أنتم ونحن الناب والظفر
... يا آل عثمان ، والدنيا مولّية   عنا وعنكم إذا لم تنفع العبر
وإن بقيتم على هجر فشملكُمُ   وشملنا شَذَرٌ بين العِدَى مَذَرِ
عودوا بلادا أصيبت فى عزائمها   ومالِها وبنيها فهى تُحتضَر
فلم يقم شعراء النيل موسمهم   ولا أستفزتهم الألقاب والبِدَرُ
قد كان ينظم دُرَّ التهنئات فى   فاليوم تُنثَر من أجفانى الدرر
... إنى وإن كنت فى سخط لمعترف   بأنكم لو نصرتم مصر تنتصر
وإن تغير ماضيكم بحاضركم   فلن تحل بقلبى المخلص الغِيَر
أضحت أيامى الأولى سدى فغدت   تلومنى فيكمُ أيامى الأُخَرُ(١)

ويقول على الغاياتى ، من قصيدة له وجهها إلى السلطان عبد الحميد فى عيد الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ .(٢)

أميرَ المؤمنين مضت قلوب   إليكَ يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معيناً   وأنت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجىّ   وفيك لدائها البرءْ المبين
فيا أمل القلوب ، إليك مصر   تشير وبين جنبيها حنين
تحن إليك يارب المعالى   وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشرّ قَوْمٍ   لهم فى كل مظلمة شئون
قضت فى عصرهم مصرٌ ، ولولا   رجاءٌ فيك ما قَرَّتْ عيون

---

١ — كان من آثار عنف الكاشف فى هذا العتاب وخشونته أن لامه صديقه الشاعر محرم إذ توهم أنه انصرف عن العثمانية إلى موالاة الانجليز فأجابه بقوله :

أتدرى بصدرى فى شكاتى وتعلم   وتنكر لومى ؟ إنك الآن تظلم
توهمت أنى حلت عن مبدئى الذى   نشأت عليه . بئس ما تتوهم
فأخذتنى بالعتب عند وجوبه   وعتبى على الترك انصراف إليهم

٢ — وطنى ص ٥٥

فأعـزِزْ يا حِمَى الإسلام شعباً بعزك لا يذل ولا يهون

* * *

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوروبية حين تتذرع بالدين فى طلب حماية الأقليات المسيحية فى البلقان ، فتثير فيها الفتن التى لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعاً فى اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين .

يقول شوقى من قصيدة له فى الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ : (١)

هب النسيم على مقدونيا بَرَدا من بعد ما عصفت جمراً سوافيها(٢)
تغلى بساكنها ضِغْناً ونائرةً غَلْيَ الصدور إذا ثارت دواعيها
عاثت عصائب فيها كالذئاب عَدَتْ على الأقاطيع لما نام راعيها
خلا لها من رسوم الحكم دارسها وغرها من طلول الملك باليها
فسامر الشرّ فى الأجبال رائحها وصبَّح السهلَ بالعدوان غاديها
مظلومة فى جوار الخوف ظالمة والنفس مؤذية من راح يؤذيها
رثت لها وبكتْ من رقة دولٌ كالبوم يبكى ربوعا عزّ باكيها

ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى حرب البلقان سنة ١٩١٣ ، مشيراً إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان المسيحية من جرائم بشعة فى التنكيل بجيرانهم من المسلمين .(٣)

صليبية ياقوم أم عنصرية حروبكمُ والدين هذا أم الشرْك
وجيرانكم أعداؤكم أم حماتكم وأعداء عيسى المسلمون أم الترك
فهل كان عيسى يطلب الثأر بالخنا(٤) وهل كان من أخلاقه البغى والفتك

١ — الديوان ١ : ٣٦٠
٢ — السافيه الريح التى تسفى التراب أى تثيره وتدروه والجمع سواف
٣ — الديوان ٢ : ٢٣
٤ — الخنا الفحش . يشير إلى هتك أعراض المسلمات

أقرّ بأضغان النفوس ملوككم   ومن كان فى شك فقد ذهب الشّك

ويقول من قصيدة أخرى فى نفس الموضوع(١) :

أأصبر حتى يسقط العرش بينهم   وتلتهم النيران تلك الخمائلا
حياتى لمغلوبين عانوا مكايدا   صليبية قبل الوغى وحبائلا
إذا استنجدوا بالمسلمين تخلفوا   وكم وجدوا من قوم عيسى مُخاتِلا
فيا آل عثمان انعاظاً فإنها   تجاريب أيقظن الشعوب الغوافلا

ويقول عبد المطلب من قصيدة له فى عيد الدستور(٢)

عهد مضى لا عاد كبّل دولة الـ   إسلام فى الأغلال والآصار(٣)
فرمت مقاتلها يدُ الأطماع من   دول كلِفْنَ بحب الاستعمار
هذى تطالب بالدخول وهذه   تحتال فى وطر من الأوطار
لولا أمير المؤمنين يحوطها   لرأيتها خبراً من الأخبار

* * *

وذلك الذى أشرنا إليه منذ قليل من مهاجمة مصطفى كامل لمشروع الخلافة العربية ، الذى يراه إحدى دسائس الإنجليز للتفريق بين المسلمين ووضع خلافتهم تحت النفوذ البريطانى ، نجد له نظائر فى الشعر .

يقول شوقى ، من قصيدة « ضجيج الحجيج » التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكيا فيها اضطراب الأمن فى ربوع الحجاز ، طالبا إليه ألا يَهِنَ فى تأديب الثائرين ، وأن لا تأخذه بهم رحمة :(٤)

ضج الحجيج وضج البيت والحرم   واستصرخت ربّها فى مكة الأمم
قد مسها فى حماك الضر فاقض لها   خليفةَ الله ، أنت السيد الحَكَمُ

---

١ — الديوان ٢ : ٢٤
٢ — الديوان ٩٤
٣ — يشير الى عهد الدسائس والجواسيس الذى سبق منح الدستور
٤ - الديوان ١ : ٢٦٣ — ٢٦٦

لك الربوع التى ريع الحجيج بها　　أللشريف عليها أم لك العلمُ
. . . أدِّبه أدب أميرَ المؤمنين فما　　فى العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لاترجُ فيه وقاراً للرسول فما　　بين البغاة وبين المصطفى رحم
. . . فى كل يوم قتال نقشعر له　　وفتنة فى ربوع الله تضطرم
أزرى الشريف وأحزابُ الشريف بها　　وقسّموها كإرث الميْت وانقسموا
لاتجزهم منك حلما واجزهم عنَتاً　　فى الحلم مايسم الأفعال أو يَصِمُ
كفى الجزيرة ما جروا لها سـ فما　　وما يحاول من أطرافها العجم(١)
تلك الثغور عليها — وهى زينتها —　　مناهل عذبت للقوم فازدحموا
فى كل لج حواليها لهم سفن　　وفوق كل مكان يابس قدم
والاهمو أمراء السوء واتفقوا　　مع العداة عليها فالعداة همُ
فجرد السيف فى وقت يفيد به　　فإن للسيف يوماً ثم ينصرم

ويقول حافظ، من قصيدة يهنىء فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه سنة ١٩٠٨، ويشير فيها إلى ماكان يضمره والى الحجاز والشريف من عصيان السلطان :(٢)

منى على دار السلام تحية　　وعلى الخليفة من بنى عثمان
وعلى رجال الجيش من ماش به　　أو راكب أو نازح أو دانى
وعلى الأولى سكنوا إلى الحسنى سوى　　ذاك الذى يدعو إلى العصيان
والى الحجاز الخارجىّ وما به　　إلا اقتناص الأصفر الرنّان
ما للشريف المنتمى حسبا إلى　　خير البرية من بنى عدنان
أمسى يمالئه وينصر غيّه　　وضلاله بحثالة العربان
تالله لو جندتما رمل النقا　　ونزلتما بمواطن العقبان

---

١ — يشير الى مطامع الدول الاوربية فى بترول العراق الذى أصبح موضع تنافسهم منذ أول القرن العشرين
٢ — الديوان ١ : ٤٩

وغرستما أرض الحجاز أسنة ... وأسلتما بحراً من النيران
وأقمتما فيها المعاقل منعة ... من أرض نجد إلى خليج عمان
لدهاكما ورماكما وذراكما ... ماحى الحصون وماسح البلدان
إن تأتيا طوعاً وإلا فأتيا ... كرها بلا حول ولا سلطان

ويقول محرم من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١٢:(١)

ألا إن من شق العصا لمذمَّمُ ... وإن الذى يبغى الفساد لآثم
ومن كان يأبى أن يوالى إمامه ... طواعية والاه والأنف راغم
سيعلم من خان الخليفة أنه ... مُوَاقِع أمر شرُّه متفاقم
أطاع هواه واستزلته فتنة ... عَضُوضٌ تلوَّى فى لهاها الأراقمُ
له الويل ، ماذا هاج من نزواته ... فثار يرامى ربه ويُراجِم
أيطلب ملكا أم يريد خلافة ... تقام لها فى المَشْعَرَيْن المواسم
تباركت ربى ، كيف يعصبك مسلم ... فيوقع بالإسلام ما أنت عالم
تباركت ، إن المسلمين كما ترى ... تفاريق ، منها مستطير ورازم

ويقول مشيراً إلى قوة الترك وحسن بلائهم فى الدفاع عن الإسلام ، بما يجعلهم أحق من العرب فى القيام على خلافة المسلمين ورعاية شعوبهم :(٢)

أسد الخلافة إن دبَّ الضَّرَاءَ لها ... عادِى الثعالب أو ضارى السراحين(٣)
صانوا محارمها بالبأس فامتنعت ... على المبيح وعافت خطة الهُونِ
وألبسوها ثياب العز ضافية ... تمشى تجرِّرُها فوق العرانين
حاكوا سوابغها من نافذ ذَرِب ... وقاطع من سيوف الله مسنون
شدوا دعائمها من بعد ما اضطربت ... وداركوها بتأييد وتمكين
تمر بالدهر والأحداث هازئة ... تخوض أهوالها شتى الأفانين.

---

١ — الديوان ٢ : ٣٧
٢ — الديوان ٢ : ٥٩
٣ — دب الضراء أى مشى مستخفياً . والسراحين الذئاب

ما للخلافة إلا الترك تحرسها ... الله يحرسهم فى آل ياسين
وللأعاريب حق لا نضيعه ... وإن رُمينا بتفريط وتهوين
بنوا أبينا وإخوان الزمان على ... ما كان من شدة يوما ومن لين
منا ومنهم حماةُ المُلكِ ، يجمعنا ... عند اللواءين عهد غير موهون

ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى عيد الدستور العثمانى ، (١) يهاجم فيها الثائرين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية، ويقول إن تعاليم الإسلام سوّتْ بين المسلمين ، ولم تختص بخلافتهم أمة دون أمة ، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها :

ما اختص أحمد بالخلافة مة ... علما بأن الدائرات تدور
أولىَ بها من صانها من بعد ما ... عبثت مقادير بها وعصور
وجلا السماءالسيفُ وهى دُجّى كما ... ملأ السريرُ الأرضَ وهى تمور
شقيت بما تتوهم الأعداء من ... هــذا التراث وإنه لعسير

ويقول ، من قصيدة أخرى هنأ بها الخديوى عباس فى عودته من الأقطار الحجازية حين زارها حاجًّا سنة ١٩١٠.(٢)

ياناصر الإسلام كيف مكانه ... من عُرْب تلك البيدوهوالعادل
... أينازعون على الخلافة قادة ... لولاهمُ غالَ الخلافةَ غائل
الله قدّرها لهم وأعزّهم ... مادام فيهم قانتٌ ومقاتل
فليسكن العرب الكرام إليهمُ ... والترْبأنٌ بنفسه المتطاول
هل يفتديها والخطوب جلائل ... من لم يَصُنْها والخطوب قلائل ؟

ويقول نسيم :(٣)

خليفةَ الله ، ياخير الورى ملكا ... لهالظُّبا والوغى والجحفل اللَّجبُ

---

١ — الديوان ٢ : ٢٨ ـ ٢٩
٢ — الديوان ٢ : ٦١
٣ — الديوان ١ : ٧٥

إن المنابر ـ والعبّادُ تكنُفُها ـ تختال باسمك ماقيلت بها الخُطب
تتلى عليها عظات النسك مرشدةً حتى تزول بها الأحقادُ والرِّيب
مولاى ما فى ملوك الشرق قاطبةً سواك بينهمُ للملك منتخب
وليس فيهم سواك الدَّهْرَ ذو لجب تعنو له الترك والأعجام والعرب
فهل يضرك غوغاء خليقتهم فى كل مأثرة يروونها الكذب

* * *

وكان الشعراء يثورون لكل مايمس شعبا إسلاميا حيثما كان ، ويرتفع صوتهم فى كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

ينتصر الترك فى حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقى بملحمته الحماسية الرائعة التى تفيض قوة ، والتى جاوزت مائتين وخمسين بيتا :(٢)

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دينُ الله أيان تضرب

يشيد فيها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ، فارتفعت رءوس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلا :

رفعنا إلى النجم الرءوس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نُصَوِّبُ
ومن كان منسوبا إلى دولة القنا فليس إلى شىء سوى العز ينسب

وقد ردت هذه الحرب إلى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون — تحت تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم — أنها قد صارت إلى حال من الضعف والانحلال ، لا تستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد غلا بعضهم بعد هذا النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدويخ أى دولة أوروبية.(٣)

ويعلن السلطان عبدالحميد الدستور ، الذى سوى بين الشعوب العثمانية على اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ ، فيرتفع صوت شوقى بقصيدته.(٤)

---

١ — الديوان ١ : ٧٥
٢ — » ١ : ٣٠
٣ — تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٩١١
٤ — الديوان ١ . ٣٠٨

بشرى البرية قاصيها ودانيها   حاط الخلافةَ بالدستور حاميها

وفيها يبين ما أفاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ؛ وما كان له من أثر فى إطفاء الفتن التى لم تنقطع ، بعد أن سكنت إليه الأجناس العثمانية على اختلاف أديانها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها فى المجلس النيابى. ويختم قصيدته بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لاينبغى أن يكون داعيا إلى الخصام، فكلها يدعو إلى الله ، ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

ويسكت حافظ، ولكنه يتكلم فى العيد الأول للدستور بعد عام ، ويلقى قصيدة فى حفل أقيم فى الازبكية سنة ٩٠٩ بعد عزل السلطان عبدالحميد ، ممجداً الجيش التركى الذى تم على يده هذا الانقلاب الذى عم خيرة كل البلاد العثمانية:(١)

أجل هـذه أعلامه ومواكبه   هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم فالكون فى يوم عيدهم   مشـــارقه وضاءة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شعبه   وتمت على عبد الرشاد[٢] رغائبه
تحالف فى ظل الهلال إمامه   وحاخامه بعد الخلاف وراهبه

ويختم القصيدة بتهنئة السلطان محمد رشاد :

ليهنِء أمير المؤمنين محمـــداً   خلافتُـه فالعرش سعد كواكبه
ستملك أمواجَ التجار سفينُـه   كما ملكت شمَّ الجبال كتائبه
ممالكه محروســـة وثغوره   ركائبه منصورة ومراكبه

ويذيع محرم قصيدته .(٣)

من يمنع الليث أن يعتز أو يثبا   ماقيمة السيف إن جردتَه فنبا

وفيها يحث على تضامن الشعوب العثمانية من ترك ومن عرب فى سبيل رفع راية الإسلام .

---

١ — الديوان ٢ : ٤٨

٢ — السلطان محمد رشاد هو الذى خلف السلطان عبد الحميد بعد عزله

٣ — الديوان ٢ : ٤

ويقول الكاشف قصيدته :[١]

دارَ الخلافة حاطك البسفور ... وأجَلّ قَـدْرَكَ فى الورى الدستور

يشير فيها إلى فتن العراق واليمن التى يثيرها المنادون بالخلافة العربية. فيضيفون إلى متاعب الدولة فى البلقان متاعب جديدة ، منادياً بأن خلافة المسلمين لمن يحميها وأن أعباءهم لا ينهض بها إلا أقوامهم ، وبأن العصبية ليست من الإسلام ، مؤكداً حبه وولاءه لدولة الإسلام وخليفة المسلمين ، الذى تتجه إليه وحده أبصارهم فى سائر بقاع الأرض .

حورانُ مزدَجَر ومقدونية ... ثكلى وقد راع العراق نذير
وتنصلت صنعاء من فُجّارها ... وأبى على المتطاولين عسيرُ
لن يخلو البلقان من شر وإن ... ملأت ثَراه جماجمٌ ونحور
من لم يطعك موفقاً مستغفراً ... فليبق وهو المرغم المقهور
. . . المسلمون على اختلاف بقاعهم ... فى الأرض ما لهمُ سواك نصيرُ

ويرتفع صوت عبد المطلب بقصيدته:(٢)

يا عيدُ حيٍّ وأنت خير نهار ... عبدَ الحميد بدولة الأحرار

ويرتفع صوت الغاياتى بقصيدته(٣) :

أميرَ المؤمنين مضت قلوب ... إليك يحثها الحبُّ الكمينُ

ويقول عبد الحليم المصرى : (٤)

تهلل الحج والدستور فى رحب ... وطلعة العيد لاحت ثم لم تغب
عيد الخلافة عيد الدين ، زانهما ... عيد الممالك من عجم ومن عرب

وفيها يقول :

---

١ — الديوان ٢ : ٢٧
٢ — « ٩٣
٣ — وطنيتى ص ٥٥
٤ — الديوان ١ : ٣٠٤

إن قيل فى مصر إن الترك قد ظلموا ... فر ظلمُهُمُ أحلىَ من الضَّـرَبِ (١)
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما ... أمرَّه إن يكن من غير مصطحب
بلوتِ يامصر من ظلم الحبيب ومن ... عدل العدو ، فما يحلو لك اطَّلبي

ثم ينكث عبد الحميد بعهده فى الدستور الذى أصدره كارها ، فيغرى الصحف بمهاجمته ، ويتلمس الأسباب الدينية للتشنيع برجاله . فلا يجد رجال الجيش بدا من الالتجاء للقوة ، فيقتحمون الأستانة ويحاصرون يلدز ، ويشتبكون مع رجال عبدالحميد فى معركة كبيرة تنتهى بالتسليم . ثم يقبضون على أنصاره ويعدمون منهم عدداً كبيرا يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية فتقرر عزل السلطان عبدالحميد وتولية السلطان محمد رشاد فى ٢/٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء فى مصر ، بين مشفق عليه يرثى له فى بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التى انتهت به إلى هذا المصير ، وشامت به يذكره بما لقى الأحرار على يديه من نكال .

أما شوقى ، فقصيدته فى هذه المناسبة مشهورة :(٢)

سلْ يَلْـدِزاً ذات القُصُور ... هل جاءها نبأ البدور

وهو يرى فيها أن السلطان عبدالحميد فى موقفه أجدر بالرثاء ، لما آل إليه من ذل بعد عز ، فهو يعطف عليه فى محنته ، ويحله من نفسه محلا كبيرا ، بين شماتة الشامتين ، ولوم اللائمين

شيخ الملوك وإن تضعـ ... ضع فى الفؤاد وفى الضمير
نستغفر المولى له ... والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه ... أولى بباك أو عذير
ونصونه ونجله ... بين الشماتة والنكير
عبد الحميد ! حساب مثـ ... لك فى يد الملِكِ الغفور

---

١ — الضرب « بفتح الضاد والراء » العسل
٢ — الديوان ١ : ١٣٦

ولكن ذلك لا يمنعه من أن يلومه لتمسكه بالحكم الفردى ، ومحاربه نظام الشورى ، الذى :

هو حكمة الملك الرشيـ ـد وعصمة الملك الغرير

كما لا يمنعه من الإشادة برجال الجيش والإصلاح ، الذين هبوا لنصرة الحق وعرضوا أنفسهم فى سبيله للهلاك .

يا أيهـا الجيش الذى لا بالدّعىّ ولا الفخور
يخفى فإن ريع الحمى لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف فى الفعا ل وليس يسرف فى الزئير
الخـاطب العليـاء بالـ أرواح غالية المهور
عند المهيمن ما جرى فى الحق من دمك الطهور

أما حافظ فهو شديد العطف على عبد الحميد فى بلواه ، وقصيدته تفيض بالحزن على مصيره المؤلم(١)

لا رعى الله عهدَها من جدود كيف أمسيت يا ابن عبد المجيد(٢)
. . . كنت أبكى بالأمس منك ، فمالى بت أبكى عليك عبدَ الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى فيكَ قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم ، وليس من الهمّـ ة أن يشمت الورى فى طريد
أنت عبدُ الحميد والتاج معقو دٌ وعبدُ الحميد رهنَ القيود
خالد أنت رغم أنف الليالى فى كبار الرجال أهل الخلود

وهو يتناسى سيئاته ، ولا يذكر له إلا الحسنات ، قائلا إن الكمال فى الدنيا محال :

لك فى الدهر ـ والكمال محال ـ صفحات ما بين بيض وسود

---

١ — الديوان ٢ : ٤٣

٢ — الجدود الحظوظ جمع جد « بفتح الجيم » وهو الحظ . عبد المجيد هو أبو السلطان عبد الحميد

حاولوا طمس ما صنعتَ وودوا　　لو يطيقون طمس خط الحديد(١)
... ولىَ الأمر ثلث قرن ينادى　　باسمه كلُّ مسلم فى الوجود
كلما قامت الصلاة دعى الدا　　عى لعبد الحميد بالتأييد
فاسم هذا الأمير قد كان مقرو　　نا بذكر الرسول والتوحيد

ولكن حافظا يعود فيهاجمه بعد أن يفيق من هول المفاجأة فى قصيدته التى ألقاها فى الاحتفال بعيد الدستور العثمانى فى الأزبكية بعد عزله بثلاثة شهور (يوليو سنة ١٩٠٩) :(٢)

... ولم يغن عن عبد الحميد دهاؤه　　ولا عصمَتْ عبدَ الحميد تجاربُه
ولم يحمه حصن ولم تَرْم دونَه　　دنانيرُه والأمرُ بالأمر حازبه
ولم يخفه عن أعين الحقّ مخدع　　ولا نفق فى الأرض جمٌّ مَسَاربُه(٣)
... وأصبح فى منفاه والجيش دونه　　يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق: ذق ما أذقتهم　　فكل امرىء رهن بما هو كاسبه
... مضى عهد الاستبداد واندك صرحه　　وولت أفاعيه وماتت عقاربه

أما الشاعر محرم فالوفاء يغلب على العدل فى قصيدته. وهو يرى الناس الذين كانوا يتزلفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيراً خالصا يأكلون لحمه اليوم ولا يرونه إلا شرًّا صرفا . وكأنه يردد فى نفسه قول الشاعر القديم :

والناس من يلق خيراً قائلون له　　ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

وهو لا يلقى التبعة على عبد الحميد نفسه ، ولكنه يحملها بطانته الفاسدة التى

---

١ — يشير إلى سكة الحديد التى أنشأها السلطان عبد الحميد بين دمشق والمدينة سنة ١٩٠٠ وتمت سنة ١٩٠٨ وكان المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته ولتكاليفه الباهظة التى نهض بها عبد الحميد دون أى عون خارجى مع سوء الظروف المالية التى كانت تقاسيها تركيا وطول الخط ١٢٠٠ ميل وقدرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات. وقد اكتتب فى المشروع المسلمون فى سائر بقاع الأرض »

٢ — الديوان ٢ : ٤٨

٣ - يشير الى ما عرف عن عبد الحميد من شدة خوفه وحذره ، وكثرة ما أنشأ فى قصوره من مخابىء وسراديب لم تغن عنه شيئا .

أرتكبت باسمه كل ما ارتكب من آثام:[1]

...ثوى عاثر الآمال يؤنسه الأسى ... وتوحشــه أوطارُه ومآربه
كأن جلال الملك لم يبدُ حوله ... مهيبا ولم تُضْرَب عليه مضاربُه
كأن السرايا والفيالق لم تسر ... إلى الموت تثنى دونه من يحاربه
كأن رءوس الصيد لم تك خُشَّعا ... لدى بابه المرجوّ بالأمس حاجبه
كأن بغاة الجود والمجد لم نفد ... عليه ولم تهطل عليهم مواهبه
كأن بناة الشّعْر لم تغش بابه ... بمستحليات تزدهيها مناقبه
كأن الأولى زانوا المنابر باسمه ... أحلوا بدين الله مالا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده ... وكل امرىء رهن بما هو كاسبه

***

أرى الناس من يقعد به الدهر ينقموا ... عليه وإن كانت قليلا معايبه
ألم يك ظل الله (٢) بالأمس بيننا ... نلوذ به والخطب ضَنْك مذاهبه
أنطريه قهارا وتؤذيه مرهقا ... كفى الليث شرا أن تُفَلّ مخالبه
...ألا راحمٌ؟ هل من شفيع! أما كفى؟ ... أكل بنى الدنيا عدو يغاضبه؟
أكان يريد السوء بالملك ؛ أم يرى ... مَسَرَّته فى أن ترن نوادبُه ؟
أكل مآتيه ذنوب ؟ أكله ... عيوب ؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟
أكلُّ ذوى التيجان بالعدل قائم ؟ ... أما فيهمُ من لا تعد مَثالبه ؟
أليس الأولى غشّوه أجدرَ بالأذى؟ ... وأولى الورى بالشر من هو جالبه

أما ولى الدين يكن ، فهو لا ينسى لعبد الحميد مطاردته للأحرار ، وما ذاقوا على يديه من نكال . ولا ينسى أن عهده اقترن بسيادة الجواسيس وغلبة الهوى على الإنصاف . فهو شامت لا تختلج فى قلبه خلجة من رحمة ، ولا تفيض عينه بدمعة رثاء . ويزيد فى ثورة نفسه عليه أنه لا ينسى السنين الحالكة التى قضاها

---

١ — الديوان ٢٠٨
٢ — ظل الله على الأرض لقب الخليفة التركى .

منفيا فى سيواس، لأنه كان مواليا لجماعة (تركيا الفتاة) التى تحارب استبداد عبد الحميد . فقد كانت ذكرى هذا الاضطهاد عالقة لم تبرح، وهو قريب عهد بها لم يمض عليها غير شهور.[1] ولذلك فقد كان حنقه شديدا على شوقى فى قصيدته التى أشرنا إليها منذ قليل، فنقضها عليه بقصيدة من نفس البحر والقافية، يقول فيها : إنك تذكر آلام سكان القصور، ولكنك تنسى آلام سكان القبور، وتذكر ماوهب، ولكنك تنسى مانهب . وتبكى عليه اليوم، وتنسى أنه أبكى بالأمس كثيرا من الأبرياء . فهو لايذكر للرجل حسنة واحدة، ولا يراه إلا شرا خالصا. بل لا يرى الذين يبكونه إلا من عباد الملوك، الذين يندبون ماضاع من هبات ذلك الطاغية المفسد . (٢)

هاجتك خالية القصور — وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى — ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزيـ — ـر لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثيـ — ـر وناهب المال الكثير
حامى الثغور الباسما — ت مضيع آهلة الثغور (٣)
... أهدى الفتورَ لقلبه — ما باللواحظ من فتور
واستنفرته عن الرعا — يا كلُّ آنسة نفور
والجند عارية منـا — كبها مُـقَـصَّـمَـة الظهور
خمص البطون من الطوى — دقت فعادت كالسيور
... لله أجساد ثوت — بين الجنادل والصخور (٤)

---

١ ـ لم يفرج عن ولى الدين يكن الا بعد صدور الدستور في يوليو سنة ١٩٠٨
٢ ـ الديوان ص ٣٠
٣ ـ الثغور الأولى أفواه الحسان، والثانية البلاد التى على الحدود. يقول إنه كان يحمى النساء ولكنه كان يضيع الملك
٤ ـ يشير إلى ضحايا ظلمه واستبداده

باتت على خَشِنِ الثرى | من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شبيبة | لهفى على تلك الزهور
كم خلفها من صبية | يتمت ومن شيخ كبير
يترقبون مآبَها | إن المآب إلى النشور
... من كان يستحلى الشرو | ر يموت من تلك الشرور
لما أديل من السريـ | ـر بكاه عبّاد الدرير
نذروا النذور لعوده | هيهات يرجع بالنذور
أسفوا عليه وإنما | أسفوا على المال الدرير
طلبوا له عفوَ الغفو | ر وشَذّ عن عفو الغفور
فلْصْ ظلالك راحلا | ودع البرية فى الهجير .

* * *

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١ ، فتشتبك فى حرب مع تركيا التى استنجدت بالدول الأوروبية فلم تجد منها إلا فتورا وتتألف فى مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشىء الشيخ على يوسف جمعية الهلال الأحمر فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ . ويتطوع فى الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز.[١]

وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية فى النفوس . فيلقى شوقى قصيدة فى حفل جماعة الهلال الأحمر يحث فيها الشعوب الإسلامية التى تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد .[٢]

ياقوم عثمان والدنيا مُداوَلَةٌ | تعاونوا بينكم ياقوم عثمانا
كونوا الجدارَ الذى يَقْوَى الجدارُ به | فالله قد جعل الإسلام بنيانا

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٦٥ — ٢٦٧ .
٢ — الديوان ١ : ٣٠٢

البِرُّ من شُعَب الإيمان أفضلُها ... لا يقبل الله دون البِرِّ إيمانا

هل ترحمون لعل الله يرحمكم ... بالبِيد أهلا وبالصحراء جيرانا

فى ذمة الله ، أوفى ذِمَّةٍ نَفَرٌ ... على طرابُلُسٍ يقضون شجعانا

ويقول حافظ قصيدته[1] :

طمعٌ ألقى عن الغرب اللثاما ... فاستفق ياشرق واحذر أن تناما

يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم وما استحلت من محارم .

كبَّلوهم ، قتَّلوهم ، مثَّلوا ... بذوات الخِدْر ، طاحوا باليتامى

ذبحوا الأشياخ والزَّمْنى ولم ... يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما (٢)

أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما ... حرَّمت لاهاى فى العهد احتراما (٣)

بارك المِطْرانُ فى أعمالهم ... فسلوه : بارَكَ القوم عَلاما ؟

أبهذا جاءهم إنجيلهم ... آمرا يلْقِى على الأرض سلاما

ويسخر من الجيوش الإيطالية هازئا ، وقد وردت الأخبارُ الأولى بهزيمتهم .

خبِّروا فكتور(٤) عما أنه ... أدهش العالم حربا ونظاما

أدهش العالم لما أن رأوا ... جيشه يسبق فى الجرْىِ النعاما

حاتِمَ الطليان قد قلَّدتنا ... منّةً نذكرها عاما فعاما

أنتَ أهديت إلينا عُدَّةً ... ولباسا وشرابا وطعاما

وسلاحا كان فى أيديكمُ ... ذا كلالٍ فغدا يفرى العظاما

أكثروا النزهة فى أحيائنا ... وربانا إنها تشفى السَقاما

---

١ — الديوان ٢ . ٦٠

٢ — الزمنى ذوو العاهات جمع زمن على وزن كتف

٣ — مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩ انعقد للقضاء على أسباب الحرب وتخفيف ويلاتها .

٤ — ملك إيطاليا

وأقيموا كل عام موسما   يشبع الأيتام منا والأيامى(١)
لستُ أدرى ، بِتَّ ترعى أمَّةً   من بنى التليان أم ترعى سَوَامَا(٢)

وينشىء محرَّم ثمانِ قصائد فى مناسبات مختلفة من هذه الحرب ،(٣) تفيض بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن حياضه ومدافعة أعدائه .

رويدا بنى روما فللحرب فتية   تهيج الظُّبَا أطرابهم واللَّهاذِمَ(٤)
... أولئك أبطال الخلافة تحتمى   بأسيافها إن داهمتها العظائمُ
هم المانعوها أن يُقَسَّمَ فَيْئُهَا   وأن تُستبى بَيْضاتُها والمحارمَ
أنذ عن للباغى ونعطيه حُكْمَه   وفى الترك مقْدَام وفى العُرْبِ حازم
هما أخوا العز الذى دون شأوه   تخر الصَّياصى خُشَّعا والمَخَارِم(٥)
أقمنا على عهدَىْ وفاءٍ وألفةٍ   فما بيننا قالٍ ولاثمَّ صارم (٦)
على طول ما قال الوشاة وخَبَّبت   حُقُودُ الأعادى بيننا والسخائم(٧)

ويقول الكاشف:(٨)

المؤمنون اليك مستبقونا   لذمارهم وديارهم حامونا
فاحشد كتائبك التى أعددتَها   للحق أبلجَ والرجاءِ متينا

ويقول فيها لإيطاليا : أبهذا العدوان الوحشى أوصاكم المسيح عليه السلام ؟

يا آل عيسى مالعيسى لم يقم   مستنكرا ما أنتُمُ جانونا
أوصاكمُ بالمعتدين فما لكم   بالآمن المأمون فتَّاكينا
ماذا جناه المسلمون عليكُمُ   وهُمُ على الأمصار غلاَّبونا

---

١ — جمع أيم (بتشديد الياء وكسرها) وهى من لا زوج لها
٢ — السوام الابل التى ترعى
٣ — الديوان ٢ : ١٨ — ٣٩
٤ — اللهاذم الأسنة القاطعة جمع لهذم على وزن جعفر
٥ — الصياصى الحصون . المخارم المسالك فى الجبال
٦ — قلاه كرهه . صرمه قطعه وخاصمه
٧ — خببوا أفسدوا . السخائم جمع سخيمة وهى الحقد والبغض
٨ — الديوان ٢ : ١٧

ويهاجم فيها سياسة الإنجليز التى أكرهت مصر على الحياد :

ما للحيُود وما لمصر ؟ وما بها   إلا شجون تستثير شجونا
ماكان للمتطوع المختار أن   يشكو قيودا أو يخاف ظنونا

ويذيع عبدالمطلب قصيدتين طويلتين تزيدكل منهما عن مائة بيت . كتب الأولى فى ليلتين اثنتين كما يقول ،حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية على طرابلس فجاشت نفسه حزنا على أهلها.(١)

بنى أمنا أين الخميس المدرَّب   وأين العوالى والحسام المذرَّبُ
إذا اهتز فى نصر الحنيف تساقطت   نفوسَ العِدا فى حده تتحلَّب
... خليلىَّ مالى إذ تذكرت برقة   بجنبىَّ نيرانُ الأسى تتلهَّب
نعم راعنى من نحو برقة صارخ   يُهيب بأنصار الهلال ألا اركبوا
دعاصارخ الإسلام يا لِبَنِى الهُدَى   أغار العِدَا . أين الحسام المشَطَّبُ ؟
كأنِّى به يدعو الخلافةَ مسمعا   كأنى به فى المسلمين يثوِّب

وهو يعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلا : أين هذا من تعاليم المسيح ؟ ويسخر منهم قائلا : إن كنتم راغبين حقا فى الجنة التى وعدكم البابا فنحن خليقون أن نقرِّبكم منها .

إذا وقف البابا يبارك جندكم   فما كل بابا للمسيح مقرَّب
سلوه أفى الإنجيل للحرب آية   إذا كان فى إنجيله ليس يكذب
لكم جنة البابا مآب . فإنما   مفاتحها فى أرض برقة تطلب
وإن لدَى أسيافنا ورماحِنا   بأبوابها عِلْماً هلموا فجربوا
سلوا جنة البابا بماذا تزيَّنتْ   لتلقى الأولى فى لجة البحر غُيِّبوا
هلموا نقرِّبكم إليها فإنما   صوارمنا تُدْنِى لها وتقرِّب

ثم أردف هذه القصيدة بالقصيدة الثانية بعد أن احتدم القتال بين الجيشين: (٢)

---

١ — الديوان ٢٥ — ٣١
٢ — الديوان ٢٨٥

هى الهيجاء كم طحنت قرونا وكم سحنت حوادثها قرونا

وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوربية عن عدوان إيطاليا، ورضاهم عن مسلكهم، فى الوقت الذى يهيجون فيه ويموجون حين يرتفع صوت من مستعمراتهم بالشكوى من ظلمهم.

وأهلُ الغرب فى لعب ولهو على مابينهم يتغامزونا
دعونا المُقْسِطين فما وجدنا وأشْهَدْنا الملوكَ فأنكرونا
وَهِمْنا حين خلناهُمْ عُدُولا بما شاء الهوى لا يحكمونا
بغت روما فلم نسمع نكيرا ولو شاءوا سمعنا المنكِرينا
وإن نغضبْ ذِيادًا عن حياض لنا هُدِمتْ إذا هم يسخطونا
ملوكَ الغرب! ماهذا التعامى؟ وما للحق بينكُمُ مهينَا؟

أما ولى الدين يكن فهو يذيع قصيدة قصيرة فى ستة وعشرين بيتا عنوانها (لبَيْك أماه دعوتِ الكرام): (١)

من أين جَدَّ اليومَ هذا الخِصَامْ ياأمَمَ الغرب نقضتِ الذمام

وقصيدته تختلف عن سائر القصائد السابقة فى أنها تخلو من كل إشارة للإسلام. فهو لايستنهض الهمم فيها باسم الدين، ولكنه يستنهضها باسم الحمية لأرض الوطن. وذلك لأنه ينتمى إلى جماعة تركيا الفتاة، أوحزب الترقى والاتحاد كما كانوا يسمونه فى بعض الأحيان، الذى كان يرى سلامة الإمبراطورية العثمانية فى قتل العنصرية الدينية وإخماد صوتها، لأن الإمبراطورية تضم أديانا مختلفة.

* * *

ويضطرب البلقان فى أواخر سنة ١٩١٢، حين تقوم بلغاريا والصرب والجبل الأسود مطالبة باستقلالها الإدارى عن تركيا، مهاجمة أساليبها الإدارية فى الحكم. وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل. وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول فى

---

١ — الديوان ٤٨

٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ . فتنشأ اللجان والجمعيات فى مصر لجمع التبرعات، وينعقد مؤتمر لندن فى أوائل ديسمبر للنظر فى المسألة البلقانية .ويظل يوالى جلساته حتى ٢٣ يناير. وينتهى إلى قرارات تقبلها الوزارة التركية القائمة وقتذاك اهمها التنازل عن أدرنه وعن جزر الأرخبيل . ويثور حزب الاتحاد على الوزارة فيسقطها ويستأنف القتال . وترد الأخبار الأولى إلى مصر بانتصارهم ، فتقوم مظاهرات الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين عليها .(١) ولكن هذا الفرح لا يلبث أن يتحول سريعا إلى وجوم ، حين ترد الأنباء بتقهقر الجيوش التركية وسقوط أدرنه بعد حصار دام خمسة شهور أبلت فيه حاميتها أروع بلاء . ويفزع المسلمون حين تتولى الأنباء بتقدم جيوش البلقان، وقد أنفتح أمامهم الطريق إلى القسطنطينية بعد سقوط أدرنه حتى أصبحوا على أبواب الأستانة . ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة فى الانتقام من سكانه المسلمين . (٢)

وعند ذلك يرتفع صوت شوقى بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت، يندب فيها مجد الإسلام الزائل، وقد ذكره تقلص ظله عن شرق أوروبا وقتذاك بضياع سلطانه فى غربها حين طرد العرب من الأندلس. ولذلك سَمَّى قصيدته « الأندلس الجديدة » : (٣)

يا أخت أندلس عليك سلام … هَوَتْ الخلافةُ عنك والإسلامُ
نزل الهلالُ عن السماء فليتها … طُوِيَتْ وعمَّ العالمين ظَلاَمُ
أزرى به وأزاله عن أوْجِهِ … قَدَرٌ يحط البدرَ وهو تمام
جُرْحَان تمضى الأمتان عليهما … هذا يسيل ، وذاك لا يلتام(١)
بكما أصيب المسلمون ، وفيكما … دُفِنَ اليراعُ وغُيِّبَ الصَّمصَام

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٨١ وما بعدها
٢ — حرب البلقان ص ١٧٧ وما بعدها ، صداقة أربعين عاما ص ٢٧٣ وما بعدها
٣ — الديوان ١ : ٢٨٧ — ٢٩٥

لم يُطْوَ مأتمُها . وهذا مأتم ... لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
مابين مصرعها ومصرعك انقضت ... فيها نحب ونكره الأيام
خلت القرونَ كليلةٌ وتصرّمت ... دولُ الفتوح كأنها أحلام

ويخاطب شوقى فى هذه القصيدة دعاة الهزيمة من ساسة الترك الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير فى أن تتخلى عنه وتكفى نفسها هذه المتاعب التى لا قبل لها بها . قائلا إن هؤلاء الذين يفكرون على هذا النحو هم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ،ويحلون المشاكل بالهروب منها بدل أن يواجهوها . وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة فى البلقان بدل التفكير فى التخلى عنه :

زعموكِ هَمًّا للخلافة ناصبا ... وهل الممالك راحةٌ ومَنَامُ
ويقول قوم كنتِ أشأمَ موْرِدٍ ... وأراك سائغة عليكِ زحام (١)
ويراكِ داءَ المُلْك ناسُ جهالةٍ ... بالملك منهم علةٌ وسقام
لوآثروا الإصلاحَ كنتِ لعرشهم ... ركنا على هام النجوم يقام
وَهْمٌ يقيِّد بعضُهم بعضا به ... وقيود هذا العالم الأوهام
صور العمى شتى ، وأقبحها إذا ... نظرَتْ بغير عيونهن الهام . (٢)
ولقد يُقامُ من السيوف،وليس من ... عثرات أخلاق الشعوب قيام

ويندد شوقى بالذين استغلوا اسم الدين فى الانتقام من المسلمين الآمنين،والتنكيل بالأبرياء من المدنيين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء ، ولا كان داعيا لإباحة الحرمات ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاما :

أخذ المدائنَ والقرى بخناقها ... جيشٌ من المتحالفين لُهَامُ (٣)

---

١ — يشير الى تزاحم الدول الاوربية وتنافسها على مناطق النفوذ فى البلقان
٢ — يقول إن من أقبح العمى أن يسيطر الوهم على الانسان،فيرى الأشياء كما يصورها له وهمه لا كما تراها عيناه التى فى رأسه وكما هى فى الواقع .
٣ — لهام (بضم اللام) أى عظيم كأنه يلتهم كل شيء

غطّت به الأرضُ الفضاءَ وجوهَها ... وكست مناكبَها به الآكام
تمشى المنَاكِرُ بين أيدى خيله ... أنىَّ مشى ، والبغى والإجرام
ويحثه باسم الكتاب أقِسَّةٌ ... نشطوا لما هو فى الكتاب حرام
ومسيطرون على الممالك سُخِّرت ... لهم الشعوبُ كأنها أنعام
من كل جزّار يروم الصدرَ فى ... نادى الملوك وجدُّه غنّامُ
سكينُه ، ويمينُه ، وحزامُه ... والصولجانُ ، جميعها آثام
عيسى . سبيلك رحمة ومحبة ... فى العالمين وعِصْمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرءً ... هان الضعاف عليك والأيتام
يا حاملَ الآلام عن هذا الورى ... كثُرَتْ عليه باسمكَ الآلام
أنت الذى جعل العِبَادَ جميعَهم ... رَحِمًا وباسمِكَ تقطع الأرحام
... واليومَ يهتف بالصليب عصائب ... هم للإله وروحِه ظلاّم (١)
خلطوا اصليبك والخناجر والمُدَى ... كلٌّ أداةٌ للأذى وحِمَام

ثم يقدم صورا من الجرائم المنكرة التى دفع إليها التعصبُ الذميم الذى يبرأ منه كلُّ دين فيقول :

كم مُرْضَع فى حجر نعمته غدا ... وله على حد السيوف فطام
وصبِيَّة هُتكَتْ خميلةُ طُهرها ... وتناثرت من نَوْرِه الأكمام
وأخى ثمانين استُبِيح وقارُه ... لم يُغْنِ عنه الضَّعْفُ والأعوام
وجريح حربٍ ظامئٍ وأدوه لم ... يعطفهُمُ جرحٌ دمٍ وأوام
ومهاجرين تنكَّرَتْ أوطانُهُمْ ... ضلوا السبيل من الذهول وهاموا
السيف إن ركبوا الفرارَ سبيلُهم ... والنِّطْعُ إن طلبوا القرارَ مُقَام(٣)

١ — الغنام راعى الغنم
٢ — روح الله هو المسيح عليه السلام
٣ — النطع قطعة من الجلد كان فرش لمن يضرب عنقه

يتلفتون مودعين ديارهم واللحظ ماءٌ والديار ضرام (١)

ويُحمل الشاعرُ التُّركَ فى ختام القصيدة تبعةَ تفريطهم فى هذا الملك الذى أسسه أجدادهم فضيعوه بتفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور ، وبتفريطهم فى نشر العلم وإقامة العدل .

ويكتب الكاشف فى هذه الحرب ثلاث مقطوعات قصار : (٢)

أولها : خطوبكمُ يا آل عثمان جمة ولكنكم أقوى عليها وأقدرُ

والأخرى : صليبية يا قوم أم عنصرية حروبكمُ ؟ والدين هذا أم الشِّرْكُ ؟

والثالثة : بأيةِ عيد أنت يا عيدُ عائد تفيض تباريحا لنا أم شمائلا

أما عبد المطلب فقد عبر عن حزنه ونفَّس عن ثورته وصور ما عانى مسلمو البلقان من اضطهاد فى قصيدته : (٣)

صريف المنايا أم صليلُ الصوارم وليلُ الرَّدَى أم نقع تلك الملاَحم

* * *

وترد الأنباء بعد هذه الكوارث المتلاحقة ، المثبطة للهمم ، والداعية إلى اليأس ، بقدوم طيارين تركيين إلى مصر فى سنة ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى. وتسقط بهما طائرتهما فى الطريق ويموتان ، فيعاود المحاولة زميلان آخران يصلان سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ فى نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد ويذيعون الشعر مهنئين ومعزين .

يقول شوقى :(٤)

يا راكب الريح حيِّ النيل والهرما وعظِّم السفحَ فى سيناء والحَرَما

---

١ — الديار ضرام لأن جيوش البلقان أشعلت فيها النار انتقاما

٢ — الديوان ٢ : ٢٣ ـ ٢٤

٣ — الديوان ص ٢٧١

٤ — الديوان ١ : ٢٦٧

... عاد الزمان فأعطى بعد ماحَسَرما ⁂ وتاب فى أُذُنِ المحزون فابتسما
فيا رَعى الله وفداً بين أعيننا ⁂ ويرحمُ الله ذاكَ الوفد مارَحِما
هم أقسموا لتدينَنَّ السماءُ لهم ⁂ واليومَ قد صدقوا فى قبرهم قَسَما

ويقول حافظ (١)

أهلا بأول مُسْلِمٍ ⁂ فى المشرقين علا وطار
النيـــل والبسفور فيـ ⁂ ـك تجاذبا ذيلَ الفخار
يوم امتطيت بُراقك الـ ⁂ ـميمونَ واجتزت القِفَار

وفيها يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة فى عالم ليس فيه للضعفاء مكان

والظلم من طبع النظا ⁂ م فإن ظَلَمْتَ فلا تمار (٢)
... خُلِقَ الضعيف لخدمة الـ ⁂ أقوَى وليس له خيارْ
فتقوَّ يرهبْك القَوِ ⁂ يُّ وهُنْ يلازمْك الصَّغَارْ
فى الأرض ماتبغون من ⁂ عزٍّ وآمال كبار
فيها الحديد وفيه بأ ⁂ سٌ يوم يُمتَهَنُ الذمار
فيها الكنوز الحافلا ⁂ تُ لمن تبصَّر واستنار
منها استمد قواه مَنْ ⁂ قَهَرَ الممالكَ واستعار
وبما احتوت ردَّ الحصيـ ⁂ فُ الرأى غارةَ مَنْ أغارْ

ويقول عبدالمطلب (٣)

وقَفَتْ لكِ الدنيافسيرى ⁂ مَسْرَى الضياءمن الأثيرِ
يا أختَ سابحة النجو ⁂ مِ وبنتَ سانحة الضمير
من عهد آدم لم تزل ⁂ عذراءَ مسبَلَةَ الستور

وهو يذكر مجد الإسلام فى أكثر من موضع من القصيدة حيث يقول :

---

١ — الديوان ٢ : ٧٦
٢ — لاتمار أى لاتجادل ولا تنازع . يقول إن نظام الكون كما خلقه الله يقوم علي وجود القوى والضعيف فلا تجادل فى ذلك
٣ — الديوان ص ٩٥

طير السلام بطائر الـ   إسلام والأسد المزير
وحيث يقول: ياطائر الإسلام رِ   فو بالعواصم والثغور
« « يادولة الإسلام هدّ   ى ياكواكبه أنيرى

* * *

كانت العاطفة الدينية إذن غالبة مسيطرة. وكان الدين والوطنية توأمان متلازمان. كما قال مصطفى كامل فى خطبة له سنة ١٩٠٠(١). وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مهاجمة كرومر الدائمة للمسلمين فى بعض تقاريره وفى كتابيه اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر عن (مصر الحديثة) و (عباس الثانى) (٢)، وتصويرهم فى صورة الهمج المتخلفين، ومهاجمته للإسلام وتصويره دينا رجعيا لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعى راق. كما أعان على تقوية فكرة الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوروبية للإمبراطورية العثمانية باسم الدين (٣)، مما أثار شعور العطف على تركيا والالتفاف حول الخلافة، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع إلى مد يد المعونة لهـا فى كل حروبها ومحنها، بالمال وبالرجال، وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين. (٤)

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعا من المؤيدين للنفوذ التركى فى مصر. فمن بين هؤلاء الترك المتمصرون، أمثال شوقى ويكن والكاشف، الذين تدفعهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين للأصل والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين. فالكاشف يقول فى العيد الفضى

---

١ — مصطفى كامل ١٢٢
٢ — Modern Egypt ٢ : ١٢٩ — ١٥٤ ، عباس الثانى ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩
٣ — تاريخ الدولة العلية ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ — ٣٥٠
٤ — راجع فى الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ مذكراتي فى نصف قرن ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٣ وفى الحرب الطرابلسية سنة ١٩١٢ نفس المرجع ٢ ب : ٢٦٥ - ٢٦٦ . وفى حرب البلقان سنة ١٩١٢ ٢ ب : ٢٨٩

للسلطان عبدالحميد :(١)

تفانيت فى حبكمُ إننى لكم على النفس والأهلين والخلق مؤثر
ولا غرو إن غاليت فيكم فجامعى وإياكم دين وطبع وعنصر

أما ولى الدين يكن — مع ماهو معروف من مشايعته للاستعمار الذى كان يحمى أعضاء تركيا الفتاة فى مصر كما سنبين فيما بعد — فهو يرد على كاتب هاجم الترك فى جريدة المقطم بمقال يبدأه بالبيتين العربيين القديمين :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

ثم يقول « شهد الله وكل عثمانى حريكون قرأ لى شيئا أنى لا أتعصب للدين ولا للجنس . أنا تركى وأبغض عباد الله إلى تركى يعتدى . أحب العناصر العثمانية كلها وآخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم من العروق ، وأنا عربى الأدب والقلم ، عربى النزعة . ومن أبغض العرب فأنا مبغضه . أولئك إخوانى الذين أغنيهم فيطربون ، وأحدثهم فيقبلون على بالسمع . هكذا عهد العرب الكرام بأخيهم هذا .

غير أنى لا أكذبهم . إنى كذلك لا أحب من يسب الترك ولا من يكون لهم عدوا . وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب إخوانهم . وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعيا عليهما بالفشل جميعا .

زعم عزت الجندى أن الذين خانوا الدولة هم أتراك . ثم ذكر أرجالا منهم محمد على الأول مؤسس الأسرة الخديوية بمصر . سامحه الله . إن محمد على خالى ، جدتى شقيقته ، لا تصح شهادتى له . فأنا أدع الحكم فى وفائه وخيانته لأهل الإنصاف .

ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت أبا الدستور تركيان ، الصقوللى والكوبريلى أيضا تركيان . وغير هؤلاء كثير إن شاء الجندى ذكرت

---

١ — الديوان ١ : ١٤

له أسماءهم وعددت ماتيسر من أعمالهم . »(١)

أما شوقى فهو الذى يقول فى مقدمة ديوانه الأول « أنا إذن عربى تركى يونانى جركسى » (٢) وهو الذى يقول فى الحرب العثمانية اليونانية :

وزينب إن تاهت وإن هى فاخرت فما قومها إلا العشير المحبب
يؤلف إيلام الحوادث بيننا ويجمعنا فى الله دين ومذهب .

وشعره بعد هذا يفيض بالحنين الصادق والحماسة الحارة لكل ما يمت للترك بسبب.

ومن بين المعتقين لفكرة الرابطة العثمانية والمؤيدين للنفوذ التركى بعض رجال الدين ومن ذهب مذهبهم وأحس إحساسهم ممن يؤيدون هذا النفوذ بدافع من الغيرة الدينية ، تحت تأثير الظروف المختلفة التى سادت العصر والتى أشرت إليها فيما سلف . وهؤلاء ليسوا من السياسة فى شىء . فهم لا يهتاجون إلا لما يمس دينهم . ولا يرون بين الأقطار الإسلامية من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا ، لأنها أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية .ومن هؤلاء عبدالمطلب الذى يلقب نفسه بشاعر الإسلام ،حيث يقول فى انتصار الترك على اليونان :

هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أحل مقام (٣)

ومن بين المؤيدين للنفوذ التركى وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون بأن لمصر كيانا مستقلا ، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلا لمناوأة الاستعمار ، ويرون أن التخلص من النفوذ التركى بعد ذلك أمر سهل ميسور ،وأن النفوذ التركى فى حقيقته لم يكن قبل الاحتلال إلا نفوذا اسميا . ومن هؤلاء مصطفى كامل . ومحمد عبده . وعبدالله النديم والبكرى ومحرم والغاياتى .

---

١ — الصحائف السود ١٠٧ — ١١١
٢ — الشوقيات طبعة سنة ١٩١٢ ص ١٠
— ديوان ع المطلب ص ٢٥٣
٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ١٩٢

أما مصطفى كامل فهو يجيب الأميرلاى بارنج (شقيق كرومر) حين لقيه فى لندن سنة ١٨٩٥ فسأله عن جنسيته بقوله «مصرى عثمانى» ثم يجب على تعجبه لجمعه بين الجنسيتين بقوله «ليس فى الأمر جنسيتان بل فى الحقيقة جنسية واحدة لأن مصر بلد تابع للدولة العلية.» ولكنه يقول من خطبة له فى الاسكندرية فى سنة ١٨٩٧ «إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الإنجليز فى مصر.» (١) ويقول من خطاب له إلى مدام جوليت فى هذا العام «إنك تعلمين خطتى نحو تركيا. وما أراه واجبا نحوها. فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى. واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز» (٢)

أما محمد عبده فهو يقول أثناء إقامته فى بيروت سنة ١٨٨٦ م «إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله. فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته. وليس للدين سلطان فى سواها. وإنا والحمد لله على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت» (٣)

ولكنه كان يصرح بعد عودته إلى مصر بأنه يرى للبلاد العثمانية أن تنصرف إلى ترقية نفسها بنفسها من غير معاداة ولا مباراة لتركيا. وأن تنتظر الفرص للاستقلال.

وقد تأكد محمد عبده من فساد الإدارة العثمانية بعد أن لمسها عن قرب حين سافر للأستانة وكره السلطان عبد الحميد وأساليبه الاستبدادية، ولكنه كان يفرق بين شخص عبد الحميد وبين الدولة العثمانية. وكان يرى أن الخلاف بين مصر وتركيا، أو بين العرب وبين تركيا لا تستفيد منه إلا الدول الأوربية؛ وخصوصا إنجلترا. ولذلك فهو يقول لرشيد رضا فى حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك فى حرب

---

١ — مصطفى كامل ٨٢

٢ — نفس المرجع ص ٨٣ وراجع كذلك الفصل الثامن عشر من نفس المرجع (مصطفى كامل وتركيا)

٣ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٩٠٩

اليونان سنة ١٨٩٧ «إن كثيرا من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها — وإن كان أكثرهم يحبها — وأنا أيضا أكره السلطان . . . . . ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءا ، فإنها سياج فى الجملة . وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فإن اليهود عندهم شىء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شىء ، فقدنا كل شىء . »(١)

أما عبدالله النديم فهو الذى يقول سنة ١٨٩٣ « يابنى مصر . . . . . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطى والإسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلا واحد يسعى خلف شىء واحد هو حفظ مصر للمصريين ».(٢)

أما محمد توفيق البكرى فهو يقول فى حديث له مع مراسل النيويورك هرالد سنة ١٨٩٣ إن مبدأه هو «مصر للمصريين» وهو ضد أى احتلال فرنسى أو إيطالى أو تركى ، كما أنه ضد الاحتلال الإنجليزى ، وأنه يعتقد أن البلاد قادرة على حكم نفسها.(٣) وهو بعد هذا صاحب القصيدة المشهورة التى بعثها للسلطان عبدالحميد بعد حرب اليونان فقرئت فى محفل حافل وحفظت فى المكتبة السلطانية .(٤)

ومن المؤيدين للنفوذ التركى بعد كل هؤلاء وهؤلاء عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ولا يعرفون لهم راعيا غير الخليفة إمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن وما الوطنية . فقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتذاك من مستحدثات الشباب الذى تعلم فى أوروبا ، حتى إن رشيد رضا ليقول فى مناسبة ذكر محاسن الخديوى عباس (أول ماعرف الناس من محاسنه مايسمى فى عرف هذا العصر « بالوطنية ») (٥)

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٩١٢ — ٩١٥
٢ — سلافة النديم ٢ : ٧٨
٣ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٧٤
٤ — شعراء العصر ١ : ١٩٥
٥ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩٢

الفصل الثاني

الجامعة المصرية

إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب الذى كان ينادى بوحدة الشعوب الإسلامية ، ويستنهض الهمم باسم الإسلام، ويرى أن النهضة الوطنية لا تتم إلا عن طريق الدين ، أو بمساعدته واستغلال سلطانه على النفوس على أقل تقدير ؛ إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب ،كانت هناك دعوة ناشئة تنادى بالقومية المصرية ، وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية فى الإمة ، التى تقوم على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ، ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية .

كانت هذه الدعوة صدى للاتجاه العالمى نحو فكرة القومية فى القرن التاسع عشر . وكان المبشرون بهذه الدعوة فى مصر متأثرين تأثرا واضحا بالتفكير الأوروبى كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم . وقد نشأت هذه الفكرة الجديدة نتيجة للتوسع الاستعمارى الذى تلا اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تمسها يد فى أمريكا وأواسط أفريقيا ، أصبحت ميدانا للتنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية . وكانت حرب أمريكا فى سبيل استقلالها والثورة الفرنسية من بعدها فى مختتم القرن الثامن عشر هى نقطة البداية لهذه الحركة التى اتخذت شكلا عنيفا وأصبحت العقيدة التى تدين بها الشعوب الأوروبية الصغيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.(١) فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية فى الدول الكبرى التى تنطوى تحتها لتسوقها إلى الحروب حين تشاء ، وتحملها تبعتها من دماء ومن أموال .

---

١ — ه . ح . ولز ٤ : ٩٢٠ — ١٠٦٣

نشأت مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد ، وكان ذلك نتيجة للتقسيم الصناعي الذي قسمت فيه الجماعات البشرية في دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الأمبراطوريات الكبرى أنه محقق لصالحها . وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لفكرة الوطن والقومية ، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقه والدفاع عن كيانه واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التي كانت تنطوي تحتها ، مطالبة بحقها في الاستقلال الكامل بتدبير شئون نفسها داخل حدود ذلك الوطن . والمتدبر لحروب القرن التاسع عشر يجدها في مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية ، التي كانت سببا في تقويض الإمبراطوريتين النمسوية والعثمانية ، والتي قامت على أساسها الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، والتي أرتفعت على أساسها أصوات جديدة تنادي بالوطنية والقومية مثل التشك والسلوفاك والرومانيين والبولنديين.(١) وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة يغذون فكرة القومية الجديدة التي تستند إلى ماغرسته الثورة الفرنسية في النفوس من تعاليم الديموقراطية ، وما نشرته من روح الحرية التي أيقظت الشعور القومي في شعوب طال عليها عهد الخنوع والخضوع ، حتى أصبح التغني بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية الرومانية المحببة التي ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية. وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس ، وكأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد .

كان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة في مصر متأثرين تأثرا واضحا بالتفكير الأوروبي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم وشعرهم . ولعل من أوضح الشواهد على ذلك ما جاء في مقال لعبد العزيز جاويش نشره في صحيفة العلم سنة ١٩١٠ وعنوانه «الحركة الوطنية في مصر» حيث يقول:(٢)

---

١ ــ عصر الخرافة ٢ : ٢٦ ــ ٢٧

٢ ــ صحيفة العلم . العدد الأول ٧ مارس سنة ١٩١٠

سألني قوم أن أشرح لهم ماعلمته من أمر الحركة الوطنية ومبتدأ خبرها وسر سياستها . وقد نبههم إلى ذلك ماقرءوه من الحوادث الخطيرة التى جرت لهذه الأيام الأخيرة فى القطر وما رددته الجرائد من توقع حدوث أمور ذات بال ربما غيرت من أسلوب حكومته وبدلت من أوضاع سياسته .

إن الشعور بالوطنية اصطلاح إفرنكى انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوى العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التى اهتدى إليها أهل الغرب » .

ونستطيع أن نقول إن هذه الحركة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العرابية وكانت هذه الثورة صوتها القوى ويدها الباطشة وقوتها المنفذة . وتمثلت هذه الدعوة فى جمعية (مصر الفتاة) السرية ، التى تألفت فى الأسكندرية (١) ، والتى أصدرت صحيفة باسمها للدعوه إلى الحرية (٢) ، وفى بعض الصحف الثائرة التى برزت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد ، مثل صحيفتى (مصر) و (التجارة) لأديب إسحق (٣) ، وفى (الحزب الوطنى) الذى تألف قبيل الثورة العرابية من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك (٤) .

وخير مايصور هذه الدعوة فى ذلك الوقت مقال لمحمد عبده نشرته الوقائع المصرية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفانى فى حبه والذود عنه ، بدأه بتعريف الوطن فقال: (٥)

« تقرر مما سلف أن لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع النزاع والخلاف فيه . ونحن الآن مبينون بعون الله ماهيّة هذا الوطن وبعض مايجب على ذويه .

---

١ — زعماء الاصلاح ٢١٢،١١١ ٢ — الثورة العرابية ٧٢ ٣ — نفس المرجع ٦٩
٤ — نفس المرجع ٧١ ، ٧٢ ٥ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ١٩٤ — ١٩٦

الوطن فى اللغة محل الإنسان مطلقا ، فهو السكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها أى اتخذوها سكنا . وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ، ويُحفظ حقك فيه ، ويُعلم حقه عليك ، وتأمن فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لا بروير الحكيم الفرنساوى : لا وطن فى حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية . ثم يقول « أما السكن الذى لاحقّ فيه للساكن ، ولا هو آمن فيه على المال والروح ، فغاية القول فى تعريفه إنه مأوى العاجز ، ومستقر من لايجد إلى غيره سبيلا . فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لابروير السابق الذكر : ما الفائدة من أن يكون وطنى كبيرا ، إن كنت فيه حزينا حقيرا ، أعيش فى الذل والشقاء خائفا أسيرا .

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتى ، فهو يغار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى إليه ، وإن كان سىء الخلق شديدا عليه . ولذلك قيل فى مثل هذا المقام : إن ياء النسبة فى قولنا مصرى وإنجليزى وفرنسوى ، هى من موجبات غيرة المصرى على مصر والفرنساوى على فرنسا والإنكليزى على انجلتره . . . . فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا ، ويشرب مريئا ، ويبيت فى الأهل أمينا . وهو مقامه الذى ينسب إليه ، ولا يجد فى النسبة عارا ولا يخاف تعييرا . وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية » .

ويختم محمد عبده مقاله ببث الأمل فى نفوس المصريين والرد على المثبطين للهمم ، الذين لايزالون ينعقون بأن المصرى قد ألف الذل وتعود احتمال الظلم بما لا يدع مجالا للأمل فى بث الشعور بالوطنية فيه ، ضاربا المثل بفرنسا التى كان شعبها يعانى الرق فى ظل النظام الإقطاعى ، ثم لم يمنعه ذلك أن ينال حقه . وفى

هذه الفقرة يبدو أثر حركات الاستقلال والمطالبة بالحرية التى سادت أوروبا فى القرن التاسع عشر . إذ يقول :

« ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر وإلباسهم جميعا لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجودا وطنيا ورأيا عموميا ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفساف القول ، من مثل أننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأى ؛ ولن نهتدى سبيل الحرية . كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصارا وكانوا فى قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين ، أحرارا يظلمون ، وعبيدا يطيعون . أو لم يكن فى بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون فى الأرض لغيرهم ، ويباعون كما تباع العجماوات . أو لم يقل كاتبهم فولتير فى وسط المائة السابقة : لا يزال فى بلادنا ستون ألفا أو سبعون ألفا عبيدا للرهبان .

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وأن يروا أمثال تيارس وجريفى وغامبتا فى أبناء الذين كانوا من قبل عبدانا أرقاء ؟

ولئن كان وصل هذه المائة أن يكتب فى صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف ، فلقد رجونا — وحقق الله هذا الرجاء — أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء فى هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاما » .

ولكن الذى يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التى تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن فى هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم . فقد كتب بعد ذلك بسنوات ثلاث مقالات فى صحيفة العروة الوثقى عنوانه « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » . تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط ، واستعرض آراء المصلحين ، فقال إن بعضهم يظن أن أمراض

الأمم تعالج بنشر الصحف ، وأنها تكفل إنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق . وفريق آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل القاتلة يتم بإنشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف فى أوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد . وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذى يذهب فيه إلى أن انتشال الأمة الإسلامية مما هى فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين .(١)

يقول محمد عبده فى تفنيد آراء الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية «شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم مايحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل مايسمونه تمدنا وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ، فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ . . . . . . نعم ، ربما يوجد بينهم أفراد يتفيهقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء ، لاتعرف غايتها ولا تعلم بدايتها . وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب مايختارون . ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود مايكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره . . . . . . وهذا جدع لأنف الأمه يشوه وجهها ويحط بشأنها . وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيها على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها . »

وهذا المقال يدعونا إلى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية فى مقال

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٢٢٧ — ٢٣٦

محمد عبده الأول فى الوقائع المصرية . وقد يحملنا على الظن بأن آراءه قد تغيرت بعد فشل الثورة بتغير الظروف أو بتأثير أستاذه جمال الدين الأفغانى الذى كان من أشد الناس تحمسا للدعوه إلى الرابطة الإسلامية . ولكنه يدل على كل حال على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قدنشأت ، وكان لها دعاة من أصحاب الثقافات الأوروبية ، المعادين لفكرة الرابطة الإسلامية . وهم الذين عناهم محمد عبده بالفقرة التى اقتطفناها من مقاله . وهم الذين يهاجمهم فى مقال آخر له عنوانه (التعصب) حيث يقول (١) « أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير . فقلما تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها ، يعدون مسماه علة لكل بلاء ، ومنبعا لكل عناء ، ويزعمونه حجابا كثيفا وسدا منيعا بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنوانا على النقص وعلما للرذائل. والمتسربلون بسرابيل الإفرنج الذاهبون فى تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لايميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على التشدق بهذا البدع الجديد ، فتراهم فى بيان مفاسد التعصب يهزون الرءوس ويعبثون باللحى ويبرمون السبال ، وإذا رموا به شخصا للحط من شأنه أردفوه للتوضيح بلفظه الإفرنجى (فاناتيك). ثم يبين أن التعصب هو الرابطة التى شكل الله بها الشعوب ، ويقول إن الشعوب تظل بخير مابقيت قوة الربط بين أفراد الأمة فإن ضعفت تداعى بنيانها للانحلال. ثم يقول :

« التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع فى منبت واحدا . كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضا . والمتنطعة من مقلدى الإفرنج يخصون هذا النوع بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نحال مذهبهم هذا مذهب العقل . فإن لحمة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تندفع عنهـــا قوة لدفع الغائلات وكسب الكمالات ، لايختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو السبب . وقدكان تقدير

١ ـــ تاريخ الأستاذ الامام : ٢ — ٢٤٩ — ٢٥٨

العزيز العليم وجود الرابطتين فى أقوام مختلفة من البشر . وعن كل منها صدرت فى العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإسلامى .

ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى مفاسد التعصب الدينى . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع مايلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذى يصدهم عن السير إلى كال المدنيه ، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم . ومن رأى أولئك المتفثفين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيرا مايرجفون بأهل الدين الإسلامى ، ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم . » ثم يبين أن الدين أعظم مقوم للخلق وأن الغلو الذى يطرأ على العصبية الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين فى الدين ، كالغلو الذى يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين فى الجنس واستعمارهم . ويبين أن الدعوة إلى التعصب فى الجنس الذى يسمونه (الوطنية) إنما يروجه الإفرنج الذين يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ويفرقوا بين شعوبها ليسهل عليهم استعمارها . وأن المغفلين من المسلمين — حسب رأيه — الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التى يسمونها الوطنية .

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوروبى . ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين فى أذهان كثير من الناس ، كما يبدو من كلمات محمد عبده ، وكما يبدو من قول البارودى وهو فى منفاه : (١) .

لم أقترف زلّة تقضى على بما   أصبحتُ فيه ، فما ذا الويلُ والحربُ (٢)
فهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى   ذنب أدان به ظلما واغترب

---

١ — الديوان ١ : ٣٧

٢ — الحرب (بالتحريك) لويل وا غضب

ومن قوله فى قصيدة يهنىء فيها الخديوى توفيق بعيد جلوسه قبيل الثورة ، مثنيا عليه لسنّه نظام الشورى استجابة لرغبات الأمة ، حيث يشير إلى المصريين بقوله « أمة أحمد » : (١)

وتمتعت بالعدل منك رعيـــة كانت فريسة كل باغ معتد
فحباك ربُّك بالجميـــل كرامةً لجزيل ما أوْلَيت « أمة أحمد »

* * *

تصور هذه المقتطفات التى قدمناها أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ فى الظهور قبيل الثورة العرابية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجه تسلط العنصر التركى واستئثاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . وربما كانت الناحية الأخيرة هى المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم فى مقابلها حقوقا . ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال فى أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها فى مقابلها .

وشعر البارودى من أصلح الأمثلة لهذا اللون من التفكير ، الذى يستهدف رفع الظلم عن الشعب المستعبد الذى لا يقام لمصلحته وزن .

يقول من قصيدة يحض فيها الناس على المطالبة بحقوقهم والجهاد فى سبيل الحصول عليها ، مذكرا بمجد مصر القديم ، وذلك فى حكم إسماعيل : (٢)

حلبتُ أشْطُر هذا الدهر تجربة وذقت مافيه من صاب من عسل
فما وجدتُ على الأيام باقيةً أشهَى إلى النفس من حرية العمل

---

١ — الديوان ١ : ٧٠

٢ — الديوان ٢ . ٢٢٦ — ٢٥٠

لكننا غرض للشرّ فى زمن ... أهلُ العقول به فى طاعة الخمَل (١)
قامت به من رجال السُّوءِ طائفةٌ ... أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه ... بغضا ويلفظه الديوان من ملل (٢)
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت ... قواعدُ المُلك حتى ظل فى خلل
وأصبحت دولةُ الفسطاط خاضعة ... بعد الإباء وكانت زهرةَ الدول
بئس العشيرُ وبئست مصر من بلد ... أضحت مُناخاً لأهل الزور والخَطَل (٣)
أرض تأثَّل فيها الظلم وانقذفت ... صواعق الغدر بين السهل والجبل (٤)
وأصبح الناس فى عمياءَ مظلمة ... لم يَخْطُ فيها امرؤ إلا على زَلَل (٥)
لم أدر ماحلَّ بالأبطال من خَوَرٍ ... بعد المِرَاس وبالاسياف من فلل (٦)
أصوَّحتْ شجراتُ المجد أم نضبتْ ... غُدْرُ الحمِّية حتى ليس من رجُل (٧)
لا يدفعون يدا عنهم ولو بلغت ... مَسَّ العَفَافة من جبن ومن خزَل
هيهاتَ يلقى الفتىَ أمنا يَلذُّ به ... مالم يَخضْ نحوه بحرا من الوَهَل (٨)
فما لكم لاتعاف الضيم أنفسُكم ... ولا تزول غواشيكم من الكسل (٩)
وتلك مصرُ التى أفنى الجلادُ بها ... لفيف أسلافكم فى الأعصُر الأول
قومٌ أقروا عِمادَ الحق وامتلكوا ... أزمَّة الخلق من حاف ومنتعل

---

١ — الغرض الهدف . الخمل جمع خامل
٢ — الدست صدر البيت والمجلس ، والمقصود به هنا الديوان ومجلس الوزارة والرياسة . وهى كلمة فارسية الأصل .
٣ — الخطل فساد الرأى
٤ — تأثل أى تأصل وعظم .
٥ — أصبح الناس فى عمياء ، أي فى فتنة عمياء مظلمة .
٦ — الخور (بفتحتين) الضعف . المراس (بكسر الميم) البأس والشدة . الفلل (بفتحتين) تثلم حد السيف .
٧ — صوحت يبست . نضبت جفت . الغدر جمع غدير وهو ما غادر السيل من ماء .
٨ — الوهل الفزع
٩ — الغواشى جمع غاشية وهى الغطاء

جنوا ثمار العُلا بالبيض واقتطفوا ... من بين شوك العوالى زهرة الأمل
فأصبحت مصر تزهو بعدَ كُدْرتها ... فى يانع من أساكيب الندا خَضِل
لم تنبت الأرضُ إلا بعد ما احتمرت ... أقطارُها بدم الأعناق والقُلل (١)
حتى إذا أصبحت فى معقل أشب ... يرد عنها يد العادى من الملل (٢)
أخنى الزمان على فرسانها فغدت ... من بعد منعتها مطروقة السبل (٣)
فأى عار جلبتم بالخمول على ... ماشاده السيفُ من فخر على زُحل

ويقول فى قصيدة أخرى من قصائد المنفى : (٤)

أبى الدهرُ إلا أن يَسُود وضيعُه ... ويملك أعناقَ المطالب وغده
تداعت لدَرْكِ الثأر فينا ثُعالةٌ ... ونامت على طول الوتيرة أسدُه (٥)
فحتام نسرى فى دياجير محنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمدُه
إذا المرْءُ لم يدفع يدَ الجوْر إن سطتْ ... عليه فلا يأسفْ إذا ضاع مجدُه
ومن ذلّ خوفَ الموتِ كانت حياته ... أضرّ عليه من حِمَام يَؤُدُّه
وأقتلُ داء رؤيةُ العين ظالما ... يسىء ويُتْلى فى المحافل حمده
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا ... أيفرح فى الدنيا ليوم يعده
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وَقْعَه ... كذى جرب يلتذ بالحك جلده

كذلك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك ، فكرة تحاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم ، ودعوة إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم والاستعباد . ثم تطورت الفكرة على أيدى أصحاب الثقافة الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطرا يهدد

---

١ — القلل جمع قلة (بضم القاف) وهى الرأس
٢ — أشب حصين
٣ — مطروقة السبل ، أى أنها أصبحت تطأها الأقدام وانتهك الناس حرمتها بعد منعتها .
٤ — الديوان ١ : ٧٢

وحدة الأقطار الإسلامية ويفرق كلمتها ويهدم تعاطفها ويضعف تكتلها بما يعرّضها للسقوط تحت أقدام الدول الأوروبية الطامعة ، واحدة تلو الأخرى .

وربما كان صالح مجدى (١) من أسبق الشعراء فى العصر الحديث إلى ترديد كلمات الوطن والوطنية فى شعره . وله فى آخر ديوانه خمس عشرة مزدوجة سماها « الوطنيات » ، امتدح فيها سعيد باشا والى مصر . وعرضت عليه فأمر بتلحينها والتغنى بها بمصاحبة الموسيقى العسكرية فى التشريفات والمواسم . وهو فى هذه الوطنيات يشيد بالوطن محاولا أن يغرس حبه فى القلوب، ويتغنى بأمجاد الأجداد، ويفاخر بجيش البلاد ، مبرزا قوته ، معتدا بشدة بأسه . ولكنه يربط كل ذلك بشخص سعيد ، ويجعله سببا للتعظيم من شأنه وتحبيبه إلى المواطنين .

فمن ذلك قوله فى الوطنية التاسعة

بامتداح الصدر غنوا   فهو للأوطان حصن
وهو للإيمان ركن   ولكُمْ فى الخوف أمن
فى ميادين الوقائع

فى الوغى أنتم أسودُ   يابنى الأوطان سودوا
ولها بالرُّوح جودوا   وادخلوا الأحْيا وصيدوا
صِيدَهَا يَوْمَ الزَّعازِع

واستعدوا للكفاح   فى مسَاها والصباح
واطلقوا خيلَ الفلاح   فى ميادين النجاح
وادفعوها فى المعامع

وانشروا للعز بندا   وانصروا الصدْر المفدى

---

١ — السيد صالح مجدى شاعر مصرى المولدمكى الاصل ولد سنه ١٨٢٥م وتوفى ١٨٨١م . تقلب فى عدة مناصب بين عسكرية وتعليمية وهندسيه وادارية . وخلف كثيرا من الكتب بين مترجم ومؤلف فى الرياضة والهندسة والميكانيكا والفنون العسكريه . وترجمته الكاملة فى الخطط التوفيقية .

واسلكوا الدربَ الأسدا   واقمعوا الخصمَ الألدّا
واقطعوا منه المطامع

يابنى الأوطان هيا   خيّموُا فوق الثريا
واهجروا النوم مليا   واطعنوا الضد الأبيا
وأجدعوا أنفَ الممانع

ومن ذلك قوله فى الوطنية الخامسة عشرة

فالصارمُ فى أثر المدفع   لعدو مخذول يصْدَع
وعن الأوطان به تدفع   من جاء بلا عقل يطمَع
فيها لبلاء مَقدورِ

لبَلاء فيها يرصده   بأليم عذاب يقصده
وهوان يحصده   منْ طوبجىّ تَرْمِى يدُه
لعدو الله المغرور

من طوبجىّ بالدانات   يغتال زعيم القادات
أو خيال فى الهيجات   يستأصل غصن الهامات
بحسام ماض مشبور

أو زنجى بالمزراق   لايطعن غير الأحداق
أو أوجى سام راق   ما يدفعه أبداً راقى
عن مهجة خصم شرير

أو زرخ تهجم بالخيل   للكبسة فى جنح الليل
فتزعزع أركان الفول   وترد الصاغ إلى الصول
وتعود بنصر مأثور

أو قراب بين الصف   يرمى برصاص للحتف
فيصيب الرأس مع الأنف   ويشوش تنظم الصف

في موقف هول منكور

أو ذي لغم بالصلقوم لا يطعم غير الزقوم
ويسد بوغاز الحلقوم من جيش باغ مذموم

مطرود عنا مدحور

أو كوبرىٌّ فوق البحر لا يُنْصَب إلا بالأمر
وإذا ما ساروا في البر حملوه كأثقال الجر

مطويا طي المنشور

أو ذي عِلْم عند الخطب بدقائق هندسة الحرب
يتصدى في يوم صعب لاستكشاف الوضع الخصب

في غفلة جيش محصور

ومن الواضح أن الصياغة أو الألفاظ ليست هي التي تلفت النظر في شعر صالح مجدى. فهو قليل الحظ من هذه الناحية، لا يقارن بشاعر كالبارودى. ولكن الذى يلفت النظر في شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية، التي تعتز بمصر وبجيش مصر، وتمتلىء حماسا للحرب وللقتال في سبيل مجد الوطن ورفعته. وذلك في وقت لم يكن للشعراء فيه من هم أو موضوع إلا التافه الرخيص من الأغراض.»

* * *

ثم انشغل الناس بما كان من فشل الثورة العرابية واحتلال مصر، ففترت الحركة زمنا وركدت ريحها، وقد دها الناس ذلك الخطب الجديد، فامتلأت قلوبهم رهبة من السياسة، وهيبة من الاشتغال بها، ومن مثل مصير عرابى وصحبه، وقد أصبح الأمر كله بيد الإنجليز.

ولم يزل الناس في دهشتهم حتى أفاقوا على صوت المنادين الذين ينبهونهم من غفلتهم في أوائل القرن العشرين. وكان قادة هذه الحركة الجديدة طائفة من

الشباب المثقف ، اختلفوا فى مناهجهم وأساليبهم . فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعلق بالجامعة الإسلامية سبيلا إلى ذلك . ومنهم من نهج نهجا جديدا جريئا فنادى بالجامعة المصرية ، محاربا فكرة الجامعة الدينية والرابطة العثمانية. وكان الفريق الأول — ممثلا فى الحزب الوطنى وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل — يتحدث عن الوطن والوطنية حديثا عاطفيا ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولا أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ليُحِلّ الوطنَ منها محل الدين كما يقول شوقى فى قصيدته التى حيا بها الوطن بعد عودته من منفاه :

ولو أنى دُعِيت لكنتَ دِينى عليه أقابل الحتْمَ اليبابا
أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فُهتُ الشهادةَ والمتابا

وكان الفريق الآخر — ممثلا فى حزب الأمة ، أو فى شبابه المثقف بتعبير أدق — يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة . فهو لا يستهدف إثارة الناس ، ولكنه يحاول إقناعهم . وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ، ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التى تجمع بين ساكنيه . وكلا الفريقين كان متأثرا تأثرا واضحا بالتفكير الأوروبى وبالدعوات القومية التى أصبحت بِدْع العصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين . بيد أن الفريق الأول قد حور ما نقل بما يلائم الطبيعة الشرقية ، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيمانا شديدا ، بينما نقل الفريق الآخر هذه الدعوة الأوروبية نقلا أمينا — أو أعمى إن شئت — لا تحريف فيه ولا تبديل ، ففجأ به السامعين .

يقول مصطفى كامل ، من خطبة له فى حديقة الازبكية سنة ١٨٩٨ (١)

« إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة . وكل ماترونه فى أوروبا من آثار العمران والمدنية ،

---

١ — مصطفى كامل ص ٩٤

ماهو إلا ثمار الوطنية . أصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وإنصافا . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقا وهبها إياها الخالق عز وجـــل . ولا ريب أنكم معشر المتعلمين ، معشر النابغين فى المعارف والآداب ، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية . فإنكم قرأتم فى التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية ، وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم ، وإخلاصا لأوطانهم ، فحيوا بموتهم. وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه . »

ويقول من خطبة له فى الاسكندرية ١٩٠٠ (١)

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعـوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شىء . ولـكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجـل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه . ولست فيما أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولـكنى استشهد على صحة هـذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها. فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : لو نزعتم العقيدة من فؤادى لنزعتم معها محبة الأوطان . »

من هذه المقتطفات يستطيع القارىء أن يتبين مدى التأثير الأوروبى فى تفكير رائد الوطنية الحـديثة فى مصر من ناحية ، وربطه بين الوطنية والدين من ناحية أخرى . أما حديثه العاطفى عن الوطن ، الذى هو أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقه ، والذى يصور هياما روحيا صادقا هو أقرب الأشياء شبها بهيام المتصوفة ، فهو جلى واضح فى خطبه وفى كثير من كتاباته ويـكفى أن أقدم عليه

---

١ — مصطفى كامل ص ١٢٢

مثلا واحدا من خطبته الكبرى فى الاسكندرية سنة ١٩٠٧ (١)، وهى أكبر خطبه وأروعها على الإطلاق :

«تقولون يا أعداء مصر إننا لو أفلحنا لما نلناهذا الاستقلال إلا بعد حين طويل، فنجيبكم أنا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل، لأننا لانعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون . وماقيمة السنين والأيام فى حياة مصر، وهى التى شهدت مولد الأمم كلها، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنسانى كله؟

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع . ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعوله كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لامحالة .

فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق، وأعقب الغروب غروب، فإننا لانمل ولانقف فى الطريق، ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى البلاد وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا، ولاالتهديدات تقفنا فى طريقنا، ولاالشتائم تؤثر فينا، ولاالخيانات تزعجنا، ولاالموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم! إنا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : «كونوا أسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم، ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد، للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى! بلادى! لك حبى وفؤادى . لك حياتى ووجودى. لك دمى ونفسى. لك عقلى ولسانى . لك لبى وجَنَانى. فأنت أنت الحياة، ولاحياة إلا بك يامصر.

---

١ — المرجع نفسه ص ٣٩٢ — ٣٩٣

يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها . وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعوه إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطنا أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

أسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد أن مصر جنة الدنيا وأن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبي .

إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصرياً .

قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان . ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان ؟

ليت شعرى ، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين؟ إن المكسب الأدبى للوطنى المصرى من هذه الخدمة يربى على أتعابه ومجهوداته بكثير . »

هذه كلمات تمثل لنا صدق تصوير شوقى له حين قال فى رثائه :

ياصب مصر وياشهيد غرامها هذا ثرى مصر فنم بأمان

* * *

وسرعان ما سرى أثر مصطفى كامل فى الشعر ، وظهر صـــداه فى الشعراء المعاصرين ، وكان الغاياتى ومحرم فى طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون فى شعرهم عن الهيـام بحب الوطن ، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية وإثارتها فى قوة دفاقة ، بما يجعلهما أشبه الناس فى شعرهما بمصطفى كامل فى خطبه . أما الغاياتى فاسم ديوانه والضجة التى اقترن بها ظهوره يغنيان عن كل تعليق . سمّى ديوانه « وطنيتى » ، واشترك فى تقديمه إلى القراء محمد فريد وعبد العزيز جاويش . وقد صودر الكتاب عقب ظهوره فى يوليو سنة ١٩١٠(١) ، وأحيل مؤلفه وكاتبا مقدمته إلى محكمة الجنايات متهمين بتحبيذ الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة . وكان محمد فريد فى أوروبا وقتذاك فأجلت محاكمته إلى مابعد عودته . وأما الغاياتى فقد نجح فى الهروب إلى سويسرا قبل المحاكمة ، وحوكم غيابيا فأدانته المحكمة وحكمت عليه بالحبس سنة مع الشغل . وأما عبد العزيز جاويش فقد حكم عليه بالحبس ثلاثة شهور مع النفاذ ، ونفذ فيه الحكم فوراً(٢) وأما محمد فريد فقد حوكم بعد عودته من أوروبا وحكم عليه بالحبس ستة شهور مع النفاذ (٣) .

قدم الغاياتى لديوانه بمقدمة طويلة تقرب من ثلاثين صفحة ، تكلم فيها عن واجب الشعراء فى بث روح الوطنية والغيرة القومية ومحاربة الظلم والاستبداد ، وعن حاجة مصر إلى نشيد وطنى . وترجم بعض قطع من المارسلييز « نشيد الثورة

---

١ — محمد فريد ص ٢٢٧

٢ — كانت المحكمة مؤلفة برياسة أحمد عفيفى وعضوية كل من على ذى الفقار ومسيو سودان . وكان ممثل الاتهام محمد توفيق نسيم ومثل الدفاع أحمد لطفى ومحمد على علوبة .

٣ — كانت المحكمة مؤلفة برياسة المستر دالروجلى وعضوية كل من أحمد ذى الفقار وأمين على . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم . ورفض محمد فريد أن يصحب أحداً من المحامين للدفاع عنه

الفرنسية » ، واختارها بما يناسب ظروف مصر فى ذلك الحين . ثم قدم ترجمتين لنشيدين فرنسيين آخرين هما « فرنسا » و « الوطن ». واختتم المقدمة بقوله « فحيا الله فرنسا ، فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذباً زلالا ، وجاهدت فى سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره ، وأشربت النفوس حبه ، فعسى أن نسكون على آثارها مهتدين ، وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتى نغدو بنصر الله فائزين. والله مع الصابرين.» والمقدمة تدل على أثر الشعر الوطنى الأوروبى ، والفرنسى منه خاصة ، فى دعاة الوطنية الناشئين من شعراء مصر . أما الديوان فهو يفيض بالحماسة والثورة وحب الوطن وتقديسه . ويكفى فى هذا المقام أن نقدم منه أمثلة ثلاثة . فمن ذلك قصيدته « طيف الوطنية » التى يقول فيها(١) .

فى سلام الليل حاربت المناما ... فسلاما أيها الطيف سلاما
مرحباً بالزائر السارى إلى ... مضجع الحب يحيي المستهاما
ليت شعرى هل رأى فى مضجعى ... شبحاً يشكو إلى الله السقاما
وهل الدمع الذى أغرقنى ... كان عند الطيف دمعاً أم ضراما؟
وهل النجم الذى أرصده ... أبصر الزائر فى عينى وهاما ؟
... لست أشكو الهجر من فاتنة ... تشتكى مثلى ولوعا وهياما
نحن صنوان قضينا حقبة ... فى ربوع النيل نستذرى الغماما
نبصر الفيض بمصر جارياً ... بيد أن القوم يشكون الأواما
ظمأ قاض ونيل فائض ... ودموع جارت السحب انسجاما
وعداة ملكوا الأمر ولم ... يحفظوا للشعب فى حق زماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا ... كلما رام العدا منهم مراما
... إنما الشعب الذى يرجو العلا ... ليس يرضى من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض ... فى سبيل المجد لا يخشى الحماما

ومما يلفت النظر فى هذه القصيدة كثرة كلامه عن « الشعب » . وهى كلمة برزت

١ — وطنيتى ص ٤٥

فى قاموس الشعر ، واقترن ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة ، فأصبح شعراؤها يستعملونها فى مقابل مرادفها القديم « الرعية » .

ومن الشعر الذى يصور هذه الروح الجديدة فى ديوانه قصيدته « آهة مصرى ينوح على مصر ، وفيها يقول(١) :

آهِ كم أَنَّةٍ وكم حسراتِ ... آهِ كم زفرةٍ وكم عبرات
طال ليل البلاد والشعب سار ... لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت ... بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم ... فلمن يشتكى خصام القضاة
أوشك القلب أن يطير انتقاما ... بَيْدَ أن الصدور ذاتُ أناةِ
ليس للصبر موطن فى فؤاد ... أضرمته لواعج الزفرات
بين جنبَيَّ مسهد مستهام ... ليس يشكو هوى فتى أو فتاة
هَمُّهُ مصرُ خيرُ أرضٍ أفَلَتْ ... بعد خير الهداة شرَّ البُغاة
طلع النحس بالشقاء عليها ... ودهاها الزمانَ بالويلات
قهرتها يد الطغاة وكانت ... مصرُ أولى بقطع أيدى الطغاة

ومن هذا الشعر فى ديوانه « النشيد الوطنى » الذى يقول فيه(٢) :

نحن للمجد نسير ... ولنا الله نصير
ليس يثنينا نذير ... عن بلاد تستجير
وعباد فى حداد
كيف نرضى بالممات ... وزمان الموت فات
إنما الدستور آت ... فعلينا بالثبات
عند آمال البلاد

نحن للمجد نسير . . . الخ

---

١ — وطنيتي ص ٩١
٢ — وطنيتى ص ١٣١

نحن شعب لا نضام   قبل أن نلق الحِمام
فعلى النيل السلام   من فتاه المستهام
يوم يقضى فى الجهاد

نحن للمجد نسير . . . الخ

فى هوى النيل السعيد   ميِّتُ القومِ شهيد
ذكره حىٌّ جديد   يومه للشعب عيد
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير . . . الخ

مرحبا بالفوز لاح   وانجلى ليل الكفاح
وشدا طير الصباح :   أدركَ الشعبُ الفلاح
وقضت مصر المراد

نحن للمجد نسير . . . الخ

فى هوى النيل السعيد   ميت القوم شهيد
ذكره حىٌّ جديد   يومه للشعب عيد
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير . . . الخ

مرحبا بالفوز لاح   وانجلى ليل الكفاح
وشدا طير الصباح ·   أدرك الشعب الفلاح
وقصت مصر المراد

نحن للمجد نسير . . . إلخ .

أما محرم ، فشعره فى حب مصر والهيام بها ، لا يعدله فى صدقه وفى حرارته إلا خطب مصطفى كامل . يقول فى قصيدته « إيمان المخلصين » (١)

أَلِى فى الهوى مالى، ولِلّائم العذر ؟   أما يعلمِ اللُّوّام أن الهوَى «مصر»؟

---

١ — ديوان محرم ٢ : ١١٦

فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ فإنه دمى وفؤادى والجوانح والصدر
لنفسى وفائى إن وفيت بعهدها وبى - لا بها - إن خنت حرمتها الغدر
أخاف وأرجو ، وهى جهد مخاوفى ومرمى رجائى ، لا خفاء ولا نكر
هى العيش والموت المبغّض والغنى لأبنائها والفقرُ والأمنُ والذعر
هى القدَرُ الجارى ، هى السخط والرضى
هى الدين والدنيا ، هى الناس والدّهرُ
بذلك آمنا . فيا من يلومنا لنا فى الهوى إيماننا ، ولك الكفر
تدفق فيها الوحىُ شعرا ، وإنما سقانا بها النيلُ الذى كله شِعر
تحير فيه الواصفون نفاسةً فأوصافه شتى وألقابُه كُثْرُ
رئيسٌ وذو تاج وشاعرُ أمة ونابغة غمْرٌ وداهية نُكر
إذا جال ماء النيل فى جوف شارب فليس له إن خان أبناءه عذْر

ويقول فى قصيدته « مصر فى تاجها الجديد » (١):

وهبتُ الصبىَ والشّيْبَ والشوقَ والهوى
لمصر وإن لم أقض حقّ الهوى مِصرا
بلادٌ حَبَتْنِي أرضُها وسماؤها حياتى ، وأجرَى نيلها فى فمى الدّرا
وما حادثٌ يوماً وإن راع وقعه بماح هواها أو يطاولها ذكرا
هى الدهر ، أو شىء يشابه صرفه وإبراسه والنقض والطىّ والنشرا
تمر بها الدولات شتى وترتمى عظاتُ الليالى حول أهرامها تترىَ
كأنى بها صحفَ الخلود . وكلها يخط عليها من أحاديثه سطرا
كأن رُباها للمالك منبر يقوم عليه الدهر يوسعها زجرا
كأن ثراها للشعوب تميمة تقى من جنون الجهل أو تبطل السحرا
كأن بماء النيل سراً محجّباً يرد إلى حكم الأناة من اغترا

---

١ — ديوان محرم ٢ : ١٣١

خذى من عظات الدهر يامصرُ ، واشهدى
عليه ، وزيدى فى أعاجيبه صبرا

ويقول فى قصيدته « تفرق المذاهب » (١) :

رويدَ كما يالائمىَّ فإن بى على مصرَ وجداً جل أن يتثلما
بلاد سقتنى الحبَّ عذبا ووكلت بصافية قلباً بين جنبىَّ أهيما
يزيد هواها كلما زاد بؤسها وتنمو تباريح الجوى كلما نما
حفظت لها عهدين : عهد شبيبة تصرمت اللذات لما تصرما
وآخرَ يكسونى المشيبَ مفوَّفاً ويلبسنى منه الرداء المسَّهما
وما المرء إلا قومه وبلاده فإن يذهبا يلق الأذى حيث يمما

* * *

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية ، الذى كان يحارب فكرة الجامعة الإسلامية ، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع ، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين ، فقد كان مشتملا على قسمين · قسم تمثله صحيفة « المقطم » التى تعمل لحساب الإنجليز ، وقسم آخر تمثله صحيفة « الجريدة » التى تنطق بلسان حزب الأمة .

أما صحيفة « المقطم » فقد كانت صريحة فى تأييد المحتل وتصويره فى صورة إنسانية رائعة . فالإنجليز — فى زعمهم — لم يجشموا أنفسهم مشقة الإقامة فى مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل . وإليهم وحدهم يرجع الفضل فى إنقاذ مصر من الافلاس ، وإقامة اقتصادها على أساس سليم متين (٢) . وإليهم وحدهم

---

١ — الديوان ٢ : ٩٠

٢ — كان هذا هو زعم كرومر الذي لم ينهض أحد لتفنيده على أساس اقتصادى على مستند إلى الاحصائيات والأرقام . فكان الذين يهاجمونه يندبون باستبداده ، وسياسته الاستعمارية ويسلمون بفضله على الاقتصاد المصرى ، وغاية مايبلغون أن يحقروا من شأن هذه الناحية قائلين إن المال ليس هو كل شىء فى حياة الأمم ، كما يقول حافظ : ==

يرجع الفصل فى رفع الظلم عن الفلاح المصرى المسكين ، الذى كان مستعبداً لطائفة الباشوات من الترك . وهم الذين يحدون من شره الحاكم التركى (الخديوى) ويحولون بينه وبين ابتلاع أرزاق الناس وأقواتهم .

كان كل ما تكتبه صحيفة « المقطم » وكثير مما تكتبه مجلتهم العلمية « المقتطف » يدور حول هذه الآراء ، ويحاول إقرارها فى أوهام الناس ، وجمع أكبر عدد حولها من المصريين — أو المقيمين فى أرض مصر بتعبير أدق ، من وطنيين ودخلاء — زاعمين أن هذا هو الاتجاه الوطنى الحق الذى لا ينظر إلا إلى خير مصر ومصلحتها المادية ، وأن المخالف له إنما هو رجل يفكر بعقول الترك ، ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه مصر . وقد نجحت الصحيفة فى أن تغوى قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية فانضموا إلى دعوة « المقطم » تقربا من ساكن الدوبارة . وسمت هذه القلة نفسها بـ « الحزب الوطنى الحر » ، وأعلنت الحرب على « الحزب الوطنى » الذى كان يتزعمه مصطفى كامل ، متهمة إياه بالتدليس وبالتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الخراب ، مرجعة إليه وحده ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية ، مردها فى رأيهم إلى حالة القلق التى أوجدها هؤلاء المهيجون ، فكانت سببا فى أن يكف أصحاب رءوس الأموال من الأجانب عن

= تشعبت الآراء فيك فقائل أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
رأى العز كل العز فى بسطة الغنى تحارب جيش الفقر حتى تبددا
... وآخر لم يقصر على المال همه يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم يا لورد معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمدا وأجدبت فى مصر العقول تعمدا

ولم يزل الأمر كذلك ، حتى نهض روتشتين للرد على ما يدعيه كرومر لنفسه من فضل على الاقتصاد المصرى ، مفندا مزاعمه بالاحصائيات والأرقام . وجعل ذلك محور كتابه « Egypt's Ruin » الذى نشره فى انجلترا سنة ١٩١٠ ، والذى ترجم إلى العربية ونشرته لجنة التاليف فى مصر سنة ١٩٢٣ بعنوان « تاريخ المسألة المصرية » كما ترجمه بعد ذلك على أحمد شكرى سنة ١٩٢٧ بعنوان (تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده)

استثمار أموالهم فى مصر ، وأن رفض البيوت المالية تقديم القروض . ولم يكن هذا « الحزب الوطنى الحر » فى حقيقة أمره شيئا غير « محمد وحيد » الذى كان ينشر بعض مقالات باسمه ابتداء من سنة ١٩٠٧ بإمضاء رئيس الحزب الوطنى الحر ، ونفر قليل لا يكاد يتجاوز عدده أصابع اليد ، ممن يدعون أنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فى مصر .

ومن أمثلة ما كان يكتب هذا النفر من الناس كلمة لمن يدعى مصطفى عمار » عنوانها (أصحاب المصالح الحقيقية) جاء فيها : (١)

« يظهر أن اللواء يقصد بتكراره ذكر دنشواى اتخاذ ذلك وسيلة للتعريض بسعادة الفاضل فتحى باشا زغلول وحك حزازات فى الصدور ، مع أن فضل سعادة الباشا وفضل أخيه سعادة الفاضل سعد باشا مشهور ومعلوم عند الأمة المصرية كلها وعند غيرها أيضا . فجدير بصاحب اللواء أن يترك هذه الخطة الممقوتة وينضم إلى الحزب الوطنى الحر ، ويسعى فى تفريج هذه الأزمة التى كادت تخرب البلاد . وما شدد وطأتها علينا إلا هو وأمثاله الهجاصون كما أوضح ذلك حزب أصحاب المصالح الحقيقية فى المقطم الأغر . وإلا فالواجب على كل مؤمن أن يقاتل فئة اللواء الباغية بقلمه ولسانه حتى تفىء إلى أمر الله . ويلتمس العقلاء من جناب عميد الإصلاح وضع حد لهذه الفوضى لإنقاذ مصر من الخراب فيشكرونه . كما شكر المقطم الصادق لنشره أفكار أصحاب المصالح الحقيقية خدمة للأمة »

وفى مقال آخر لمحمد وحيد عنوانه « سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » يتكلم عن الأزمة الاقتصادية ويرد أسبابها إلى أن أصحاب الأعمال المالية قد امتنعوا عن توظيف أموالهم فى مصر بسبب تهييج المهيجين على الاحتلال ، مما زعزع ثقتهم فى مصر ، ويحض المصريين على مسالمة المحتلين ويزعم أن بعض الماليين يفكرون فى العودة إلى توظيف أموالهم بعد أن سمعوا عن حركه .

١ — المقطم ٢٥ يونية سنة ١٩٠٧

الحزب الوطنى الحر . (١)

وقد نشر محمد وحيد هذا سلسلة من المقالات تحت عنوان (أصحاب المصالح الحقيقية) هاجم فى أحدها مصطفى كامل وصحيفته (اللواء) ثم قال « فواجباتنا الوطنية ومصالح أمتنا تقضى علينا فى هذا المقام أن نتقدم إلى جميع الأجانب على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم بلسان الحزب الوطنى الحر ، الذى يمثل أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، وبلسان سائر عقلاء الأمة الأحرار ، ونقول لهم إن الأمة ضربت بتلك الصحيفة الساقطة أمس عرض الحائط ، فلم يقع عدد من أعدادها فى يد عاقل أو ذى شأن إلا استاء من قراءتها وصب عليها جام غضبه واشتد سخطه على صاحبها . » ثم يورد صورا من رسائل تأييد من طالب رجا أن لا يذكر اسمه ، ثم من حضره الوطنى الغيور السرى الوجيه حافظ بك ذهنى ، ومن فلان من أبناء ذوات مصر ، ومن فلان من أصحاب الأملاك فى العاصمة ، ومن فلان من أرباب الأطيان فى المنوفية .(٢)

كان « المقطم » إذن صريحا فى ولائه للإنجليز لا يستخفى ولا يدارى ، فهو يهاجم الخديوى عدو كرومر فى صراحة . وهو يمجد الإنجليز فى صراحة أيضا ، ويكتب فى ذلك المقالات الصارخة العارية من كل حياء ، لا يكلف نفسه مشقة إخفائها تحت ثوب من الرياء أو النفاق أو المجاملة للشعور الوطنى . وكان الموالون له من المصريين الذين قدمنا أمثلة من كتاباتهم فى مثل صراحته أيضا . وهم حين يتحدثون عن الجامعة المصرية لا يرون مصر التى يريدون أن يجمعوا عليها الناس إلا سوقا ، ولا يرون الوطنية إلا العمل على ملء البطون وتوفير المال من كل طريق وبأى وسيلة . ثم هم لا يقيمون للعواطف وللقيم الأخلاقية أو الوطنية وزنا . فليست الوطنية عندهم كرامة ، وليست كبرياء . وإنما الوطنية عندهم هى المصالح وهى المال . ولذلك فقد كان حديثهم عن (أصحاب المصالح الحقيقية) لا ينقضى .

---

١ — افتتاحية المقطم ٢١ يونيه سنة ١٩٠٧

٢ — المقطم ١٨ يونية سنة ١٩٠٧

وهم حين يتحدثون عن أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء ، إنما يعنون بهم أصحاب رءوس الأموال من ملاك الأراضى الزراعية ومن الأعيان . ولم يكن هؤلاء الكتاب على شيء من الثقافة أو عمق التفكير أو سمو الأسلوب . ولم تكن بضاعتهم إلا سبابا رخيصاً يكفى أن نقدم منه صورة من خطابين نشرهما المقطم (١) .

وقد جاء فى أولهما «ومما يضحك الحزب الوطنى الحر ، حزب أصحاب المصالح الحقيقية فى مصر ، مايكتبه غراب أولئك الهجاصين من الآراء المالبة عن الأزمة الحالية . فإنها آراء تدل على أن ذلك الغراب الذى شاب وما تاب ، يحسب هذه الأزمة مثل أزمته الخصوصية التى نتفت ريشه ، وقضت عليه قضاء مبرما فى آخر أيامه . »

وجاء فى تقديم « المقطم » للخطاب الثانى « ورد الكتاب التالى على حضرة الوجيه الهمام محمد بك وحيد بقلم وطنيين من أرباب الأطيان فى المنوفية . وهاك صورته بعد الديباجة . » ثم أتت على نص الخطاب . وهو :

« أعجبتنا خطة الحزب الوطنى الحر كثيرا . ووافقت تصريحاته آراءنا وأميالنا . وتأكدنا من إخلاصه فى أقواله أنه يقصد خير الوطن وأبنائه ، فملنا إليه قلبا وقالبا ، وجئنا سعادتكم بكتابنا هذا راجين قبولنا ضمن رجاله . ونحن مستعدون لكل خدمة ترقى بها مقاصد هذا الحزب الشريف حبا لوطننا وأمتنا . فليحى أحرار مصر الصادقون وأصحاب المصالح الحقيقية فيها . وليسقط الهجاصون والخناسون والحشاشون الذين يضرون بوطنهم لقضاء مصلحتهم ويقولون كذبا إنهم ينوبون ويتكلمون بلساننا »

أما حزب الأمة فقد كان قوامه جماعة من الباشوات أو كبار ملاك الأرض، مثل محمود سليمان وحسن عبد الرازق وحمد الباسل وفخرى عبد النور وسليمان

---

١ — المقطم عددا ١٨ ، ٢٥ يونيو سنة ١٩٠٧

أباظة وعبدالرحيم الدمرداش وعلى شعراوى ومحمد الحفنى الطرزى ومحمد التمريعى (١). وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت كلها إلى كرومر الذى يمثل سلطة الاحتلال ، وأن مصالحهم الشخصية تقضى عليهم أن يكونوا على وفاق معه . فألفوا حزبهم بصفة رسمية فى ٢١ سبتمبر سنه ١٩٠٧ (٢) برياسة محمود سليمان (باشا) . ولم يكن تفكيرهم السياسى وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصية ،ولكنهم لم يجدوا بدا من أن يضموا إليهم جماعة من المثقفين على رأسهم لطفى السيد ، ليكونوا لسانهم فى صحيفة «الجريدة» التى اكتتبوا لإنشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، والتى ظهر العدد الأول منها فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ (٣) . وبذلك كان الحزب منذ نشأته مكونا من فريقين تختلف أهدافهما ومراميهما اختلاف تكوينهما العقلى. أما الأعيان فقد انحصر تفكيرهم فى مصالحهم ، ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح الشخصية . وأما المثقفون من محررى الجريدة فقد كانوا أصحاب مذهب سياسى اجتماعى ، حاولوا جهد استطاعتهم أن يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذى أنشئت الصحيفة بأمواله . ولكن الحزب ظل مع كل ما بذل من محاولات مكونا من فريقين منفصلين ، فريق الأعيان وفريق المفكرين . (٤)

كانت « الجريدة » تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ،وترى أن الاعتراف بشرعيته لا يعنى عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطته أونفوذه . وكانت ترى أن هؤلاء المحتلين ماضون فى طريقهم ، مستقلون بتصريف الأمور، رضى المصريون بذلك أم كرهوه. ومن الواضح — فى نظرهم — أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة لم تتوفر للمصريين . فالذين يهيجون الناس عليه إنما ينفقون الوقت فيما لا طائل تحته ، ويصرفون الجهد إلى ما لا ينفع . فهم أصحاب خيال أوتهريج

١ — راجع افتتاحية العدد الأول من صحيفة الجريدة ٩ مارس سنة ١٩٠٧

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٩

٣ — الدولة العربية المتحدة ٣ : ١٠٣

٤ — تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٨

حسب زعمهم والأولى عندهم أن تنفق هذه الجهود فيما يعود على الأمة بالنفع، وفيما يرفع مستواها الاجتماعى والاقتصادى . ومادام الإنجليز هم المستقلين دون غيرهم بتصريف الأمور فلا سبيل إلى العمل على الإصلاح أو تنفيذ أى مشروع يرمى إلى النهضة بمصر إلا بالاتفاق معهم . فالخير إذن — فى رأيهم — هو أن ينصرف المصريون عن حربهم إلى إقناعهم بالإصلاح .

هؤلاء قوم يتحدثون إلى العقول ولا يناجون القلوب . ويسفون إلى الواقع ولا يحلقون مع الخيال . فهم — كما يسمون أنفسهم ، وكما يسميهم خصومهم حين يتهكمون بهم — « عقلاء الأمة » . وخصومهم الذين يحاربون الاحتلال دون أن يملكوا من أدوات الحرب إلا الكلام هم المتهوسون أو المهرجون أو المتطرفون، كما كان يحلو لهم أن يسموهم . فالوطن عندهم ليس شيئا يُعشَق ، ولكنه مصلحة ماديه مشتركة ، أو هو مركز المصلحة العامة أو آلتها كما يقول أحد كتابهم فى مقال له عنوانه (الوطنية فى مصر) (١) . ولذلك فهم يشتركون مع « المقطم » فى كثرة الكلام عن (أصحاب المصالح الحقيقية فى مصر) . وهم يطلبون أن يكون هؤلاء هم الممثلون للمصريين فى إدارة شئون البلاد . (٢) وهم يهاجمون الحزب الوطنى القديم (حزب عرابى) ، الذى أدى تطرفه — كما يقولون — إلى نكبة مصر بالاحتلال الذى لا يزال باقيا . ويقولون إن عرابى هذا لم يكن له فى مصر (ناقة ولا جمل)، فمصلحة مصر لا تهمه ولا تعنيه ، لأن النفع لا يصيبه ، ولأن الضرر لا يقع عليه . وقد كان عليه — فى رأيهم — أن يدع تصريف الأمور لأصحاب النوق والجمال ، أو من يسمونهم « أصحاب المصالح الحقيقية » (٣)

وربما كانت بعض المقالات التى أشرنا إليها فى « الجريدة » قد كتبت لإرضاء أصحاب رأس المال فى شركة الجريدة من أعيان حزب الأمة . ولكن هناك

---

١ — افتتاحية العدد الثانى من الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

٢ — راجع افتتاحية الجريدة عدد ١٣ يونية سنة ١٩٠٧ (أعيان الأمة هم أجدر الناس بالنيابة عنها)

٣ — الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

مقالات أخرى يستطيع القارىء المنصف أن يتبين منها حسن القصد فى توجيه الفكرة الوطنية الجديدة وإن أخطأ أصحابها التوفيق، وخانهم السداد، والتوى عليهم وجه الحق والصواب فى كثير من الأحيان. وخلاصة آرائهم فى مثل هذه المقالات هى أن الوطنية لا ينبغى أن تكون اندفاعا عاطفيا أعمى، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم والتفكير الهادىء المتزن. ولا ينبغى أن تقام على أساس من الأوهام التى لا سبيل إلى تحقيقها، من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية. والأحرى بالمصرى أن يفكر فى نفسه أولا، وفى مصلحته قبل كل شىء، وهى مصلحة يتفق فيها سائر المصريين — وهم يعنون بهم المقيمين فى مصر ممن استوطنوها (١) — على اختلاف نحلهم ومذاهبهم، ولا يشاركهم فيها غيرهم من المسلمين.

وربما كانت افتتاحية العدد الأول من « الجريدة » التى كتبها لطفى السيد مصورة لأهم اتجاهاتها .. وإليك نصها :

« ما الجريدة إلا صحيفة مصرية، شعارها الاعتدال الصريح، ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح، والحض على الأخذ بها، وإخلاص النصح للحكومة والأمة، بتبيين ما هو خير وأولى. تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن، من غير تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم، أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم وهو الأمة.

ولقد اختلف القوم فى أمر الجريدة منذ وضع مشروعها، وقدر بعضهم لها مذهبا مالهم به من علم إلا اتِّباعَ الظن. ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم، وأدنى إلى عدم الفتّ فى أعضاد الجامعة الوطنية. ولكنهم لا يصبرون.

١ — راجع مقاليه لطفى السيد ص (الجامعه المصريه) نشرا فى الجريدة فى ٥ اكتوبر، ٩ اكتوبر سنة ١٩٠٩ (ص ١٧٠ — ١٧٣ من المنتخبات للطفى السيد)

ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان . ولكن بعض الكتاب أبى إلا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها . فخلق لها نسبا لاتعرفه ، إذ يقول إنها أنشئت بوحي من جناب اللورد كرومر ، أوأنها متحيزة إلى طرف دون آخر . على أنها من كل ذلك براء .

ومهما يكن من الأمر فإنا نمر بتلك المغامز مرا ، إذلا نقصد درء شبهة ، ولا أن نقف بأحد موقفا أظهرنا فيه على صاحبه أخسره لوقته . وكل في حل مما قال

هنيئا مريئا غير داء مخامر

لايكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات فى حال الأمة السياسى هو التشابه فى الرأى بين الأفراد ، وهذا مايسمونه بالرأى العام .

والناس بطبائعهم أشتات فى الرأى كما قيل (للناس عدد رءوسهم آراء) . وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الأمور العامة إلى تدبير حياتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم إلى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما هو غير الأول ، وأن لهذا الوجود العام كمالا يجب أن يرقى إليه عمل الأفراد .

وإن أثر هذا الإرشاد فى النفوس مدعاة إلى تقريب الآراء المتباينة بعضها من بعض ، فيحصل بها الرأى العام . وعلى هذا تكون الصحافة هى الآلة الأولى للإرشاد والرقابة تتبعها فى طورها الاجتماعى ، وترقى برقى الأمة ، حتى تنتقل كغالب الأعمال العامة من يد الفرد الذى قد . . . . (١) إلى أيدى الجماعات ، لأن . . . . (١) أمرا ، وأثبت رأيا ، وآمن هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث منقلبا

---

١ — مواضع النقط باليه وة النسخه التى اطلعت عليها فى دار الكتب

وإن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراجعة الأحوال العامة وأقدرها على العمل لتكوين الرأى العام جماعةَ أولى الرأى، وهم الذين نَبهُو ذِكْراً بعلو النسب أو بالعلم والفضل. كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة، من نشر التعليم العام، والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة، والأخذ بنصيب من الرقابة العامة، وقفت الأمة عن التدرج فى مَرَاقِى المدنية الصحيحة، خصوصا فى حالها الظامى، وصار الأمر فيها مفوضا إلى رغائب الحكام، يميلون بها إلى حيث يشاءون.

وما كان أعضاء شركة (الجريدة) المصرية لينشئوها إلا لتحقيق هذه المبادىء الراسخة.

ولِمَا أنهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم، واشتراكهم معها فى كثير من الأعمال العادية. وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذى أثر سياسى إلا أحاطت به الشكوك، رأوا أن يكاشفوا الحكومة فى أمر المشروع، دفعا لتلك الشكوك المحتملة وأخذا بأقوم الطرق إلى نيل ماعساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ، لأن الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها إذا اقتنعت بأنه لمصلحة الأمة.

وإن أسهل سبل الإقناع وآكدها فى الوصول إلى الغرض هو سبيل المُحَاسنة التى لا تجر إلى ترك حق أو تزيين باطل. وهى أجلى مظاهر الاعتدال، الذى يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة، كلتاهما فى طور التكوين، لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الأمة، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة، فتعطل بذلك أسباب الرقى التى يتوقف حلها على إشتراك الطرفين.»

ثم ختم المقال بذكر أسماء أعضاء شركة الجريدة. وهم من أعيان البلاد وكبار الملاك.

ونستخلص من هذا المقال أشياء :

أولها : رد الصحيفة على من يتهمونها بأنها إنجليزية الميول ، أنشئت بوحى من اللورد كرومر ، وهو رد يثبت وجود التهمة وذيوعها . ويبدو اعتراف الجريدة بسلطة الاستعمار وحرصها على حسن الصلة به بشكل واضح فى مقال آخر عنوانه (حالتنا السياسية) جاء فى آخره(١) « الأمة المصرية أمة تحب السلام والطاعة كما تحب الإخلاص لحكومتها . وهى تحترم السلطة الشرعية ولا تنكر السلطة الفعلية . فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطتان جميعا بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات ، لكى لا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة فيما ينفعها من حيث هى أمة مستعدة لأن تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم بواجبات الأمم فى السعى فى تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية . »

والأمر الثانى الذى نلاحظه فى هذا المقال هو دعوة الصحيفة إلى تقريب الفروق بين المواطنين حتى يوجد رأى مصرى عام ، وهى فكرة جديدة على مصر وقتذاك متأثرة بالتفكير الأوروبى والنظم السياسية الغربية . وإن كنا قد رأيناها من قبل فى مقال محمد عبده عن « الحياة السياسية » الذى نشر فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨١ قبيل الثورة العرابية ، والذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل.

والشىء الثالث الذى نلاحظه هو اعتراف الصحيفة بصلات كبار رجال الحزب بالحكومة لاشتباك مصالحهم معها ، والدعوة إلى محاسنتها لأن هذا الطريق هو خير السبل المؤدية للإصلاح . وهذه الحكومة التى تدعو الصحيفة إلى محاسنتها وتعترف بحسن صلاتها بها هى حكومة مصطفى فهمى (باشا) الذى عرف بولائه التام للإنجليز ، والذى وصفه كرومر بأنه كان مؤمنا بأن مصلحة وطنه فى الولاء للإدارة الإنجليزية لا فى معارضتها (٢)

أما الشىء الرابع والأخير فهو تعريفه أولى الرأى فى الأمة بأنهم هم الذين

---

١ — الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧

٢ — Modern Egypt ٢ : ٣٤٦

نبهوا ذكرا بعلو النسب أو العلم والفضل . وهو تفكير تبدو فيه المجاملة لأعيان حزب الأمة . وهو يصور أن الحزب قام أولا على أساس المصالح الشخصية بما يجعله أشبه بالنقابات التي ينحصر تفكيرها في المصالح الطائفية أو المهنية .

ومما يصور مذهب الجريدة في الوطنية مقال عنوانه (الوطنية في مصر) (١) جاء فيه :

« الوطن في لغة العامة مقر المرء أو مسقط رأسه . وليس في مثل هذا الحد يخوض المتكلمون في الوطن والوطنية بلغة السياسة وعلم الاجتماع . وإنما يخوضون في حد الوطن الجامع الذي يجمع بين المختلفين . وفي هذا اختلف العلماء لاختلاف الجهات التي نظر كل منهم إليها . »

ثم يورد رأي الاشتراكيين في أن الأرض كلها وطن واحد ، ورأي علماء الأديان الذين يطلقونه على مساكن الذين يدينون دينهم ، ورأي بعض علماء الاجتماع الذين يرون لكل شعب وطنا قديما ويعتبرونه أحق به . وينتهي إلى إيراد رأيه في أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة فيقول :

« لكل ممن ذكرنا جهة في تعريفهم للوطن الجامع . والحقيقة تجمع الجهات كلها وترجح لها ، فنرى الوطن عندها عبارة عن مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون في دفع الضار وجلب النافع . وربما صح أن نقول بدل قولنا (مركز المصلحة) أنه (آلة المصلحة) . ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الآلة فقد هذا الاسم وبطل التشبيب بذكراه .

فمسقط الرأس ليس لأحد بوطن إذا صار بلقعا وخوى ، أو استحوذ عليه العدو وبغى ولم يبق للمرء فيه أهل ولا مِلْك ولا جدوى ، ولحق بما هو خير منه وأولى . مثال ذلك البراري التي هاجر منها أسلاف آل عثمان ، فإنها لم تعد لهم وطنا بعد أن ظهر فيها العدو ولحقوا بغيرها . فكان ما كان من تأسيسهم هذا

---

١ — افتتاحية الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

الملك . أرأيت أحدا سمعهم من بعد يذكرون تلك البرارى ويتعنون بها كما يتغنى الواحد بذكر وطنه الذى لايزال متعلقا به ؟

والبلادُ المملوكة إذا تمادى فيها التمرد لاتصير وطنا للحكومات المالكة . بل قد تكون مناخا وبيلا لسلطتهم القاهرة يضرها أكثر مما ينفعها . ولذلك تتخلى الدول طوعا أو كرها عن البلاد التى هذا شأنها ، كما تخلت حكومة آل عثمان كرها عن بلاد السرب والجبل الأسود واليونان والبلغار ورومانيا ثم عن جزيرة كريد ، وكما تخلت انجلترا طوعا عن كورفو (من جزر اليونان) التى صرفت فيها خمسين سنة فى تهذيب أهلها وتهدئة خواطرهم وكبح جماحهم » .

وواضح من هذه الفقر التى قدمتها من المقال أنه يقيم الوطنية على أساس من النفع والمصلحة . فصاحب المقال يفكر بعقول أعيان حزب الأمة الذين لايهتمون إلا بمصالحهم وبالمشاريع التى تتصل بأراضيهم وأملاكهم . فهو يفلسف لهم آراءهم النفعية ، ويكسبها وجودا قانونيا مشروعا بإقامتها على أساس من المبادىء السياسية العامة . وواضح فيه كذلك تحامله على تركيا حين وصفها بأنها تخلت كرها عن بعض املاكها ، ومجاملته لإنجلترا حين وصفها بأنها تخلت عن بعض هذه الأملاك طوعا ، بعد أن بذلت الجهد فى تهذيب أهلها .

ومما يصور مهاجمة « الجريدة » لفكرة الجامعة الدينية ، وتسفيه الداعين إلى هذا الوهم الذى لايقوم على أساس من الواقع ، والذى لا سبيل إلى تحقيقه ، مقال فى الرد على تقرير كرومر ، بدأه كاتبه بتفنيد ماجاء فيه عن الجامعة الإسلامية فقال (١)

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لايزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الأمور العامة بشىء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا

---

١ — الجريدة ٧ مايو سنة ١٩٠٧

للحوادث . فكلما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لاتساعد في الشرق إلا الأمم المسيحية ، فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة كما للمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها ، وأنها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول هذا ونحن لانعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية (بانيكريستيازم) كما خلقت كلمة جامعة إسلامية (بانسلامزم). على أن عقلاء المصريين لايرون لكلتيهما وجودا في العالم ، ولكن السياسة تخلق ماتشاء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدى إلى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذى خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق .

أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها ، فهذا لادليل عليه مطلقا ، كما أنه لو حوول إيجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه . فقد علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لاشيء يجمع بين الناس إلا المنافع . فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين » .

ومما يصور هذه المهاجمة لفكرة الجامعة الإسلامية مقال آخر لعبد الحميد الزهاوى عن السنوسية والجامعة الإسلامية جاء فيه :[1]

« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة ، وهي أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق يعلم أنه لم

---

١ — الجريدة ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

يدفع عنهم الاختلاف الذى لا اتفاق معه بعد . فمنذ اختلف المسلمون ثلِبَت جامعتهم ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر ، ولا اتفاقا دينياً بعد عهد على . فما هى جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافا سياسيا واختلافا دينيا ، يقتل بعضهم بعضا ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس؟ ماهى جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئةً أخرى منذ مقتل خليفتهم الثانى إلى يومنا هذا ؟ ماهى جامعة قوم يُسَرُّ ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ ماهى جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا شرقيا (هولاكو) اكتسح بلادهم وهم فى عزِّهم ، فلم تتَضَامّ أيديهم على مقاتلته، وكانت لاتزال قوية على قتال بعضها بعضا ؟ وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا غربيا (الصليبيين) هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهمة طائفة منهم قوِيَتْ وحدَها على صده ؟ . . . »

* * *

كان حديث مصطفى كامل عاطفيا مثيرا . وكان حديث هؤلاء هادئاً عاقلا. فهم ينزعون عن الوطن صفة القداسة التى يحاول مصطفى كامل أن يغرسها فى قلوب الناشئة والمواطنين . وهم ينزعون عن المواطنين صفة الأخوة فى الدم أو الدين ، وينظرون إلى الوطن نظرة مادية خالصة . فالمواطنون مجموعه من الناس جمعتهم هذه السوق التى تسمى وطنا ، وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لا تركد ولا تكسد ، وعليهم أن تجتبوا النزاع العنيف ، حتى لايفزعوا البائع والمشترى على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ، ويقل ربحهم .

والفرق بين حديث أولئك وهؤلاء كالفرق بين حديث الشباب وحديث الشيوخ . والواقع أن الأوطان لا تستغنى عن الذين يثيرون العواطف ويحفزون للعمل ، كما لا تستغنى عن الذين يدبرون الخطط فى هدوء ليصححوا اتجاه العاملين ويوجهوهم فى سيرهم . وهى محتاجة إلى الثائرين الذين يرسمون المثل العليا كما تحتاج إلى العقلاء الذين يعملون على أساس من الواقع الذى يمكن تحقيقه . ولكنها فى

أطوار نشأتها وتكوينها تحتاج إلى الشباب من العشاق أكثر من حاجتها إلى الشيوخ من العقلاء . وتحتاج إلى المتطرفين الذين لا يبالون بالعواقب حين يندفعون فى تفديتها بالروح والمال أكثر من حاجتها إلى المعتدلين الذين يبطىء بهم التدبير والتقدير حتى تمنعهم الهيبة التى تغلب على المفكرين من الإقدام . وتحتاج إلى الفدائيين الذين يركبون الموت أكثر من حاجتها إلى أصحاب المنطق الذين يقدرون لكل خطوة عواقبها فينتهى بهم الأمر إلى تصعيب الطريق على السالكين وتثبيط همم الثائرين. ولم يقم قط نبي بثورته الدينية على أساس من الواقع الذى لا يدعو إلى مجرد الأمل والتفاؤل . ولم يرم قط جندى نفسه فى أتون القتال إلا مدفوعا بالعاطفة المشبوبة ، ولو فكر وقدر لأفزعه ثكل الأم وترمل الزوجة وتيتم الصبية والبنات

* * *

كان المقطم والجريدة يشتركان فى مبدأين أساسيين . أولهما مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرج فى الإصلاح . وثانيهما محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للانجليز . واشتراكهما فى هذين المبدأين قد دعا إلى الخلط بينهما عند أوليائهما وأعدائهما على السواء ، حتى لقد توهمت صحيفة « المقطم » أن « الجريدة » تتفق معها فى المبادىء ، فدعتها إلى الاتحاد معها بانضمام حزب الأمة إلى الحزب الوطنى الحر . وردت « الجريدة » على هذه الدعوة بمقال عنوانه (تعالوا نتفق أو نختلف)(١) استعرضت فيه مبادىء صحيفتى « اللواء » و « المقطم » ثم قالت ردا على « المقطم » .

« . . وأما المقطم فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال. أما الجريدة فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقا . وإنها لا تناقش الآن فى أصل الاحتلال ، لأن

---

١ — الجريدة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق فى الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون الجريدة والمقطم متفق المذهب . نعم إنا نشكره على أنه شرفنا باعتبار خطتنا خطته ومطالبنا مطالبه أو مطالب حزبه (الموهوم) ، كما أسدى لنا العُرْفَ فى تنبيه حزبنا بلطف إلى أن ينضم لحزبه حتى لا تفرق الأحزاب !! ولكننا نأسف أنه لا يمكننا أن نوفق بين روحى الخطتين ، كما لا يمكننا أن نعد الجريدتين متفقتين فى شىء من مذهبيهما »

وكان الحزب الوطنى يختلف عن حزب الأمة فى مبدأين أساسيين : أولهما هو عنفه فى مهاجمة الاستعمار وتكريسه حياته لغرس بغضه وكراهيته فى نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة إلى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ التى تمنح مصر استقلالا داخليا وتعترف بالسيادة التركية .

أما المبدأ الأول فهو الذى دعا خصوم مصطفى كامل إلى وصفه بأنه متطرف أو مجنون. وأما المبدأ الثانى فقد كان داعيا إلى اتهامه بأنه يعمل لاستبدال الاستعمار التركى بالاستعمار الإنجليزى . ولذلك كان همُّ « المقطم » أن يوازن بين ظلم الترك وعدل الإنجليز. وقد ظل مصطفى كامل ينفى عن نفسه هذه التهمة طول حياته السياسية ويوضح وجهة نظره بأنه إنما يتمسك بالسيادة التركية لأنه إن جحدها فقد جحد معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وهى حجته الوحيدة فى عدم شرعية الاحتلال. على أن السيادة التركية لم تكن إلا سيادة إسمية ينحصر مظهرها فى الجزية وفى تعيين قاضى القضاة التركى . فهو يطلب لمصر الاستقلال . وهو إن أخلص الود لأمة أو لدولة فإنما يجرى على السياسة التى تجرى عليها كل الدول ، القاضية بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ودافع عن دعوته إلى الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والإسلام بأن الدين والوطنية توأمان لا يفترقان ، وبأن من الخطأ أن

يتصور إنسان أنه لا يكون وطنيا إلا إذا تخلى عن الدين ، متسائلا (لماذا يكون الإنجليزى وطنيا وبروتستنتيا فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنيا ومسلما ؟) .

كان الداعون إلى الجامعة المصرية إذن قسمين: قسم يدعو إليها وإلى الجامعة الإسلامية فى آن واحد ، ولا يرى تعارضا بينهما . فاهتمام الفرد بمصالح أخيه وابن عمه لا يعنى تفريطه فى مصالحه(١). وقسم ينكر الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما فى عنف ، ويقيم الجامعة القومية على أساس من المصلحة المشتركة وحدها . وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين فى مصر ، كما يقول المقطم فى مقال له عن « الجنسية المصرية » (٢) وكما يقول لطفى السيد فى مقال له عن « الجامعة المصريه »(٣)

وقد كان هذا الفريق الأخير موضع رضاء الاحتلال وتأييده . فقد كان الاحتلال يتحدث عن الوطنية بهذا المعنى . ومن ذلك ما جاء فى خطبة اللورد كرومر فى حفلة توديع إلدون جورست سنة ١٩٠٤ ، حين قال مثنيا عليه « إن السير إلدون غورست من الفئة الصغرى من أولئك الأوربيين الذين قضوا الأعوام والسنين وهم ينفذون السياسة التى شعار أهلها (مصر للمصريين)(٤) » ولكن اللورد كرومر لم يكن يعنى بالمصريين إلا القاطنين فى مصر . وقد وضح ما يعنى بسياسة (مصر للمصريين) بقوله « وهذه السياسة ليس مضمونها أن حكام مصر لا يكونون إلا من المصريين الوطنيين . بل مضمونها أن المحك الذى تحك به كل

---

١ — راجع مجموعه مقالات مصطفى كامل وخطبه فى سنة ١٩٠٦ (دفاع المصري عن بلاده — مصطفى كامل باشا والأحرار) وخصوصا مقاله (وطنية وجامعه إسلامية — مصر للمصريين)التى نشرتها الطان الباريسيه فى ٨ سبتمبر سنه ١٩٠٦ (ص ٦٦ — ٨٠ من هذه لمجموعة

٢ — افتتاحية المقطم ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٧

٣ — الجريدة ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٩ (المنتخبات ص ١٧٠)

٤ — المقتطف سنة ١٩٠٤ ص ٤٥٣

مسألة مصرية للكشف عن جوهرها ومعرفة كنهها هى البحث والاستعلام لمعرفة قدر ما فيها من الموافقة لمصالح السكان فى مصر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم وملهم.» وهو كما ترى كلام يقرب جدا مما يدعو إليه (المقطم)و(الجريدة) فالوطنية عنده هى المصالح .

كان من أهداف الإنجليز وقتذاك إضعاف النفوذ التركى وإذبال شوكة العصبة الدينية ، التى كانوا يتصورون أنها أكبر العقبات التى تقف فى طريقهم ، والتى تحول دون اطمئنان الشعب إليهم وتغلغلهم فيه وإنشاء صلة مطمئنة مستقرة بينهم وبينه . ومن الأمثلة على ذلك أن الإنجليز حين أعادوا فى مصر تجربتهم التى نجحت فى الهند ، وهى نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف فى طريقهم إلا الإسلام الذى يقدس اللغة العربية ، فى حين أن الطريق كان ممهدا فى الهند التى لم يكن لها لغة مقدسة . (١) كانت دعوة العقلاء من المنادين بالجامعة المصرية إذن تتفق مع مصالح الإنجليز الذين كانوا يحتضنون كل مناهض للسلطان التركى — خليفة المسلمين — وكلّ معارض للخديوى الذى يستمد وجوده الشرعى من ذلك السلطان، وكل داع إلى الإصلاح الداخلى . كان الإنجليز يحتضنون مثل هذه الآراء لأنهم يريدون أن يضعفوا أثر العصبية الإسلامية فى مستعمراتهم من ناحية ، ولأنهم من ناحية أخرى يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير فى المسالة الأساسية التى كان ينادى بها الحزب الذى يتزعمه مصطفى كامل وهى الجلاء .

كانوا يحتضنون الدعوة إلى الخلافة العربية التى يتزعمها شريف مكة الهاشمى (٢) . وقد اتهم محمد فريد الخديوى عباس فى مقالات نشرت بجريدة السييكل الفرنسية سنة ١٩١٢ بالتآمر على الخلافة العثمانية والطمع فى أن يكون

---

١ — راجع تقرير أحمد شفيق عن حالة التعليم فى مصر سنة ١٨٩٣ فى كتابه . مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٨ — ٩١

٢ — المرجع نفسه ٣ : ٦٥

خليفة للمسلمين تحت الحماية البريطانية (١). وكانت صحيفتا الاستعمار (المقطم) و (المقتطف) تهاجمان الخديوى والدولة العثمانية (٢). وتشجعان المطالبين بالإصلاح فى تركيا على نشر المقالات العنيفة فى مهاجمتها والتشهير بها ونبش سيئاتها وبيان انحلالها وفساد الحكم فيها (٣). وقد أيد كرومر أعضاء حزب (تركيا الفتاة) الذين لجئوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفا تهاجم السلطان عبد الحميد ، وتدخّل لحمايتهم حين طلب السلطان من الخديوى عباس تسليمهم فمنع ذلك (٤) . كما تدخل لحمايتهم حين ضبطت المطبعة السرية التى تطبع فيها منشوراتهم ، فأمر بكسر الأختام وأخذ مافيها من أوراق ، منتهكا بذلك حرمة القضاء ، معتديا على سلطته (٥). بل لقد تدخل الإنجليز لحماية رجال هذا الحزب المناوىء للسلطان ضد الخديوى عباس نفسه حين بدا له فى بعض فترات حياته أن يجامل السلطان ويتقرب إليه باضطهادهم (٦) وكان ساسة الإنجليز يحاولون دائما صرف الخديوى عن زيارة الأستانة (٧). كما حاولوا قطع هذه الصلات باستبدال قاضى القضاة التركى الذى كانت تعينه الأستانه من بين علماء الترك بقاض مصرى من علماء الأزهر (٨). وكان الإنجليز يعارضون اكتتاب المصريين

---

١ — المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٩

٢ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٨٣ ، ٩١١ والأمثلة كثيرة على ذلك فى الصحيفتين المذكورتين لانحتاج للاشارة إليها .

٣ — راجع المقالات التى نشرها ولى الدين يكن فى المقطم ثم جمعها فى كتاب (الصحائف السود) ص ٥٧ ، ٧٢ ، ٨٦ .

وكان ولى الدين يكن أحد أعضاء (تركيا الفتاة) المناوئة للسلطان عبد الحميد . وكان هذا سبب ولائه للانجليز .

٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٣٣

٥ — المرجع نفسه ٢ : ٣٩٤ — ٣٩٥

٦ — المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨

٧ — المرجع نفسه ٢ : ١٤١

٨ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٨٣٤

للمعاونة فى حروب تركيا ، فى الوقت الذى يؤيدون فيه الدعوة إلى الاكتتاب فى حرب السودان وفى المشروعات الخيرية (١).

ومن الأمثلة الحية على ما كان يبذل الإنجليز من جهد فى سبيل محو اسم تركيا من أذهان المصريين ما يروى الكاشف عن نفسه فى مقدمة الجزء الأول من ديوانه حين تقدم لامتحان الشهادة الابتدائية فألقى رئيس الامتحان على الطلبة هذا السؤال (اذكروا دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها ، وإن زاد أحدكم دولة أخرى سقط وضاع) . وكان واضحا أن المقصود بالفقرة الأخيرة هو أن لا تدخل تركيا بين دول أوروبا العظمى المقصودة بالسؤال . ولكن هذا التحذير لم يمنع الكاشف من إدخال تركيا بين الدول العظمى ، فكان جزاؤه أن رسب فى الامتحان . وقد شكا وزارة المعارف وقتذاك وهاجمها فى جريدة المؤيد فلم يجده ذلك نفعا .

أما تأييد الإنجليز للمعارضين للخديوى فالأمثلة عليه كثيرة ، منها تأييدهم لمحمد عبده الذى وصفه كرومر بأنه كان على رأس قادة الحركة العربية ، ولأصدقائه أمثال مصطفى فهمى ورياض وسعد زغلول وفتحى زغلول وقاسم أمين ، لأنهم كانوا يهاجمون الخديوى ، ولأنهم كانوا يدعون إلى إصلاح داخلى فى حدود ضيقة لا تتعارض مع مصالحهم ، بل إنها تؤيد دعواهم فيما يزعمون من أنهم يعملون لخير المصريين ويناصرون كل صاحب حق وكل مصلح مخلص (٢) ومنها تعضيد كرومر لحزب الأمة عند إنشائه سنة ١٩٠٧ ، لما كان يتوسم فيه من مناهضة الخديوى عباس — وكان كثير من رجاله البارزين أصدقاء لمحمد عبده(٣) . ومنها تدخل كرومر لحماية السيد محمد توفيق البكرى

١ — المرجع سـه ١ : ٨٣٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٣ (فى حرب اليونان) و ٢ب : ٢٦٦ (فى حرب طرابلس)

٢ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥١٦ ، ٥٩١ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٧٩ و ٢ ب : ٣٩ ، ١١٢ — ١١٣ ، Modern Egypt ٢ : ١٧٩ وهامش ١٨٠ ، ١٨١

٣ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ ، ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الامام ٥٩١

حين قدم للمحاكمة سنة ١٨٩٧ بتهمة العيب فى الخديوى (١).

* * *

كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحدا هو إضعاف العصبية الدينية وتقطيع أوصال المسلمين فى مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدا واحدا. فالمصريون أحفاد الفراعنة، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين، والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين، والحجازيون أحفاد العرب الأمجاد وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذى نبع من أرضهم المقدسة. وكانت الدولة العثمانية قوة روحية عظيمة. مع كل ما أبتليت به من انحلال ومن فساد. فقد كانت قادرة على جميع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية.

وكان كرومر يدرك ماتنطوى عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد، وإعلاء مرتبة المجاهدين فى سبيل الله، والحط من شأن القاعدين عن القتال، والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لاتتسع صدورهم لأى تسامح. ووصف الإسلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساسا لعلاقة الإنسان بالإنسان، مستشهدا على ذلك بدعاء خطباء المساجد فى ظهر كل جمعة على الكفار بخراب الديار، وبالآية (فإذا لقيتُم الذين كفروا فضَرْب الرقاب حتى إذا أثخنتُمُوهم فشُدُّوا الوَثَاق، فإمَّا مَنًّا بَعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارَها. ذلك ولوْ يشاءُ اللهُ لانتصرَ منْهُمْ. ولكن لِيَبْلُو بعضَكم ببعض. والذين قَتَلُوا فى سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم. سيهديهم ويُصْلحُ بالهمُ ويدْخلهم الجنَّةَ عَرَّفَها لهم. ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا اللهَ ينصُرْكم ويثبِّت أقدامكم.)(٢) لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية، حين أيقنوا

---

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٨

٢ — Modern Egpyt ٢ : ١٣٧ — ١٤٠ وقد أورد ترجمة الآيات فى سورة «محمد» من ٤ إلى ١٢ بعد أن أسقط بعضها.

٣ — Modern Egypt ٢ : ١٩٣

أنها مصدر خطر محقق، وأنها المعين الذى لاينضب الفياض ببغضهم والدعوة الى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الدينى ، ويكررون هذه التهمة فى كل مناسبة وفى غير مناسبة حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرءوا منه . وظلت صحفهم وكتابهم يتحدثون عن التسامح وعن الإنسانيه ، حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق وسعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعا ، حتى المعتدين منهم ، وحتى المستعمرين . ولم يزل المستعمرون يحدثون المصريين عن المصلحة لينزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداسة ، وتجعلها سعيا وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال.

وكان عباس — على كل ما فيه من عيوب — قوة لا يستهان بها. وقد وصفه كرومر بأنه قد أثبت على توالى الأيام — رغم ما آل إليه من فساد — قدرته على جمع الشعب المصرى، وتكتيله . فعمل على إذلاله وإسقاط هيبته وتصويره فى صورة العاجز الذى لا يملك من الأمر شيئا ، وأوجد من المصريين من ينبش عيوبه وينشر سيئاته بعد أن أملى له فيها وأرخى له العنان ليتورط فى المزيد منها .

كانت سياسة الإنجليز تدور حول كلمة واحدة « فرق تسد »

* * *

كان هذا الاتجاه الأخير ضعيف الأثر فى الشعر . فلا نكاد نجد بين المقدّمين من الشعراء المعاصرين من شايعه غير « نسيم » و « يكن » . وقد كان كل منهما مشايعا للإنجليز ولممثلهم فى مصر « كرومر » ، يتغنى بعدله وإصلاحه ويهاجم الخديوى عباس، ويسفه مبادىء الحزب الوطنى التى يدعو أصحابها إلى الفتنة حسب زعمهما. وذلك نفسه هو ما كان يزعمه « كرومر » وصحيفته «المقطم». أما نسيم فقد شايع الإنجليز رغبة فى مالهم ، ولم يعدل عن مذهبه هذا إلا بعد أن رحل كرومر عن مصر وأصدر كتابه المشهور عن مصر الحديثة فهاجمه نسيم حَمِيَّة لدينه كما يقول . وأما ولى الدين يكن فقد ألجأه إلى الإنجليز بغضه

الشديد للسلطان عبد الحميد ، وحماية كرومر له مع من حماهم من أعضاء حزب « تركيا الفتاة » الفارين من عبد الحميد إلى مصر .

وليس بمستغرب أن يكون أثر هذا الاتجاه العقلي - أو المادي النفعي إن شئت - ضعيفا فى الشعر . فالشعر تعبير عن عاطفة . وقلما يتخذ وسيلة للتعبير عن التفكير المنطقي الذى يجد النثر أكثر مطاوعة وملاءمة . هذا إلى أن أسلوب مصطفى كامل فى الدعوة الوطنية كان أكثر موافقة لطبائع الشعراء الذين كانت كثرتهم وقتذاك من أنصار الجامعة الإسلامية .

ولا نريد فى هذا المقام أن نطيل فى الاستشهاد بشعر نسيم ويكن ، لأننا سنعود إليهما عند الكلام عن التيارات السياسية فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولذلك فنحن نكتفى بتقديم مثالين من شعر نسيم ومثال ثالث من شعر يكن .

يتغنى نسيم فى قصيدته (نور العدل) بعدالة الإنجليز وينسب إليهم الفضل فى إنقاذ مصر من ظلم الترك ، ثم يهاجم المهيجين من رجال الحزب الوطنى فيقول(١):

وما غرّ قومَ الغرب إلا صحائف ... لها الغَىُّ والبهتان دِينٌ ومذهب
أبرىء منها بعضها غير جاهل ... ففيها ـ ولم أكذب ـ خبيث وطيب
وشيخ مُسِنٌّ رام إشعالَ ثورة ... يخوض لظاها والأسنة مَرْكَبُ(٢)
وكيف يقود الآمنين لفتنة ... لها وجه مصر يكفهر ويقطب
صغائر فيها للغبىّ دعابة ... يُسَرُّ بها من شاء يلهو ويلعب

١ — الديوان ١ : ٦

٢ — لعل المقصود بهذا الشيخ المسن هو السيد حسن موسى العقاد الذى كان من أعيان القاهرة، والذى ناصر الثورة العرابية منذ بدايتها وحكم عليه بالنفى إلى مصوع عشرين سنة. وقد عاد بعد الافراج عنه إلى الاشتغال بالسياسة ومناصرة القضية الوطنية . وقد نشرت صحيفة (مصر) القبطية فى عدد ٥ يوليو سنة ١٩١٠ مقالا فى مهاجمته عنوانه « اقرأ وتعجب. أهكذا تكون الوطنية؟ قلب الحركة الوطنية إلى دينية واتهام هذا الزعيم فى مذبحة الاسكندرية) والمقال يهاجم العقاد ويتهمه بتحبيذ مبادىء الحزب الوطنى الذى هو فى نظر الصحيفة امتداد للثورة العرابية — يراجع نص محضر استجواب حسن موسى العقاد فى (مصر للمصريين ج ٧ ص ١٧٩ — ٢٠٠)

ولو كان يدرى ماعواقب أمرها ... لبات حسير الطرف يبكى ويندب
... بنى مصر إياكم وكيد عدوها ... فما هو إلا الأرقم المتقلب
خذوا مصر من أيدى العدو لترتقى ... ويعنو لها بالعلم شرق ومغرب
فلو حلها أهل الفساد لأصبحت ... بلاداً يُعَفيّها الفسادُ فتخرب
وتمسى كما كانت ربوعا هضيمة ... عليها وفيها أبقَعُ اللون ينعب(١)
... هنالك نحسو المُرْ من كف ظالم ... يدور بكاسات الهوان فنشرب
وفيما مضى من غابر الظلم عبرة ... لقوم أذلتهم عصور وأحْقُب
نكالٌ وجَوْرٌ وانتقام وسخرة ... وهضم حقوق من يد الشعب تُغْصب(٢)

ويختم القصيدة بقوله

أحب لقومى كل خير ونعمة ... وأرجو لهم أسْمَى الذى يُتَطلبُ
فإن عشقوا هجوى عشقت مديحهم ... ورحت ولى آيٌ من الحمد تُكتبُ
ومن يجفنى منهم جزيتُ جفاءه ... بود وهَمىٍّ قُربُه لا التجنّبُ
على كل حال أحسَنَ اللهُ حالهم ... وجاد مغانيهم من الخير صَيّبُ
إذا قيل لى من أنت قلتُ أخو نُهى(٣) ... إلى النيل يُعْزَى أو مصر ينسب

ويبدأ الشاعر قصيدته (اختلاف الأحزاب)(٤) بمهاجمة من يسميهم «المغالين» من رجال الحزب الوطنى فيقول :

لا توقدوا جمرات البغض إيقادا ... من الهموم بنا ما جلّ تعدادا
حزبَ المغالين إن الدارَ آمنة ... فلا تثيروا بها للشر أحقادا
هذى هى الدارُ دارُ الأمن زاهرةٌ ... تجنى من العدل نعماءً وإسعادا

---

١ — أبقع اللون الغراب ، يقصد به الذين يدعون الى الثورة . نعب الغراب صاح .
٢ — يشير الى حال مصر قبل الاحتلال الذى رفع هذه المظالم حسب زعمه .
٣ — النهى جمع نهية (بضم النون) وهى العقل . أخو نهى أى عاقل . وكذلك كانت هذه الطائفة تسمى نفسها . وكذلك كان يسميهم خصومهم متهكمين (العقلاء)
٤ — الديوان ١ : ٨٥

ثم يستعرض أسباب تفوق الغربيين فيقول :

هم معشرٌ أبدعوا فى سيرهم طرقا ... للمجد صاروا بها غُرًّا وأمجادا
شقوا البحار وخاضوها على سفن ... تُزْجَى كما حاولوا فى الجو إصعادا
جابوا الفيافىَ حتى ملَّهم قَتَبٌ ... من كل جائلة تجتابُ أنجادا
هبوا إلى العلم والدنيا تراودهم ... عنها وما أخلفوا للدأب ميعادا
إن صوَّب الدهرُ فيهم سهمَ كارثةٍ ... كانوا على الدهر أجبالا وأطوادا
أو قيل سيروا فما فى الجِدِّ من وصبٍ ... ساروا. ولو أجهدوا. للقطب إجهادا
حتى إذا بلغوا القطبين ماوقفوا ... ولا أبى عزمُهم فى السعى إسآدا
ولا رأيتَ سوى ماض يشقهما ... حتى يجوب جميع الأرض مرتادا
هم معشر رغبوا فى الدأب عن كسل ... وفككوا فيه أغلالا وأصفادا

ثم يتجه إلى بنى وطنه فى آخر القصيدة بالنصح طالبا إليهم أن يحتذوا بالغرب ويتجنبوا الخلاف. وهو يقصد بتجنب الخلاف أن يكف المهيجون عن التهييج وينصرفوا عن مخاصمة الإنجليز إلى التعاون مع الذين يعملون للإصلاح فيقول :

هـذى فضائلهم ياقوم فانتجعوا ... مناهل المجـد إصدارا وإيرادا
خير النصيحة أسديها إلى وطنى ... لعلنى مرشد من رام إرشادا
كونوا أحبَّاء خيراً من تنافركم ... ولا تكونوا عباد الله أضدادا

ويقول ولى الدين يكن من قصيدة استقبل بها الخديوى عباس عند عودته من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ ، معرضا برجال الحزب الوطنى الذين كانوا يخاصمون عباسا وقتذاك (١) ، مؤيدا مذهب الذين يريدون أن ينصرف الناس إلى نشر التعليم وتنمية الثروة :(٢)

---

١ — كان الحزب الوطنى يخاصم عباسا وقتذاك لميله إلى مهادنة الانجليز أو إلى سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها . وقد انتهى عهد الوفاق بين عباس والانجليز بوفاة إلدون غورست فى ١٢ يوليو سنة ١٩١١ وتعيين خلف عنيف له جمع فى يده السلطة كلها وهو اللورد كتشنر ، الذى وصل إلى مصر على بارجة حربية بريطانية فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١

٢ — الديوان ص ٧٨

تسامَ بمصر رَبَّ مصر إلى العُلا — وإن وقفت فى سيرها فتقدَّم
أحاطت بآمال لديكَ فَتِيَّةٍ — فإن تنتهزْها مصرُ بالرأى تَغْنَمَ
وما مصرُ إلا دولةٌ فى شبابها — فإن تبتذله فى الغَواية تهرم
وإن لم تُفقْ فى نومها يَبْقَ نومُها — وإن لم تكرّم نفسَها لا تُكرَّم
وإن لم يقوِّمها إذا اعوجَّ عودُها — فتى صادقٌ فى نصحه لم تقوَّم
وإن لم يُنِرْها بالمعارف أهلُها — إذا حلكت فيها الجهالة تظلم
وإن لم يفيدُوها الثراء بجدِّهم — وإن كثرت فيها النفائس تَعْدم
وعُصَبةِ شرٍّ قد أتت بعدَ مِثْلها — كذلك يأتى أشأمٌ بعد أشأم
تشاهد أفراحَ البلاد عميمةً — فتغدو لأفراح البلاد بمأتم
وإن تَبْتَسمْ مصر تُبَكِّ من الأسى — وإن تبك مصرٌ من أسىً تتبسّم
فويل لزُورٍ عندها متكشِّف — وويلٌ لحقٍّ عندها متلثم
لحا اللهُ هاتيك النفوسَ فإنها — وإن تتجبَّرْ عُرْضةُ المهضَّم
فما بينها من ناظر مُتأمِّل — ولا بينها من سامع متفهِّم

* * *

وصاحب هذه الحركة التى تستهدف الجامعة المصرية اتجاه قوى خصب نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر العريق ، وبعث الشعور بالعزة ، بإحياء المجد الفرعونى والمجد العربى اللذين يمثلان العنصرين الأصيلين فى الدم المصرى والحياة المصرية . وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ شعره ونثره — من أقوى الأدوات فى استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ، ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى نفوس تمكن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

وبدت طلائع هذا الاتجاه فى شعر البارودى الذى يقول : (١)

سل الجيزة الفيحاء عن هرمَىْ مصر — لعلك تدرى غَيْبَ مالم تكن تدرى

---

١ — الديوان ١ : ١٤٩ .

بنا آن ردّا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يَغلبا صَولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البَرِيَّةِ بالفخر
فكم أمم فى الدهر بادت وأعصُرٍ خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما أساطير لا تنفكّ تُتلى إلى الحشر

ثم جاء شوقى من بعده فتوسع فى هذا الاتجاه الجديد حتى أصبح شاعره الفذ ، فحق له أن يقول فى القصيدة التى وجهها إلى روزفلت عقب زيارته لمصر سنة ١٩١٠ (١) .

وأنا المحتفِى بتاريخ مصرٍ من يَصُنْ مَجْدَ قومه صان عِرْضا

وأن يقول بعد ذلك فى قصيدته فى توت عنخ آمون سنة ١٩٢٤ : (٢)

هـــذا المقَامُ عرفتُــهُ وسبقت فيـــه القائلين
ووقفتُ فى آثاركم أزِنُ الجلالَ وأستبين
وبنَيْتُ فى العشرين من أحجارها شعرى الرصين
كتم خيالَ المجـــد يرْ فَعُ للشبـاب الطامحـــين

وشوقى هو صاحب الهمزية الطويلة المشهورة التى تبلغ مائة وواحدا وثلاثين بيتا : (٣)

همَّت الفُلْك واحتواها الماء وحداها بمن تُقِلُّ الرجاءُ

وقد ألقاها فى مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤، وسنه لم تتجاوز السادسة والعشرين . وعرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور . يقول فيها مستنهضا همم الشباب :

وانتهت إمْرَةُ البحار إلى الشَّرْ قِ وقام الوجودُ فيما يشاءُ

---

١ — الديوان ٢ : ٦٦
٢ الديوان ٢ : ١١٦
٣ — الديوان ١ : ١

وبنينا فلم تُخَلَّ لبانٍ وعلونا فلم يجُزْنا عَلاءُ
وملكنا فالمالكون عبيد والبرايا بأسْرِهِمْ أسراءُ
قُلْ لبانٍ بنَى فشادَ فغَالى لم يجُزْ مصرَ فى الزمان بناءُ

فإذا وصل إلى غزو الرعاة لمصر عام ١٦٧٥ قبل الميلاد، توقف قليلا ليصور تجبرُ المستعمر واستذلاله أهل البلاد، وتقريبه طائفة من المنافقين الذين يؤثرون النفع القريب، يغدق عليهم خيره ويغمرهم بنعمه. ثم يحذر الاستعمار من عاقبة الجور ومن ثورة الضعيف:

وإذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعى السُّوءِ تُؤْذَى فى نسلها وتُساءُ
قد أذل الرجال فهى عبيد ونفوسَ الرجال فهى إماءُ
فإذا شاء فالرقاب فداه ويسيرٌ إذا أراد الدماءُ
ولقوم نوالُه ورضاه ولأقوامٍ القِلَى والجفاءُ
ففريقٌ ممتَّعون بمصرٍ وفريقٌ فى أرضهم غُرَباءُ
إن ملكتَ النفوسَ فابغ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مَضاءُ
يسكنُ الوحشُ للوثوب من الأسْرِ فكيف الخلائقُ العقلاءُ
يحسب الظالمون أن سيسودو نَ وأنْ لنْ يؤيَّدَ الضعفاءُ
والليالى جوائرٌ مثلما جا روا وللدهرِ مثلهم أهواءُ

وإذا بلغ غزو قمبيز ملك الفرس لمصر سنه ٥٢٥ ق. م، وأسرَه ملكها أبسميتك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بعد أن انهزمت جيوشه، لم يفته الوقوف ليصور موقف فرعون الأسير وابنته فى إبائهما العصىّ وكبريائهما المترفع، إذ يقول:

جىء بالمالك العزيز ذليلا لم تزلزل فؤادَه البأساءُ
يُبصر الآلَ إذ يُراحُ بهم فى موقف الذل عَنوةً ويُجاءُ
بنتُ فرعونَ فى السلاسل تمشى أزعجَ الدهرَ عُرْيُها والحفاءُ

فكأنْ لمْ ينهضْ بهَوْدَجِها الدهْـ
رُ ولا سارَ خلفها الأمراء
وأبوها العظيمُ ينظر لمّا رُدِّيَتْ مثلما تُرَدَّى الإماءُ
أعطِيَتْ جرّةً وقيل إليكِ النّـهرَ قُومِي كما تقومُ الإماء
فشَتتْ تُظهر الإباءَ وتحمى الدّمعَ أن تستَرِقّه الضّرّاء
والأعادي شواخصٌ وأبوها بيدِ الخَطْبِ صخرةٌ صمّاء

فإذا بلغ فتح العرب مصر قال :

مَنْ كعَمْرٍو البلادِ ، والضّادُ ممّا
شادَ فيها ، والمِلّةُ الغرّاء (١)
شاد للمسلمين ركنا جُسَاماً ضافِي الظل دأبُهُ الإيواء
طالما قامت الخلافةُ فيه فاطمأنّتْ وقامت الخُلَفاء
وانتهى الدِّينُ بالرجاء إليه وبنو الدِّين إذ هُمُ ضُعَفاء

ويقفز بعد ذلك إلى تمجيد بطولة صلاح الدين الأيوبى فى الحروب الصليبية فيقول :

واذْكُرِ الغُرَّ آلَ أيوبَ وامدحْ فمن المدح للرجال جزاء
هُمْ حُماة الإسلام والنَّفرُ البيـضُ الملوكُ الأعِزّةُ الصُّلحَاء
كُلَّ يومٍ بالصالحيّة حِصْنٌ وببُلْبَيْسَ قلعةٌ شمّاء
وبمصرٍ للعلم دارٌ وللضِّيفانِ نارٌ عظيمةٌ حَمْرَاء
ولأعداء آل أيوبَ قَتْلٌ ولأسراهُمو قِرىً وثَوَاءُ
.. يومَ سار الصليبُ والحاملوه ومشى الغَرْبُ قومُه والنساءُ
بنفوس تجول فيها الأمانى وقلوب تثور فيها الدماء

(١) يشير بالضاد إلى اللغة العربية . يقول إن العربية التى تكلمها مصر ، والاسلام الذي تدين به ، هما من آثار عمرو بن العاص

يضمرون الدمار للحق والنا ... س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدّون بالتلاوة والصّلبـ ... ـان ما شاد بالقنا البنّاء
فتلقتهمو عزائم صدقٍ ... نُصّ للدين بينهن خباء
مزّقت جمعهم على كل أرض ... مثلما مزّق الظلام الضياء
هكذا المسلمون والعرب الخا ... لون لا ما يقوله الأعداء
فبهم فى الزمان نلنا الليالى ... وبهم فى الورى لنا أنباء
ليس للذل حيلة فى نفوس ... يستوى الموت عندها والبقاء

وشوقى بعد هذا هو صاحب قصيدة أنس الوجود التى خاطب بها روزفلت عندما زار مصر فى مارس سنة ١٩١٠ :(١)

أيها المنتحى بأسوان دارا ... كالثريا تريد أن تنقضّا(٢)
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ... لا تحاول من آية الدهر غضّا
قف بتلك القصور فى اليمّ غرقى ... ممسكاً بعضها من الذعر بعضا

١ — زار تيودور روزفلت مصر عائداً من السودان. وألقى فيها خطابين مجد فى أولهما الاحتلال وعارض فى الآخر حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها فى ذلك الوقت . فكان لخطابيه دوى قوى . وقد أثارا شعور السخط والاستنكار ، فتوالت عليه برقيات الاحتجاج ، ونادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد حيث كان ينزل ، وفى الاسكندرية عند سفره إليها ليستقبل الباخرة عائدا . وتيودور روزفلت هذا هو رئيس جمهورية الولايات المتحده من سنة ١٩٠١ — سنة ١٩٠٨ وقد توفى سنة ١٩١٩ وهو قريب فرانكلين روزفلت رئيس الجمهورية فى الحرب العالمية الثانية .

٢ — الديوان ٢ : ٦٨ والخطاب هنا لروزفلت . وقد نشرت القصيدة فى مجلة الهداية بعدد أكتوبر سنة ١٩١٠ أى أنها نشرت بعد زيارة روزفلت بنحو من ستة شهور . بينما نشرت قصيدة لحافظ عقب إلقاء خطبة روزفلت الأولى فى الخرطوم وقبل خطبة الجامعة فى القاهرة :

أى خطيب الدنيا الجديدة شنف ... سمع مصر بقولك المأثور

وقد جاءت القصيدة فى كتاب محمد فريد ص ١٦٤ ولم ترد فى الديوان . وهى أكثر صراحة فى مهاجمة روزفلت من قصيدة شوقى .

مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا

فإذا بلغ من تصوير الفن القديم وبراعته المعجزة ما أراد، قال يرثى مجد مصر الزائل، داعيا الله أن يرد على الوطن عزته ورفعته:

يا قصورا نظرتُها وهى تَقْضى فسكبتُ الدموعَ والحقُّ يُقْضى
أنتِ مجدٌ وسطرُ مصرَ كتابٌ كيف سامَ البِلَى كتابَكِ فَضَّا
... قل لهاف الدعاء ـ لوكان يُجْدى ـ ياسماءَ الجلالِ لاصِرْتِ أرضا

وشوقى هو صاحب المطولة المشهورة فى النيل التى تزيد على مائة وخمسين بيتـــا (١):

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كفٍّ فى المدائن تغدقُ
ومن السماء نزلتَ أم فجِّرْتَ من عُلْيا الجِنان جداولا تترقرق
وبأى عَيْنٍ أم بأية مُزْنةٍ أم أى طوفانٍ تَفيض وتَفْهَق (٢)
وبأى نولٍ أنت ناسجُ بُرْدةٍ للضَّفَّتين جديدُها لا يَخْلَقُ

وقد وجهها إلى الأستاذ مرجوليوث أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد أثناء الحرب العالمية الأولى وقال فى ديباجتها «... وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة قيلت والهموم سارية، والأقدار بالمخاوف جارية، والدماء والدموع متبارية، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية. نظمتها تغنيا بمحاسن الماضى، وتقييدا لآثار الآباء، وقضاءً لحق النيل الأسعد الأمجد. ونسبتُها إليكَ عِرفانا لفضلك على لغة العرب، وما أنفقت من شباب وكهولة فى إحياء علومها ونشر آدابها.»

وفيها يقول:

أين الفراعنة الأُلى استَذْرَى بهم عيسى ويوسف والكليمُ المُصْعَق (٣)

---

١ — الديوان ٢ : ٧٧

٢ — فهق الاناء امتلأ وفاض.

٣ — استذرى بهم أى لجأ إليهم واستظل بظلهم. الكليم هو موسى عليه السلام الذى كلمه الله.

الموردون الناسَ منهلَ حكمة ... أفضى إليه الأنبياءُ ليستقوا
الرافعون إلى الضُّحى آباءهم ... فالشمسُ أصلُهم الوضيءُ المُعرقَ
وكأنما بين البِلى وقبورِهم ... عَهْدٌ على أن لامساس ومَوْثق
فحِجابُهم تحت الثرى فى هيبة ... كحجابهم فوق الثرى لا يُخرَق
كم مَوْكبٍ تتخيل الدنيا به ... يُجْلى كما تُجلى النجومُ وينسق
فرعونُ فيه من الكتائب مُقبِل ... كالسحب قرنُ الشمس منها مُفتِق
تعنو لعزته الوجوه ووجهه ... للشمس فى الآفاق عانٍ مُطرِق
آبت من السفر البعيد جنودُه ... وأتته بالفتح السعيد الفَيْلق
ومشى الملوك مصفَّدين ، خدودهم ... نعلٌ لفرعونَ العظيم ونُمرق
مملوكةٌ أعناقهم ليمينه ... يأبى فيَضربُ أو يمُنُّ فيعتِق

ويعدد الأديان الذى شهدها هذا النهر العجوز فيقول :

تابوتُ موسى لاتزال جلالةٌ ... تبدو عليك له وريَّا تنشَق
وجمالُ يوسف لايزال لواؤه ... حوليك فى أفق الجلال يُرنِّق
ودموعُ إخوته رسائلُ توبة ... مسطورهُنَّ بشاطئيك مُنمَّق
وصلاةُ مريم فوق زرعكَ لم يزل ... يزكو لذكراها النباتُ ويسمُق
وخُطَى المسيح عليكَ رُوحاً طاهرا ... بركاتُ ربِّك والنعيمُ الغيْدق
وودائعُ الفاروق عندك دينُه ... ولواؤه وبيانُه والمنطِق (١)
بعثَ الصحابة يحملون من الهدى ... والحقِّ مايُحيي العقول ويفتق

= الصعق الذى صعق حين طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وهو يشير الى قوله تعالى (فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك . قال لن ترانى . ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين — الأعراف ١٤٣)

١ — الفاروق هو الخليفة عمر . أودع مصر دين الاسلام ، وأودعها حديثه ، وأودعها لغة العرب التي أصبحت لسان المصريين

يبنون لله الكنانة بالقنا ... والله من حول البناء موفق
فى الحق سُل وفيه أغمد سيفهم ... سيف الكريم من الجهالة يفرق

ويختم قصيدته الرائعة متوجها إلى النيل بخطابه فيقول :

لى فيك مدح ليس فيه تكلف ... أملاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ ... سنطير عنها وهى عندك ترزق (١)
تهفو إليهم فى التراب قلوبنا ... وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم ، والله جل جلاله ... منا ومنك بهم أبر وأرفق
فاحفظ ودائعك التى استودعتها ... أنت الوفى إذا اؤتمنت الأصدق
للأرض يوم والسماء قيامة ... وقيامة الوادى غداة تحلق (٢)

١ — يقصد بالافرخ الأولاد والذرية . نمضى نحن ونتركهم من بعدنا فى كنف النيل .
٢ — تحلق أى تجف . يقول إن الوادى باق ما بقيت أيها النيل ، وما جرى ماؤك الذي يحييه

الفصل الثالث

محنة الجامعة المصرية

(المؤتمر القبطى والمؤتمر المصرى)

فى سنة ١٩١١ ظهرت أزمة فادحة كادت تودى بفكرة الجامعة المصرية، وتهدم الوحدة الوطنية، وهى تفاقم الخلاف بين عنصرى الأمة: المسلمين والمسيحيين واتخاذ هذا الخلاف الخفى شكلا صريحاً سافراً عنيفا فى المؤتمر الذى انعقد بأسيوط فى مارس سنة ١٩٠١(١)

وليس من السهل تتبع هذا التصدع لرده إلى أسبابه الأولى، وليس من موضوع هذا البحث أن يتتبعه، ولكن المتتبع لهذه الكارثة منذ نشأت الدعوة إليها فى الصحف القبطية سنة ١٩٠٩، ولما سبق ذلك من أحداث، يستطيع أن يدرك فى يسر أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى سوء الظن وفقدان الثقة. لقد كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط، ويتهمونهم بموالاة الإنجليز المستعمرين لما يجمع بينهما من رابطة المسيحية. وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز. وقد لعب الجهل الذى يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دوراً خطيرا فى هذا الانشقاق

كان كثير من المسلمين ينزلون أنفسهم منزلة خاصة من القبطى وينظرون إليه نظر السيد إلى المولى، حتى انتهى الأمر بالقبط إلى أن يوزعوا أنفسهم بين الأسر

---

١ — راجع فى تفاصيل المؤتمر القبطى وما ألقى فيه من خطب أعداد صحيفة (مصر) من الأحد ٥ مارس الى الاربعاء ٨ مارس سنة ١٩١١

الإسلامية الكبيرة فى قرى الصعيد ، يضعون أنفسهم تحت حمايتهم(١) . وليس يعنينا هنا أن نرد هذه الحالة إلى أصولها الأولى ونتتبعها فى تاريخها الطويل ، ولكن الواقع هو أن هذه التقاليد كانت ثابتة مقررة فى العصر الذى نؤرخ له ، وأنها كانت تجد تشجيعا من الترك الذين أساءوا فهم تعاليم الإسلام السمحة العادلة . ونسى هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم . وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون — العنكبوت ٤٦) ويقول جل شأنه (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون — البقرة ٦٢) ويقول (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم . إن الله سريع الحساب — آل عمران ١٩٩) ويقول (ليسوا سواءً . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون — آل عمران ١١٣). وقد سبق فى علم الله أن يكون الناس طوائف وشيعا لحكمةٍ تُراد . (ولو شاء ربك لجعلكم أمةً واحدة. ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم . فاستَبِقُوا الخيرات . إلى الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون — المائدة ٤٨) (ولو شاء ربُّك لآمن مَنْ فى الأرض كلهم جميعا. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين — يونس ٩٩) .

ذلك هو الإسلام بعدله وسماحته ، وإنصافه وإنسانيته ، ولكن الكثرة الجاهلة من المسلمين والقبط على السواء كانت قد نشأت على تقاليد فاسدة ، اعتبرها الأولون حقا لهم ، وأذعن لها الآخرون على أنها أمر واقع ، ينحينون الفرص . وكانت الجامعة الوطنية فكرة ناشئة لم تستقر كما رأينا فى الفصل السابق . وكانت الجامعة الغالبة على تفكير العصر هى الجامعة الدينية . لذلك كان من الطبيعى أن

١ — مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الاول ص ٤٨

يختلف موقف القبط من الاستعمار الإنجليزى المسيحى عن موقف المسلمين من المصريين فهم إن لم يطمئنوا إليه لا يتحمسون لمحاربته تحمس المسلمين . فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم فى ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر (١) من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة، وانفتح أمامهم باب الأمل فى تحسين حالتهم. وبدأ كثير منهم يضيق بالأوضاع السائدة التى قبلوها من قبل على أنها أمر مقرر وحقيقة واقعة . ونظر المسلمون من ناحيتهم إلى هذه الروح الجديدة على أنها تمرد وانتهاز للفرص وخيانة للبلد الذى يطعمهم ويكسوهم، والذى تتكون كثرته من المسلمين واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديدا (٢) . وكان إقبالهم على التعليم — وعلى الأجنبي منه بنوع خاص — بالإضافة إلى ماعرف من تهافتهم على بعض الوظائف التى زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل ، كان كل ذلك سببا فى تجاوز نسبتهم فى الوظائف الحكومية نسبتهم العددية فى السكان بمقدار كبير(٣) . وكان حرصهم على جمع المال سببا فى اطراد الازدياد فى ثرواتهم . وكان نجاحهم هذا يغريهم بالمثابرة ، ويزيدهم أملا وطموحا ، بينما كان فى نفس الوقت يزيد من سوء ظن المسلمين بهم ويقوى الشبهة القائمة فى نفوسهم من أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بتحيزهم للمستعمر واحتضانه لهم . ولما زاد عدد المتعلمين من القبط وارتفعت نسبة مايدفعه أغنياؤهم من ضرائب حتى أصبحت نسبتهم فى كلتا الناحيتين تفوق نسبتهم العددية فى السكان ، بدءوا يحسون أنهم مظلومون، وأن من حقهم أن يكون لهم من الوظائف والمرافق بمقدار من فيهم من المتعلمين وبمقدار مايدفعون من الضرائب . ونظر

---

١ — Modern Egypt ٢ : ٢٠٩

٢ — مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الاول ص ٨٤ — ٨٧

٣ — راجع جداول الاحصاء فى المصدر السابق فى صفحات ٣٤ و٩٢ و٩٣ و٩٤ و١٩٦ — ٢٠٤ وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١

المسلمون فإذا عدد القبط فى الوظائف يتجاوز نسبتهم العددية بكثير ، بل لقد وجدوا أنهم أكثرية فى بعض المصالح والوزارات، فرأوا أن تذمرهم هذا ينطوى على الشطط والجشع وتجاوز الحد فى الإنصاف ، وأنهم إنما يريدون أن تتحكم القلة القليلة فى مصائر الكثرة الكثيرة ، اعتمادا على حماية المستعمر المسيحى ، وعلى خوف المسلمين من أن يتهموا بالتعصب الدينى . وزاد فى سعة الهوة بين الفريقين ان العصبية سرت بين القبط ، وصار بعضهم يؤثر البعض الآخر بالخير ، وصار الموظف منهم يسعى إلى زيادة عدد الموظفين من طائفته ما وسعه ذلك .

ولم يكن من المستغرب أن يكره المسيحيون الحكم التركى الذى لم ينالوا منه خيرا . ولم يذوقوا على يديه إلا الذل . وكان طبيعيا أن يكرهوا كل دعوة إلى الجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية ، وأن لا يتحمسوا للدعوة الوطنية الدينية الموالية للترك ، والتى كان يمثلها الحزب الوطنى وقتذاك .

فانطووا على أنفسهم متوهمين أن مصلحتهم تختلف عن مصلحة الكثرة الكبيرة من المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنشأوا لهم صحافة تعبر عن مصالحهم ورغباتهم . فصدرت جريدة الوطن سنة ١٨٧٧ (١) ، ثم صدرت صحيفة مصر سنة ١٨٩٥ ، (٢) وصدرت صحف أخرى اختفت بعد ظهورها بمدد قصيرة لم يكن لها أثر كبير .

وأخذت هذه الصحف اليومية تقصر اهتمامها على معالجة مشاكل القبط ، وتطالب برفع ما توهمته من ظلم . ولم تزل تسير فى طريقها هذا حتى انتهى بها الأمر إلى أن تتحدث عن القبط وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وتقول إنهم سلالة الفراعنة وأصحاب البلاد ، وأنهم هم المصريون الخلص

---

١ — أصدرها ميخائيل عبد السيد . وهى أقدم الصحف القبطية . توقف حينا بعد الاحتلال ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ (تاريخ آدب اللغة العربية لجورجى زيدان : ٦٦)

٢ — أصدرها تادرس بك شنودة المنقبادى

الذين لاتشوب دمهم شائبة أجنبية(١). وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأى العام باستحسان ماأجمع المصريون على استنكاره . تصدر وزارة بطرس غالى فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ قرارا بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد، فتستنكره الأمة، وتقوم مظاهرات الاحتجاج من مختلف الطوائف ، وتصطدم للمرة الأولى برجال البوليس تحت قيادة حكمدار العاصمة الإنجليزى هارفى باشا(٢) . ولكن صحيفة مصر تنشر مقالا فى تأييد القانون الجديد الذى يحد — حسب زعمها — من سفه السفهاء الذين يدعون إلى الفتنة (٣) . ويقدم تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق إلى مصر فى مارس سنة ١٩١٠ عن طريق السودان ، بعد أن ألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال ، فيلقى فى الجامعة المصرية بالقاهرة خطبة يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها، ويقول إن تربية الشعب لكى يصبح صالحا لحكم نفسه هى مسألة أجيال متتابعة ، وأن سبيل ذلك لايمكن أن يكون بإصدار دستور يصبح حبرا على ورق . ويقابل المصريون خطبته بالاستنكار الشديد . وترسل الاحتجاجات على إدارة الجامعة لسماحها بإلقاء هذه الخطبة فى دارها ومنحها الخطيب لقب الدكتوراه الفخرية بعد إلقائها، وينادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد فى القاهرة حيث كان ينزل ، وفى

---

١ — راجع أمثلة لذلك فى صحيفة (مصر) عدد ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى مقال (الى الأمة القبطية) وعدد ٣ فبراير سنة ١٩١٠ فى مقال (طريق التقدم فى الهيئة الاجتماعية القبطية) وعدد ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ فى الدعوة باسم بشرى حنا الى عقد مؤتمر قبطى عام فى مدينة أسيوط ، وعدد ٢٨ فبراير فى مقال (الى أى طريق نحن ذاهبون) ومرثية وهبى بك ناظرا المدارس القبطية لبطرس غالى فى عدد ٢ ابريل سنة ١٩١٠ التى يؤرخ فيها وفاته بالتاريخ القبطى (١٦٢٦ قبطية) :

ثم أنشد بين القبور وأرخ　　مات وامصر بطرس مقتولا

وراجع كذلك صحيفة (العلم) عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ فى مقال (آلام القبط)

٢ — محمد فريد ص ١٠٠

٣ — راجع صحيفة (مصر) عدد ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ فى مقال (لماذا قيدت الصحافة)

الإسكندرية عند سفره إليها ليستقبل الباخرة عائدا (١). ولكن صحيفة مصر تكتب فى تأييده وفى الرد على من يهاجمه فتطالع القراء بافتتاحية عنوانها (الخطاب العظيم — المستر روزفلت فى الجامعة المصرية) (٢) تبدأها بقولها « لم يدوّ فى جو مصر خطاب أبلغ من الخطاب الذى ألقاه جناب المستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا سابقا فى الجامعة المصرية أمس، ولا أصرح منه عبارة، ولا أنفع لها فى الحال والاستقبال. وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام، لأنه كان صادرا عن إخلاص صحيح، ورغبة تامة فى خير البلاد. » وتتمادى الصحيفة فى التحدى فتعود إلى الحديث عن خطاب روزفلت بعد أيام فى مقال عنوانه (فلنصفّ الحساب)(٣) تبدأه بقولها « كثر الحدْس والتخمين، وزادت الشكوك وقل اليقين، وترك روزفلت الناس حيارى لا يدرون من الذى نبهه إلى سياسة مصر ودخيلتها، وأعلمه أسرارها، وكشف له عن عوراتها. قال روزفلت حكمته وخطب خطبته، فلم يهتم القوم لموضوع الخطاب اهتمامهم بالبحث عن مصدر علم الرئيس بمجارى الأحوال. ومن هم الواشون على البلد، ومن ذا الذى أوصل إليه الأخبار حتى قال ماقال. بحثوا ليعلموا بلا تأن ولا اعتدال، فنسبوا القول لأكبر الأعداء الماكرين، وهم فى عرفهم الإنجليز البريطانيون، وتلاهم فى شرعهم مبعوثو الأمريكان، مكدّرو صفاء الأديان ببلاد السلطان. ثم عطفوا على أولاد سوريا وسكان الشام، وأشبعوهم سفاهة وتأنيبا، ووصفوهم بالخائنين اللئام. وأخيراً ساحوا إلى أبناء وطنهم وأساءوا الظن بالقبط إخوانهم. » ثم تدافع الصحيفة عن خطاب روزفلت قائلة « ومع ذلك لو سلمنا جدلا وافترضنا أن الرجل استقى المعلومات من الإنجليز والأمريكان والسوريين والأقباط، فما الذى أتاه بخطبته يخالف واجب الضيافة؟ وماهى الإهانة التى أهان بها المصريين حتى تقوم الجرائد

١ — محمد فريد ص ١٦٠

٢ — عدد ٢٩ مارس سنة ١٩١٠

٣ — عدد ٧ ابريل سنة ١٩١٠

بهذه القيامة ؟ إن هذا العظيم والرجل المهاب الذى تنازل أن يلقى علينا الخطاب لم يرم المصرى بخسة أو دناءة ، ولم يحكم علينا بعدم الأهلية ولا بقلة الكفاءة بل خطب خطابا كله مواعظ وحكم وإرشاد . وبين لنا ما هى السبيل المؤدية إلى إسعاد البلاد . . . » وتمضى الصحيفة إلى آخر المقال فى بيان أن الرجل قد دل مصر على ما فيه خيرها مخلصا لها النصح .

* * *

كان كل ذلك داعيا إلى تنمية سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وتوسيع الهوة التى تفصل بينهما ، حتى دفع العناد والمكابرة والشعور بالعزلة والانسلاخ من الجامعة المصرية بعض القبط إلى التخلى عن جنسيهم . والتماس العزة فى ظل بعض الجنسيات الأوروبية التى كانت تكسبها الامتيازات الأجنبية حصانة خاصة وتضعها فى مركز ممتاز لاتمتد إليه يد القانون . (١) وأخذ بعض أعيان القبط فى الصعيد يدعون سرا لعقدمؤتمر يبحث حالتهم ويؤيد مطالبهم ، ويبثون روح السخط بين المواطنين الأقباط ويصورون أنهم مغبونون فى الوظائف وفى الحقوق العامة . وكانت الصحيفتان القبطيتان (مصر) و (الوطن) تنفخان فى هذه الروح . وأوجس الناس خيفة من عواقب هذه الحركة الوخيمة . ولكن بطرس غالى — وكان رئيسا للوزارة وقتذاك — كان يطمئنهم بأنه مالك لزمام الموقف . وقد أنذر صحيفة (الوطن) وهددها بتعطيلها إذالم تكف عن المضى فى التهييج .

وفوجىء الناس بقتل بطرس غالى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ فتفاقم بمقتله الخلاف ،

---

١ — راجع صحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنه ١٩١١ فى مقال (وطنيون أم أجانب ؟ وللسياسه أم للدين ؟) وفى ختامها أن فخري عبد النور كان متجنسا بالجنسيه الألمانيه وأن بشرى حنا بك كان وكيل قنصل روسيا فى أسيوط ، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل الروسيا فى المنيا . وكان جورجى ويصا بك وكيل قنصل أمريكا فى أسيوط . وكان الخواجة تادرس مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط . وكان يسى اندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا فى الأقصر .

وصرح الشر ، وبرزت الفتنة عارية عمياء ، تخبط خبط عشواء كان قاتله ، إبراهيم ناصف الورداني ، شابا في الرابعة والعشرين من عمره. تلقى علوم الصيدلة في لوزان وفتح بعد عودته صيدلية . وكان من المتحمسين لمبادىء الحزب الوطني المناوىء للخديوي عباس وقتذاك ، بعد أن مال إلى مهادنة المستعمرين والاتفاق مع ممثلهم الذي خلف كرومر في مصر ، إلدون جورست . وكان الحزب الوطني يرى أن بطرس غالي هو عضد الخديوي الأيمن في سياسته الجديدة . فهو الذي سافر معه إلى لندن في صيف سنة ١٩٠٨ حين كان وزيرا للخارجية في وزارة مصطفى فهمي ، وتفاهم مع الإنجليز على السياسة الجديدة. وقد كان من قبل مستشاره وسفيره فيما كان ينشب بينه وبين كرومر من خلاف .(١) وقد رشحه الخديوي عباس لرياسة الوزارة وضمنه عند جورست حين سأله : ألا يحصل انتقاد من الأهالي لتعيين رئيس قبطي ؟ فرد عليه عباس قائلا : إنه قبطي ولكنه مصري ، أما نوبار فلم يكن مصريا . (٢) ثم إن تاريخ الرجل لا يخلو من الأخطاء السياسية . فهو الذي وقع اتفاقية السودان في سنة ١٨٩٩ بالنيابة عن الحكومة المصرية بوصفه وزير خارجيتها (٣) . وقد فوجىء الناس وقتذاك بتوقيعها ، ولم يذع أمرها إلا بعد إبرامها . وكانت الصحف تجهل الخطوات التي سبقتها فلم تنشر شيئا عن مقدماتها أو المفاوضات بشأنها . (٤) ثم إن بطرس غالي هو الذي أصدر قرارا بتشكيل المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦ حين كان وزيرا للعدل بالنيابة ورأس هذه المحكمة بنفسه (٥) . وقد استهل عمله في الوزارة التي

---

١ — راجع أمثلة مختلفة لذلك في مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٤٤ ، ٥٦ — ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١١٠

٢ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٥٩

٣ — وهي الاتفاقية التي خولت لانجلترا رسميا حق الاشتراك في إدارة شئون الحكم في السودان، ورفع العلم الانجليزي إلى جانب العلم المصري في أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة الانجليزية

٤ — مصطفى كامل ص ١٠٩

٥ — مصطفى كامل ص ١٦٨

رأسها بكبت الحريات ، فأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم فى مارس سنة ١٩٠٩ . (١) وأصدر قانون النفى الإدارى الذى يضع فى يد السلطة الإدارية حق نفى الأشخاص الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام إلى جهة نائية بالقطر المصرى . (٢) وختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس فى مفاوضات لمد امتيازها أربعين سنة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات . (٣)

كان الحزب الوطنى إذن يرى أن الرجل قد خان وطنه وآذاه . ولكن الصحف القبطية ومعها كثير من القبط كانوا يرون أن هذه الجريمة الفذة التى لم يسبقها نظير فى تاريخ مصر الحديث لم ترتكب إلا بدافع من التعصب الدينى، وأن بطرس غالى لم يقتل إلا لأنه قبطى . واتهموا الحزب الوطنى بأنه هو الذى هيج الرأى العام عليه بكتاباته واحتجاجاته على معاهدة ٨٩٩ ودنشواى وقانون المطبوعات وقانون النفى الادارى .

---

١ — صدر قانون المطبوعات القديم فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العرابية. وهو يخول وزير الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها دون محاكمة . وقد حوكم بمقتضى هذا القانون كثير من الصحفيين وحكم عليهم بالحبس . فسجن الشيخ عبد العزيز جاويش ثلاثة شهور لكتابته مقالا عن ذكرى دنشواى فى صحيفة اللواء هاجم فيه بطرس غالى وفتحى زغلول فى يونية سنة ١٩٠٩ . وسجن فى هذا العام أحمد حلمى صاحب جريدة (القطر المصرى) ستة شهور مع الشغل، وعطلت صحيفته ستة شهور لترجمته مقالا نشر فى إحدى الصحف التركية وتعليقه عليه . ثم توالت العقوبات بعد ذلك على كل مناوئى الاستعمار أو الحكومة.

٢ — كان المبعدون ينفون عادة الى الواحات الداخلة .

٣ — فعل ذلك اتباعا لرأى المستشار المالى الانجليزى ، الذى اقترح هذه الوسيلة لسد حاجة الخزانة الحكومية للمال . وقد بدأ امتياز القناة منذ افتتاحها فى سنة ١٨٦٩ لمدة ٩٩ سنة تنتهى فى سنة ١٩٦٨ . وكان المشروع يهدف إلى مد مدة الامتياز أربعين سنة أخرى تنتهى فى سنة ٢٠٠٨ . وقد ظل مشروع المد فى طى الخفاء زهاء سنة، وكان فى عزم الوزارة مفاجأة الرأى العام بانفاذه، لولا تسرب أنبائه وهياج الشعب ومطالبته بعرضه على الجمعية العمومية. وقد رفضته الجمعية العمومية بعد مناقشات طويلة رغم أن ممثل الحكومة له (سعد زغلول) . وقتل بطرس غالى أثناء نظر الجمعية لمشروع المد (راجع محمد فريد ص ١٣١ — ١٥٤)

وعند ذلك انحرفت حركة القبط انحرافا خطيرا ، فزادوا على الكتابة فى الصحف القبطية الشكوى إلى الصحافة الإنجليزية والنقل عنها فى صحفهم ، وسفر بعض رجالهم إلى إنجلترا شاكين مستنجدين . وهذه هى صحيفة (العَلَمَ) تروى مانشرته جريدة (الديلى نيوز) من شكوى أحدالأقباط الموجودين فى إنجلترا من سوء وضع القبط فى مصر . ويعرف الزائر القبطى القبط بأنهم سلالة قدماء المصريين ، ويقول إنهم كانوا يتمتعون بمراكز مهمة نزعت منهم شيئا فشيئا . ويرد العلم على ذلك بمناشدة أمثال هذا الرجل أن يتقوا الله فى وطنهم(١).وهذه هى صحيفة (مصر) تنشر سيلا من البرقيات بعنوان (قلق الأقباط العظيم) و (مايجب على الأقباط) ، منها ما يطالب « بالالتجاء إلى دولة قوية لتكون عضدا لنا فى المستقبل » ومنها ما يطالب بعدم منح المصريين الدستور « والالتجاء إلى عموم الدول الأوروباوية للنظر فيما آلت إليه حالتهم » ، ومنها مايلجأ إلى وزير خارجية انجلترا وإلى «جناب المعتمد البريطانى بمصر (٢)» . وتنقل هذه الصحيفة عن (الإجبشيان جازيت) افتتاحيتها التى هاجمت فيها مدارس الشعب التى كان يديرها الحزب الوطنى وقتذاك ، متهمة إياه ببث روح التعصب الدينى ، وإثارة الفتنة « وإيغار صدور العامة ضد الحكم الحالى وضد المحتلين والنصارى(٣)» . وتدعو الصحيفة إلى إرسال وفد قبطى لوزارة الخارجية الإنجليزية للدفاع عن حقوقهم(٤) .

على هذا النحو راحت الصحف القبطية تكيل التهم للحزب الوطنى ورجاله وصحافته فى عنف بالغ ، وراح هؤلاء يردون على هذا العنف بعنف مثله(٥).

---

١ — صحيفة العلم عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ مقال (آلام القبط)
٢ — صحيفة (مصر) عدد ٥ فبراير سنة ١٩١٠
٣ — صحيفة (مصر) عدد ٤ مايو سنة ١٩١٠ مقال (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب)
٤ - صحيفة (مصر) عدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ مقال (تحرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط)
٥ - راجع أمثلة ذلك فى مقالات عبد العزيز جاويش (الاسلام غريب فى داره) و (علام هذه=

ونشطت الدعوة لعقد المؤتمر القبطي فى أسيوط بعد أن ضاعت مساعى العقلاء من الفريقين ، مثل إسماعيل أباظة وواصف غالى ، فى الحد من عنف الثائرين وكبح جماحهم . وترددت الحكومة فى التصريح به خشية الفتنة واضطراب الأمن، طالبة أن يعقد فى العاصمة حتى يمكن تلافى ماقد ينجم عنه ، ثم أذنت آخر الأمر بعقده فى أسيوط ، فتم انعقاده فى يوم الأحد ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، بدعوة من مطران أسيوط وبرياسة بشرى حنا بك ، واستمرت جلساته إلى يوم الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١٠[1]. وانحصرت مطالبه فى (١) طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة (٢) أن تكون قاعدة التوظف هى الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية فى السكان (٣) وضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامى وحده فى المدارس الأولية (٤) وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية (٥) جعل الخزينة العمومية مصدرا للإنفاق على جميع المرافق المصرية.[2]

وتولى مصطفى رياض باشا الدعوة إلى مؤتمر مصرى ينظر فى شئون المصريين جميعا — أقباطا ومسلمين — وسماه (المؤتمر المصرى) ، ولم يسمه (المؤتمر الإسلامى)

= الصحف) مجلة الهداية عدد مارس سنة ١٩١١ . وصحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال (وطنيون أم أجانب والسياسة أم الدين) وعدد ١١ ابريل سنة ١٩١١ (على من تبعة هذه الارتباكات ؟) وعدد ٥ ابريل سنة ١٩١١ فى مقال (فلنحاسبكم فقد انقضى زمن المجاملة) وصحيفة مصر عدد ٧ ابريل سنة ١٩١٠ فى مقال (سهم آخر من كنانة الحزب الوطنى) . وعدد ٣ مايو سنة ١٩١٠ (حزب الثورة والاقباط) ، ٤ مايو سنة ١٩١٠ (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) وعدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ (تحرشات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الاقباط) . وراجع كذلك ديوان على الغاياتى (وطنيتى) ص ١٠٨ (الحادث الخطير — قتل رئيس النظار السابق) ، ص ١١٥ (يوم القضاء على إبراهيم ناصف الورداني)

١ — راجع قرارات المؤتمر وما ألقى فيه من كلمات فى أعداد صحيفة مصر من الاثنين ٦ مارس الى الخميس ٩ مارس سنة ١٩١٠ . وراجع كذلك افتتاحية (العلم) عدد ٣ إبريل سنة ١٩١١ (المؤتمر القبطى)

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٤ — ٢٤٥ ، صحيفة (مصر) عدد ٢٢ مارس سنة ١٩١١ (الاقباط فى مصر — الجمعية العمومية فى أسيوط) ، مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول.

توكيدا لوحدة الأمة ، وتجاهلا للأساس الطائفي الذى قام عليه (المؤتمر القبطى). وتم انعقاد المؤتمر برياسة مصطفى رياض فى يوم السبت ٢٩ ابريل سنة ١٩١١، وظل منعقدا إلى يوم الأربعاء ٤ مايو سنة ١٩١١[١]. وقد رجا الرئيس المجتمعين فى مفتتح المؤتمر أن يحكموا روح العدل وتأييد الروابط الوطنية فى مداولاتهم ، وأن يكون التسامح الذى عرف عن الإسلام رائدهم فيما يقولون . وتلاه لطفى السيد بتلاوة تقرير اللجنة التحضيرية ، فأكد أن المؤتمر يبحث فى المصلحة العامة ، وينظر فى التوفيق بين العناصر المؤلفة للوحدة المصرية التى كاد يتصدع بناؤها من جراء المؤتمر القبطى ، وأكد أن الأقلية والأكثرية فى الأمم لا تقوم على أساس الدين ، ولكنها تقوم على أساس المذاهب السياسية، وأن الأمة باعتبارها كائنا سياسيا أو نظاما سياسيا إنما تتألف من عناصر سياسية كذلك . فأيمـا مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عددا وأثرا كان أكثرية وكان الآخر أقلية . وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقليات فى كل أمة ، وليس للدين فى ذلك دخل . وبين ماتنطوى عليه الاستعانة بالإنجليز من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية ، مما يدعو إلى الاسترابة فى حسن نية القائمين به ، اللذين أرادوا أن يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم فى مصر — وهم أقلية — حق السيادة على الأكثرية ، اعتمادا على الاحتلال المسيحى وعلى أن المصريين أخوف ما يكونون من أن يرموا بالتعصب الدينى . وأعلن أن المؤتمر سيبحث فى عمل الأقباط وتقديره ، ليزن مطالبهم بميزان العدل ، وليبين النافع من الضار ، والممكن وغير الممكن ، ويقرر لهم مايراه حقا من غير أن يحوجهم إلى السعى بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم . كما أعلن أن اللجنة التحضيرية رأت أن يتناول المؤتمر البحث أيضا فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ماله علاقة بسعادة الأمة ، ماعدا المسائل السياسية داخلية كانت أو خارجية ، لأن ظروف مصر

---

١ — توفى مصطفى رياض بعد المؤتمر بقليل فى ١٧ يونيه سنة ١٩١١ (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٩)

لاتسمح بدخول المؤتمر فى السياسة . ثم تتبع مطالب المؤتمر القبطى بالرد واحدا واحدا ، مدعما رده بإحصائيات تبين أن نسبة القبط فى الوظائف الحكومية ، وفى مجالس المديريات التى تدل نتائج انتخاباتها على تسامح المسلمين ، يفوق نسبتهم العددية بمقدار كبير ، وأن الموظفين منهم كثرة فى بعض الوزارات .

وبعد أن انتهى لطفى السيد من تلاوة تقرير اللجنة التحضيرية تتابعت البحوث فى شتى النواحى الاجتماعية والاقتصادية موزعة بين أيام انعقاد المؤتمر ابتداء من الجلسة الثانية فى مساء اليوم الأول لانعقاده

* * *

لم تكن هذه المحنة شراً خالصا كما يبدو من هذا العرض . فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حدا لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيسا شفى النفوس من الكره الكامن الدفين ، وفرصة لتصفية مابين الأخوين من خصومة وعلاجه بطريقة صريحة . وقدبث كل منهما شكواه ، وعبر عما يجد ، وعاتب صاحبه عتابا إن يكن عنيفا قاسيا خشنا فى بعض الأحيان ، فقد انتهى باعتذار كل منهما لصاحبه على كل حال . ونهض عقلاء كل من الطائفتين لتخفيف حدته وإقامة الأدلة على أنه لايقوم إلا على أساس من الوهم وسوء الظن ، وأنه لا يفيد أحدا من المتخاصمين ، وأنه لايعود إلا بالشر عليهما جميعا ، ولا يستفيد منـــه إلا المحتل الدخيل الذى يمتص دماء الفريقين كليهما دون تمييز بين مسلم وقبطى . فقد أفاض كل من الفريقين المتخاصمين فى الكلام عن الجامعة المصرية وعن خطر تفاقم الخلاف بين عنصريها.[1] وصرح القبط بهواجسهم التى انطوت عليها نفوسهم خلال قرون طويلة ، ودلوا المسلمين على موطن الداء فاتجهوا إلى علاجه فى صراحة أيضا ،

---

١ — راجع أعداد صحيفة مصر فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٠ (تضامن المصريين العظيم فى مصر) ؛ ٧ فبراير سنة ١٩١٠ (الاتحاد قوة ـ توحيد عناصر الوطن الواحد لخدمة الوطن) . وراجع كذلك فى أعمال المؤتمر المصرى الاول كلمات حافظ رمضان وصالح حمدى حماد (الجلسة الثانيه) واحمد عبداللطيف (الجلسة الثالثة)

واستطاعوا أن يقيموا الدليل المادى الواضح على أن ماذاع بين القبط من الشعور بالظلم والحرمان ليس إلا وهما روجته طائفة من المخالطين السيئى النية ، الذين امتلأت جيوبهم وضعفت فيهم العاطفة الوطنية بانتمائهم إلى دول أجنبية ، فلم يبالوا حين أيقظوا هذه الفتنة ليستفيدوا منها أن تقع أوزارها على الوطن الذى برئت قلوبهم من حبه والوفاء له . كما استطاعوا أن يقيموا الدليل على أن مايطلبه القبط تحت ضغط المضللين المغررين ممن تزعموا حركتهم يتعارض مع مصلحتهم هم أنفسهم ويناقضها أشد المناقضة(١)

ولذلك نستطيع أن نقول إن هذا الشر المستطير كان نقطة البداية فى خير عميم. وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف فى النزاع الذى ينذر بتصدع الجامعة المصرية ، فمن الحق أنها كانت فى نفس الوقت الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية ، ونقطة البداية الصحيحة فى الجامعة القومية ، التى بدت بعد ذلك فى أروع مظاهرها فى ثورة سنة ١٩١٩ . ذلك بأن تفاقم الخصومة قد أفزع الفريقين كليهما ، ونبههما إلى ما ينطوى تحته من خطر داهم ، فتولدت من ذلك رغبة صادقة فى جمع الكلمة ، ساهم فيها المصريون من قبط ومسلمين . فهذا هو مرقص فهمى يلقى خطبة فى اجتماع عقده القبط بحديقة الأزبكية ، ينفى فيها عن المسلمين تهمة التعصب ، مسفها أقوال الذين يتهمون طائفة من الأمه بالاشتراك فى اغتيال بطرس غالى جملة ، ويحصر عمل الوردانى فى شخصه ، مؤكدا أن الجريمة التى راح ضحيتها رئيس الحكومة عمل يأسف له كل مصرى مسلما كان أو قبطيا . فيجيبه الغاياتى بقصيدته (إلى خطيب السلام) :(٢)

---

١ — راجع في أعمال المؤتمر المصرى الأول كلمات صالح حمدى حماد فى الجلسة الثانية (تمحيص مطالب الأقباط وإزالة موجبات الشقاق) واحمد عبد الطيف في الجلسة الثالثة (الأقلية الدينية ومجالسنا النيابية) والشيخ على يوسف فى الجلسه الرابعه (التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه) . وراجع كذلك جداول الاحصاء المختلفه الملحقة بأعمال المؤتمر .

٢ — ديوان الغاياتي (وطنيتى) ص ١١٣

خطبتَ فلم تجنح إلى شِرعة الهوى ... ولم تتخذ نهجَ الخلاف سبيلا
وأنصفتَ قوماً أنت منهم، وإن عدا ... عليهم جهولٌ أو أعان جهولا
فما أنت قبطى يبيع بلاده ... ويرضى بدين الجاهلين بديلا
وما أمةُ القرآن فى مصر أمةً ... ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإنّا وأنتم إخوةٌ فى بلادنا ... أقمنا على دين السلام طويلا
نذود عن الأوطان إن طمّ حادث ... ونحمى حماها بكرةً وأصيلا

ويختم قصيدته بتحيه مرقص فهمى قائلا

فسرْ فى سبيل الصدق ياخير قائل ... أقام على صدق الولاء دليلا
ففى ذِمّة الأهرام موقفك الذى ... روى النيلُ والأهرامُ منه غليلا

وهذا هو واصف غالى — والقتيل أبوه — يكتب إلى إسماعيل صبرى، يرجوه التوسط فى الصلح بين الطائفتين فيقول .(١)

سعادة سيدى المفضال إسماعيل باشا صبرى.

قيل إن الشعراء أنبياء ، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب . فعسى أن يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف .

والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية أن يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعتُ صوتى الضعيف مناديا بالاتحاد والوئام . على أنى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته أن يحرك عواطف الأمة . فهل لك ياسيدى أن تبذر بذور السكينة والوفاق ، لتثبت شجرة المحبة والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد . لعمرى إن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمك سحر يجمع القلوب المتنافرة . وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى وفاة صديقك الحميم (٢١ فبراير) (٢) . فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك الكريم (مَثل الأقباط والمسلمين فى مصر — وهما العنصران المكونان

---

١ — ديوان اسماعيل صبرى هامش ص ١٨٠

٢ — يقصد بصديقه الحميم والده بطرس غالى

للأمة — كمثل العينين فى الوجه ، يؤلم اليمنى مايؤلم اليسرى . » وتكللها بالدعوة إلى أن يكون جدث الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الارتباط المتين بين الأقباط والمسلمين . وإنى أشكرك من أجل ذلك باسم والدى بل بصفتى ابن حنون على وطنه وأمته ، وتفضل بقبول احترام أخيك الحافظ لك وُدّ أبيه ؟

٨ فبراير سنة ١٩١١ م واصف بطرس غالى .

ويلبي إسماعيل صبرى الدعوة فيكتب قصيدة يتحدث فيها عن مصاب المسلمين والقبط فى بطرس غالى ، قائلا :

معشرَ القبطِ يابنى مصر فى السَّـ ـرّاءِ قد كنتمُ وفى الضرّاء
قد فقدنا منا ومنكم كبيرا كان بالأمس زينة الكبراء
فأقمنا عليه فى كل ناد مأتما داويا بصوت البكاء
ومزجنا دموعنا بدموع بذلتها عيونكم فى سخاء
ورأينا فتلك الرزيئة بالعقـ ـل وفعل المصاب بالعقلاء
بارك اللهُ فيكمُ أنتم النا س وفاءً إنْ عُدّ أهلُ الوفاء

ثم يقول إن الإسلام والمسيحية كليهما يأمران بالإحسان ، وينهيان عن البغى والعدوان ، وأن مصر هى أم المسلم والقبطى على السواء ، خيرها لهما إن اتحدا وتماسكا . فإن تفرقا فكلاهما للأجنبي الغريب .

دينُ عيسى فيكم ودين أخيه أحمدٍ يأمرانا بالإخاء
ويحكم ماكذا تكون النصارى راقبوا اللهَ بارِىءَ العذراء
مصرُ أنتم ونحن ، إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعى التقاء
مصرُ مِلكٌ لنا إذا تماسكْـ نا ، وإلا فمصْرُ للأرباء

ثم يطلب إلى المسيحيين أن يصموا آذانهم عن دعاة الشقاق الذين يبذرون بذور الجفاء ، فيقول .

لاتطيعوا منا ومنكم أناسا بذروا بيننا بذور الجفاء

لا تولوا وجوهكم شطر من عكـ ـر مافى قلوبنا من صفاء
إن دين المسيح يأمر بالعُرْ ف (١) وينهى عن خُطة الجهلاء
لا يكنْ بعضُنا لبعضٍ عدوا لعنَ اللهُ مستبيحى العِداء

وتواتر شعر الشعراء ، كلما سمحت مناسبة من المناسبات ، مؤكدين صلة الأخوة والجوار التى تقوم بين المسلم والقبطى ، مذكرين بما كان بينهم من ود قديم أكيد فى مختلف عصور التاريخ ، مبينين أن الإسلام برىء من الذين يسيئون فهمه ويخرجون على تعاليمه السمحة ، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى وطنهم جميعا .

قتل بطرس غالى ، فرثاه شوقى بقصيدته

قبرَ الوزير تحية وسلاما الحلمُ والمعروفُ فيكَ أقاما (٢)

وفيها يقول :

قد عشتَ تُحدثُ للنصارى ألفةً وتُجِدُّ بين المسلمين وئاما
واليومَ فوق مَشيدِ قبرِكَ مَيتا وَجَدَ الموفَّقُ للمقال مقاما
الحقُّ أبلجُ كالصباح لناظر لو أن قوماً حكموا الأحلاما
أعهدتَنا والقِبْط إلا أمــةً للأرض واحدةً تروم مَراما
نُعْلى تعاليم المسيح لأجلهم ويُوَقِّرُون لأجلنا الإسلاما
الدِّين للدَّيان جلّ جلاله لو شاء ربُّك وحَّد الأقواما
ياقوم بانَ الرُّشْدُ فاقصُوا ماجرى وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما
هذى ربوعُكُمُ وتلك رُبوعُنا متقابلين نعالج الأياما
هذى قبورُكمُ وتلك قبورنا متجاورين جماجماً وعِظاما
فبحرمة الموتى وواجبِ حقهم كونوا كما يقضى الجِوارُ كِراما

---

١ — العرف (بضم العين) المعروف
٢ — الديوان ٣ : ١٤٤

وتوجه إلى القبط بقصيدته :

بنى مصرَ إخوان الدُّهُورِ رُوَيْدَكم هَبُوه يَسُوعاً فى البرِّيةِ ثانيا (١)

وفيها يقول :

تعالَوا عَسى نطوى الجفاءَ وعهدَه وَنَنْبِذُ أسبابَ الشِّقاقِ نواحيا
ألمْ تَكُ (مِصْرٌ) مَهْدَنا ثم لَحْدَنا وبينهما كانت لكُلٍّ مَغَانيا (٢)
ألم تَكُ من قبل المسيح بن مريمٍ ومُوسَى وطه نعبُدُ السِيلَ جاريا
فَهلاَّ تساقينا على حُبِّة الهوَى وهَلاَّ فدَيْناه ضِفافاً ووادِيا
ومازالَ منكُمْ أهلُ وُدٍّ ورحمةٍ وفى المسلمين الخَيْرُ مازال باقيا
فلا يَثْنِكُمْ عن ذِمَّةٍ قتلُ بُطرسٍ فقِدْماً عرَفْنا القتلَ فى الناس فاشيا (٣)

ورثاه إسماعيل صبرى بقصيدته :

لَهْفَ الرياساتِ على راحلٍ قد كانَ مِلءَ العين والمسمَعِ (٤)

وفيها يقول :

عَينِيَ فيكَ اليومَ قِبطيِّةٌ تَروِى الأسَى عن مسلِمٍ مُوجَعِ
بهيم من وَجْدٍ ومن لوعةٍ فى الجانب الأيسر من أضلُعى
ويأخذ البِرَّ وآىَ الوَفا عن الكتاب الطيِّب المَشْرَعِ (٥)

ورثاه نسيم بقصيدته : (٦)

اجعل عزاءك فى الوزير جميلا أعزز علينا أن يموت قتيلا

---

١ — الديوان ٤ : ٣٩
٢ — غنى القوم بالمكان (على وزن علم) أقاموا . والمغنى (وزن اسم المكان) مكان الاقامة . والجمع مغانى
٣ — الذمة العهد . يقول لهم : لايحملكم قتل بطرس على العدول عن عهد الاخاء والوفاء الذى كان بينكم وبين إخوانكم المسلمين .
٤ — الديوان ص ٢١٨
٥ — المشرع المنهل . ويقصد بالكتاب الطيب المشرع القرآن الكريم
٦ — الديوان ٢ : ٣٤

أودى فغادر للطوائف مقلة　　تبكى الوزارة والدم المطلولا
أجرت يد القدر الرهيب دماءه　　حمراء تحكى العسجد المحلولا
لوكان فى شعرى أزاهر تجتنى　　لقطفتها وجعلتها إكليلا
والله لولا داء قلبى ماغدا　　قلبى بغير رثائه مشغولا

وقد تجاهل فيها الخلاف بين عنصرى الأمة فلم يشر إليه ، وانصرف فى معظم القصيدة إلى تهنئة محمدسعيد بالوزارة والإشادة بفضله وما يُعلق عليه المصريون من آمال .

ورثاه ولى الدين يكن بقصيدة تزيد عن ستين بيتا بدأها بقوله :

أبدًا تُرامِى غَـيْرَها وتُرَادِى　　أكذا أعادِى الأكرمين تعَادِى [1]

ولم يشر فى قصيدته إلى خلاف المسلمين والقبط ، ولـكنه هاجم بعض رجال الحزب الوطنى فى قسوة ، واتهمهم بإثارة الفتنة وبسوء القصد . ورثاه من قبل ذلك فى مقال عنيف نشر فى صحيفة المقطم عنوانه (بطرس غالى فى موكبه الأخير)[2]

يقول فيه مهاجما الحزب الوطنى وصحفه

« حسبُهم الله . أقلقوا النيامَ فى مضاجعهم ، وأتعبوا الرائحين والغادين فى طرقاتهم ،ودوّت صيحاتهم فى الآذان حتى كادت تُصِـمُّها . أعـوَلوا ثم أعوَلوا : ليَـحْيَ الدستور ! ليحيَ الدستور ! ليحيَ فلان ! ويسقط فلان ! أمن أجل هذا كانوا يريدون الدستور .»[3]

قام بالأمس أحدُ قُرّاءِ سورة يوسف ، فأصدر جريدة دينية جـديدة ليجعلها إحدى البلايا على الدين وبنيه.[4] ماذا تريد بطبلك ياهذا المطبِّل ؟

---

١ — الديوان ص ٦٦
٢ — الصحائف السود ص ١٠١
٣ — كانت المطالبة بالدستور وقتذاك على أشدها . وكان الحزب الوطنى هو المتزعم لهذه الحركة .
٤ — يعرض بالشيخ عبد العزيز جاويش ويقصد بصحيفته مجلة (الهداية) التى صدر العدد الاول منها فى فبراير سنه ١٩١٠ ، فوافق قتل بطرس على

أنبيٌّ أنت أم إمام أم فقيه أم سياسيٌّ أم أديب أم ثرثارة؟ تريد النعيق على أطلال بلد لست من أهله(١). حسبُكَ واحدة أرتنا نفثاتك. تلك نفثات سينفرُ غداً منها، وستظل هي على أثرك، وإن الله لبالمرصاد.»

ودافع فى آخر المقال عن بطرس غالى فيما اتهمه به الحزب الوطنى فقال:

«ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم؟ صاح أكثركم مذكّرا بحادث دنشواى. وتشدق آخرون باتفاق إنكلترا ومصر على السودان. وشكا غيرهم من قانون المطبوعات. وهل كان لهذا الوزير هذا القدر من التفرد بالإدارة والخيار فى الفعل؟ ومن أهاج أهل دنشواى؟ ومن أتى بقانون المطبوعات؟ سائلوا تلك الجرائد التى تود أن توقع البلد فى الهلاك. عسى أن توافيك بجواب سديد.»

ثم دافع عن القبط قائلا:

«الأقباط هم أولى مصر قبل كل مصرى. مازال الجَوْرُ يتصيدهم حتى قلّوا عددا ووفرتم، وخسروا وكسبتم. ثم مَنَّ الله بعدله، فقالوا «نحن إخوان» أفلا تريدون أن تكونوا لهم إخوانا؟ فما لهذه البراثن إذن داميات؟»

وقصيدة الشاعر ومقاله ليسا علاجا للموقف كما ترى. وربما خفف من وقعهما أنهما صدرا من شاعر مسلم. ولكن الرجل كان معروفا بتحيزه للمستعمرين كما سيجىء.

وأحجم كثير من الشعراء وقتذاك عن رثاء الرجل لما أحاط بموته من شَبَه وما اتهم به من مشايعة الإنجليز ضد مصلحة الوطن. فسكت حافظ ومحرم والكاشف وعبد المطلب. ولكن بعضهم شارك فى مناسبات أخرى مشاركة فعّالة قوية فى رأب الصدع وجمع الصفوف.

وكان محرم أكثر الشعراء شعرا فى هذه المناسبات، وأشدهم تحمسا فى الدعوة

---

١ — يشير إلى أن عبد العزيز جاويش من أصل مغربى. والعجيب أن يكن تركى وليس مصريا خالصا، وقد كان صديقا للانجليز كما بينا فى الفصل السابق. وصحيفة (المقطم) التى نشر فيها المقال صحيفة استعمارية كما هو معروف.

إلى التوفيق ، والتحذير من الكارثة التى توشك أن تحل بالمسلم والقبطى فتعمهما على السواء .

يقول فى قصيدته «تفرق المذاهب» مخاطبا القبط :(١)

بنى وطنى ، من يَرْتَدِ الشرَّ يُلْفِهِ — وإن راقه يوماً رداءً مُسَمَّماً
بنى وطنى ، إن الأمور سماتُها — تَبِينُ . وإن الرأىَ أن تتوسَّما
بنى وطنى ، مالى أراكم كأنما — ترون السبيل الوعْرَ أهْدَى وأقوَما
أئن قام ينهاكم عن الغىِّ راشد — غضبتم وقلتم خائنٌ رامَ مَغنما
... تعالوا إلينا إنما نحن إخوة — وإنْ انبتات الحَبْل أن ينفصِما
تعالوا إلينا إنمـا نحن إخوة — وإنى رأيتُ الأخذَ بالرفق أحزما
وإن سبيلنا سواء ، وكلنا — بنو مصر نأبَى أن تُضَامَ وتُهْضَما
وما العارُ إلا أن تَظَلَّ أخِيذَةً — وتبقى مَدَى الأيام نَهْباً مُقَسَّما

ويختم القصيدة بقوله :

تفرقنا الأديانُ واللهُ واحـد — وكلٌّ بنى الدنيا إلى آدم انتمى
وَسَاوسُ ظَل الشرقُ فيها مصفَّدا — فما يملكُ الشرقىُّ أن يتقدما
بنى الشرق لا يَصْرَعكم الدينُ . إننى — أرى الغرب لولا الجِدُّ والعلمُ ما نَما
ساوه إذا رام الفريسة فانتحى — أيرعى مسيحيا ويرحم مسلما
هو الموتُ ، أو تستَجْفلَ الشرقَ رجفةٌ — تزلزلُ صرعى من بنيه ونُوَّما .

ويقول فى قصيدته « الخُلْفُ واللَّجاج » (٢)

ياأمة القِبط ـ والأجيال شاهدةٌ — بما لَنَا ولكم من صادق الذمم
هذى مواقفنا فى الدهر ناطقة — فاستنبئوها تريحونا من التهم

---

١ - الديوان ٢ : ٨٩ — ٩٤
٢ — الديوان ٢ : ١١٤

لاتظلموا الدين . إن الدين يأمرنا ... بما علمتم من الأخلاق والشِّيَم
منا ومنكم رجالٌ لاحُلومَ لهم ... ولايَفيئون للأديان والحُرَم
أنتم لنا إخوةٌ لاشيء يبعدنا ... عنكم ، على عنَتِ الأقدار والقسم
ليس اللجاجُ بمُدْنٍ من رغائبنا ... ولا الشِّقاق بمُجْدينا سوى الندَم
ياويح مصر لخُلْفٍ لارُكودَ له ... إلا ليعصف بالأقطار والأمم
ولو تآلف أهلوها لما بقيت ... من حاجة فى ضمير النيل والهرَم
ياقوم ماذا يفيد الخلْفُ فاتفقوا ... وقوِّموا أمركم بالحزم يستقم
صونوا العهود وكونوا أمة عرفت ... معنى الحياة فلم تعسف ولم تهم
ياقوم لاتغفلوا إن العدوَّ له ... عينٌ تراقب منكم زلةَ القَدَم

ويقول فى قصيدته « بين المأربين »[1] .

كذبَ الوُشاةُ وأخطأ اللُّوامُ ... أنتم أولو عهدٍ ونحن كِرامُ
حُبٌّ تجدُّ الحادثاتُ عهودَه ... وتزيد فى حُرُماتِه الأيامُ
وَصلَ المقوْقِسُ بالنبى حباله ... فإذا الحبالُ كأنها أرحام[2]
وجرَى عليه خليفةٌ فخليفةٌ ... وإمامُ عدْلٍ بعدَه فإمَامُ
لاتَنْشُدُوا العهدَ المؤكَّدَ بيننا ... النِّيل عهدٌ دائمٌ وذمام
. . . الدِّين لله العلىِّ وإنما ... دِينُ الحياة تَوَدُّدٌ ووئامُ
إن كان للواشى المفرِّق مأرَب ... فلنا كذلك مأرَبٌ ومَرَام
أنظل صرعى والشعوبُ حثيثةٌ ... ونعيش فَوْضَى والحياةُ نظامُ

---

١ — الديوان ٢ : ١١٩

٢ — يشير الى هدية المقوقس للرسول صلوات الله عليه ، حين دعاه إلى الاسلام ، فرد عليه باهدائه مارية القبطية التى تزوجها النبى وولدت له ولده ابرهيم

ويقول فى قصيدته « دنيا الممالك » [1]

يا أمة الإنجيل آمنا به ما بالنبى ولا يسوع جحود
الدين فى أمر ونهى واحد والله جل جلاله المعبود
دنيا الممالك لا تحد . ودينها وقف على ديانها محدود
درج الزمان على المودة بيننا وأراه ينقص والإخاء يزيد
برا بمصر . ومصر أعظم حرمة من أن يضيع رجاؤها المنشود
شدوا القلوب على الإخاء فإنها مصر وإن بلاءها لشديد
أنرى الممالك كل يوم حولنا تسعى ونحن على الرجاء قعود
الأمر مشترك . ومصر لنا معا فى العالمين منازل ولحود
والنيل ، إن حمل القذا وإذا صفا فهو الحياة وورده المورود
أنخون أنفسنا ونفسد أمرنا أن قال واش أو أراد حسود
زعم العدى أنا نعق بلادنا زعم لعمر الأمتين بعيد

وينتهز حافظ عودة الخديوى عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ ، فيشير فى قصيدته التى هنأه بها إلى خلاف المسلمين والقبط داعيا إياه إلى تلافيه حيث يقول : [2]

مولاى ! أمتك الوديعة أصبحت وعرا المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطى مل ء لهاته أن لا سلام وضاق فيها المسلم
وهم أغار على النهى وأضلها فجرى الغبى وأقصر المتعلم [3]
فهمو من الأديان مالا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم

---

١ — الديوان ٢ : ١٢٠ — ١٢٣ . وراجع كذلك قصائده فى (الاخاء الوطنى ٢ : ١١٣) ، (العام الهجرى الجديد ٢ : ١٢٤)

٢ — الديوان ١ : ٢٩١ . وحافظ من أقل الشعراء مساهمة فى هذا الباب . ليس له فيه الا هذه الابيات

٣ — يقول : جرى الأغبياء وقصار النظر الى اشعال الفتنة ، بينما كف المتعلمون وذوو النظر عن إخمادها و تلافيها .

ماذا دَهَا قبطىٌّ مصرَ فصدّه عن وُدِّ مُسْلِمِها وماذا يَنقِمُ
وعلامَ يخشى المسلمين وكيدَهم والمسلمون عن المكايد نُوَّمُ
قد ضمنا ألمُ الحيـاة وكلنـا يشكو ، فنحن على السواء وأنتمُ
إنى ضَمينُ المسلمين جميعهـم أن يخلصوا لكُمُ إذا أخلصتمُ
رَبَّ الأريكة إننـا فى حاجة لجميل رأيك والحوادثُ حُوَّمُ (١)
أَفِضْ علينا من سمائك حكمة تأسو القلوبَ فإن رأيك أحكَمُ
واجمع شتات العنصرين بعزْمةٍ تأتى على هـذا الخلاف وتحسِمُ
فكلاهما لعزيز عرشكَ مخلصٌ وكلاهما برضاك صَبٌّ مُغرَمُ

ويموت مصطفى رياض الذى رأس المؤتمر المصرى سنة ١٩١١ بعد المؤتمر بشهر وبعض شهر فى ١٧ يونيه سنة ١٩١١ ، فيرثيه كثير من الشعراء . ولا يفوت شوقى أن يشير فى رثائه إلى سعيه المشكور فى إطفاء الفتنة ، حيث يقول : (٢)

طلعتَ على النّدِىِّ (بعَيْن شمْس) فوافقها بشمسين الغداةُ
على ما كان يَنْدُو القومُ فيها توافى الجمعُ وائتمرَ السَّراةُ
تملكهمْ وقارُك فى خشوع كما نظمتْ مقيميها الصّلاةُ
رأيتَ وجوهَ قومِك كيف جلّتْ وكيف ترعرعت مصرُ الفتاةُ
تقول متى أرى الجيران عادوا وضمٌّ على الإخاء لهم شتاتُ
وأين أولو النُّهى منا ومنهم عسى يأسون ماجرَحَ الغُلاةُ
مشت بين العشيرةِ رُسْلُ شر وفرّقت الظنونَ السيئاتُ
إذا الثقة اضمحلتْ بين قوم تمزقت الروابطُ والصلاتُ

---

١ — الحوادث حوم أى تحوم حولنا وتطوف بنا .
٢ — الديوان ٣ : ٤٧ وقد تفرد شوقى بالاشارة إلى المؤتمر المصرى بين الشعراء الذين رثوه فآثروا أن يهربوا من الموضوع ويتجاهلوه .

بنى الأوطان هُبُّوا ثم هبُّوا ... فبعضُ الموت يجلبُه السُّباتُ
مشى للمجد خطفَ البرقِ قومٌ ... ونحن إذا مشينا السُّلحُفاةُ
يُمِدُّون القُوَى برًّا وبحراً ... وعدتُنا الأمانى الـكاذباتُ

ويموت جورجي زيدان سنة ١٩١٤ . فينتهز شوقى هذه الفرصة ، ويشير فى رثائه إلى أن الأديان إنما نزلت لهداية الناس . فمن فساد الرأى أن نجعلها بابا للشر وإنما يتبع الناسُ آباءهم فى أديانهم ، ويَرِثون العقيدة فيما يرثون من مخلفات الأجداد . (١)

مَمالكُ الشَّرْق أم أدْراسُ أطلال ... وتلك دُولاته أو رَسْمُها البالى
أصابها الدهرُ إلا فى مآثرها ... والدهرُ بالدس من حالٍ إلى حال
وصار ماتتغنىَّ من محاسنها ... حديث ذى محنةٍ عن صَفْوه الخالى
إذا جفا الحقُّ أرضاً شانَ جانبَها ... كأنها غابةٌ من غير رِئبال
وإن تحكَّمَ فيها الجهلُ أسلمها ... لفاتكٍ من عوادى الذلّ قتَّال
نوابغَ الشرقِ هزُّوه لعلَّ به ... من الليالى جمودَ اليائس السَّالى
إنْ تنفخوا فيه من رُوح البيان ومن ... حقيقة العلم ينهضْ بعدَ إعضال
لاتجعلوا الدين بابَ الشرِّ بينكمُ ... ولا محلَّ مباهاةٍ وإدْلال
ما الدِّين إلا تراثُ الناسِ قبلَكمُ ... كلُّ امرىءٍ لأبيه تابعٌ تالى
ليس الغُلوُّ أميناً فى مَشُورته ... مناهجُ الرُّشْدِ قد تخفَى على الغالى

ويترجم واصف غالى — ابن بطرس غالى — بعض الشعر العربى إلى الفرنسية ، وينشر الترجمة فى باريس فى كتاب سماه (روض الأزهار) ، ويلقى بعض المحاضرات هنالك فى الإشادة بفضل الشرق والشرقيين ، فيقيم المصريون حفلا لتكريمه بفندق

---

١ — الديوان ٣ : ١٢٥

(شِبَرْد) في مساء ٤ يونيه سنة ١٩١٤ برياسة إسماعيل صبري [1] . ويساهم شوقي في هذه المناسبة بقصيدته (ياشباب الديار) . وفيها يقول . [2]

يابني مِصْرَ، لم أقُلْ أمةَ القِبْـ ... ـطِ، فهذا تشبُّثٌ بمُحَالِ [3]
واحتيالٌ على خيالٍ من المجْـ ... ـدِ، ودَعْوَى من العِراضِ الطِّوَالِ
إنما نحنُ مسلمين وقِبْطاً ... أُمَّةٌ وُحِّدَتْ على الأجيالِ
سَبَقَ النيلُ بالأبوَّةِ فينا ... فهو أصلٌ وآدَمُ الجِدِّ تالِ
نحن من طينةِ الكريم على اللّـ ... ـه ومن مائه القَرَاحِ الزُّلالِ
مرَّ مامَرَّ من قرون علينا ... رُسَّفاً في القيود والأغلالِ
وانقضى الدهرُ بين زغردة العُرْ ... سِ وحَثْوِ الترابِ والإعْوالِ
ماتَحَلَّى بكم يسوعُ ولا كُـ ... ـنَّا لِطٰـه ودِينه بجمال [4]
وتَضاعُ البلادُ بالمومِ عنها ... وتُضاعُ الحقوقُ بالإهمال

ويتجه في آخر قصيدته إلى شباب مصر ، مسلمين وقبطا ، يذكرهم بواجبهم نحو وطنهم ، وبأنهم موضع الأمل في النهضة به فيقول :

ياشبابَ الديارِ مصرُ إليكم ... ولواءُ العَرِينِ للأشبالِ
كُلَّما رُوِّعَت بشُبْهةِ يأسٍ ... جعلتْكُمْ معاقلَ الآمالِ

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب . ٣٢١ .
٢ — الديوان ١ : ٢٣٥
٣ — يشير إلى ما كان يردده القبط من أنهم من سلالة الفراعنة، ومن أن القبط تطلق على المصريين جميعا . فهناك قبطي مسلم وقبطي مسيحي . وراجع في ذلك على سبيل المثال المحاضرة التي ألقاها شكري صادق في حفلة جمعية التوفيق ، وموضوعها (الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الأخرى) وقد نشرتها صحيفة (مصر) في أعداد ٣٠ يناير ، ٣١ يناير ، أول فبراير سنة ١٩١٠ .
٤ — يقول للمسلمين والقبط : لم هذا التعصب ، وليس أحد منكما هو خير أمة نبيه ، فليس القبط هم أخلص أتباع المسيح ، ولا هم خير من يعقد شريعته . وليس المسلمون من المصريين هم خير أمة محمد ولا هم أحرص المسلمين على إقامة شعائر الاسلام .

هيئوها لما يليق بشعب وكريم الآثار والأطلال
هيئوها لما أراد (عليٌّ) وتمنى على الظبي والعوالي
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الأشغال
وإلى الله من مشى بصليب في يديه ومن مشى بهلال

ويساهم حافظ فى الحفل بقصيدته : (١)

ياصاحبَ الروضة الغناء هجْتَ بنا ذِكرَى الأوائل من أهلٍ وجيران

ويكتفى فيها بالإشارة إلى فضل المحتفل به وإخلاصه لمصريته .

ويساهم إسمعيل صبرى — رئيس الحفل — فى هذه المناسبة بقصيدة قصيرة : (٢)

أىُّ صوتٍ حَيَّته بالأمس باريـ ـسُ مقرُّ العلوم والعلماءِ

وهو فيها كصاحبه حافظ ، فضّل أن يتجاهل وجود الخلاف القائم بين عنصرى الأمة ، واكتفى بالثناء على واصف غالى ، والإشادة بجهوده الأدبى .

* * *

كان هذا الشقاق إذن محنة امتحنت بها الجامعة المصرية الناشئة فثبتت له . وكان فرصة مواتية لكلام كثير قيل فى تثبيت دعائم القومية المصرية . وليس من الإسراف فى الاستنتاج ، ولا هو من الغلو فى القول ، أن نقرر أن الوحدة الرائعة بين عنصرى الأمة ، التى بدت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٩ ، لم تكن إلا ثمرة لهذه الجهود المخلصة التى بذلت فى رأب الصدع ، وتوثيق الصلات ، وإزالة الأوهام ، وتصحيح فهم التديُّن ، الذى لم يزل الجهل يأخذ بزمامه ، والعصبيةُ العمياء تركبه حتى تردّتْ به فى فتنة هوجاء ، يبرأ منها إلى الله كلُّ دين .

---

١ — الديوان ١ : ٦٣
٢ — الديوان ص٨٤

الفصل الرابع

تيارات سياسية

كانت الثورة العرابية بداية تحول خطير فى الوعى السياسى المصرى فقد كثر فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحدمن سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته. وكان أخطر ماتنطوى عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم، وبجيشهم وبقدرته على الصمود فى وجه الأجنبى.

والواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق. فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حدا للإسراف وللنفوذ الأجنبى، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور (١).

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التى تريد أن تعبر عن نفسها فى صور مختلفة فقد بلغت جرأة الصحف فى معارضة الحكومة حدا لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكون من قبل. وأصبحنا نسمع للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة (٢). وكثر حديث الناس عن الظلم والظالمين. وجهر الشعراء بآرائهم الجريئة التى صادفت هوى فى النفوس. وانطلق السيد جمال الدين الأفغانى يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع السائدة، ويوقظ فيهم روح الحمية والأنفة بما يلقى إليهم من مثل قوله:(٣)

١ — الثورة العرابية ص ١٤

٢ — مثل صحف (مصر) و (التجارة) و (مصر الفتاة) الثورة العرابية ص ٦٩، زعماء الاصلاح ٣٠٠، ٣٠١

٣ — تاريخ الامام ١ : ٤٦

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد » وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط وأنتم فى غفلة معرضون . فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفى رءوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم على هذه الضعة والخمول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدى الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شاهدةً بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار العداوة والخمول . عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء ، أوموتوا مأجورين شهداء »

وغمر البلاد سيل من المنشورات السرية التى تصور سوء الحال وانتشار الظلم مطالبة بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون . (١) ثم أسفرت جماعة الثوار من الساخطين عن وجهها وجهرت بوجودها . فكونوا حزبا سياسيا للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث ، سموه الحزب الوطنى . ونشر الحزب برنامجه الرسمى فى جريدة التيمس فى أول يناير سنة ١٨٨٢ . وهو يدل على وعى سياسى مصرى

١ — كان أول هذه المنشورات بيان سياسى فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ طبع منه عشرون ألف نسخة . وقد حاول مصطفى رياض رئيس الوزارة وقتذاك معرفة ناشريه لاقصائهم إلى السودان فلم يستطع — الثورة العرابية ص ٧٠

صميم ، يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان . فقد جاء فيه « الحزب الوطنى حزب سياسى لادينى . فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وأغلبيته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه ، لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية » (١)

وظهر من الشعراء من يستطيع أن يقول عن إسماعيل أيام كان الجبروت فى عنفوانه(٢) :

رمى بلادكمُ فى قعر هاوية ... من الديون على مرغوب جوسبار(٣)
وأنفق المال(٤) لا بخلا ولا كرما ... على بغىٍّ وقوّاد وأشرار
والمرء يقنع فى الدنيا بواحدة ... من النسا(٤) وهو لم يقنع بمليار
ويكتفى ببناء واحد وله ... تسعون قصرا(٤) بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتكم ... من غفلةٍ ألبستكم ملبس العار

وصالح مجدى صاحب هذه الأبيات هو الذى يقول نادما على ما أنفق من جهد ، وما سوّد من صحف فى مدح هذه الطائفة من الملوك والرءوس والوجهاء ، الذين هم أحق الناس بالذم والهجاء(٥) :

أستغفر الله من نظم القريض ومن ... وَسْمِ البغيض بما يعزَى لرئبال
ومن مديح غدا ذمى به أبدا ... فرضا على مؤمن عدل وتِنْبَال
ومن أكاذيب ألفاظ بها انتشرت ... صحائفُ طيُّها قد كان أولىّ لى
ومن تامٍ مجازىٍّ حقيقتهُ ... تهكمٌ عند تفصيلٍ وإجمال

١ — الثورة العرابية ص ١٤٧
٢ — ديوان صالح مجدى ص ١٧٩
٣ — لم اهتد إلي جوسبار هذا . ولعله أحد الاجانب ذوي النفوذ من مستشاري إسماعيل
٤ — موضع هذه الكلمة بياض بطبعة الديوان
٥ — ديوان صالح مجدى ص ٢٣٤

ومن حماس خيالىّ قد اندرجت ... به ذوو الجبن فى تعداد أبطال
ومن زخارف أوزانٍ نظمت بها ... ركن الخنا والعنا فى سلك أقيال(١)

وهذا الشاعر الذى توفى قبل قيام الثورة العرابية بشهور فى نوفمبر سنة ١٨٨١ هو الذى يقول، مستثيرا همم المصريين لمقاومة النفوذ الأجنبى الذى استفحل فى مصر، حتى غدت مرتعاً لكل أفاق(٢).

خليلىّ ما للفضل والعلم قيمة ... مع الجهل فى دار العنا والمغارم
وما صاحب العرفان فيها كجاهل ... أتاها ذليلا من بلاد الأعاجم
فلو كان فينا نخوة عربية ... لِـِلـْنا على أعـداِئنا بالصوارم
فإن نحن متنا قبل أن نبلغ المنى ... عُذِرنا ورحنا بالثنا والمكارم
وإن نحن أنقذنا من الجور أهلنا ... ظفرنا وفزنا بالثنا والمغارم
أما فيكُم يا أهل مصر كغيركم ... نصيرا يرجّى للقنا والعزائم
... فلو أن لى جيشا به ألتقيهم ... لأفنيت أقصاهم برمح وصارم
وطهرت أرض الله منهم بقتلهم ... وأيدت دين المصطفى خير هاشم
وأمسيت كالليث ابن أيوب مغرما ... بضرب رقاب منهُمُ ومعاصم(٣)
فيا آل مصر لا تناموا ودافعوا ... عن الدين والأوطان أهلَ المحارم
فأموالكم أضحت لديهم غنيمة ... وأبناؤكم ما بين عبد وخادم
ومن بعد ما كنتم شموسَ معارف ... كسفتم وأصبحتم شبيه البهائم
وعشتم بذل بعد جاه وعزة ... ودارت عليكم دائرة المظالم
فلا تغفلوا عن قطع دابر نسلهم ... فقد ملأوا بالفسق كل الملاحم

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور، وبدأت الآراء المختلطة تنضج وتأخذ أشكالا محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج. فهذا هو محمد شريف

١ — الأقيال الملوك جمع قيل (بفتح ثم سكون)
٢ — ديوان صالح مجدى ص ٢٧٥ . وراجع كذلك فى هذا الغرض ص ٢٣، ٢٤ من ديوانه
٣ — يقصد صلاح الدين الأيوبي

يؤلف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ فى أواخر أيام إسماعيل على أساس مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب . ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق — بعد عزل أبيه — إلى إعادة تأليف الوزارة، ويصدر بعد تشكيلها «أمرا ساميا» يوضح فيه برنامج الحكم . وفيه يقرر مسئولية الوزارة ، كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النواب على الميزانية وبعدم إشراك الأجانب فى الوزارة(١) . وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين فى سنة ١٨٨١ يؤيد فيهما النظام النيابى ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأى العام فى تقويم الحاكم ومراقبة تصرفاته وفى لمّ الشتيت المتفرق من الآراء والمصالح بما يصون مصالح الوطن ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعا(٢). يقول محمد عبده فى وجوب الشورى على الحاكم « خلق الإنسان محاطا بالشهوات ، مكتنفا بالأميال ، مقيدا بالأغراض . فهو أسيرها ، تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لها تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها . فلا يتصور حسنا إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلا إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعيا فطريا ، لا يمكن الإنسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه . وإن أمكن فى بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس فى وسع كل أحد ولا فى طاقة كل شخص. فلا يستطيعه إلا من كبرت همته، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته ، حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب . بما يتخذه من الوسائل المختلفة، حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات .

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولى الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر

---

١ — الثورة العرابيه ص ٢٥

٢ — نشر المقالان فى عددى ٢٤ ديسمبر ، ٢٥ ديسمبر من الوقائع المصريه — تاريخ الامام ٢ : ١٩٧ — ٢٠٥

من الوسائل المؤدية إلى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وُسِدَ إليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك إلا مشاورة العارفين العالمين بطرقها . فإن للرأى العام فى مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الإنسان ربما مال إلى شيء ، ولكن يمنعه من معاطاته علمه بأن الرأى العام لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ مابلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علما بمصالح عامة ، خصوصا إذا كانت مصالح أمة كبيرة . فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التى يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفيها اطلاعا . »

ويقول فى وجوب الشورى على المحكوم « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكانا عليًّا قاصر عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت إليه مقاليد مصالحها أن تمده من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها . فليس من الإنصاف أن تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه ، ثم إذا رأت ما لابد منه من التقصير وجهت إليه سهام اللوم . بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقا لوجه الصواب ، ثم إذا وجدت منه تقصيرا فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم . »

ويقول فى نشأة الرأى العام ولزومه : « إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا . وبيانه أن الاجتماع بين أمة من الناس من مبدء أمره لايكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لاتخرج عن الطوارق التى تلم بالإنسان فتلجئه إلى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها . فإذا استتب الاجتماع وسكن الأمن فى قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم فى الأسباب التى توصله إلى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة فى كل مايتنافس فيه كل حى ، وتولد من ذلك حب الطمع والشره ، وجرّ الأمر إلى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم فى مكان واحد متباعدى المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالى أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأى طريق سلك ، ونسى

رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك فى الوطن ، وتناول أشدهم عضدا مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود. فحينئذ لاترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين . بل لا نرى إلا نفوسا شاردة ، وأغراضا متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة العرم. فهم فى هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محورا لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهى إليها حركاتهم فى كافة أمورهم . إذا ما نزل بهم من دواعى الاضطراب ، وأسباب تبلبل الأفكار ، جعل لكل منهم شأنا خاصا به ، فلا يفكر يوما فى حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره . فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأى عام . . . . فإذا توالت عليهم الحوادث ، وعلمتهم أسفار الأخبار طرفا من سير الأمم ، تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع مايسوقهم إلى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الا تضاع ، فتهم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التى تطالبهم بها طبيعته ، فتمانعهم تلك الأخلاق التى نشأوا بها ممانعة تضعف منهم قوة العمل . فكلما قويت فيهم دواعى الاجتماع اشتدت كراهتهم للتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن الملكات الفاسدة، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة، وأصبحت المقاصد متجهة إلى غاية واحدة، وهى المعاصدة على حفظ الهيئة الاجتماعية . فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فإن الحاجة هى الأستاذ الذى لا يضيع تعليمه، ولا يخيب إرشاده ومن هنا ينشأ بين الناس مايعبر عنه بالرأى العام ، وهو الأساس الذى بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة فى أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقى التى تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحى فيها الأغراض المتعددة . . . . فإذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور ، وأصبحوا جميعا على رأى واحد فى وجوب ضبط المصالح ، وتقييد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تهان ، اندفعوا جميعا إلى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا

لومة لائم . ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانونا عادلا لائقا بحالهم ، منطبقا على أخلاقهم وعوائدهم ، كافلا بمصالحهم ، يرجعون إليه فى أمر المساواة والأمن على البلاد والعباد . »

وهـــذا هو عرابى وصحبه يناقشون أنواع الحكومات وأساليب الحكم ، فيفضلون النظام الجمهورى ويهمون بتنفيذه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك إلا ما يخشون من مفاجأة الرأى العام بنظام لم يستعدوا له . وفى ذلك يقول عرابى فى خطاب له إلى بلنت « تم خلع إسماعيل فزال عنا عبء ثقيل . ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها ، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية . »(١) ويقول البارودى « لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا ، ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك فسنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت . »(٢)

* * *

وانتهت الثورة العرابية بسجن زعمائها وتشريدهم . واستولى اليأس على الناس ، وفشا فيهم روح التخاذل ، ودب دبيب السعايات . وفقد الصديق ثقته فى صديقه ، بعد الذى كان من شهادة بعضهم على البعض ، وإيقاع الواحد منهم بجاره وصديقه تحت ضغط المحققين وهول الإرهاب . وكره الناس السياسة وتشاءموا باسمها واستعاذوا بالله من شرها ، فانطووا على أنفسهم لا يرجون إلا السلامة ، ولا يطمعون إلا فى حياة هادئة لا ينغصها الهم والفزع ، وقد تضافر عليهم الفقر والمرض ، فاجتاحت الكوليرا — أو (الشوطه) كما كانوا يسمونها — مصر فى السنة التالية للاحتلال ، وراح ضحيتها أكثر من ستين ألفا من المواطنين . (٣) وأخذ الاحتلال فى غمرة

١ — البارودي (رسالة ماجستير مخطوطة للسيدة نوسة زكريا) ص ٣٨
٢ — نفس المرجع ص ٤٠
٣ — مصر والسودان فى أوائل الاحتلال ص ٣٢ ، مصر للمصريين ٦ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦

من يأس الناس وموت الهمم وارتماء الخديوى فى أحضان أولياء نعمته الذين يدين لهم بكيانه وسلطانه يثبت أقدامه ويدعم كيانه. فتسلط على الجيش بعد أن حله وأعاد تكوينه ضئيلا هزيلا أعزل، لا يتجاوز عدده ستة آلاف، فى قبضة سردار إنجليزى يعاونه نفر من كبار الضباط من بنى جنسه. وأغلقت جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان. وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاؤها. وصارت مهمات الجيش وأدواته تشترى من إنجلترا ولا يحملها الجنود المصريون إلا وقت التمرين (١). وتسلط الاستعمار كذلك على البوليس بوضع رجل إنجليزى على رأسه، وتعيين وكيل إنجليزى لوزارة الداخلية، بلغ من غطرسته أن حضر يوما تمثيل إحدى الروايات بمسرح زيزينيا فى الإسكندرية فجلس فى مقصورة الخديوى الخاصة (٢). وتسلط على الحياة الاقتصادية بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار إنجليزى للمالية. وألغى الحياة النيابية. وأغرق مصر وارهقها بتعويضات الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم وقد أربت على أربعة ملايين من الجنيهات (٣)، وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الإنجليز وقد بلغت سنة ١٨٨٣ مايقرب من نصف مليون جنيه (٤)، وبتكاليف حرب المهدى فى السودان. وتوالت الوزارات المستسلمة للإنجليز، المرتمية فى أحضانهم، نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمى. وأخمدت أنفاس الصحافة لأدنى شبهة يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديوى. فمنعت «العروة الوثقى» التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس من دخول مصر. وألغيت صحيفة «الوطن»، وصحيفة «مرآة الشرق»، وصحيفة «الزمان» وعطلت الأهرام شهرا (٥). كل ذلك والناس أشباه أحياء أو أشباه أموات، لا تسمع لهم نأمة، ولا يرتفع

---

١ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٧، ١٩

٢ — نفس المرجع ص ١٥٩

٣ — المرجع نفسه ص ٩

٤ — نفس المرجع ص ٦٤

٥ — نفس المرجع ١٦١ — ١٦٣، مذكراتى فى نصف قرن ١ : ٢٩٠

صوت بمعارضـــة أوشكوى أوتذمر .

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتلال هو صوت صحيفة « المؤيد » التى ظهر العدد الأول منها فى أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ . وقد جاء فى فاتحته « ومالنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الإحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ودواعى الحياة الدينية والأدبية وكمال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى خير ماأردنا وأحسن مانريد، وأن تؤيدنا، بعنايتك الصمدانية فإنك الفعال لماتريد . » ثم يقول « خدمة الأوطان من أوجب الواجبات والزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدى والشقاء الدائم . فقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية ذلك الفرض عن طهارة طويه وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ،وإنما لكل امرىء مانوى .... ومهما جدّ سوانا فى خدمتنا واجتهد ، أوهجرت عينهُ الغمْض ، فلاتقوم النافلة مكان الفرض . وليس من المروءة أن لانشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوَسَنْ .

فما الناسُ إلا يقظة ، فإذا غفت عيونُهُم داسَتهُمُ حُمُرُ الناس
فبالعين يُكفى المرء صدمةَ عاثر وفى العين يَهوى مِنْ تَغافله الناسى(١)

وارتفع صوت « المؤيد » للمرة الأولى منذ الاحتلال بإثارة مسألة الجلاء . فأخذ يتساءل « أحقٌ ماتقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها ؟ وما هو الصلاح الذى تعلقون عليه أمر انجلائكم ؟ وهل بدأتم فيه أوتم شىء منه ؟ (٢) » . وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال ينشدُ المصريين الاتحاد ويذكرهم بمجدهم القديم وينبههم الى خطر الاستعمار الاقتصادى إذ يقول « أى بنى الوطن الأعزاء على الأصدقاء إلى . أى أفراد العائلة المصرية ، وأجزاء هيئتها المدنية . علمتم ــ ولاأخالكم تجهلون ــ حالة بلادنا فى الأزمان الغابرة والقرون

١ ــ العين الأول مقصود بها العضو المبصر والثانية مقصود بها السّر

٢ ــ منتخبات المؤيد : السنة الأولى فى مقال عنوانه (متى تصلح مصر) ص ٣٠

المتوسطة ، وماجناه اللاحق على السابق . . . وهاهى الحالة الحاضرة تطالبكم بأداء الواجب عليكم ، مما يجعلكم رجالا تبارون الرجال . وإن تيار هذا التمـــدن الحديث لايجاريه إلا من عرف وجهة مجاريه ، ذوو القوة ممن هذبتهم التجارب ، فحافظوا على الأوقات وانتهزوا الفرصات . اعلموا بنى أبينا أن هذا التمـدن قد حمل إلى بلادنا على أكف أقوام أقوياء حرصاء ، لم يرضهم فى ثمنـة القليل ، ولم تـكفهم فى مقابلته القيمة ، يودون أن يضربوا بأيديهم على التجارة والصناعة ومصـادر الثروة . ونحن ننظر إليهم بعين المتعجب الباهت ، مرسلة أيدينـا إلى الجوانب ، كأننا لسنا جميعا أبناء أب واحد وأم واحدة . إن هذا الشىء عجاب(١) . »

وراح يستنهض الهمم ويوقظ النوام بمثل قوله : « ألا قل لمن يظن أن مجد الأمة بالمال والحرية : إن المال لاينهال من السماء ، والحرية لاتنبعث من الينابيع والجداول . وكلاهما لا يأتى إلا من طريق العزم والحزم ، ولا يغرس فى الأمة إلا بأيدى كبـار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متجلببا بجلباب السعادة والرفاهية فى أعين الشعوب . ولا يخفى أنه لا يشخّـص الأمة فى عيون غيرها إلا حال القابضين على أزمة أمورها . فإن كانوا أشداء حرصاء على المنفعة ، عالمين بما يجب أن يكون ، لاتلجئهم الشدة إلى التزلف ، واللين إلى التفريط ، ظهرت الأمة هكذا ، فعظمتها القلوب وأكبرتها الأعين . ولـكن إذا كانوا ضعفاء أذلاء ، تلعب بأعطافهم الـكبرياء على الضعفاء ، ويأخذهم الصّغار لدى الأقوياء ، وقعت الأمة فى بحُران الفساد ، وظهرت وعلى وجهها غبار الذل ، منـكسرة القلب ، لا تكاد تتحرك أو تخطو خطوة لمقصد(٢) . » وأخذ يستثير الحمية ويضرب للناس الأمثال بمثل قوله « قالت الحـكماء إن الحياة هى مجموع الوظائف التى تقوم بهـا أعضاء الجسم . والموت هو بطلان تلك الوظائف . وهو أقرب التعاريف وأسلمها من التـكلف . وعليه فلا بأس من إطلاق الحياة على الأمة ، فيقال هـذه أمة حية ،

---

١ — منتخبات المؤيد : السنة الأولى — مقال « صبرا » (يابنى مصر) ص ٤٧

٢ — نفس المرجع ص ٢٨ (الأمة برجالها)

إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم . ويقال تلك الأمة ميتة ، إذا أخلد أفرادها إلى النوم والكسل ، ولم يقوموا بواجباتهم التى يفرضها عليهم قانون البقاء فى عالم الوجود . . . هل كان يُظَنّ أن عرب البوادى تقوم منهم أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت (وامعتصماه) ؟ أو أن الإنكليز يصحبن شعبا يقوم منه إثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بثأر رجل منهم قتله بعض المتوحشين ، ويقوم منه رجال يجعلون لفظة بريطانيا لا تذكر إلا وعلى أثرها (العظمى) ؟ وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوى ذكر فيه غلادستون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ بل من كان يظن أن الأمة الفرنساوية ، التى كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع ، لما كان متسلطا عليهم من الفشل والانحلال ، تدرج منها أمة تطير أفئدتها عند ذكر الألزاس واللورين (مديريتان أخذتهما منها الألمان فى الحرب الأخيرة) ويأبى الواحد من أفرادها أن يدخل خانا ألمانيا أو يشترى بضاعة من ألمانى ، متى أمكنه أن يشتريها من فرنساوى ؟ بل من كان يخطر على فكره أن البرتغال — على قلة عددهم وعُددهم — تتوقف عَمَلتهم عن شحن المراكب الإنكليزية وتفريغها ، ويكتب تجارهم إلى وكلائهم أن لا يشتروا البضائع الإنكليزية ، ولا يشحنوا ما لديهم فى مراكب إنكليزية ، ويطرحوا عن رءوسهم البرانيط التى صنعها الإنكليز ، كل ذلك لأن الإنكليز عارضوا حكومتهم فى بعض مستعمراتها ؟ والأمثال على ذلك كثيرة ، لا يبعد على الأديب أن يأخذ مما بين طرفى حالة كل أمة أطوارها العديدة ، ويزن بذلك قوة حياتها .

ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام فى المكتب يسمع سب أبيه ولا يتميز غيظا ، فبشر الأمة التى سيكون عضوا منها بالانحلال والدمار . ولقد رأينا مصداق ذلك فى بلادنا هذه . فقد نقل إلينا بعض التواريخ أنه كان يسب المصرى بلفظة فلاح فيقول (قطع الفلاح ونهاره) . وإذ ذاك كانت مصر على ما لا

يُفنى من الانحلال والبـــوار . » (١)

وأخذ يحذر من كل ما يمس كيان الوطن ، أو يضعف الشعور بالقومية المصرية . فهو يوجه الأنظار إلى ماينطوى عليه انتشار المدارس الأجنبية من أخطار ، إذ يقول : « ما طمحت الدول الأوروبيه إلى الاستيلاء على بلد أوإقليم من قارة إفريقية ، وبعبارةٍ من الشرق عموما ، إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ومن تخلق بأخلاقهم ، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار ، علما منهم بأن مأموريه هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم ، دينية كانت أوفنية . وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر ، لايلاقون معارضة أومانعة ، لأن حجتهم نشر العلم والتهذيب ، ورفع لواء التمدن . ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، تقوم عليه قائمة حرب التعيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب . فلا مناص من أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نصراء الهداية والمعارف والتمدن فى مظهر البين ، وسفراء الاستعمار والاستيلاء فى الحقيقة . . . . وهل يُتَصوَّر أن قوما جازوا البحار ، وتجشموا الأخطـار لمحض منفعة من وفدوا لديهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟ كلا فالإنسان لا يتحرك حركة ، ولا يعمل عملا ، إلا وله غرض ذاتى فيه . لـكن قد لايكون الغرض الذاتى محض الباعث ولامضراً فى النتيجة . وقد يكون كذلك . وقد قيل : كلما عظم العمل كان الباعث أعظم . فلاريب أن البواعث التى دعت الأجنبيين إلى مفارقة ديارهم والنهوض إلينا هى جليلة . ولا يمكننا أن نقول هى محض التكسب واستجلاب الدرهم والدينار . وإن بعض تلك المدارس يأخذ على التعليم مالا يكاد يفى بنفقات التلميذ . والبعض يقبل الفقراء مجانا . بل إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية فى مملكتها ، تنفق عليها النفقات الطائلة ، ولا يكون ذلك عبثا . ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل مدرسة غربية ماوضعت يدها على أمة أو قبيلة

---

١ — نفس المرجع ص ٨١ (حياة الأمم)

تملكاً أوحماية ، إلا وقد جعلت مقدمة ذلك هذه المدادس . فبان أن المقصد العظيم والباعث القوى هو سياسى مِلىّ فى آن واحد كما قدمنا .»(١)

* * *

كان صوت (المؤيد) هو البشير بأن مصرلم يزل فيها بقية من حياة وإحساس . ولم يمض على صدوره أقل من ثلاث سنوات، حتى ظهر العدد الأول من مجلة (الأستاذ) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢(٢) ، فحمل فيها عبدالله النديم على الاستعمار وأعوانه فى عنف لاهوادة فيه ، وأثبت أنه يحمل بين جنبيه نفسا هى أقوى من الكوارث ، وعزيمة لاتردها الهزيمة ولا يوهنها الفشل ، إذ استأنف جهاده الذى بدأه مع عرابى رغم ماذاق فى سنى اختفائه العشر من آلام . لم يمض على ظهور (الأستاذ) خمسة شهور حتى أعلن الحرب الصريحة على الاستعمار وأذنابه واستهلها بمقال عنيف سافر لاغموض فيه ولا التواء ، جعل عنوانه العبارة التى كان يرددها الإنجليز كلما أظهر المصريون ضيقا بمشاريعهم الاستعمارية «لو كنتم مثلنا افعلتم فعلنا » (٣) . وكان هذا المقال العنيف ردا على إنذار كرومر لعباس حين أقال وزارة مصطفى فهمى صديق الإنجليز فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ .

يقول عبد الله النديم فى مقاله هذا عن أثر الاستعمار فى الاقتصاد « قالت أوروبا إنكم متوحشون ، لكونكم لاتحسنون صنع الأثاث واللباس ، وأنكم فى حاجة إلى مصنوعاتنا . ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية. وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها فى الشرق لتحول الثروة إليها، فأماتت ما كان يصنعه الشرقيون، وحجرت على مالا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها . فما يصنع فى الهند والصين والعجم والأناطول وغيره ، إنما يَنْفَق ويباع على يد الأوروبى كما ينفق

١ — منتخبات المؤيد : السنة الأولى ص ٥٠

٢ — كانت (الأستاذ) مجلة اسبوعيه تصدر فى يوم الثلاثاء من كل أسبوع. وقد صدر العدد الأخير منها فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣

٣ — الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣

ويباع مصنوع بلاده فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون، ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ، ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية . فلاحظ لهم من الوجود ، ولا رغبة لهم فى الملك ، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها . »

ثم أشار إلى إفساد الإنجليز لأخلاق المصريين وتقاليدهم ، مما أدى إلى انحلال الشخصية وموت الكرامة ، فقال : « قالت أوروبا إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية ، وتخلقكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلا بد من مجاراتنا فى حركاتنا المدنية لتساوونا فى الرتبة . وفتحت لنا البير والخمارات والمقامر، وأباحت الزنا والقمار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران . فغفل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغبياء والمغفلون على الخمور ، فساءت أخلاقهم ، وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم . وتحولوا إلى المومسات فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم والعار ، باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرصة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها ، فهم فى رتبة القُوَّاد(١) بل هم هم . ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيط والدار ، واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقته منها . والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف فى الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك ، حتى أسكن الأوروبىّ مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما . وكلما تهالك الشرقيون على الخمور والملاهى واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهى تحويلا للثروة وإرهاقا لروح الدين ، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وماهى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . إذ لو كان الانغماس فى الملاهى ومفسدات العقل

---

١ — القواد (بضم القاف) جمع قواد (بفتح القاف) وهو الذى يدل على بيوت الريبة ويقود الرجال للنساء .

والدين من المدنية ، لما تحاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجيا جاهلا مجنونا ، ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ، ولما كتبت الرسائل العديدة فى ذم الخمر والفسوق ، وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس. وإنما هذه أشراك وفخاخ تنصب فى طريق الشرق، حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع فى حبالة أوروبا. ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتبهون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد الدول، ولا يدركون مكايد الملوك ، ولا يسعون فى صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ولا يحفظون كراسى ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم ، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهى تقول لهم « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا »

ثم قال مشيرا إلى أذناب الاستعمار من المصريين ، الذين يرتكب الاستعمار كل ما يرتكب من جرائم وآثام باسمهم وبأيديهم « كفت إنجلترا يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلمتها إلى المصريين ظاهرا ، لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول . ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطنا ، بحصر السلطة فى الذات الخديوية الفخيمة ، والإدارات فى الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون ، حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون. وكانت تتستر باسمهم المطاعن الأوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض ، فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع فى الخداع ، وهم غير محقين ، فإنها مادخلت إلا لتعمل عملا أمام أوروبا ، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم : حملونى ما عندكم من أثاث وحلى وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ كلا ، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه . أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبغاء تحت حماية القانون ؟ أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا

وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ماحرمه الله تعالى فى كل كتاب ؟ أم هل قالوا للمصريين : سننفق ملايين فى المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما نفعل فيها ، فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلى روتشلد وغيره ؟ أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات ، إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئا يستعين به على نقلها ، حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت ؟ (١) أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة وحشروا الغرباء (٢) فى المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لايجدون القوت ولايعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين فى مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن ينبغ فى الإنكليزية ، لتُنسى لغة القرآن فيُنسَى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرخون بذلك فى مجالسهم وأندية شوراهم ؟ لا والله . ما نالوا أملا ، ولاقارفوا عملا . ولا أذلوا رجلا ، ولا خربوا بيتا ، ولاهتكوا حرمة إلا بالمصريين . »

وأخذ يلقى تبعة ما صارت إليه مصر من سوء الحال على أمراء المصريين وزعمائهم حيث يقول « لماذا نتألم من أعمالها (إنجلترا) وأمراؤنا اقتصروا على القعود فى القصور وركوب العربيات للتفسح فى المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤها فى المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن

---

١ — يشير إلى تصفية المصانع الحربية عقب الاحتلال بعد أن فككت أجزاؤها وبيعت بأبخس الأثمان على أنها (خردة)

٢ — يقصد السوريين الذين كثر عددهم ووجودهم فى الوظائف الحكومية . وكان هؤلاء الموطئون أعوانا للاستعمار كما سيجىء .

والملك شيئا ، متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين . فإذا انصرف النبهاء عن وجهتي السياسة والدين ، فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أَوَدُ الحكومة ويبقى عمود الدين قائماً كبقية الأديان ؟ أبالإخاء الذى ربطناه مع الأجنبي ، تتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ وهل تريد أوروبا أن تنتصر علينا فى حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر فى الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء ؟ مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم فى مصالح بلادهم ، فيتمكنوا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع ، من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع ، ويحدثون فى البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد ، بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة . »

وراح يذكر المصريين بما كان من تخلفهم عن عرابى وحسن استقبالهم للإنجليز ، مغترين بما أذاعه عليهم توفيق وأعوانه من أنهم لم يدخلوا مصر إلا مصلحين منجدين ، فقال « مضت السنون العشر التى قابلتم غُرَّتها بالأفراح والزِّين ، وطرتم فيها حول الأوهام طرباً وسرورا ، وعميتم عن سوء العاقبة ، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحا وثناء(١) وشربتم الخمور جهارا باسم من استعديتموه على بلادكم ، ونصرتموه بتثبيط إخوانكم ، وبذلتم أموالكم وأرواحكم فى دخولهم البلاد ، والتخلى لهم عما بأيديكم من الأعمال. ولطالما طأطأتم الرءوس وحنيتم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما ، وبصقتم على وجوه إخوانكم ولبستم أجمل ثيابكم تنتظرون يوما يقتل فيه مائة ألف مصرى . فهذه الأيام تريكم كيف تدور الدوائر ، وكيف تتقلب الأحوال بالأهوال ، على من لم يقرأ العواقب ، ومن يلقى نفسه بين نيوب الصِّلّ خوفا من العظاية (السحلية) . فقد أبدلت المصائبُ الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسير

---

١ — يشير الى القصائد التى قيلت فى مدح توفيق والترحيب به وبجيش الاحتلال بعد عود ه وفى ذم العرابيين . وتراجع نماذج من هذه القصائد فى كتاب المصريين ٥ : ٢٢٨ـ٢٤٧

أعواد الطرب والسرور ، وضرب دف الندب والرثاء . وهل تُجزَوْن إلا ما كنتم تعملون ؟ »

ثم أخذ يعرّض بالمقطّم — صحيفة الاستعمار — متوقعاً ما ستهاجمه به ، وما سوف تدعيه من أنه يدعو إلى ثورة كالثورة العرابية فقال«وكأنى بدخيل(١) يوسوس للأجانب قائلا إن (الأستاذ) يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة . فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء، وتسليط الأوربيين على كل بلد نودى فيه بالمحافظة على وطنيته. ونحن نضع حجراً فى فم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء. إن المصريين قد جربوا أنفسهم فى التظاهر بالقوة ، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثير والعَدد دو العُدَد. والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح . وقادة الجند من الأجانب. ولا يحمل العسكرى إلا بندقية فارغة حكمها حكم عصا الراعى . ولا موجب لحركة الأهالى حركة عدوانية بعد خضوعهم لأميرهم ، وانقيادهم إليه فى السر والعلن . وقد تأدبوا وعلموا دسائس أوروبا ، وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم فى اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم ، لا لمصلحة المصريين معاذ الله، ولا لمنفعة المسلمين استغفر الله ، فما من مصرى إلا وهو يعلم الآن أن أوربا لا تصدق فى قول ، ولا تفى بوعد ، ولا تحب شرقيا . ولا تسعى فى خير مصرى : وإنما هى ملاعب سياسية يقدمونها بين اعين الجهلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها ، يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش. ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة ، مع فراغهم من المعدات الآليه ، وعدم حاجتهم إليها ، يستحيل عليهم أن يكدروا صفو الراحة بشغب أصواتٍ فضلا عن قعقعة سلاح . وما يدعوهم الأستاذ إلا الى مجاراة الأوروباويين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم ، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم ، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم . »

---

١ — كان صاحب صحيفة (المقطم) هو فارس نمر . وهو لبنانى الأصل .

ثم قال بعد أن تكلم عن وحدة عنصرى الأمة من مسلمين ومسيحيين « فيابنى مصر . . . ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفا للعصبية الدينية . وليرجع الاثنان إلى القبطى والإسرائيلى تأييدا للجامعة الوطنية . ولكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شىء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين . »

ويهاجم ذلك النفر الذين خوت قلوبهم من الوطنية، ممن يلتمسون الجاه بالتزلف إلى المستعمرين قائلا « نرى كثيرا من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حمى الأجنبي لياذا به وطلبا لمعروفه . فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطرحها للكلاب لكونها فضلة طعامه وفتات خوانه ؟ وهل جلس فى حضرته إلا مهينا مزدرى منظورا إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد ؟ وهل مكنه من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة فى تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه ؟ وهل بش فى وجهه مرة إلا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق ؟ »

كان هذا المقال الجرىء العنيف بداية لسلسلة من المعارك ، تألبت فيها الصحف الإنجليزية ، تؤيدها صحيفة «المقطم» ، واتهمته بإثارة الفتنة ، حتى انتهى أمره إلى خضوع عباس لما أملاه عليه كرومر من إبعاده عن مصر منفيا[١] . فودع قراءه وداعا مؤثرا فى العدد الأخير من الاستاذ ، فى كلمة عنوانها (تحية وسلام) ، ختمها بقوله « وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظم والجلالة ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدرا فى أعين الواقفين عند الظواهر وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكمْ والخلودَ إليكمُ
وماعن قِلىً كانَ الرحيلُ ، وإنما دواعٍ تبدّتْ فالسلام عليكمُ

وبذلك طويت صحيفة الأستاذ ، ولما يحل الحول على صدور العدد الأول منها(٢) .

* * *

١ — زعماء الاصلاح ص ٢٤٠ ، مجلة الاستاذ العدد الأخير ص ١٠٢٩ ، ١٠٣٠

٢ — لم تطل حياة عبد النديم بعد ذلك فقد توفى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٦ غريبا فى تركيا =

وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، الذى تلقى دروسه الأولى فى الوطنية وفى السياسة على يديه . فقد اتصل به منذ عودته من منفاه ، وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العرابية ودسائس السياسة الإنجليزية ، مما جعله يتجنب الخلاف مع الخديوى ، ويحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة واحدة تواجه الاستعمار[1]. وخطا مصطفى كامل خطوة جديدة إلى الأمام حين جاهر بطلب الجلاء فى أول حديث له نشر فى صحيفة الأهرام[2]. وتابع بعد ذلك نشر المقالات الوطنية فى صحيفتى «الأهرام» و «المؤيد» ثم فى الصحف الأوروبية منذ بدأ رحلاته السنوية إلى أوروبا فى مايو سنة ١٨٩٥[3] . حتى ظهرت صحيفة (اللواء) اليومية فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ ، فكان يكتب مقالاتها الافتتاحية فى أكثر الأحيان .

* * *

وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العرابية بظهور الخديوى عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد وفاة أبيه الذى كان سببا فى نكبتها بالاحتلال الإنجليزى .

والواقع أن عباسا كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت . فقد

= بعد حياة لم تتجاوز أربعة وخمسين عاما ، كلها جهاد عنيف ، لم يذق فيه طعم الراحة والاستقرار وقد ذكر الدكتور احمد أمين فى كتاب (زعماء الاصلاح) أنه لم يعقب ولدا ولكن الصدفة الحسنة قادتنى الى معرفة ان له ولد بعد وفاة أبيه فى تركيا ، وعقب عودة والدته الى مصر ، وهو السيد محمد سعيد عبدالله النديم وكيل إدارة المآثر الاسكندرية . ولا تزال والدته بخير

١ — مصطفى كامل ص ٣٠

٢ — الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ . مصطفى كامل ص ٣٧

٣ — مصطفى كامل ص ٣٩

تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. وكان جريئا واسع الأمل، يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الإنجليز وكان مصريا بحتا كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول[١]. فنفخ فى مصر روحا جديدة من الوطنية والشجاعة، جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال، وقوت الآمال بالاستقلال.[٢] وكان ينعى على أبيه ضعفه واستسلامه للإنجليز.[٣] ولذلك كان أول مافكر فيه عند تولى الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه والذين ألفوا أن يذلوا أنفسهم ويمتهنوا كرامتهم أمام المستعمرين (٤)

بدأ عباس حكمه كأحسن مايبدأه ملك. فهو شديد الرغبة فى التودد إلى الشعب، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر.[٥] ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا فى الثورة العرابية فى السنة الأولى لحكمه، ويرد إليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة.[٦] وهو يستعرض الجيش المصرى مرتين فى هذا العام(٧)، ويحيي شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع إلى تفسيره مع رجال حاشيته.[٨] وهو يطالب بخروج الجيش الإنجليزى من القلعة. ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبله(٩). وقد نجح نجاحا مؤكدا فى بث شعور الكراهية للإنجليز فى قلوب المصريين، كما نجح فى إخراجهم عما ركنوا إليه من فتور واستسلام يشبه الموت، ورسم لهم طريق المقاومة بجرأته فى تحديهم، فكان كسيال من الكهرباء طاف جو مصر وكهرب جميع أهلها، فشعروا

---

١ — عباس الثانى ص ٢١، ٢٨
٢ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٦٩
٣ — عباس الثانى ص ٢٧
٤ — مذكراتي فى نصف قرن ٢ : ١٦
٥ — المرجع نفسه ٢ : ٢٦
٦ — المرجع نفسه ٢ : ٣٥
٧ — نفس المرجع ٢ : ٣٧
٨ — المرجع نفسه ٢ : ٢٨
٩ — نفس المرجع ٢ : ٥٢

بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم.(١)

ولذلك لم يكن عجيبا أن يلتف المصريون حوله وأن يحبوه ، حتى لقد بلغ من حماستهم فى استقباله أن يتقدم الشباب لجر عربته بعد أن نحوا عنها الجياد ، حين ذهب لصلاة الجمعة فى مسجد الحسين.(٢) وقد أقر كرومر بنفوذ عباس حين قال إن الصعوبة الكبرى التى واجهت الإنجليز حين استهدفوا رفع مستوى الفلاح هى أن يصلوا إلى ذلك دون الاصطدام بالقصر ، الذى أثبت على توالى العصور — رغم ما آل إليه من فساد — قدرته على جمع الشعب المصرى وتكتيله.(٣) واعترف بزعامته حين قال إن المبادىء العرابية قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب (خديوية) ، وأن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتى كانت عليه عند بدء الثورة العرابية ، غير أن الفرق الوحيد هو أن الخديوى نفسه فى هذه المرة كان هو قائد الحركة.(٤) وحين قرر أن أنصار المبادىء الديموقراطية الحديثة ومن سماهم الغوغاء ، الذين لا يملون من التغنى بها ، كانوا جميعا فى جانب الخديوى.(٥) وإلى ذلك أشار السيد محمد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام حين قال « ومن إنصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الأمير الكبير — وقد ذكرت مساوئه — حتى لا تكون المساوىء هى التى تستقر وحدها فى نفس قارىء هذا الكتاب ، وهو ظلم ، فأقول : أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى فى عرف هذا العصر بالوطنية. »(٦)

وقد كان من آيات هذه الوطنية تشجيعه لمصطفى كامل منذ ألقى أمامه خطبة يرحب فيها بمقدمه حين زار مدرسة الحقوق ، فشجعه على السفر إلى فرنسا لإتمام

---

١ — تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٥٠٢
٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٧
٣ — Modern Egypt ٢ : ١٩٣
٤ — عباس الثانى ٤٤ ، ٤٥
٥ — المرجع نفسه ص ٣١
٦ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩٢

دراسته ، وقربه إليه بعد عودته ، فكان يجتمع به سرا فى مسجد قريب من سراى القبة ، يدبر معه الخطط للتخلص من الاستعمار (١) . وأمده بالنفوذ وبالمال ، فشجعه على تأسيس الحزب الوطنى ، وأعانه على إصدار صحفه المختلفة (٢) .

وكان عباس إلى جانب تشجيعه لمصطفى كامل ، يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم من الإنجليز (٣) . وكان يحض الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم إزاء رؤسائهم من ممثلى الاستعمار . فظهرت روح المقاومة بين الموظفين ، واستحكم الخلاف فى دواوين الحكومة ومصالحها بينهم وبين الإنجلـــيز ، حتى قال كرومر إن الموظفين جميعا من أكبر كبير إلى أصغر صغير كانوا تابعين لعصابة الحركة ضد الإنجليز ، التى يقودها عباس . وكان يعرض عن الذين يتوددون إلى الإنجليز ، ويبدى عداء صريحا واضحا لكل من يلوذ بهم من الأعيان والعمد والمشايخ . ويسىء استقبالهم فى القصر فى مختلف المناسبات (٤)

---

١ — عاد مصطفى كامل بعد إتمام دراسته فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ . وكان فيما اتفق عليه مع عباس وقتذاك أن تؤلف جماعة سرية من بعض الشبان المتأثرين بالوطنية ممن تلقوا العلم فى مصر وفى الخارج (تاريخ الامام ١ . ٥٩٣ ، مصطفى كامل ٢٨ ، ٢٨١ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٩٠ ، ٢ب : ١٤٠) ويقول أحمد شفيق إن هذه الجماعة هى التى قررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الانجليز بالكتابة فى الصحف الفرنسية وبالخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل فى مصر وفى أوربا

٢ — ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ . ثم أصدر فى سنة ١٩٠٧ صحيفتين يوميتين ، إحداهما بالفرنسية وهى ليتندار اجيبسيان ، والأخرى إنجليزية وهى دى اجيشيان ستاندرد . وأسس لذلك شركة مساهمة لاصدار الصحيفتين سنة ١٩٠٦ رأس مالها عشرون ألف جنيه . وقد حث عباس الأعيان على مساعدته بالاكتتاب فيهما حتى احتج كرومر على هذا التدخل السافر فى معاونة المشاريع المعادية للانجليز — راجع مصطفى كامل ص ٢٠٢ ، تاريخ الامام ١ : ٥٩٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣ ١

٣ — كان من آثار ذلك فصل عدد من الضباط المصريين فى السودان سنة ١٨٩٩ من بينهم حافظ ابراهيم الشاعر — راجع تاريخ الامام ١ : ٥٩٢ ، عباس الثانى ٨٢ ، ليالى سطيح ص ٨١ ، ١٠٩ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٢١

٤ - عباس الثانى ص ٥١ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٠

من أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر ممثل الاحتلال ولم يكن هناك من وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع .(١) وظل كرومر يتصيد الفرصة المناسبة ليضرب ضربته دون أن يكون هو البادىء ، حتى يقطع السبيل على كل احتجاج ، وحتى لا يبدو أمام الرأى العالمى العام معتديا .(٢) وسرعان ماوجد الفرصة المناسبة عندما انتهز عباس مرض مصطفى فهمى فتخلص منه بإقالته فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ ، وأصدر أمره إلى حسين فخرى بتشكيل الوزارة ، مكتفيا فى كل ذلك بإبلاغ كرومر بما تم .(٣) وأبرق كرومر إلى وزير الخارجية البريطانية يقول « إن وقوع نزاع شديد مع الخديوى كما قدرت منذ وقت طويل أمر لابد منه . ولا أرى من الصواب تأخيره . وإنى أرى وجوب انتهاز هذه الفرصة لوضع حد لهذه الأمور . . . وإنى أرى أن لافائدة من اقتصار فخامتكم على نصحه ، بل أقترح أن ترسلوا إلىّ برقية أستطيع أن أريها لسموه ، تذكرون فيها بكل جلاء أن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المسائل الهامة مثل مسألة تغيير النظار . . . كذلك أقترح إعطائى السلطة بأن أتخذ الوسائل اللازمة التى أرى وجوب اتخاذها لمنع هذا التغيير . . الخ » . وأصدر كرومر أمره فى نفس الوقت إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة

---

١ — بدأ هذه الاصطدام باستخفاف ضباط الجيش من الانجليز بالخديوى وإهمال تحيته فى الطرقات والمجتمعات العامة مما دعاه للشكوى إلى كرومر من سوء أدبهم — راجع مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١١٦ ، عباس الثانى ص ٢٩

٢ — يقول كرومر « أما أنا فقد عرفت أن لا مفر من وقوع نزاع شديد . ولكنى اعتقدت أن البدء فى النزاع لا ينطبق على السياسة الرشيدة . . . . فالخطة التى كان يجب على اتباعها كانت مرسومة واضحة . وهى أنه كلما كان يتحقق اقتراب الأزمة كنت تزداد الحاجة إلى الاعتدال المتناهى ، لكى أبعد كل مايدعو إلى الاشتباه بأن الأزمة إثيرت عمدا . » عباس الثانى ص ٣٠ — ٣١

٣ — كان مصطفى فهمى من أطوع رؤساء الوزارات المصريين للانجليز وأوثقهم صلة بهم . حتى لقد روى أحمد شفيق وكرومر أنه اجاب رسول عباس إليه حين طلب منه الاستقالة بقوله : إن الأفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يتخذ خطوة فى هذا السبيل . راجع مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٨ ، عباس الثانى ص ٣٤

حتى يتلقوا أوامره .(١)

وجد الخديوى الشاب نفسه وحيداً أمام السياسى العجوز . فالكتلة الشعبية لا تتجاوز قوتها كلاما يقال ، أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض . وقنصلا فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الإنجليز قد تخليا عنه . ورأى كرومر أن من الأفضل أن لا يسرف فى إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحا للتفاهم لعله يستطيع من بعد أن يتألفه ، فحل المسألة حلا وسطا ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمى إلى رياسه الوزارة ، وبأن يعزل فخرى فى نفس الوقت ، ويعهد فى تأليف الوزارة إلى مصطفى رياض . ولكنه أصر على أن يتقدم عباس إليـــه بخطاب أملى هو صورته ، يقول فيه « إنه يرغب رغبة شديدة فى أن يوجه عنايته إلى إيجاد أصدق العلاقات الودية مع إنجلترا . وأنه يسير بكل رضاء بموجب نصيحة حكومة جلالة الملكة فى كل المسائل المهمة فى المستقبل . » (٢)

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوى الشاب درسا لن ينساه . وكان يتوقع أن يجد فى رياض — عدو المبادىء العرابية القديم — عونا على ترويض عباس وكسر حدته . ولكن الذى حدث هو أن رياضا قد انقلب إلى مؤازرة عباس ، وظاهره فى موقفه العدائى من إنجلترا ، فمنع الموظفين الإنجليز ممن جرت العادة بأن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون اللغة العربية هى لغـــة التعليم فى المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى باللغة الإنجليزية(٣) . وكثر الصدام فى عهده بين الموظفين المصريين والإنجليز .(٤) وتشجعت الصحف

١ — عباس الثانى ص ٣٥ — ٣٦ ، مصطفى كامل ص ٢٦٤

٢ — عباس الثانى ص ٣٧ — ٣٩

٣ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٨ — ٩١

٤ — مثال ذلك ماحدث حين أصر ماهر باشا وكيل الحربية على أن يعرف مرتبات ضباط الجيش من الانجليز لمقارنتها بمرتبات زملائهم من المصريين . وكان السردار يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه البيانات فى طى الكتمان ، وقد تعود منذ الاحتلال أن لاتكون موضع مناقشة — عباس الثانى ص ٥٦ — ٥٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٠

الوطنية على مهاجمة الاستعمار حتى اضطر إزاء إلحاح كرومر إلى إيقاف صحيفة «الأستاذ» وإبعاد صاحبها عن وطنه .

ومضى عباس لوجهه لا يتراجع ، يؤيده رياض ، وقد تأثر بما رأى من إجماع الشعب على تأييد الخديوى . فقد ظلت الجموع من مختلف الطبقات تتوالى على القصر طوال اليوم الأول لتوليه الوزارة ، تهتف داعية للخديوى مشيدة بوطنيته وجرأته . وهاجم فريق من الشباب ، وعلى رأسهم مصطفى كامل — وكان وقتذاك طالبا فى الحقوق — صحيفة «المقطم» التى كانت تؤيد الإنجليز وتهاجم الخديوى.(١) وتجلى حماس الشعب فى استقبال عباس حين ذهب إلى الأوبرا لمشاهدة رواية «عايدة» بعد الأزمة بأربعة أيام.(٢)

لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمى عام حتى تصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عباس ، حين وجد الفرصة مواتية فى حادثة تافهة، احتك فيها الخديوى بكتشنر — سردار الجيش وقتذاك(٣) ، فبادر كرومر إلى الاتصال برياض يطلب تقديم اعتذار رسمى من الخديوى عباس ينشر فى الصحيفة الرسمية ، ويهدد بخلعه . وأسرع رياض إلى مقابلة عباس فى جرجا قبل عودته إلى القاهرة ، وقد ملأ الرعب قلبه ، وأقنعه بقبول شروط كرومر. فلم يجد الخديوى ، وقد وجد نفسه وحيداً للمرة الثانية ، بدا من قبولها . ونشرت البرقية التى اعتذر فيها عباس إلى كتشنر فى الصحف العربية ، كما نشرت ترجمتها الفرنسية فى الصحف

١ — عباس الثانى ص ٤٥

٢ — مذكراتي فى نصف قرن ٢: ٦٢

٣ — وذلك أن الخديوى سافر فى رحلة إلى الحدود . فلما بلغ وادى حلفا واستعرض الجيش فى ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ ، أبدى للسردار — وهو وقتذاك كتشنر — بعض الملاحظات التى تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق ، فاعتبر السردار أن فى توجيه مثل هذه الملاحظات إهانة له وغضاضة من قدره فقدم استقالته . ولم يدع كرومر الفرصة تفلت من يده، فهو يقول « إن الفرصة التى كنت أرقبها قد جاءت . ولم يكن من الصعب اختيار ميدان للواقعة أنسب من هذا الميدان » فانتهز هذه الفرصة لإذلال عباس — عباس الثانى ص ٦٠

الأوروبية.(١) وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس فى الجيش . فقد انتهى الأمر فيه إلى ماتوقعته صحيفة الأهرام فى تعليقها على الحادث واستنكارها لموقف رياض من الخديوى بمساعدته الإنجليز على إملاء شروطهم وإذلال عباس، حين قالت « إن الضباط والعساكر المصريين سينتهى بهم الأمر إلى أن لا يعرفوا رئيسا عسكريا سوى كتشنر باشا ، ولا رئيسا سياسيا سوى اللورد كرومر»

* * *

كان اصطدام الخديوى بالإنجليز يزيد عطف المصريين عليه وحبهم له . وكان هو من جانبه لا يدع فرصة للاتصال بالشعب إلا اقتنصها.(٢) لذلك لم يكن عجيبا أن يقبل عليه الشعراء مادحين ، وأن يمجدوا فيه وطنيته الصادقة وميوله المصرية ، التى كانت شيئا جديدا من هذه الأسرة التركية التى عاملت الشعب من قبل بكثير من الترفع والاحتقار . ومن الإنصاف لهؤلاء الشعراء الذين مدحوه فى هذه الفترة الأولى من حياته — وهم كثرة كبيرة ، لا يكاد يشذ عنها شاعر من شعراء ذلك العصر — أن نقول إنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور وطنى خالص لا تشوبه شائبة من التزلف أو الملق . فقد جمع عباس فى هذه الفترة الأولى من حكمه بين الزعامة والملك . وهذا هو عبدالله النديم ، خطيب الثورة العرابية ، الذى لم يحد عن مبادئها ، ولم يخن رسالتها الوطنية ، حتى لقى الله شهيدا غريبا فى تركيا ، لا ينى عن الإشادة به فى كل مكان من صحيفته «الأستاذ» ، محاولا أن يجمع المصريين حوله ، وأن يجعله قطب الحركة الوطنية فى ذلك الوقت . وهذا هو مصطفى كامل ، قائد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار ، يقول فى خطبة له بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ :

---

١ — راجع التفاصيل فى مصطفى كامل ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ . ١٢٠ - ١٣١ ، عباس الثانى ص ٥٨ - ٦٦

٢ — راجع على سبيل المثال وصف رحلة الخديوى عباس إلى الصعيد لافتتاح الخط الحديدى بين أسيوط وجرجا سنة ١٨٩٣ فقد حرص على زيارة الأقاليم والنزول فى ضيافة أعيانها على طول الطريق — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٤ — ٨٧

« والحمد لله . فقد أصبحت مصر عارفة بحقوقها ، وأصبح أبناؤها عارفين بواجباتهم نحوها ، مستظلين جميعا — على خلاف مايشتهيه الدخلاء — برايته الوطنية الشريفة الحامل للوائها عزيز مصر وأميرها الجليل عباس حلمى باشا .

أراكم أيها الوطنيون الأوفياء ، والمستوطنون الأعزاء ، صفقتم وهللتم ، وبدت عليكم علامات البشر والسرور ، عندما ذكرت اسم عزيزنا المحبوب . فاسمحوا لى أن أحمدكم من صميم فؤادى ، وأشكركم على المكانة السامية التى لأميرنا الكريم فى نفوسكم ، الدالة على أن الشعب المصرى كله قدر هذا السيد حق قدره ، وعرف أنه حقيق بأن يحب ويخدم بصدق وإخلاص ، جدير بأن يساعد فى خدمة الوطن العزيز .....

إن هذا الأمير أرسل ليسترد لمصر حقوقها ، ويعيد لها أملاكها المفقودة . فليكن منا رجال أوفياء يساعدونه على هذا العمل الخطير ، وينسون أشخاصهم فى جانب خدمة البلاد . فإن الوطن يستعيث بكل ذى شعور حى ، والأمة تستنجد بكل ذى إحساس شريف .

ولا يجب أن ننسى أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيرا خدمة الوطن الشريف . فإنه هو الذى أسمع أوروبا أن مصر ترغب بغيرة وتشوف نوال حريتها التامة . وهو الذى أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية ، وأيد العلائق الحسنة ، وأحبط مساعى الدخلاء مريدى التفريق . فلنساعده جميعا فإن فى مساعدته خدمة لمصر وأهلها (١) . »

والذى يقرأ مدائح الشعراء لعباس فى هذه الفترة ، يستطيع أن يدرك بسهولة أن كثيرا منها يدخل فى صميم الشعر الوطنى ، بما اشتمل عليه من تصوير لذلك الكفاح المرير ، الذى كان يخوضه الخديوى ضد الاستعمار .

وطبيعى أن يكون شوقى فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين مدحوا عباسا . ولسنا

---

(١) مصر والاحتلال الانجليزى — مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو ١٨٩٥ إلى مايو ١٨٩٠ ص ١٤٢ — ١٤٣ وراجع كذلك مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٠٣

نزعم أنه كان مدفوعا فى كل مدائحه بشعور وطنى ، فقد كان شوقى وقتذاك شاعر القصر ، وقد تضطره وظيفته إلى مدح أميره بالحق وبالباطل . ولكنا نقول إن هذا الشعر طابق الحق فى هذه الفترة ، على ماكان فيه من تحوط واحتراس ، وتجنب لمهاجمة الاحتلال مهاجمة صريحة فى أغلب الأحيان.(١) ومن أحسن ماقاله فى هذه الفترة ، مما يتصل بشعر الوطنية ، قوله :(٢)

بصوتك جاجَجْنا الممالك والعصرا ... وقلنا فباتت مصرُ فى مجدها مصرا
وباسمك أسمعنا ، نريد زماننا ... كبيرا كعهد العالمين به حُرًّا
ونطلب حقا عند هذا الورَى لنا ... تَوَضَّحَ يُزْرِى فى تَوضُّحه الفجرا
فتى المُلْكِ! لى فى حب ذا المُلْكِ سيرة ... فقل لى ، وإنى من يرى أمرك الأمرا
بأى فؤاد جئتَها فى مكانها ... من الدهر، لم تخطىء عزائمُك الدهرا
ولا هِبْنَ فيها البأسَ والرأىَ والحجا ... خصوماً وذاك الملكَ والبرَّ والبحرا
فما ذقتَ فى هذا المقام مودَّةً ... لقوم يذوق الناسُ و مُواقَسْرا(٣)
إذا حمتَ النيلَ المؤمَّلَ راحةً ... فقد حمت الشمس الكريمة والبدرا
وإنا لنعطى النيلَ فى الله حلْقه ... ونخشاه فيه أن يُباعَ وأن يُشْرَى
فما ساءنا أن غالنا الدهرُ شطرَنا ... ولكنما نرعَى لأبنائه الشطرا (٤)

---

١ — من الانصاف لشوقى فى هذا المقام أن نشير الى ما كان من صداقته لمصطفى كامل ، وإلى أن صلته به لم تخضع لصلة الخديوى به قوة وفتورا . ولكنها استمرت وثيقة قوية على كل الأحوال . ومن الانصاف له كذلك ان نذكر أنه كان أبغض رجال الحاشية إلى الانجليز . ويدل على ذلك ما كان من نصيحة كرومر لعباس فى آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر ، بأن يبتعد عن مصطفى كامل وعلى يوسف وأحمد شوقى . ويدل عليه كذلك إبعادهم إياه عن مصر بعد خلع عباس — يراجع فى ذلك مصطفى الرافعى ص ١٢٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١١٤ — ١١٥ ، ١١٨

٢ — ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٣ — يقصد بالذين يذوق الناس ودهم مرغمين الانجليز المستعمرين

٤ — يقصد بالشطر الاول الذى اغتاله الدهر السودان ، أما الشطر الثانى الذى يرعاه الخديوى لأبنائه فهو مصر

بعثنا وعيـــدا من زئير وطالمـا ... بعثنا السكونَ الجمّ والنظرَ الشّـزْرا
... عرفنا خطوبَ الدهر والصبر عندها ... فلم نعرف الخَطْبَ الذى غلبَ الصبرا
وما نلتَ ياعباسُ مانلتَه سدًى ... ولكن أصاب الصابرون بك الأجرا
سندعو بنى الدنيا إلى النيل دعوةً ... يلبون منها الجاه والنائلَ الغَمْرا
ومُلْكاً كما تهوَى الأحاديث عالياً ... كأن الخديوى فيه قيصر أو كِسْرى
تضىء به شُورَى المرائى التى زكَتْ ... وتشرق أركان القضاء الذى بَرا
وتمرحُ فى أيامه النفسُ حُرّةً ... تَنَاولُها قُشْباً وتلبَسُها خُضْرا

وهو يشير فى قصيدة أخرى إلى شدة إقبال الشعب على عباس والتفافه حوله، كلما اشتدت الأزمات، وكلما أسرف الإنجليز فى التضييق عليه فيقول :(١)

بعباس عشنا حين لا العيشُ هيِّنٌ ... وحين بَنُوه لا جميلٌ ولا حَمْدٌ
... تحبك يا خير الملوك رعيَّةٌ ... لها منك مايَخْفَى، وللحال مايَبْدُو
ولاء مع الأيامِ، تنمو صروفُها ... فينمو، وتشتد الخطوب فيشتد

ويشير إلى قيادة عباس للحركة الوطنية وكفاحه للاستعمار فى قصيدة ثالثة حيث تقول(٢) :

هـــذه مصر جاءها النيل يسعى ... وهو يا طالما جفـــاها وصدا
صاحِبَ النيل فى البرية إيه ... حرر النيـــل للبرية وِرْدا
وارفع الصوت إن عصرَك حرٌّ ... لن يرى من سماع صوتك بُدّا
إنما الملكُ أن تكون بلادٌ ... وتُصيبَ البلادُ بالمُلْكِ مجدا
فتولَّ الذى سننت ونَجِّحْ ... لرعاياك فى المعارف قَصْدا
ومُر العلمَ أن يزور بلادا ... عهِدَتْها له الخلائق مهدا

وهو يشير فى هده القصيدة إلى ماكان من احتجاج الإنجليز على تقريب

---

١ — ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص٧٣
٢ المرجع نفسه ص ٦٨

الخديوي له ، ونصحهم إياه بإقصائه عنه فيقول :

قل لراجٍ أن يسترقّ براعي … أنا لا أشترى بذا التاج قيدا
ليراعي وللأحاديث شأن … أرتجي أن يكون مسكاً ونَدّا
نومةُ السيف قد تكون حياةَ … ورأيتُ اليراعَ إن نام أردى
خلق الله ذاك صاحبَ غِمْدٍ … وبَرَا ذاك لايعرفُ الدّهرِ غِمْدا

ويشير إلى حيرة المصريين ، وما صاروا إليه من سوء الحال ، مشيدا بجهاد عباس ، الذى لا يعرف قلبه اليأس حيث يقول(١) .

أبا الحَيارى! ألارأىٌ فيَعْصِمَهم … فليس إلا إلى آرائك الهرَبُ
باتوا يُرَجُّون لمَّا طال بُؤْسهمو … والنفس عند اشتداد الخَطْب ترتقِبُ
لن يعرف اليأسَ قومٌ أنت حصْنُهمو … وأنت رايتُهم والفيلقُ اللَّجِبُ
عوّدتَهم أن يُبينُوا فى خلائقهم … وأنتَ عانٍ بمـا عودتَهم تَعِبُ
والصدقُ أرفَعُ ما اهتز الملوكُ له … وخيرُ ما عوّدَ أبنا فى الحياة أَبُ
وإنما الأمم الأخلاق ما بقِيَت … فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويشيد حافظ بقيادة عباس للحركة الوطنية فى قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٤ حيث يقول :(٢)

رددت ماسلبتْ أيدى الزمان لنا … وما تقلَّص من ظل وسلطان
...فكن بملكك بنّاء الرجال ولا … تجعل بناءَك إلا كلَّ معوان
وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت … حقا ولا شعرت حبا لأوطان

ويقول إسماعيل صبرى فى قصيدة مدحه بها سنة ١٨٩٣ (٣)

---

١ — ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٥٨

٢ — ديوان حافظ ١ : ٣٠ ولحافظ قصيدتان سابقتان على هذه القصيدة قالها سنة ١٩٠١ ولم يشر فيهما إلى الحركة الوطنية من قريب أو بعيد ؛ لأنه كان وقتذاك فى الاستيداع ، وكان يؤمل أن يعود إلى الخدمة . وإنما تجرأ حافظ فى هذه القصيدة بعد أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٠٣ فانقطع أمله ولم يعد يبالى غضب الانجليز .

٣ — ديوان اسماعيل صبرى ص ٤٦

عباس ! قد سُسْتَ البلاد سياسة　　سيحدِّثُ التاريخُ عنها الأعصُرا
أنفذت حكمك بادِهاً بمسائل　　دقّت على الحكماء أن تُتَصَوَّرا
وبنيت سدًّا من ذكائك دونهم　　فأريتنا يأجوج والإسكندرا(١)
يا صاحبَ النيل الذى جرّت به　　مصرٌ على البلدان ذيلا أخضرا
حققت آمال البــلاد وجُزْتَها　　شأواً وماجُزْتَ الشبابَ الأنضرا
رامتكَ شِبْلاً كى تُعزَّ عرينها　　فأبيتَ إلا أن تكون غضنفرا

ويقول محرم من قصيدة مدحه بها فى إحدى رحلاته الكبرى التى كان يطوف فيها بالأقاليم وينزل فى ضيافة أعيانها :(٢)

أهلا برب النيل يلقى شعبه　　فرحا يضج مهللا ومكبّرا
فرعون ينظر من خلال عصوره　　خزيانَ يرفع كفه مستغفراً
سُسْتَ الرعية عادلا تبغى لها　　عزّ الحياة وساسها متجبراً
جحد الإله وفى يديك كتابه　　تقضى به وتعيده متدبراً
الملك إصلاحٌ وعدلٌ شائع　　يحمى الضعيفَ ويقمع المتكبرا
ورعايةٌ تهب النفوس حياتها　　وترد جيش البؤس عنها مُدْبرا
مولاى أحييتَ الرجاءَ لأمة　　شهدت بطلعتك الرجاء الأكبرا
صِدْقُ الولاء أمانة لك فى دمى　　يأبى لها الإيمانُ أن تتغيرا
لستُ الذى يرضى العقوق سجية　　ويرى التقلبَ فى المذاهب مَتْجرَا
لو كنتُ طالب حاجة لوجدتنى　　أسعى إلها فى ذراك مشمرا
ولو أننى ممن يتوق إلى الغنى　　لوجدتُه سدى يديك ميسّراً
ما فى الحياة على تعاظم شأنها　　ما يستحث العاقل المتبصرا
لو كان لى قصرٌ يُزَارُ جعلته　　لوفادة العباس بدعاً فى الورَى

---

١ — يشبه المصريين بيأجوج ويشبه عباس بالإسكندر الذى بنى سدا على يأجوج ومأجوج ليحول بينهم وبين الناس كما جاء فى سورة الكهف .

٢ — ديوان محرم ٢ ١٢٨ — ١٢٩

ويقول الكاشف، من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠١ :(١)

مرَّ بالنيل قبل عهدك دهر ... كان فيه لا يرتوى الوُرّاد
وبوَاديه — وهو أجدبُ مُحْلٌ — ... يشتكى عنده الطّوى الرُّوَّادُ
... فيكَ آمالنا الكبارُ، وفينا ... لك حب وذمة وانقياد
ولديك النجاة من كل عادٍ ... وإليكَ السكونُ والإخلاد
أنخاف العِدى وأنتَ محيطٌ ... بالذى دبَّر الدهاةُ وكادوا
وجدوا مانووه مادمتَ فى مصْـ ... ـرَ محالا فاستسلموا أو كادوا
واكتسوا شيمة الصديق فما يَظْـ ... ـهرُ منهم إلا الرضى والوداد

ويقول. من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٣ : (٢)

إن الذى أحيا البلادَ بنيلها ... لك مرجعٌ بك مجدَها المغصوبا
وهَبتْك عالى عرشها، ووهبتها ... عدلاً فكنتَ الواهبَ الموهوبا
لا يبلغُ الأقوامُ منها مأْربا ... مادمت فيهمْ ناقدا وحسيبا
وسنجلون كما انجلت من قبلهم ... أممٌ أشدُّ وقائعا وحروبا
سَعْياً لِتنسيَنا بموعود الرضى ... إثما جناه مَنْ مَضَوا وذنوبا
إنا لنرجو بعد أهْبَتِكَ التى ... بهرتْ حسودك صيحةً فَوُثُوبا

ويقول عبدالمطلب، من قصيدة مدحه بها حين عاد من الحج سنة ١٩٠٧:(٣)

يدعو لمصر بأن يراها أحرَزَتْ ... فى دولة العلياء كلَّ نِصاب
بلدٌ عرفناه يهيم بحبه ... منذ الشباب وقبلَ عصرِ شباب
وهو الغياثُ لِمصْرَ إن عبثَتْ بها ... أيدى ثعالبَ فى الورَى وذئاب
وهو الذى وقف المواقف كلها ... فى نصر مصر وقوفَ ليث الغاب
يدعو ويرجو نصرَها متبتلا ... لله بين القبر والمحراب
فعلى بنيها أن يَحلَّ ولاؤه ... منهم مع الأرواح والألباب

١ ديوان الكاشف ١ : ٢٣
٢ — ديوان الكاشف ١ : ٣٢
٣ - ديوان عبدالمطلب ص ٢٥

ويقول عبدالحليم المصرى من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٦ ، وكان وقتذاك تلميذاً بالمدرسة الحربية : (١)

لكَ اللواءان فوق الإنس والجان ⁂ فاخذل عداتك من قاصٍ ومن دانِ
رَبٌّ الأسودَ التي يوم الكريهةِ لا ⁂ يرَوْنَ إخوانهم فيها بإخوان
... لبثتَ فى أمة السكسونِ تُقرضها ⁂ عدلا بعدل ، وعدوانا بعدوان
وكنتَ كالدهر ، لو أغفتْ لواحظُه ⁂ له على الناس قلبٌ غيرُ وَسْنان
... همَمْتُ بالمدح والدنيا تثبطنى ⁂ وكان مدحُكَ مقرونا بإيمان (٢)
فإنْ ظفرتُ بآمالى سأخذلها ⁂ وإن خُذِلتُ فإنى ذلك الجانى

* * *

هكذا أحب الناس عباسا فى صدر حكمه . وكذلك مدحه الشعراء مخلصين غير منافقين . ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال . فقد تضعضع عباس وخار عزمه أمام اللطمتين القاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر . ولم يدر ماذا يصنع . هذه هى فرنسا وروسيا ، تشجعانه على مقاومة النفوذ الإنجليزى ، ثم تتخليان عنه فى المآزق . وهذا هو الشعب من ورائه ، قصارى جهده أن يصفق وأن يهتف بحياته أو بسقوط الظلم ، فجهده جهد المُقِل ، وحبه حب الضعيف الذى لا يضر ولا ينفع . وهؤلاء هم الذين اصطفاهم وقربهم إليه ، مصطفى كامل وعلى يوسف ، لا تتجاوز وسائلهم الخطب والمقالات . وهؤلاء هم أعيان المصريين وكبراؤهم ، يسرعون إلى موكب الظافر يرتمون تحت أقدامه ابتغاء النفع (٣) .

١ — ديوان عبدالحليم المصري ١ : ١٦ — ١٩

٢ — يشير إلى أن مدحه يغضب كرومر ويغضب الانجليز أصحاب السلطان ويعرضه للاضطهاد لأنه كان وقتذاك طالبا فى المدرسة الحربية

٣ — من أمثلة ذلك . تصريح مظهر باشا الذى رشحه عباس لرياسة الوزارة بعد إقالة وزارة مصطفى فهمى ، بأن الاستعمار الانجليزى أهون من غيره ، وأنه لو تولى الوزارة لما فكر فى الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز ، لأن مصر لا تستطيع تصريف امورها بغير مشورتهم (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٧٤) ومن امثلته كذلك تراجع ماهر باشا الذى كان من ألد أعداء الانجليز بعد اللطمة التى تلقاها عباس فى أزمة الحدود ===

والجيش — على ضآلته وضعفه — والشرطة والأداة الحكومية بعد كل ذلك فى يد كرومر . فكيف يصنع ؟

بدا لعباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة فى تركيا ، فتتبعه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر ، وارتمى بين أحضانه كما يرتمى الطفل بين يدى أبيه طلبا للحماية من كلب ضار . وخيل إليه أن السلطان سينصفه ، فبالغ فى إذلال نفسه له ، والتأدب بين يديه(١) . ولكن عبد الحميد كان غارقا فى متاعبه الخاصة . وكان هو نفسه عاجزا عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها وفى مقدمتها إنجلترا ، فكيف يدفع الضرّ عن غيره من لا يستطيع دفعه عن نفسه ؟ وكيف يعين عبدُ المعين وهو أحوج لمن يعينه ؟ كما يقول المثل المصرى (٢) .

وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس إلى الأستانة وعلى فمه ابتسامة ساخرة

= وبعد نقله من وكالة الحربية فى هذه الحادثة بأمر كرومر . فقد انضوى إلى الانجليز بعد ذلك مستيئسا من مقاومتهم (عباس الثانى هامش ص ٥٨) . ومن أمثلته كذلك انصراف رياض باشا إلى التقرب لكرومر بعد أن أقاله عباس من رياسة الوزارة لتخليه عنه فى حادث الحدود وقد ظهر ترلفه هذا فى خطبته المشهورة عند افتتاح مدرسة محمد على الصناعية سنة ١٩٠٤ . وهى الخطبة التى هاجمه شوقى بسببها فى قصيدته « خاتمة رياس » (عباس الثانى هامش ص ٦٦ ، مصطفى كامل ١٤٤ — ١٤٧) وهكذا جنح معظم رجالات مصر إلى لولاء للاحتلال واكتساب رضاه فانتشرت روح الخضوع والاستسلام بعد انسحاب فرنسا من فشودة سنة ١٨٩٨ وبعد اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ (مصطفى كامل ١٠١ و ١٠٨ — ١٠٩) وبمشى الضعف والنفعية والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية بعد اتفاق فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٤٢-١٤٣)

١ — زار عباس السلطان عبد الحميد فى ثلاث سنوات متتالية عقب أزمة الوزارة الفهمية فى سنوات ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ١٨٩٥ . ويروى أحمد شفيق فى وصف المقابلة الأولى أن الخديوى كان يقف مؤديا التحية العسكرية للسلطان عبد الحميد كلما أجاب عن سؤال يوجه إليه . كما روى أنه امتنع عن التدخين فى حضرته حين قدم إليه لماعه تبغ ، ولم يسمح لنفسه بالتدخين حتى أمره السلطان بذلك قائلا : الطاعة فوق الادب (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٠٣)

٢ — المثل (جيتك ياعبد المعين تعينى لقيتك ياعبد المعين تتعان)

وهذا هو السفير البريطاني فى الأستانة يقول . « إن السلطان نصح للخديوى بطريقه أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويثق بفعل الزمن ، محافظا دائما على العلاقات الحسنة مع الإنكليز . » ويقول كرومر عن وفد عباس إلى تركيا وعن العريضة التى رفعوها إلى الخليفة ، فى عبـــارة ملؤها الشماتة والاستخفاف . « ومهما تكن البواعث التى جعلت السلطان يعاملهم هذه المعاملة ، فلا ريب أنهم نالوا ما يستحقون . فإن هذه العريضة كانت ألطف فصل هزلى فى رواية الحركة ضد الإنجليز . . . هذه هى النتيجة الوحيدة من زيارة الخديوى للأستانة . فإنه اقتنع بأن لاينتظر أى مساعدة من هذه الجهة . ذهب شاهرا الحروب وعاد خضما مؤدبا ذليلا . » (١)

واضطرب تفكير عباس ، وراح يتخبط فى تصرفاته . فهو تارة يفر من الإنجليز إلى تركيا ، وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتميا منه بالإنجليز (٢). وهو كاره لـكليهما فى الحالين ، لاتطمئن نفسه إلى هذا ولا ذاك . ولـكن صلاته بتركيـا تقوى وتضعف تبعا لحسن صلاته بالإنجليز ، وصلاته بالإنجليز تزيد وتقل تبعا لإقبال السلطان عليه أو انصرافه عنه (٣) . وبينما كان عباس يشجع أعضاء تركيا الفتاة الفارين إلى مصر من ظلم عبد الحميد ، (٤) إذا به ينقلب إلى محاربتهم تقربا

---

١ ـــ عباس الثانى ص ٥٥ — ٥٦

٢ - مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١١ ، ٤ ٢ ب : ١٦ ، ٢٠ ، ٢١

٣ — سافر عباس للأستانة فى أول حكمه ثلاث سنوات متتابعة ثم انقطع سنة ٨٩٥ بعد زيارة الأسطول الانجليزى للاسكندرية . وسافر الى المدن سنة ١٩٠٠ حين فترت صلته بالسلطان بسبب تشجيعه للفارين الى مصر من أعضاء تركيا الفتاة . ولـكنه عاد لاستمالة السلطان حين أمر كرومر بتفتيش دفتره فى حادث ليون فهمى سنه ١٩٠١ . ولم يلبث أن انصرف إلى التقرب من الانجليز حين اختلف مع السلطان على جزيرة طاشوز سنة ١٩٠٢ . وهكذا ظل طول حكمه يفر من الانجليز إلى الترك تارة ، ومن الترك إلى الانجليز تارة أخرى . وكان مما يفسد عليه صلته بالسلطان مكايد الامير حليم الصدر الأعظم ، وقد كان طامعا فى عرش مصر (راجع مذاكراتى فى نصف قرن فى السنوات السابقة)

٤ — مذكراتي فى نصف قرن ٢ : ٣ ٣ — ٢٠٨ ، ٢ ب : ٤ ، ٨ ، ١٤٩ — ١٥٠

للسلطان . (١) وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه ، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور ، التماسا للحد من نفوذ كرومر (٢) . إذا به يتنكر للشعب وزعمائه ، ويعرض عن مطالبه ، حين يرى إقبال جورست (خليفة كرومر) عليه ، فيحارب الحرية والصحافة ويزج بالأحرار فى السجون . (٣) فإذا مات جورست وحل محله كتشنر (عدوه القديم فى حادثة الحدود) ، عاد يلتمس عون الزعماء الذين زج بهم أمس فى السجون . (٤)

كان هذا التذبذب والتخبط داعيا لاختلاف آراء الناس فى عباس . أكان مؤمنا بالوطن ولكنه غلب على أمره ؟ أكان صادق النية ولكنه غالب التيار فغلبه؟ أكانت آماله أكبر من همته فلم يصبر للكفاح ؟ أم أن حبه للملك ، وتعلقه بما يحيطه من أبهة وجاه كان أكثر من حبه للوطن وللحرية ؟ أم أنه كان يسعى إلى زيادة نفوذه وإطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتمس الوصول إلى هذه الغاية من كل سبيل ؟ وهو إذن لا يكره الاحتلال الإنجليزى نفسه ، ولكنه ينافس ممثله وينازعه السلطان ؟

مهما يكن من دخيلة أمره ، فقد انتهى إلى نهاية لا يختلف عليها اثنان . انتهى إلى اليأس والانحلال . فشهد العرض العسكرى الذى كان يقيمه جيش الاحتلال فى ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة فكتوريا ثم الملك إدوارد السابع من بعدها . ووقف للمرة الأولى تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر فى سنة ١٩٠٤ ، مرتديا بدلة التشريفة الكبرى يحيط به ياورانه . (٥) ثم قبل تعيين ياور إنجليزى له فى سنة ١٩٠٥ (٦) . ثم نشرت له الديلى تلغراف حديثا فى سنة

---

١ — المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨ ، ٣٩٤ — ٣٩٥ ، عباس الثانى ٧٧ ـ ٧٨ و ٨٠

٢ — محمد فريد ٥٧ ، ٥٨ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١١٤ و ١١٨ و ١٥٣ و ١٥٤

٣ — محمد فريد ٦٤ ، ١٠٠ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٣ و ١٨٢ و ٢٣١

٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٠٣ ، محمد فريد ٣٤٤ ، تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩١

٥ — مصطفى كامل ١٥٢ و ١٥٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٥٦

٦ — مصطفى كامل ص ١٥٥

١٩٠٧ (بعد تعيين جورست) ينفي فيه عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، مطريا اللورد كرومر ، مصرحا بأن لافائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وبأن الاحتلال الإنجليزى أفضل من أى احتلال آخر .(١)

وانصرف عباس فى غمرة يأسه إلى المال يجمعه فى شره ، ويكدسه فى نهم ولا يبالى شيئا غير تحقيق منفعته ، معتذرا عن مسلكه بأنه يعادى دولة قوية قاهرة ، ولا يدرى هل ينتهى الأمر بظفره بإخراجها أم تظفر هى بإخراجه ، فهو يحتاط لنفسه بأن يدّخر مايمكنه من العيش إذا دارت عليه الدائرة. (٢) والأمثلة على هذا الشره كثيرة . منها جزيرة طاشوز (٣) ، وشركه الزبرجد والنحاس (٤) . ومنها بيع الرتب والنياشين وما استتبعه من فضائح (٥) . ومنها حرصه على وضع يده على إدارة الأوقاف وإطلاق يده فيها دون مراقبة ، مما أدى إلى اصطدامه بحسن عاصم وبمحمد عبده وبقاضى القضاة التركى وبغيرهم فى تفتيش مشتهر

---

١ — مصطفى كامل ٢٨٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١١٥ — ١١٦

٢ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩٧

٣ — خلاصة المسألة أن الخديوى اتفق مع أحد الأجانب من السويسريين على إنشاء معصرة زيت بهذه الجزيرة سنة ١٩٠٢ وهى وقف لأسرة محمد على ، وهبها له السلطان مكافأة على حماية اوهابية وثار سكان الجزيرة حين فرض عباس ضريبة عالية على المعز التى كانت تأكل كثيرا من شجيرات الزيتون وشكوا للسلطان ، فأصدر أمره باحتلال الجزيرة حفظا للأمن . وقد ساءت علاقة عباس بالسلطان من أجل ذلك حتى لقد التمس معونة إنجلترا . (راجع التفاصيل فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٩٥ — ٤٠٦ ، تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٥٦١ ـ ٥٦٢)

٤ — ملخص المسألة أن الخديوي اتفق مع ثلاثة أحدهم سويسرى على تأليف شركة لاستخراج اللؤلؤ والاحجار الكريمة من البحر الأحمر والتنقيب عن النحاس والمعادن فى جزره وفى شبه جزيرة سيناء ، على أن يكون الربح مناصفة بينه وبين الشركاء . وفوجىء عباس بمنافسة شركة إنجليزية له فى الطور فلم يستطع الوفاء بعقد شركة (راجع التفاصيل فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٦٦ ، ٦٧)

٥ — كانت الرتب تباع كالسلع ، وكان لكل رتبة سعر معين وكان لها وسطاء معروفون ، وربما اعتدى بعضهم على البعض الآخر فنافسه فى عملائه . وقد ترتب على ذلك أن الرتب منحت فى بعض الاحيان لأشخاص محكوم عليهم فى جرائم خلقية كالتزوير والاختلاس =

سنة ١٩٠٤ (١)، وفى تفتيش المطاعنه سنة ١٩١٣ . (٢) وفى سبيل التسلط على إدارة الأوقاف، كان يقحم نفسه فى مشاكل الأزهر والمحاكم الشرعية ، للتأثير على رجال الدين وشراء ذممهم وضمائرهم ، حتى كثر احتكاكه بمحمد عبده وفسدت صلته به ، وبلغ من كرهه له أن سخط على كل من اشترك فى رثائه أو تشييع جنازته.(٣) ومن الأمثلة على هذا الشره فى جمع المال مساومته لإيطاليا على شراء سكة حديد مريوط ، التى كان قد أنشأها لإصلاح أراضيه الزراعية بغرب الإسكندرية،وذلك فى مقابل إغرائه السنوسيين على وقف مقاومتهم للاستعمار الايطالى سنة ١٩١٢ ، وإقالته لوزارة محمد سعيد سنة ١٩١٤ حين اشترت الحكومة

= فأحدث ذلك ضجة وكان حديث الناس والصحف . وتدخل كرومر فى الأمر مهددا بسحب امتياز منح الرتب من الخديوى (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٧ ـ ٨ و ٤٣ـ ٤٤) وراجع على سبيل المثال مقالا للطفي السيد نشر بصحيفة (الجريدة) فى ٢٢ نوفمبر سنة ٨ ١٩ عن (الرتب والباشين) المنتخبات ص ٧٢)

١ ملخص المسألة ان زورفادا كى اشتري من الحكومة حديقة الجيزة وسرايها وجزء من الأرض الزراعية التى أمامها على النيل . ثم اتفق مع عباس على أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بجوار الكوبرى الأعمى بتفتيش الخديوى بمشتهر. وكان الخديوى راغبا فى إنفاذ الصفقة للتخلص من تفتيش مشتهر وليكون شريكا لزورفادا كى فى الأراضى التى تشترى من الوقف . ولذلك غالى فى تقدير أرض مشتهر وبخس أرض الوقف . فلما عرضت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى عارضها محمد عبده وآخرون حسين عاصم رئيس الديوان الخديوي مما كان سببا فى غضب عباس عليه (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب: ٤٥ـ ٤٦ ، تاريخ الأستاذ الامام ٦٢ هـ)

٢ — ملخص المسأله أن الدائرة السنية باعت ٣٠٠٠ فدانا لمشتريين ، قسطا باقي الثمن للبنك العقاري . وتأخر عليهما قسطا سنتين ، فشرع البنك فى نزع الملكية . وعند ذلك أوعز الخديوى لديوان الأوقاف بشرائها بالممارسة بأكثر من ضعفي ثمنها حتى لا يخسر فى المزاد الجبرى . وقد عارض أحمد شفيق الصفقة فنقل من الأوقاف وحل محله آخر مقابل رشوة ٥٠٠٠ جنيه وأتم الصفقة .ثم تبين ان الصفقة تمت مقابل ستين ألف جنيه دفعت رشوة للخديوى . وقد علم كتشنر بالأمر فصمم على تحويل ديوان الاوقاف إلى وزارة (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٩٢ ـ ٢٩٨)

٣ — وهذا هو السبب فى أن شوقى لم يرثه الا بثلاثة أبيات.ويراجع فى أمثال هذه الفضائح إلى جانب ماسبق تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٥٦١ ـ ٥٦٢ ، ٥٧١ـ ٥٧٢ ، عباس الثانى ٧٣ـ٧٦

هذا الخط بمبلغ لم يرض شرهه . (١) وقد تدلى عباس فى جشعه إلى سفاسف الأمور ، حتى لقد فصل موظفا بدمراى رأس التين لأنه رفض أن يرسل مراتب وكراسى إلى تكية المنتزه ، معتذرا بأن المراتب يمكن أن يقال إنها استهلكت وأدخل قطنها فى التنجيد ، أما الكراسى فهو عهدة ثابتة ولا يمكن إرسال شىء منها . (٢)

ولم يكن شره عباس إلى السلطة بأقل من شرهه إلى المال . فلم يكد كرومر يرحل عن مصر ويحل محله جورست فيرضى شرهه إلى السلطة والمال ويطلق يده فى كل ماتشتهيه نفسه منها ، حتى تنكر للحركة الوطنية وحارب رجالها ، وعدل عن تحمسه للمطالبين بالحياة النيابية ، لأنها أصبحت تقيد إرادته بعد أن كانت تقيد إرادة ممثل الاحتلال . وهذا هو مصطفى فهمى الذى تلقى بسببه أول صفعة من الاحتلال ، لا يكاد يحتفى بعيد جلوس عباس ، فيقيم الزينات الفخمة أمام بيته ، حتى يرضى عنه ويقبل عليه ويستشيره فى كل صغيرة وكبيرة . ويروى أحمد شفيق عن استبداده قصصا عجيبه . فهو يكلف أحد الموظفين حين يغضب عليه بالعمل فى نقل الفحم فاذا هرب والتحق بإحدى الشركات أمر بإعادته إلى القصر . وهو دائم السب والشتم لموظفيه . بل لقد يبلغ فى ذلك أن يضربهم بالسوط بيده . (٣)

* * *

كان انحراف عباس سببا فى تحول الشعب عنه ، ثم سخطه عليه ومهاجمته له ، مما دعا إلى زج الأحرار فى السجون .

أخذ مصطفى كامل يهاجم الحكومة وينتقد تصرفاتها واستسلامها للانجليز

---

١ ــ مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٠٩ وراجع التفاصيل فى نفس المرجع ٢ ب : ٣٢٥ ــ ٣٢٦
٢ ــ نفس المرجع ٢ ب : ١٣٢
٣ ــ المرجع نفسه ٢ ب: ١٣٢ و ١٤٣ و ١٥٨

منذ سنة ١٩٠٤ (١) ، مما أغضب الخديوى ، وانتهى بإعلان مصطفى كامل انفصاله عن القصر . (٢) ولكن مصطفى كامل كان يتفادى الاصطدام بعباس ومهاجمته رغم ماشجر بينهما من خلاف ، حتى لا يتيح للانجليز فرصة للتدخل . وكان يتخذ القصر وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال . (٣) وهذا هو ماعناه شوقى حين قال فى الذكرى السابعة عشرة لوفاته :

جمعتَ الناسَ حول العرش عِلماً بأن لمصر فى العرش اعتصاما
هو العلَمُ الذى تفديه مِصرٌ ونحن الجُنْدُ فى العلم انتظاما

وكان عباس فى الوقت نفسه يحس أنه محتاج إلى مصطفى كامل ، لايستطيع أن يجمع على نفسه بين عداوته وعداوة كرومر ممثل الاحتلال . ولذلك سلمت علاقه مصطفى كامل بعباس رغم انفصاله عنه . فلما خلفه محمدفريد ، شعر عباس بأنه يستطيع الاستغناء عنه بعدأن ساد الوفاق بينه وبين جورست ممثل الاحتلال. ورأى محمد فريد أن عباسا لم يعد مستعدا للمضى مع الشعب فى كفاح المستعمرين، بل لقد رآه يتساهل فى حقوق مصر ، حرصا على صلات الود الجديدة ، أوعلى سياسة الوفاق — كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت — . وعند ذاك هاجم محمد فريدعباساورد عباس هذا الهجوم ، فأمعن فى اضطهاد الحركة الوطنية . واستعان على ذلك ببعث قانون المطبوعات فى سنة ١٩٠٩ (وهو قانون كان قد صدر فى أيام الثورة العرابية سنة ١٨٨١) ، وسن قانون النفى الإدارى ، الذى يخول للحكومة حق نفى المصرى لمجرد الشبهة ، بحجة أنه خطر على الأمن العام . (٤) وبذلك نجح ذلك الداهية الإنجليزى ، جورست ، فى صرف جهود الشعب إلى محاربة الخديوى بدلا من محاربة المحتلين . ووقف الإنجليز موقف المتفرج ، يتدخلون

---

١ — راجع خطبة مصطفى كامل فى الاسكندرية يونيو سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٤٧ — ١٥٠)
٢ — اللواء عددا ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ — مصطفى كامل ص ٢٨٢ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ٥٩ — ٦٠
٣ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩٣ ، ٥٩٤
٤ — محمد فريد ص ١٠٠ و ١٠٦ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٧٣ — ١٧٤ و ١٧٨ و ١٨٠

للتوسط ولحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك. وتحقق بذلك ماأوصى به اللورددوفرين في تقريره الذي وضعه في السنة الأولى للاحتلال، حين نصح بأن لا يتولى الانجليز حكم مصر المباشر وإدارتها، مقترحاأن نحكم بأيد مصرية موالية للاحتلال، حتى تقع أخطاء الحكم على رءوس المصريين أنفسهم (١) وكان تصرف جورست صورة من المأساة الخالدة التي كررها الإنجليز في كل مستعمراتهم على مر السنين. يعرون الزعيم من الزعماء بالمال وبالجاه، ثم يملون له حتى يتورط في أخطاء تفقده ثقة الرأي العام. فإذا قضوا عليه نبذوه، وظهروا أمام الشعوب بمظهر الغيورين على العدالة، الذين يتدخلون للحد من جشعه واستغلاله. (٢) وذلك هو ماحدث مع عباس. أملوا له، حتى تخلى عنه الشعب وأصبح وحيدا. ثم تنمروا له، وبعثوا لمصر بعدوه اللدود كتشنر ممثلا للاحتلال، يسومه الخسف ويذيقه الذل ويضيق عليه، حتى يلزم قصره مفكرا في التنازل عن العرش.

ومنذ ذلك الوقت أصبح الوطنيون* يحاربون في جهتين، يحاربون الاستعمار ويحاربون في نفس الوقت الخديوي وأذناب الاستعمار. وعرفت مصر مظاهرات الطلبة منذ سنة ١٩٠٦. وبلغ من تحدى الطلبة للخديوي وكرههم إياه أن مر بنفر منهم في قهوة الشيشة، وهو في طريقه لتوديع ولي عهد انجلترا الذي كان في زيارة مصر سنة ١٩٠٩، فظلوا جلوسا وقد وضع كل منهم ساقا على ساق ينظرون إليه دون اكتراث. (٣) وأثار هذا الموقف الكاشف فقال يخاطب الطلبة، وقد عز عليه أن يرى الخديوي محوطا بالحراس خشية اغتياله وهو الذي كان يتزعم الحركة الوطنية في الأمس القريب. (٤)

أرأيتم الحرّاس دون ركابه سدًّا فما يرنوا إليه مسلمٌ
قد يصبح الانسان شيطانا ولا يقع الذي ظنوا بكم وتوهمّوا

---

١ — مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ص ٢٣
٢ — راجع عباس الثاني ص ٧٣
٣ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٧٨
٤ — قصيدة الكاشف الطلبة والسياسة . ديوانه ٢ : ٩٥

هل نحن أمة قيصر أو جاره كسرى فيخشى أن يحيط به الدمّ
أم بعد ماأمِن الأعادى ليلةً يأبى على الخُلصاء أن يتكلموا

وانضم الازهر للحركة الوطنية ، يندمع المنددين بحكم الخديوى الاستبدادى وبحكم من يشده أزره من أعوان الاستبداد والاستعمار . (١) وظهرت المنشورات الثورية التى تدعو إلى تأسيس جماعات سرية للاغتيال . (٢) ثم عرفت مصر أول حادث اغتيال سياسى سنة ١٩١٠ حين قتل الوردانى بطرس غالى رئيس الوزراء .

وجهر المعارضون للخديوى بعدائه وتجرءوا عليه . فاستطاع سعد زغلول فى سنة ١٩٠٧ أن يضرب بيده المنضدة فى إحدى جلسات مجلس الوزراء وهو يقول — موجها الخطاب لعباس — « حينئذ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم هنا » كما استطاع أن يكسب إلى جانبه أغلبية المجلس ضد عباس فى مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى كان يعارضه وقتذاك (٣) ورفض محمد فريد أن يقف عندما عزف السلام الخديوى فى حفلة لرعاية الأطفال أقيمت فى دار الأوبرا سنة ١٩١٢ ، وكان يشهدها مندوب عن الخديوى . (٤) ونشر محمد عبده مقالا عنيفا فى صحيفة المنار سنة ١٩٠٢ يهاجم فيه محمد على ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية . وقد صور فى هذا المقال الجرىء كيف وصل محمد على للحكم ثم كيف احتفظ به . فقال : (١)

---

١ — مصطفى كامل ١٦٢ — ١٦٤ ، محمد فريد ٧٧ ، ١٠٣ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، رونشتين ٣٥٠

٢ — وصلت إلى عباس خطابات تهديد ثم قبض على ثلاثة من الشبان بتهمة التآمر على الخديوى وعلى كتشنر وعلى محمد سعيد فرجوا فى السجن (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٦٥ ، ٢١٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠)

٣ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢ ، ١ ، ٢٤٢

٤ — المرجع نفسه ٢ ب : ٢٦٨

٥ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٣٨٢ — ٢٨٩

« ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ، وهكذا . حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأسا يستتر فيه ضمير (أنا) . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا لجمع السلاح من الأهلين . وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الأهالى ، وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على من بقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها ، فلم يُبْق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد إلا آلات له ، يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه . فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ، ليصير البلاد المصرية جميعا إقطاعا واحدا له ولأولاده ، على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة . »

ثم يقول محمد عبده إن محمد على قد ملأ مصر بالأجانب والدخلاء ، يستعين بهم على إقرار نفوذه ، وأذل المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم ، يحكمون على هواهم ، لا هدف لهم إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير . ثم ينفى عنه ما ينسب إليه من إصلاح ، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة أو النخوة فى مصر ، مما ظهر أثره عند غزو الإنجليز لها ، فيقول :

« حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات . ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك .

يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع. ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستَبْقُوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفّظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا . بل بَغّض إلى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوما لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم إليه

يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيرا فتح به الممالك ودوخ به الملوك. وأنشأ أسطولا ضخما تتثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار . فهل علّم المصريين حب التجنّد ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلَب ، وحبّب إليهم الخدمة فى الجندية ، وعلمهم الافتخار بها ؟ لا . بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك . . . . . . هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه ، بأن يقول : هذا جيشى وأسطولى ، أو جيش بلدى وأسطوله ؟ كلا . لم يكن شىء من ذلك . فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونا لظالمه ، فهى قوة خصمه . . . .

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابى . دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم.(١) ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها. وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين فى مصر . وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الاخير ، وجَهِله الأحداثُ فهم يَسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون إليه . .

وعند ذلك يبلغ محمد عبده قمة العنف والهياج ، وقد أوشك أن يختم مقاله ، فيقول: « لا يستحى بعضُ الأحداث من أن يقول إن محمد على جعل من جدران

١ ــ الدامر هو الذى يدخل على القوم بلا استئذان

سلطانه بِنْيَةً من الدين . أي دين كان دعامة للسلطان محمد على ؟ دين التحصيل؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى الجليل ؟ »(١)

* * *

وظهر أثر هذا الانحراف عن عباس واضحا فى الشعر . فأصبحنا نرى الشعراء الذين كانوا يمدحونه بالأمس ينتقدون سياسته ، منهم من يبلغ فى ذلك حد الهجاء العنيف الذى يعرض صاحبه للسجن ، ومنهم من يرفق فى ذلك إشفاقا على وحدة الأمة ، أو خوفا من الاضطهاد ، فلا يتجاوز فيما يقول العتاب الرقيق.

هذا هو على الغاياتى شاعر الحزب الوطنى ، يعرض بالخديوى الذى يحارب الأحرار ، والذى يعارض إرادة الشعب المطالب بالدستور ، وذلك فى مقدمة ديوانه (وطنيتى) ، منتهزا الفرصة المناسبة فى كلامه عن لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت فيقول (٢) « وكان ملك فرنسا فى ذلك الحين (لويس السادس عشر) مستسلما لإرادة حاشيته الظالمة ، وزوجته المستبدة المسرفة (مارى أنطوانيت) . . . وقد كانت حمقاء عدوة للاصلاح والإنصاف وكانت تحتقر الشعب الفرنسى الكريم وتعامله معاملة يأباها الحر وتعافها النفس الشريفة . وهى التى دفعت زوجها إلى مصادرة الأحرار والوقوف فى وجوههم . فلما اشتدت الأزمة

١ — راجع كذلك تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٨٣ وفيه ملخص المقال الذى هاجم فيه رشيد رضا محمد على ، وهو سابق على مقال محمد عبده . والواقع أننا لا نستطيع أن نعتبر هذين المقالين صدى لسخط الرأى العام فى ذلك الوقت . فقد كان الخديوى لا يزال يتمتع بعطف الرأى العام وبتأييد الحزب الوطنى وقتذاك . ومن الحق أن محمد عبده كان نزيها ، وأن خلافه مع الخديوى يرجع إلى شره عباس وتشدد محمد عبده فى تحرى العدالة . ولكن من الحق أيضا أن محمد عبده كان صديقا لكرومر ، وأنه كان يستمد منه القوة والتأييد حين يهاجم الخديوى . ولكن هذه الحقيقة تقلل من تقدير الجرأة التى ينطوى عليها هذا المقال . وإنما أشرنا إلى مقال محمد عبده على أنه بداية لتحول بعض المواطنين الصالحين عن عباس وجهرهم بعداوته .

٢ — وطنيتى ص ٢٥ ، ٢٦

وحمى وطيس الثورة كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيرة ، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الحرارة المنتصرة للملوكية ، بل كان التغلب للأمة ، والنصر العزيز لفرنسا الحرة . . . ودالت دولة الطغيان . وكذلك عاقبة الظالمين . . . لم تتدبر هذه المملكة الظالمة فى أمرها . وسارت فى الأمة سيرة الملوك المطلقين والحكام المستبدين ، وقابلت إحسان الرعية بالكفران ، مستعزة بسلطان الملك ، مضللة بشياطين الملوك . وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق — كما يرى بعض الحكام فى هذه العصور — فاستحقت غضب الشعب . ويا ويل الحكومة من غضب الشعب . وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار . . »

ثم يعقب الغاياتى فى مقدمة ديوانه على نشيد المارسليز بقوله[1] « إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبيل العسف ، فتحت من حيث لا تدرى للأمه أبواب الحرية الواسعة ، وهدتها طرق السعادة المنشودة . والضغط لا محالة محدث الانفجار . فطوبى لأمة تقوضت فى ديارها دعائم العدل ، ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياة فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة ، فما رأت غير ظلم وظلام ، يأخذ أموالها الحاكم المستبد بإحدى يديه ، ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى ، فهو يجيعها ليشبع ، ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعتز ، ثم يسد فى وجهها مناهل العلم ، لتنفسح أمامه مناهج الظلم . حتى إذا ما رفعت رأسا أثقلته المظالم ، أو فتحت عينا أغمضتها رؤية الظالم ، أو شكت وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها . ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ، ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملت ، ويرتفع بين الأمة صوت الإباء ، مرددا قول أبى العلاء .

مُلَّ المقامُ ، فكم أعاشر أمة   أمرت بغير صلاحها أمراؤها

---

١ — المرجع نفسه ص ٣٢ — ٣٥

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها	فعدوا مصالحها وهم أجزاؤها

هنالك تشرق شمس الانتقام ، وتأخذ الشعب نشوة الانتصار ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنالك يغير الله حالا بعد حال ، وتستوى الأمة على عرشها ، تدير دفة الحكم بيدها ، وتسير القضاء العدل بإرادتها . هنا لك ينادى منادى الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مُدَوٍّ فى أرجاء البلاد أن (لاظُلمْ اليوم ، لا ظلم اليوم .) .

ويختم مقدمة ديوانه بهذه الكلمات الثائرة (١) « إن الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير ، بل هى حق طبيعى للشعوب ، متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدى مغتصبيه ، وقدمت فى سبيله النفس والنفيس . فهؤلاء الذين يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة ، وينتقمون للوطن منهم ، ثم ينالون الموت من يد ظالمة وهم فى سبيل جهادهم سائرون ، أولئك الذين رضى الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة .» (٢)

وها هو ذا يتحدث عن خضوع الخديوى وحكومته لإرادة المحتلين ، ويستحث الشعب على الجهاد لاستخلاص حقوقه ، فيقول (٣) :

وعــــداة ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب فى حقٍّ ذِماما
وُولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العِدَا منهم مَراما
رَبِّ ! ماذا يصنع المصرىُّ إنْ	جاوز الصبرُ مدى الصدر فقاما
طال يومُ الظلم فى مصرٍ ، ولم	نَدْرِ بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتلُّ أنا أمــــة	مذعرفنا السِّلم لاندرى الخصاما؟
أو يرى الظالمُ فينا أننـا	نحمل الخَسْفَ ولا نبغى انتقاما ؟

---

١ — وطنيتى ص ٤١

٢ — يشير إما إلى إبراهيم الوردانى الذى قتل بطرس غالى رئيس الوزراء ثم حكم قضاء بإعدامه . ويراجع فى ذلك قصيدتان للشاعر فى ديوانه ص ١٠٩ ، ١١٥

٣ — وطنيتى ص ٤٥

وها هو ذا يهاجم شوقى شاعر عباس ، حين نشر له (المؤيد) فى سنة ١٩٠٨ حديثا يعتذر فيه عن إصدار الدستور بأن عباسا لا يستطيع أن يمنحه بغير رضاء الإنجليز ، ويقول إن الأمة لم تبلغ من النضج مايؤهلها للحياة النيابية . يقول الغاياتى : (١)

ياشاعر الأمراء ، ويحك ، هل ترى ... فى النثر ما فى النظم من خطرات ؟
إنى رأيتك فى حديثك شاعرا ... لكن خيالك زائغُ النظرات
... ياشاعر النيل العظيم ! أماترى ... للنيل إلا أسوأ الحالات
ما كنت أحسب أن مثلك وهو فى ... شعراء مصرٍ صاحب الآيات
يجنى على الشعب الكريم جناية ... ويود أن يبقى مع الأموات
... أو أنت تروى عن سواك حديثه ... كيْما نرى الدستور ليس بآت
والله يعلم أننا لا ننثنى ... يوما ولانلهو عن الطلبات
حتى نفوز بنيله رغم العدا ... وننبِّه العَزَمات للهَجمات

وتصل مهاجمة الغاياتى عباسا إلى قمة العنف عند صدور قانون المطبوعات ، الذى أعلن به الحرب على الأحرار ، إذ يقول ، مشيرا إلى مالقيت الأمة على يدى عباس من نكال ، بعد أن تحول إلى مهادنة الإنجليز ، منزلقا إلى ما سماه (سياسة الوفاق) : (٢)

أعبّاسُ ! هذا آخر العهد بيننا ... فلا تخْشَ منا بعد ذاكَ عِتَابا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة ... ننال إذا رُمْنا الحياة عقابا
... وأرضيت أعداءَ البلاد وأهلها ... وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدكَ ياعباسُ . لاتبلغ المدى ... ولا تستمع للظالمين خطابا
فما يبتغى جورستُ إلا مكيدةَ ... تحوّلُ أقلامَ السلام حِرابا

---

١ — وطنيتى ص ٥٨
٢ — وطنيتى ص ٦٤

ثم يتجه إلى مهاجمة بطرس غالى ، الذى ولى الوزارة بأمر المحتلين ، ويذكره بماضيه فى دنشواى ، مهددا بأنه لن يبلغ ما يريد حتى يلقى جزاءه :

ألا مَطَرَ الله الوزارة نقمة ... ولا بُلِّغَتْ مما تروم مَرَاما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ... ولكن ستلقى دون ذاك أثاما[1]
وزارة خدّاع ، أقامته بيننا ... يدُ الحاكمين الآثمين فقاما
... جنى ما جنى فى دنشواى وغيرها ... ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيَّدَ أقلام الصحافة علّها ... إذا أبصرَتْ سوءاته تتعامَى
بنى مصر! بُشرَى. فالرجاءُ محقّقٌ ... ومن عَدِم الأقوال رامَ فَعالا
... فإنى لمحتُ النصر بين صفوفكم ... وأبصرتُ عُقْبى الظالمين وبالا

وديوان محرّم ملىء بالقصائد التى حاول بها الشاعر أن يردّ عباسا إلى صوابه ويعيده إلى الإخلاص لشعبه ووطنه . منها مايستغنى بالتلميح عن التصريح ، فيتكلم عن صفات الملك الصالح ومعايب الملك الفاسد ، ومنها مايهاجم فى عنف ، فيصف الملوك بالكذب والنفاق وإفساد الحياة .

يقول محرم فى صفة الملك الصالح[2]

أحَبُّ المالكين إلى الرعايا ... مليكٌ ليس يَألوها افتقادا
تغلغل فى مكان الحسِّ منها ... فكان السمع فيها والفؤادا

ثم يقول فى تصوير الملك الفاسد :

أضرَّ الناسَ ذو تاج تولى ... فما نفع البلاد ولا أفادا
وكان على الرعية شرَّ راع ... وأشأم مالكٍ فى الدهر سادا
تبيتُ له الأريكة فى عناء ... تمارس منه أهوالا شدادا
... كأن الملكَ فى عينيه حلم ... يلذ به فما يألو رقادا

---

١ — الأثام (بفتح الهمزة) جزاء الإثم
٢ — ديوان محرم ٢ : ٥٣ — ٥٦

... وتدعوهُ الرعيةُ وهو لاهٍ فتصْدَعُ دون مسمعه الجمادا
فلا هو يُرتجَى يوماً لنفع يعز به الرعية والبلادا
ولا هو مالكٌ كشفاً لضُرٍّ إذا ماكائدُ الحدثان كادا

ثم يتخلص من ذلك إلى مخاطبة عباس ، طالبا منه أن يأخذ بيد الرعية ، ويوحد صفوفها المتفرقة ، ويقودها فى كفاحها ، متسائلا : ألا يرضيك أن تكون ملكا على شعب عزيز ؟

عزيز النيل ! والآمال حَيرَى تسائلك الهداية والرشادا
أضيْعةَ قصْدَ السبيل لداوألف أوابدها[١]،فتوشك أن تعادى
وقدها قوْدَ مأمونٍ عليها يصاديها بأحسن ما تُصادى
فإيه ياعزيز النيل إيه أماترضى لحكمك أن يُشادا ؟
وللشعب المصفد أن تراه وقد نزع الأداهِم والصِّفادا ؟
. . ألست ترى بنيها فى شقاق فما يرحون ما عاشوا اتحادا ؟
أتتركهم يهب الشر فيهم ونارُ الحطب تتقد اتقادا ؟

ويشير محرم فى قصيدة أخرى إلى فساد الشعب تبعا لفساد الملوك حيث يقول : [٢]

رأيتُ الشعبَ ـ والأمثال جَمٌّ ـ على ما كان مالكه يكون
وما تبقى الممالكُ لاهيات، تصرِّفها الخلاعة والمجونُ
إذا غوت الهداة فلا رشيدٌ وإن خان الرعاة فلا أمينَ
وأعجبُ ما أرى شعبٌ نحيف يسُوسُ قطيعَه راع بَدينُ

ويهاجم الملوك ، وينسبهم إلى الظلم ومجافاة العدل حيث يقول : [٣]

---

١ — الأوابد من الوحوش الشاردة النافرة
٢ — ديوان محرم ٢ : ٥٧
٣ — ديوان محرم ٢ : ٨٦

أرى العدلَ دَعْوَى يُعجِبُ الناسَ حسنها
وبخدعهم عنها الحديثُ الملفّق
أكاذيب يُزْجيها الفتى وهو عالم	إذا ما ادّعاها أنه ليس يَصْدق
فشا الظلم بين الناس واعتز أهله	وبات ضعيف القوم يؤذى ويرهق
خَليًّا من الأعوان ، يغصبُ حقه	فيُغْضِى،ويُرْمَى بالهوان فيُطْرِق
. . . رأيتُ ملوكَ الناس لا ينصفونهم
وخيرُ الملوك المنصف المترفق
يقيمون صرح الظلم فى كل أمة	إذا ملكوا والعدلُ بالملك أخلقُ

ويلتهب شعر محرَّم بالثورة حين يهاجم قانون المطبوعات فيقول : (١)

صُبوا المداد وحطموا الأقلاما
واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما
وخذوا على الوجدان كلَّ ثنيّةٍ	واقضوا الحياةَ مزمّلين نياما
. . . يامصرُ ! ماذا تطلبين ؟ أما كفى	أن تصبحى للعاديات طعاما ؟
موتى . فما موت العليل بضائر	وكفى بآلام الحياة حِمَاما
من ذا يرد عليك عهدكِ صالحا	ويعيد صوتَكِ عاليا يترامى ؟
قمنا بنصركِ والخناق مضيق	والنفسُ مرهَقَةٌ أذى، وغُرَاما
. . . أنخون مصر ، وما تحوّل نيلها	سُمًّا وما انقلب الضياء ظلاما ؟
نبغى لها الشرفَ الأشمَّ مويّدا	بالعلم يوئسُ صَرْحُه الهَدّاما
ونُعِز رايتها ونمنع حوضها	ونزيد صادق حبها استحكاما
أيسوس ريب الدهرِ منّا أمة	تبغى حياةَ المجد أم أنعاما ؟

ويهاجم عباسا فى عنف ، متهما الملوك بالكذب ومجافاة الشرف ، مشيرا إلى فضائح بيع الرتب والنياشين حيث يقول : (٢)

---

١ — ديوان محرم ٢ : ٤٧ — ٤٨
٢ — » » ٢ : ١٥٠

كذب الملوكُ ومن يحاول عندهم شرفاً ويزعم أنهم شرفاء
رتبٌ وألقابٌ تغرُّ ، وما بها فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء
آنا تباع ، وتارةً هي خدعة تُمنى بشرٍّ سُمعاتها الأمراء
كم رتبةٍ نَعِم الغبيُّ بنيلها من حيث نجلاها أسى وشقاء
لو كان يعلم ذلَّها وهوانها ماطال منه الزَّهْوُ والخيلاء
... لا المجدُ مجدٌ بعدما عبثت به أيدى الملوك ولا السناء سناء
مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا
ما شاءت الأوهامُ والأهواء
رفعوا الطغامَ على الكرام فأشكلت
قيم الرجال ورابت الأشياء
... وإذا الرعاة تنكبت سبل الهدى غوت الهداةُ وطاشت الحكماء
... لو جاور الشرفُ الملوكَ لأورقتْ
صُمُّ الصخور وضاءت الظَّلْماء
الحق منتهك المحارم بينهم والعدل وهمٌ والوفاء هَبَاء
رفعوا العروش على الدماء ، وإنما
تبقى السفينة ما أقام الماءُ

أما الكاشف ، فهو يتقدم إلى عباس فى قصيدة أنشأها فى عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ ، ناصحا له فى رفق أن يعيد إلى شعبه الدستور الذى أصدره أبوه ، حتى ينكشف موقف الإنجليز ، ويعرف الناس أنهم هم المعارضون :(١)

يا نابع الأجداد والآباء فى حكم البلاد أعِدْ صنيع أبيكا
وامنح رعيتك الذى سألوكه وعلى الطغاة الإثمُ إن منعوكا
ماذا عليك إذا انتزعتَ أمورَها منهم، وشاطرك الأمورَ بنوكا؟
هذى نفوسهمو لديكَ رهينة ولو استطاعوا غيرَها منحوكا

١ — ديوان الكاشف ٢ : ٤٨ — ٥٠

لا يسألونك مدفعا وصوارما ‏ ‏ ‏ ‏ هم يسألونك آيةً من فيكا
لك فى الخليفة أسوةٌ محمودة ‏ ‏ ‏ ‏ ولتتبَعَنّ سبيله المسلوكا(١)

ثم هو يحذره من سياسة الوفاق الخبيثة التى جاء بها جورست ليفرق بها بينه وبين شعبه . فهو اليوم يشكو إليه الأحرار من شعبه ليبغضهم إليه ، ثم هو فى غد يشكوه إليهم حتى يكرهوه. وهو ينصحه بأن يستبقى ود شعبه ويحرص على تأييده فهو عدته وقوته : (٢)

أهلا وسهلا بالوفاق ومرحبا ‏ ‏ ‏ ‏ لو كان فيه قضاء ما وَعَدوكا
إن كنتَ مشترط الجلاءِ فواجبٌ ‏ ‏ ‏ ‏ لك أن تَوَدَّهُمو كما وَدُّوكا
خيرٌ لنا أن يعلنوا البغضاءَ من ‏ ‏ ‏ ‏ أن يعلنوا لكَ مَوْثِقا مفكوكا
... ما كان حبا ما ترى ، لكنه ‏ ‏ ‏ ‏ كتْـمُ الـمُخاتلِ سرَّه المهتوكا
أرأيتَ كيف وشى بكل مهذَّب ‏ ‏ ‏ ‏ حُرٍّ فكان الآفكَ المأفوكا
اليومَ يشكونا إليك ومابنا ‏ ‏ ‏ ‏ غير الوفاء ، وفى غدٍ يَشكوكا
أعيَ على أوهامه ووعيده ‏ ‏ ‏ ‏ هذا المِراسُ ، فقام يستصفيكا
ماذا ترى فى قادرين يسوؤهم ‏ ‏ ‏ ‏ أنا نُحِس وأننا نرجوكا
حسبوا الرعية ـ وهى عند يقينها ـ ‏ ‏ ‏ ‏ ترضى العوازلَ فيك أم حسبوكا؟
وعليكَ يجنى ، أم على أعدائه ‏ ‏ ‏ ‏ من لايرى لكَ فى البلادِ شريكا ؟
لم يبقَ غيرك للبلاد وأهلِها ‏ ‏ ‏ ‏ فاحرصْ على تأييد مستبقيكا
لكَ من يقينكَ والتجاربِ عاصمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ للمخلصين يقيهمو ويقيكا
... يا حبذا يوْم الجلاء ، ولا ارى ‏ ‏ ‏ ‏ جندا يصول ، ولا دما مسفوكا
هذى خواطرىَ الحسان وغيرتى ‏ ‏ ‏ ‏ أرأيتنى أغريك أم أوصيكا
لا راقنى عيدٌ بمصرَ ومَوْسِمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ حتى يعودَ محرَّراً واديكا

ويحذره فى قصيدة أخرى قالها سنة ١٩٠٩ مما تنطوى عليه سياسة الوفاق

---

١ — يشير الى الدستور التركى الذى كان قد صدر فى هذا العام

٢ — ديوان الكاشف ٢ : ٤٩

الكاذبة من أخطار ، وينصح له أن يعلن رضاءه وعفوه عن ضحايا قانون المطبوعات ، حيث يقول : (١)

صدقوا رجال المُلك أم كذبوهم ؟ ووفاء صَحْب أم رياء دهاةِ ؟(٢)
أيشيدون مُصَاوِلا بحسامه ويخادعون مناديا بشكاةِ ؟
لِمَ يعملون على البقاء ؟ ومالهم غفلوا عن الميعاد والميقاتِ ؟
. أمِنَ الذنوب شكاةُ مصر لك بعدما ملكوا أعِنة أمرها سَلِسات ؟
عَدَوا على أحرارها أنفاسهم وترقبوا اللحظات والخطرات
إن يَنقموا منها مِراس غلاتِها فالعجزُ أن تبقى بغير غُلاة(٣)
أرأيتها فى المهرجان ، وقد خلت من حِليَة الأتراب والأخوات ؟ (٤)
... أعلن رضاك عن الأباة ، فإنه فصلُ الخطاب وفرجة الأزمات

وهذا هو عبد الحليم المصرى الذى يملأ مدح عباس ديوانه ، يقسو عليه فى العتاب ، فى قصيدة رفعها إليه سنة ١٩٠٨ على لسان الأمة المصرية ، مطالبا بالدستور ، يحذره فيها من معاداة الشعب وتجاهل مطالبه ، ويضرب له الأمثال بمظفر الدين شاه العجم ، الذى خلعه شعبه حين نكث بعهده وأبطل الدستور ، حانثا بقسمه الذى أقسمه أمام أبيه ، وبالثورة المراكشية التى انتهت بخلع عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ . ثم هو يذكر عباسا بحديثه الذى أدلى به إلى صحيفة (الطان) ، ووعد فيه بإصدار الدستور(٥) . ويقول له إننا شعب مسالم ، لا نتوسل إلى ما نطلب بالثورات . فهل لا يشفع لنا ذلك عندك ، إذ نطلب الدستور بالخطابة

١ — ديوان الكاشف ٢ : ٥٦
٢ — الضمير فى « صدقوا » عائد على الانجليز
٣ — يقصد بالغلاة رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يتهمون بالتطرف
٤ — يشير إلى ما قوبل به عيد جلوسه الأخير من فتور
٥ — ديوان عبد الحليم المصرى ١ : ٥٨ وراجع كذلك إشارته إلى الدستور فى قصيدة العام الهجرى سنة ١٩١٠م و ١٩١١م وإشارته الى اضطهاد الصحافة والاحرار فى قصيدته « الساحين » و « الحرية » فى ديوانه ١ : ٥٦ و ٩٠، و ٨ ١–١١٢ و ٧٠ — ٧٤

والكلام، حين يطلبه غيرنا بالدماء؟

رُدَّ الوديعة ، لا مالا ولا شانا   لم نزجِ في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤكَ لم نبسط إليك يدا   من الرجاء ، ولم نسألك غفرانا
ربَّ الأريكة! إنا لا نزال على   وثيق عهدك أخداناً وأعوانا
لا يفصِمُ الدهرُ حبلا من مودتنا   ولا تشابُ بماء البؤس نُعمانا
إن الحياة لدارٌ نحن نسكنها   وحاشَ للهِ أن نشقى بسكنانا
الناسُ تخلق أحراراً ، فكيف بنا   نرضى المقامَ بوادي النيل عبدانا؟
..مظفرَ الدين هل أغمضتَ عينَكَ عن   منابت الشعب ، أم أوقرت آذانا؟
حتى ترى الدم حول العرش منهمرا   وتبصرَ القومَ فتّاكا وطعانا
وتسأل القسم المبرور ، هل حنثت   فيه الأعاجم ، أم ظنته بهتانا(١)
قد قام شبلك بالإفتاء يهدم ما   شيدت للعدل أركانا وجدرانا
فأجرَت القومُ يمًّا من دمائهم   يكاد يخفي عن الأبصار (طهرانا)
وعلمتْ من رآها كيف تُرخِص في   حب الدساتير أرواحا وأبدانا
إن قام بالمُلكِ مولاي (الحفيظ) ولم   يُقِمْ له الدهرُ فوق العرش أركانا
وحرر الشعب من ذل الضعيف إلى   عز القويْ وأمسى فيه سلطانا
فكيف لم تُولِنا مثل (الحفيظ) يدا   وأنت أكرم أنسابا وأوطانا ؟
هلا ادَّكرْتَ الوعود السالفات ، وهل   نسيتَ بالأمس ما أسمعْته (الطانا) ؟
ما بال في الغرب أقوامٌ مآربهم   إلا وسالت دماء القوم ألوانا
ونحن في الشرق لم ننضِ السيوفَ ولا   نُرَى بغير اليراع المُرِّ فرسانا

---

١ — كان مظفر الدين أقسم لأبيه قبل جلوسه على العرش أن لا يسترد الدستور . فلما مات أبوه حنث بقسمه وألغاه ، مستعينا على ذلك بفتوى من رجال الدين

فكيف لا يشفع الصبرُ الجميلُ لنا
عند (الأمير) ولا ترضيه شكوانا ؟
يالفظةً منك فى الآذان نرقبها   كأن آذاننا أصبحن أجفانا
ثِبِى لنا فى الدياجى مثلما وثبت   للترك أختُلكِ، إن الوقت قد حانا

* * *

كان عباس يكره الإنجليز فى أعماق نفسه . وكانت علاقته بهم سيئة طوال مدة حكمه، إذا استثنينا السنوات الأربع التى تخللتها ، من تعيين إلدون جورست معتمدا بريطانيا سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩١١ وتعيين اللورد كتشنر خلفا له(١)

وسواء كان كره عباس للإنجليز بدافع من وطنيته على رأى الدين يحسنون به الظن ، أو بدافع من منازعتهم إياه سلطته على رأى الذين يسيئون به الظن ، فالحقيقة الثابتة هى أنه لم يطمئن للإنجليز ولم يطمئن الإنجليز إليه ، ولم يتوانوا فى التخلص منه حين سنحت لهم الفرصة بإعلان الحرب العالمية الأولى أثناء رحلته إلى تركيا سنة سنة ١٩١٤ وقد جاهر عباس الإنجليز بعدائه وحاربهم حربا صريحة فى بداية حكمه . ثم أخفى هذا الكره ، وظل يدس لهم فى الظلام ، مسدلا حجابا من البراعة والرصانة على كرهه المتناهى لهم، كما يقول كرومر .(٢) ولكن النزاع بينه وبينهم لم يفتر ولم ينقطع فى الحالين . بل ظلت فى مصر سلطتان قائمتان تتنازعان النفوذ . سلطة الخديوى وسلطة المعتمد البريطانى ، أو السلطة الشرعية والسلطة الفعلية، كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين،وكما يقول الكاشف.(٣)

أيسود شعب ليس منه رعاته   فهما وإن طال المدى ضدان

---

١ — وبتعيين اللورد كتشنر عدو عباس القديم و حادثه الحدود انتهت الفترة التى يسمونها فترة الوفاق ، وعاد الخلاف بين عباس والانجليز إلى حدته الأولى التى اقسم بها مدة إقامة كرومر فى مصر

٢ — عباس الثانى ص ٤ ويصفه كرومر فى موضع آخر من الكتاب بأنه كان أستاذا فى فن الدسائس الحقيرة ص ٨

٣ — ديوان الكاشف ٢ : ٤٢

يأبى ويشفق أن يصرّف أمرَهَ ويسوسه حكمان مختلفان
.. أيهم بالأمر الكبير وليّه يوماً وليس له عليه يدان (١)

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة فى جمع الأنصار واكتساب الأعوان. وقد نجح عباس فى السنوات الأولى لحكمه فى بث حركة وطنية إسلامية تزعمها مصطفى كامل والشيخ على يوسف. واستطاع أن يضم إلى صفه عددا من ضباط الجيش وكثرة من الموظفين. ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استيقنوا ضعفه أمام الإنجليز، منذ اضطره كرومر إلى الاعتذار لكتشنر سنه ١٨٩٦، ثم اضطره بعد ذلك إلى التخلى عن الضباط الذين حوكموا عندما تمردت فرقتان من الجيش المصرى فى السودان سنة ١٩٠٠. (٢) وخسر عباس الحزب الوطنى بعد ذلك منذ لوح له جورست بالسلطة ونجح فى إفساد ما بينه وبين الأحرار من المصريين، المطالبين بالحياة النيابية والمعارضين لفساد الحكم، فانقلب إلى محاربتهم والتنكيل بهم.

وحين كان عباس يخسر الأصدقاء والأولياء، كان الإنجليز يجدون فى اصطناع الأصدقاء والأولياء، ويسرعون إلى احتضان كل خصم له وللسلطان عبد الحميد، مظهرين أنفسهم فى صورة المدافعين عن الحرية والعدل، المقاومين للظلم والطغيان. وساعدهم على ذلك انتشار روح الخضوع والاستسلام عقب الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤، مما أدى إلى تفشى اليأس والنفعية. (٣)

١ — ولى الامر هو الخديوى الحاكم الشرعي وقتذاك

٢ — علم كرومر أن عباسا هو الذى حرض الضباط على الثورة. فتجاهل الأمر وذهب إليه مقترحا أن يقابل الضباط المحكوم عليهم ويوبخهم بكلمات اختارها له. ولم يجد عباس بدا من قبول عرض كرومر حتى لاتثبت عليه تهمه تحريض الضباط. وبذلك فقد الضباط ثقتهم فيه، وفقد هو نفوذه وهيبته فى أوساطهم (راجع عباس الثانى ص ٨٢ — ٨٣ وراجع كذلك تصوير حافظ ابراهيم لاستبداد الانجليز فى الجيش ومكايدهم لافساده وإضعافه، والتفريق بين المصريين والسودانيين، وما انتهى إليه أمر الضباط المصريين من رهبة الانجليز والخضوع لهم. وقصة تمرد الفرقتين المصريتين فى السودان: ليالى سطيح ص ٧٩ — ١١٢ وراجع كذلك مذكراتى فى نصف قرن ٢: ٣٢١ — ٣٢٦)

٣ — مصطفى كامل ص ١٠٨ — ١٠٩ و ١٤٢ — ١٤٣، تاريخ الامام ١: ٩٢٣ — ٩٢٤

استطاع الإنجليز أن يكسبوا إلى جانبهم العمد والمشايخ ، بتأييدهم في التخلص من نفوذ الباشوات وكبار الملاك ، وبحرصهم على تخفيف ضرائب الأملاك ، ولو أدى ذلك إلى شل المشروعات الضرورية في شتى نواحي الحياة (١) . واستطاعوا أن يشتروا نفرا من رجال الجيش ، فكانوا يمنحون بعضهم مداليات تخول حاملها الحق في أخذ راتب شهري من الخزينة الإنجليزية فوق مرتباتهم ، وذلك على سبيل المكافأة والتشجيع ، لما يظهرون من ضروب الشجاعة في القتال أثناء حملة السودان التي لم يتحمس لها الرأي المصري العام[١] . ونجح كرومر في عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين ، مثل شيخ الأزهر والمفتي ومشايخ الطرق ، لعلمه بقوة نفوذهم الشعبي وبحرص عباس والسلطان على اصطفائهم وتقريبهم والاستعانة بنفوذهم.(٢) واحتضن محمد عبده حين اصطدم بعباس ، حتى أصبح هو سنده في كل ما استهدفه من مشاريع لإصلاح الأزهر والقضاء الشرعي .(٣) كما احتضن اللاجئين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة ، وشجعهم على تشويه سمعة الحكم التركي ونبش سيئات عبد الحميد والتشنيع باستبداده ، متظاهرا بأنه إنما يفعل ذلك دفاعا عن الحرية . (٤) وفتح كرومر أبواب قصره لكل صاحب

---

١ — يقول كرومر في ذلك « إن الرابطة الوحيدة التي تربط الحاكم بالمحكوم عندما تختلف اللغة والجنسية والمذهب والعادات تنحصر في المصالح المادية . ومن بين هذه المصالح وأهمها حمل ضرائب الأملاك خفيفة . لذلك أرى أن الأحوال السياسية التي علينا مقابلتها والعمل فيها هي من نوع يجعل كل الاعتبارات تزول بجانب ضرورة إبقاء الضرائب منخفضة... إلخ » (راجع عباس ص ١٥ — ١٧ وقارن ذلك بما جاء في ص ٥٧ عن العمد والمشايخ)

٢ — Modern Egypt ٢ : ١٧٤ _ ١٨٥

٣ — بلغ من ثقة محمد عبده به واعتماده عليه أنه حين عزم على زيارة الآستانة سنة ١٩٠١ لم ينفذ عزمه إلا بعد أن استشاره . فحمله توصية إلى السفارة الإنجليزية في تركيا لرعايته وحمايته مدة إقامته بها. وكان كرومر هو الذي توسط في العفو عن محمد عبده وإعادته إلى مصر (مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٤٧ ، Modern Egypt هامش ٢ : ١٨٠ — ١٨١)

٤ — راجع ضبط مطبعة تركيا الفتاة في مصر وتفتيش دارهم وتدخل كرومر لحمايتهم في مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٩٤_٣٩٥ ، عباس الثاني ص ٨٠ وراجع كذلك تدخل=

شكوى ، ثم أخذ يتدخل باسم هؤلاء الشاكين ، وباسم العدل والإنصاف ، للحد من نفوذ الخديوى ومقاومة شرهه وجشعة (١) ، حتى رأينا بعض أعضاء الأسرة العلوية يلجئون إلى إنجلترا وإليه ، طالبين إنصافهم من عباس (٢) .

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلا أدبيا . فكان لعباس صحيفة رسمية تعبر عن اتجاهاته وتدافع عنه وتهاجم أعداءه ، هى صحيفة المؤيد . وكان للإنجليز صحيفة رسمية أيضا تدافع عنهم وتهاجم أعداءهم ، هى صحيفة المقطم . وكان للخديوى شاعر رسمى يشيد به وهو شوقى ، تؤيده طائفة من الشعراء تمدحه عن طمع أو عن عقيدة . وكان للإنجليز شاعر نصب نفسه لمدحهم والإشادة بهم وهو نسيم (٣) تؤيدة قلة من الكتاب والشعراء الذين يدينون بكيانهم لهم مثل ولى الدين يكن .

وكان شاعر الخديوى يرصد المناسبات المختلفة ليسجلها فى شعره ، مادحا أميره فى أعياد جلوسه وفى أعياد ميلاده ، وفى أعياد الفطر ، وأعياد الأضحى ، وأعياد

= كرومر فى حبس عباس ليون فهمي الأرمنى وتهديده بتفتيش القصر فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٦٨ ، تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٧٩ ، عباس الثانى ص ٧٨ — ٧٩ وراجع كذلك قصة بدرخان الذى لجأ إلى مصر فارا من عبد الحميد وحماية الانجليز له ورفضهم من نجاح عباس فى حمله على العودة لتركيا فى عباس الثانى ص ٨٠ — ٨١

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٣ — ٥٤

٢ — من الأمثلة على ذلك أن المحاكم الشرعية أصدرت حكما بالحجر على إحدى الأميرات وعينت عليها وصيا اختاره عباس . فشكت الأميرة إلى ملك إنجلترا ، وأحال هذا شكواها إلى كرومر . فتدخل فى الأمر واستبدل بالوصى الذى اختاره عباس وصيا آخر موثوقا به من إنجلترا ، (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٢٤) ومن الأمثلة عليه كذلك أن أميرة أخرى شكت إلى ملك الانجليز من عباس أثناء زيارته له سنة ١٩٠٥ ، فوجه كرومر إلى عباس نقدا قاسيا فى شأنها بعد عودته (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٧٠ — ٧١)

٣ — عدل نسيم عن موقفه بعد رحيل كرومر عن مصر ، وأعلن ندمه على ما فرط منه فى قصيدة نشرها باللواء سنة ١٩٠٨ ، الديوان ١ : ٣ — ٦) زاعما أنه فعل ذلك غيرة على الاسلام لمهاجمة كرومر له . والواقع أن شعر الشاعر يشهد بأنه محترف يجرى وراء المال ويبيع نفسه لمن يدفع ثمنا أكبر . ثم إنه لم يجد مجالا للقول بعد أن ساد الوئام بين جورست خليفة كرومر وبين عباس .

العام الهجرى ، وفى أسفاره داخل البلاد ، وفى أسفاره للأستانة ، وفى سفره للحج ، وفى حفلاته الراقصة التى كان يقيمها فى عابدين كل عام وكان شعره السياسى يتبع تقلبات أميره صراحة وغموضا ، وعنفا ولينا . فهو فى أول حكم عباس صريح فى مهاجمة الإنجليز فى مثل قصيدته :

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا　　وقلنا فباتت مصر فى مجدها مصرا(١)

فإذا تراجع عباس أمام كرومر تراجع هو أيضا ، ولم يعد يهاجم إلا فى كثير من الغموض والالتواء الذى لا يدع لمناقشته وحسابه سبيلا . وذلك فى مثل قصيدته التى قالها سنه ١٩٠٢ ، حين أجل حفل تتويج إدوارد السابع بسبب إصابته بدمل(٢) . ويسكت فى حادث دنشواى الذى أقام الدنيا وأقعدها ، فلا يتكلم إلا بعد رحيل كرومر وقد مر على الحادث عام(٣) . ولا تذهب جرأته إلى أبعد من مهاجمة المتوددين إلى الإنجليز من المصريين ، كالذى فعله برياض حين أشاد بكرومر فى حفل افتتاح مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية سنة ١٩٠٤ (٤) . فإذا أمن عباس مكر كرومر بعد رحيله هاجمه شوقى مهاجمة عيفة فى قصيدته :

أيامكم أم عهد إسمـــاعيلا　　أم أنت فرعون يسوس النيلا (٥)

ويسكت شوقى عندما اطمأنت صلة عباس بالإنجليز فى فترة الوفاق ، فإذا عادت إلى الكدر ، وأخذ عباس يكيد فى الخفاء ، أخذ هو يلتمس المناسبات التى يشير فيها من بعيد إلى الاستعمار حين يتحدث عن قانون الغابة الذى يسود العالم ، وحين

---

١ — ديوان شوقى طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٢ — راجع قصيدة شوقى : لمن ذلك الملك الذى عز جانبه　　لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه
(الديوان ١ : ٧٥)

٣ — راجع قصيدة شوقى : يا دنشواى على رباك سلام　　ذهبت بأنس ربوعك الأيام
(الديوان ١ : ٣٠١)

٤ — راجع قصيدة شوقى : كبير السابقين من الكرام　　برغمى أن أنالك بالملام
(الديوان ١ : ٢٥٩)

٥ — راجع القصيدة فى (الديوان ١ : ٢٠٩)

يحث المصريين والمسلمين على الأخذ بأسباب القوة ، فى مثل قصيدته عن قصر أنس الوجود ، التى وجهها إلى روزفلت الكبير حين زار مصر سنة ١٩١٠ ، وفى مثل قصيدته عن (الحجاب والسفور) ، وقصيدته فى نهج البردة، اللتين نشرتا فى نفس العام، والهمزية النبوية التى نشرت سنة ١٩١٢ ، والبائية فى ذكرى المولد التى نشرت سنة ١٩١٤(١) .

وكان شاعر كرومر ينتهز كل فرصة تمكنه من مدح الإنجليز والإشادة بعدلهم وفضلهم على مصر فيبلغ فى ذلك العجب . أليس عجيبا أن نجد شاعرا مصريا يضله المال ، فيقول لملك الإنجليز بمناسبة شفائه من داء الأعور (٢)

صاحب التاج أنت بالقوم أعلم   هم يودُّون أن تعيش وتسلم

يشيد فيها بعدله ، معرّضا بعباس حيث يقول :

ويمينا لولاكَ عاث طغاة   فى بلاد من جورهم تتظلمْ

ظعن الجور عن بلادك لما   طنَّب العدل فى ذراك وخيَّمْ

ثم يجد فى نفسه الجرأة لأن يقول :

إننا نعرف الملوك ولكن   إن عددناهمُ فأنت المقدَّم

. . . ليس إلا إياك مولى مفدّى   يُبدأ القولُ فى ثناه ويُختَم

وإذا قيل أين أعظم منه   لم نجد للتّقى سوى الله أعظم

ثم يختم قصيدته مفتخرا بأنه السابق المقدَّم بين مادحيه

تبعتنى إلى مديحك ناسٌ   إنما الفضل للذى يتقدم

أنا فى مصر شاعر قيل عنه   ساجعٌ فيك بالثناء ترنَّمْ

ويرثى هذا الشاعر الملكة فكتوريا سنة ١٩٠١ ، فيختم قصيدته بتهنئة ابنها والتعريض بعباس وبكل مصرى تجرى فى دمه قطرة من وطنية حين يقول :(٣)

---

١ — راجع القصائد السابقة فى ديوانه ٢ : ٦٥ ، ١ : ٢١٩ ، ١ : ٢٤٠ ، ١ : ٢١ ، ١ : ٥٩

٢ - ديوان نسيم ١ : ١٠٠ - ١٠٢

٣ — » » ١ : ١٠٣

رأيتك فى الورى ملكا وحيدا وليس لها سواك بلا ارتياب
فخذ من شاعر النيل امتداحا يثير حفائظ القوم الغضاب

ثم يطاوع هذا العاقّ لسانه إذ يقول فى قصيدة يهنىء بها ملك الإنجليز ، فى تتويجه ، إمبراطورا للهند : (١)

يا قوم مصر ، ولم أنظر لكم أثرا إذا المعالى دعت قومى دواعيها
أتفخرون بآثار لغيركم الظلم شيَّدها والدهرُ يبليها
إلام تبغون ملكا عز جانبه وتبلغون من الدعوى تناهيها
وتفخرون بما (خوفو) بنى لكم وتمدحون من الأهرام بانيها
. . . فأى فخر لكم فيما نشاهده يا أمة نسيت فى الذل ماضيها

ويقول مشيدا بالاحتلال ، فى وضع الحجر الأساسى لخزان أسوان سنة ١٨٩٩ ناسبا فخره للإنجليز : (٢)

أمة المجد شيدتك بقطرٍ بلغَتْ فى احتلاله الأوطارا
وأحق الأقوام بالمدح قوم ركبوا فى سبيلها الأخطارا
فخليق لمثل مصر بأن تُعجب حتى تفاخر الأمصارا

ثم يقول فى حفل افتتاحه سنة ١٩٠٣ ، الذى شهده الدوق أوف كونت زوج أخت الملك إدوارد ، معرِّضا بعباس ، الذى تخلف عن حضور الحفل . خشية أن تمس كرامته بوضع الدوق فى موضع الصدارة :(٣)

بناء عظيم لم يجد لافتتاحه سواك عظيما فيه للفخر مألف
وكم مدَّعىً فارق الصدر عنوة إذا حضر المستأذنُ المتصَّف

وحين كانت مصر فى عيد يوم رحيل كرومر كان هذا البائس الهالك يذرف الدمع على فراقه فيقول . (٤)

---

١ ـ ديوان حافظ ١ : ١٠٨
٢ ـ » » ١ : ١١٠
٣ ـ » » ١ : ١٣٠
٤ ـ » » ١ : ١١٤ ـ ١١٥

يا منقذ النيل لا ينسى لكَ النيل	يدًا لهـا من فم الإصلاح تقبيل

وحين يقول له شوقى ، مشيرا إلى أن تنحيته جاءت نتيجة لحملة مصطفى كامل عليه بسبب دنشواى :

فاذهبْ بحفظ الله جل صنيعه	معفيا إن شئت أو معزولا

يقول نسيم فى هذه القصيدة :

حاشاك ما أنت بالمغصوب منصبه	كلاًّ ، ولا أنتَ عن علياكَ معزول

وحين يعدد الشعراء سيئاته ، يرد إليه نسيم كل الفضل فيما ساد مصر من عدل وما بلغته من رقى :

جعلت مصر بلادا أمطرت ذهبا	فتربها بمـــذاب التبر مبلول
خلفتها ويدُ الإسعاد تكنفهـا	دار عليها من النعمى سرابيل
حللت فيها وغلّ الجور مُقْعِدُها	ذلا ، وفارقتها والجور معلول

ويهاجم رجال الحزب الوطنى ، زاعما أنهم يهوّلون فى غير موضع للتهويل

أرى أناسا تمنوا فى سياستهم	أن يخذلوك وخصم الحق مخذول
يهوّلون . بلا جدوى مزاعمهم	ولن يضرك إيهام وتهويل
لو كان بالناس عدلٌ ماقضى عمرٌ	ربُّ العدالة فيهم وهو مقتول
...صرنا نخاف على الأعراض من نفر	كأن جِـرْوَهمُ فى نهشها غول
قد جردوا ألسنا ياليتها قطعت	من دونها مرهف الحدّين مسلول(١)

أما ولى الدين يكن فقد كان أحد الأحرار من جماعة (تركيا الفتاة) ، الذين يهاجمون استبداد عبد الحميد ويطالبون بإصدار الدستور . وقد نفاه السلطان

---

١ — راجع فيما عدا القصائد السابقة قصائده : « نور العدل » ١ : ٦ — ٨ » ، « تتويج ملك الانجليز » ١ : ١٨ » ، « لؤلؤة التاج » وقصائده ولى عهد إنجلترا سنة ١٩٠٦ » ١ : ٨٩ » وراجع كذلك قصائده الكثيرة فى هجاء الشيخ على يوسف بمناسبة زواجه من بنت الشيخ عبد الخالق السادات . وهى قصائد مقذعة كان مدفوعا إليها بولائه للكرومر وولاء الشيخ على يوسف لعباس

عبد الحميد إلى سيواس . وظل فى منفاه سبع سنوات ، لم يفرج عنه إلا بعد سقوط عبد الحميد وإعلان الدستور سنة ١٩٠٩ . وقد عانى خلال هذه السنوات هو وأمه العجوز وزوجته الشابة وطفلاه الصغيران ـ وكان أصغرهما رضيعا ـ من العذاب والآلام واضطهاد الجواسيس وأعوان الظلم ماوصفه فى كتابه (المعلوم والمجهول) بجزأيه . وكان كثير من جماعة تركيا الفتاة قد فروا إلى مصر من ظلم عبد الحميد ، فاتخذوها مركزا من مراكز دعايتهم المنبثة خارج الدولة العثمانية، وأصدروا فيها بعض الصحف والمنشورات التى تهاجم استبداده وتشنع بفساد حكمه . وكان عباس يغضى عنهم ويشجعهم حين تسوء صلته بالسلطان عبدالحميد ، ويشدد عليهم حين يريد أن يتقرب إليه باضطهادهم. وكان كرومر هو الذى يتولى حمايتهم حين يتخلى عنهم عباس، ويمكر بهم . لذلك كان أعضاء تركيا الفتاة يدينون له بالولاء، ويشيدون بعدله ، وقد غاب عنهم أنه لا يحميهم دفاعا عن الحرية وتقديرا للأحرار ، ولكنه كان يستخدمهم فى تحقيق أهداف السياسة الإنجليزية التى تريد أن تقضى على الجامعة الإسلاميه وتقطع الإمبراطورية العثمانية . وقد وجدت بغيتها فى هذا النفر الذى يشنع بسيئات عبدالحميد ، ويدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية، ويهاجم رجال الدين ويتهمهم بأنهم سبب البلاء وموطن الداء ، وربما بلغ الغلو ببعضهم أن يهاجم الدين نفسه . وكان ولى الدين يكن من أشد أنصار تركيا الفتاة تقديرا لكرومر ، حتى لقد صدّر الجزء الأول من كتابه (المعلوم والمجهول) بصورته ، وكتب تحتها « مصلح مصر » . وقد انتهى به اعترافه بفضل كرومر إلى تأييد الاحتلال . وكان من بين ما كتبه فى ذلك مقال نشر فى المقطم عنوانه (المحتلون يخرجون من مصر)(١) . وهو يتصور فى مقاله الآثار التى تترتب على خروجهم . فيروى حلما رأى فيه جيش الاحتلال يخرج من مصر ، ثم رأى تمثال إبراهيم ينزل إلى الميدان ليمنعه من الخروج ، مستحلفا الإنجليز أن يمكثوا ليقيموا العدل وليكفوا الرعاع عن الإفساد . وقد بدأ يكن قصته بقوله « . . . فرأيت فيما يرى النائم كأنى

---

١ — الصحائف السود ص ٤٥ ـ ٥١

أسير إلى ميدان عابدين . فلما وافيت مدخل الميدان مما يلي الشارع الآخذ من ميدان الأوبرا إذا جموع من الجنود المحتلة ، تتقدمها موسيقاها ، ويقودها قوادها مشاةً وفرسانا ، تخفق بينها الأعلام البريطانيه التي أظلت الأمن والعدل بمصر فى أكثر من ربع قرن . وبأطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة ، يتوسطها بعض تلامذة المدارس ، وآخرون جعلت أتعرف بعضهم كلما علق بهم نظرى . فالتفتُّ إلى وسط الميدان فإذا العلم البريطانى وإلى جانبه العلم العثمانى ، يصل بينهما رباط أخضر إشارةً إلى الود والاتحاد . وإلى أمام العلمين منبر ذو درجات أعد ليخطب عليه من لا أعرفه . »

فإذا بلغ من حلمه الذى تخيله خطبة الجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال قال « فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر ، وخطب الحاضرين فقال : نحن الآن يتنازع قلوبنا عاملان ، واحد للفرح وآخر للحزن . فأما عامل الفرح فبأن أثمرت مساعينا لإصلاح مصر حتى لتستطيع أن تعيش وحدها . وأما عامل الترح فبأن سنودع وادى النيل وأبناءه بعد أن طاب لنا المقام واستحكمت فى قلوبنا الألفة . »

ثم هو يصـــــور ائتمار المفسدين ومايدبرون من تخريب بعد رحيل جيش الاحتلال فيقول « فإذا شرذمات من أهل الضوضاء وسكان الأعشاش ، وقد عصبوا رءوسهم بمناديل حمر وبأيديهم العصى ، تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار الشنبر، له شارب أسود يخاله على البعد رائية غمدخنجر، على رأسه طربوش أعوج. وإلى جانبه آخر مثله ، ولـكنه منتفخ البطن كالبرنية ، وفى يده شيء يشيربه لم أتبينه جيدا ، وأحسبه سوطا . وأمام العربة بين هؤلاء الجموع رجل أسود الشاربين طويل القامة معمم مكمم ، يحمل على كتفه مشعلة مغطاه بكـوفية من كوفيـات المحلة الـكبرى ، وقد جمح أيما جماح . فكان ينظر يمنة ويسرة ، ويصيح بملء فيه قائلا (ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى). فتأملته فإذاهو أحدمشاهير الـكتاب والخطباء ، عزيز القدر بين أشباعه . فتركته وحبله على غاربه ، وقلت أنظرُ إلى

غيره. فسمعت أحد من فى العربة يقول لجماعة من الماشين : إذا ركب الجنود القطار، وسار بهم حتى غاب عن الأبصار ، تذهبون من ساعتكم فى جماعة من الشذّاذ إلى إدارة كذا فتهدمونها على من فيها ، ثم تفعلون ذلك بإدارة كذا ، ثم استعلوا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذى يسمى نفسه زهيرا (١) ، فاجعلوا فى فى عنقه حبلا وجرّوه على وجهه ثم ألقوا به فى النيل . »

ويختم مقاله الذى يروى فيه هذا الحلم المزعوم بخطاب إبراهيم بن محمد على، إذ يناشد المحتلين البقاء فيقول « . . . حتى صار ماصار (٢) ، وحُمِىَ الحمىَ بهذه البواتر ، ونامت الأعينُ فى أمن هاته الأعلام ، وتريدون اليوم أن تخرجوا من مصر ، ليصبح عاليها سافلها ، وليجرى هذا النيل أحمر قانيا ؟ كلا ثم كلا. لأصيحن صيحة تخرق حجب الأزل ، وتنفذ إلى من ولجوا غابته . ولأبعثن لكم من تحت المقابر أجسادا تسدونكم طريق الرحيل . أما والهرمين والنيل ، ليدخلن اهل الطيش غدا على العذارى فى خدورهن ، وليأخذن بغدائرهن، وليقومن بعد زماعكمَ من الشر أضعافُ ماأتى بمقامكم من الخير . ارجعوا إلى ثكناتكم مأجورين غير مأزورين . إنما يأنس إليكم أهلُ الوقار وأنصارُ الفضل . »

ويوجه يكن خطابه فى مقال آخر إلى والى البصرة العثمانى فيقول(٣) . »

« يزعمون أنك تبغض الإنكليز . أبغضهم ماشئت ، وأحببهم ماشئت . لسنا على فؤادك مسيطرين . ولكنّ الوالى العثمانى يحب من تحب دولته ، ودولتك تحب الإنكليز ، والإنكليز يحبونها .

يزعمون أنك تقول إن الهند ومصر شريكتان فى الشقاء ، وأنهما يتململان من ظلم الإنكليز . ولكنك تعرف أن فى الظلم ضروبا لايجارينا إليها الإنكليز ، وأن القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم ، وأن فضلهم على هذا القطر أعظم من فتح

---

١ — يقصد نفسه . و (زهير) هو الاسم المستعار الذى كان يذيل به مقالاته فى المقطم

٢ — يشير إلى الثورة العرابية

٣ — الصحائف السود ص ٧٩

الشوارع وإقامة التماثيل ، وأن لهم عندنا معشر العثمانيين جميلا لا ينساه من فى فؤاده مثقال ذرة من المروءة. وربما كان من أبناء التاميز أفراد لا يحبون العثمانيين فليكن فى العثمانيين أناس يبغضون أبناء التاميز . غير أن والى البصرة يجب أن لا يكون إلا وفياً عارفا بمرامى الكلام. »

ويعترف ولى الدين يكن بجميل إنجلترا على (الأحرار) من أعضاء تركيا الفتاة ، فى رثائه لإدوارد السابع سنة ١٩١٠ ، حيث يقول :(١)

أبا الأحرار لاينساك حرٌّ   شبابهمو يُجلّك والكهول
رفعتَ بناءهم وجريتَ مَعهم   كذاك الليث يتبعه الشبولُ
يناديك الشعوب بكل أرض   فليتك سامع ماذا تقول
تناجى منك حاميها المرجىَّ   وصولتها إذا قامت تصول .

* * *

وكان للاستعمار إلى جانب هذه البطانة التى اتخذها من المصريين أعوان آخرون من السوريين ومن الأرمن ، النازحين إلى مصر والمنبثين فى الوظائف الحكومية فى مختلف النواحى والفروع . أما السوريين — وقد كانت كثرتهم من المسيحيين — فيرجع نفوذ جاليتهم ونشاطها فى مصر إلى حكم إسماعيل ، حين أراد أن ينشر الحضارة الأوروبية ، فاحتاج إلى موظفين يتقنون الفرنسية إلى جانب العربية — وكانت الفرنسية وقتذاك لغة دولية — فلم يجد بغيته فى المصريين، إذ كان أصحاب الثقافة الأوروبية منهم قلة لا تكفى ، فاتجه إلى السوريين يستخدمهم فى مختلف المصالح الحكومية . ثم ساعد الرعيل الأول منهم إخوانهم ومواطنيهم على الرحلة إلى مصر ، ومهدوا لهم احتلال مراكز حكومية فيها . (٢) وكان طبيعيا أن لا يشارك هؤلاء السوريون المصريين فى إحساسهم الوطنى . فإنما هم مرتزقة لا يبالون إلا الغُنْم ، يجرون وراءه حيث كان ، ويحققون لأنفسهم منه

١ — ديوان ولى الدين يكن ص ٦٣ — ٦٤

٢ — Modern Egypt ٢: ٢١٤ _ ٢١٥

أوفر نصيب ،لا يعنيهم فى ذلك أن يرضى المصريون أو يغضبوا . وإنما يعنيهم أن يرضى صاحب السلطة الذى يجرى رزقهم على يديه . هذا إلى أن فساد الحكم التركى وغلوه فى اضطهادهم وتحقيرهم قد ولد فيهم حقدا على الترك خاصة ، وعلى المسلمين عامة . لذلك لم يجد الإنجليز حين احتلوا مصر خيرا منهم معينا ونصيرا . فاتخذوا منهم صاحب المقطم والمقتطف ليكون لسانهم الناطق . وتدخلوا لحمايتهم حين همّ رياض باشا أن يصـــدر قانونا يحرم عليهم فيه الالتحاق بالوظائف الحكومية فى سنة ١٩٠٠ . (١) وقد أثنى عليهم كرومر ، واعترف بما أدوا للانجليز من خدمات ، وما بذلوا لهم من معونة صادقة . وخص المسيحيين منهم بثنائه ، فقال إنهم أهم كثيرا من مسلميهم من وجهة النظر السياسية . (٢)

أما الأرمن فيرجع نفوذ جاليتهم إلى حكم محمد على . لقد كانوا يشغلون منذ ذلك الوقت مناصب رئيسية خطيرة فى الدولة ، جعلت لهم كلمة نافذة مسموعة فى كل مايتصل بشئون مصر ، حتى لقـد استطاع أحدهم فيما بعد أن يصبح وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزارة ، وأن يمكن لزوج ابنته من بعده حتى يصل إلى وزارة الخارجية .(٣) وقد قص مصطفى كامل فى خطاب له بعث به إلى أحمد شفيق باشا ماجرى بينه وبين الأميرلاى بارنج (شقيق اللورد كرومر) من حديث خلال إحدى أسفاره إلى فرنسا للدعاية لمصر . ومن هذا الحديث نستطيع أن نتبين مدى اعتماد الإنجليز على نوبار باشا فى تنفيذ سياستهم فى مصر وفى السودان ، وماكان يطمع فيه نوبار من مكافأة الإنجليز له على إخلاصه ، بالعمل على استقلال أرمينيا وإنشاء وطن سياسى لبنى جنسه .(٤)

ذلك تأويل مانجده فى أدب هذه الحقبة من التعريض بالدخلاء .

---

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢١٦

٢ — Modern Egypt ٢ : ٢١٣ — ٢١٩

٣ — Modern Egypt ٢ : ٢١٩ — ٢٢١

٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٩٢ — ١٩٥

يقول مصطفى كامل فى خطبة له بالإسكندرية سنة ١٨٩٦ :(١) «وإذا كان صالح مصر يقضى كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن فى أوروبا معلنين آراءهم ، مجاهرين بإحساساتهم، مطالبين بحرية بلادهم ، فوجود خطباء مثلهم فى مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ، ويحذرونها من الوقوع فى الشر، أصبح أمراً محتماً ، خصوصاً فى هذا الزمن الذى يعمل فيه الدخلاء للتفريق بين الوطنيين وبعضهم ، والشقاق بين المصريين والأوروبيين ، ويكيدون للأمة أعظم كيد ، ويدسون الدسائس لخلق القلاقل وإحداث الاضطرابات .

أجل أيها السادة أجل . إن تحذير الأمة من أعمال الدخلاء صار واجباً على كل مصرى شريف الإحساس ، مخلص النية لبلاده . وما نبلاء المصريين بجاهلين طغمة الدخلاء ، بل الكل يعرفها ، والكل إذا لقيها يشير إليها . فلتحبطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعى هذه الفئة السيئة ، ولتردوا رجالها على أعقابهم خاسرين. فالدخيل الدخيل هو العدو الحقيقى ، وهو العدو الألد ، الذى تجب محاربته بالقلم واللسان ، حتى تعرفه الأمة وتنبذه ، وتجتنبه كل الاجتناب . ولا يسلم شعب راغب فى الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية إلا إذا اتحدت أفراده ، ومنعوا الدخيل من إلقاء بذور الفتن ، والتفريق بينهم وبين بعضهم ، مما يكون وراءه ضياع بلادهم وضياعهم هم أنفسهم » .

ويقول عبدالله النديم فى مقال نشر فى مجلة الأستاذ فى عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ : « أنا أخوك فلم أنكرتنى ؟ ما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ماساء أحدهما . فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون فى جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم فى مصر ؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية فى صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟ أبراتب قدره عشرون جنيها يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ؟ أم بكلمة

١ — مصر والاحتلال الانجليزى — مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ ص ١٤١ ، ١٤٩

تغرير نصرف حياتنا فى خدمة الأجنبى لنعينه على إخواننا لينتقم منهم بغير ذنب ويجنى على غـــير جان ؟ بئس والله ماوصلتنا إليه هذه الخزعبلات التى نسميها معارف وآدابا . زرعنا الأحقاد فى قلوبنا بغيا وعدوانا . أهلكنا أنفسنا بالعداوة فى غير مصلحة جهلا وحماقة . فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهة وجنونا . بعنا هيئتنا للأجنبى بلا ثمن خبلا وبلاهة . ولو اجتمعت كلمتنا وائتلفت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنيين وإعلاء كلمة الجنسين ، لحسدتنا المعالى ، ووقفت أوروبا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال . ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضا ، لينتفع الغير بنارهم اصطلاء وطبخا واستعمالا فيما يشاء . والعهد قريب ، والعود غير عسير . . . . . وا أسفاه على رجال قضى آباؤهم الدهور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان ، لا يفرق بينهم دخيل ، ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبى ، فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم ، وحالفوا غيرهم ، وخدموا الأجنبى بمساعدته على التداخل فى بلادهم ، بل على الاستيلاء عليها ، لا لعداوة بين الأمتين ، ولا لحرب جرت فى الوطنين ، بل برغيف يحصله الزبّال ، وخرقه يملكها الشحّاذ . وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم ، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإزلال بجامعة الدين . فإن الأجنبى يغر الرجل منا حتى يوصّله إلى غرضه ، ثم يلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء . ولا يعرف له حقا غير خدمته . ولا يفرّق بينه وبين من غايره دينا فى الاستخدام والاستعباد .»(١)

وصور حافظ إبراهيم ما كان يقوم بين المصريين وبين هـــذه الطائفة من السوريين ، من الكراهيـــة المتبادلة وسوء الظن . حيث يقول مصورا شكاة

١ — وقد خصص عبد الله النديم عددا كاملا من مجلته (الأستاذ) لهجاء أصحاب (المقطم) ومن يذهب مذهبهم من أبناء جنسهم . وكان بالغ العنف فى هجومه . ولم يمض على مقاله هذا شهر واحد حتى أرغم الرجل الوطنى الذى لم يفتر عن الكفاح ولم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا على إغلاق صحيفته والهجرة عن مصر (العدد ٣٩ من الأستاذ الصادر فى ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣)

السوري[1] «جلستُ أبث النيل شكاتي من أبنائه . وأنتَ تعلم أنهم صارَمونا على غير ريبة ، وقاطعونا على غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا بثقل الظل وجمود النسيم ، ولم يراعوا حق الجوار ، فسموا إقدامنا قحة . ونشاطنا جشعا ، وكدحنا وراء الرزق فضولا ، ونزوحنا عن الوطن عارا ، وضربنا في الأرض شرودا . وماذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد الله ؟ اللهم إنها محاسن عدوها عيوبا ، وحسنات سموها ذنوبا . » ثم يقول مصورا شكاة المصريين على لسان سطيح « إنني لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شؤونهم ، فعز ذلك عليهم من أقرب الناس إليهم . نزلتم بلادهم فنزلتم رحبا ، وتفيأتم ظلالها فأصبتم خصبا ، ثم فتحتم لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلا ، وحللتم معهم في دور التجارة فقالوا سهلا ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتم منهم ودا صحيحا وإخلاصا صريحا . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب فسددتم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . . . . ولقد كنتم منذ بضع سنين لاتجاوزون ستة الآلاف عدا ، فأصبحتم اليوم وقد نيّفتم على الثلاثين . »[2]

وقد وسع النثر في مهاجمة هذا الفريق من مسيحيي السوريين الذين أيدوا الاستعمار في مصر مالم يسع الشعر . لأن الشعراء خافوا إن هم تعرضوا للسوريين جملة أن يسيئوا إلى المخلصين منهم ، أو يفسدوا الرابطة الشرقية التي كانت ناشئة في ذلك الوقت . وخافوا إن هم أشاروا إلى المسيحيين منهم أن يثيروا فتنة

---

١ — ليالي سطيح ص ١٦ — ٢٢ . وهو يشير في هذا الموضع من كتابه الى أن المسيحيين من السوريين هم المقصودون بهذا الذم بنوع خاص . ويعلل تفوقهم وتخلف المسلمين من السوريين بانصراف الفريق الآخر عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية .

٢ — يقول كرومر إن أهمية السوريين لا ترجع إلى ضخامة جاليتهم . ولكنها ترجع إلى المراكز التي يشغلونها ، فمعظمهم موظفون في الحكومة . وفي كل قرية مصرية تجد مرابيا ، إذا لم يكن يونانيا فهو سوري . والسوريون يحتلون في مصر نفس المكان الذي يحتله اليهود في الدول الأوربية . فهم مكروهون من المصريين — مسلمين وقبطا — لأنهم يستأثرون دونهم بالوظائف من ناحية ، ولأنهم دائنون من ناحية أخرى ، وعلاقة الدائن بالمدين يسودها البغض في أكثر الاحيان (Modern Egypt ٢ : ٢١٣ — ٢١٤)

دينية تفرق بين المصريين . ولذلك اكتفوا بالإشارات العابرة ، فى مثل قول حافظ ، إذ يصور جدهم وخمول المصريين ، الذين يتبرمون بما أصاب هؤلاء من رزق ، وقد قعدوا عن منافستهم فى مختلف الميادين . وذلك من قصيدة له فى زواج الشيخ على يوسف سنة ١٩٠٤ : (١)

وقالوا دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبي
رآنا نياما ولما نُفِق فشمّر للسعي والمكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول ويا ليتنا ألفنا الخمول ولم نكذب

ويقول فى قصيدة ألقاها فى حفل أقامه له جماعة من السوريين فى فندق شبرد سنة ١٩٠٨ ، بعد أن وصف نشاط السوريين الموفّق فى مصر وفى آمريكا:(٢)

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسَها العرَبُ
فما الكنانة إلا الشامُ عاج على ربوعها من بنيها سادةٌ نُجُب
لولا رجالٌ تغالَوا فى سياستهم منا ومنهم لما لمنا ولا عتَبوا
إن يكتبوا لى ذنبا فى مودتهم فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

ويقول على الغاياتى فى قصيدة كتبها بمناسبة حبس الشيخ عبدالعزيز جاويش فى المقال الذى كتبه عن ذكرى دنشواى فى صحيفة اللواء سنة ١٩٠٩ :(٣)

وغدَا (الدخيل) مروّعا أركانه تتهدّم
يرجو النجاة ولا سبيـ ل ويستبين فيعجم
ويمد صوت ندائه نحو (العميد) فيحجم
ذاق الوبال بما جنا ه ولم يُعِذه الدرهم
فاندكّ صرحٌ كان فيـ ه للخيانة مَغنَم

١ — ديوان حافظ ابراهيم ١ : ٢٥٧
٢ — ديوان حافظ ١ : ٢٦٩ ـ ٢٧١
٣ — وطنيتي ص ٨٠ وهو يقصد (بالدخيل) صاحب (المقطم)

وكذاك شأن المجرميـ ـنَ يصيبهم ما أجرموا

ويقول نسيم : (١)

اتقوا الله ياغواةُ قليـــلا واخلعوا العـار عنـكمُ والشنارا
تنسبون المصرى للعـار جهلا وهو أسمى من العُقاب مزَارا
جئتمُ داره ضيـوفا عراة فكساكم من الثراء دِثارا
... أيهـا المشـترى بهجوكَ حظا هجوكَ القوم قابـل استنـكارا
نمّق النثر فى مقاصد تُجْدى تُلف حمدَ الورى عليكَ نِثارا

* * *

وبين هاتين الطائفتين من الكتاب والشعراء ، التى تؤيد إحداهما السلطة الشرعية ممثلة فى الخديوى ، وتؤيد أخراهما السلطة الفعلية ممثلة فى قنصل بريطانيا العام ، كانت هناك طائفة ثالثة تتردد بين المعسكرين ، تحاول أن تحتفظ بصداقتيهما معا ، وترجو أن لا يخطئها الخير والبر من أحدهما ، وتخشى إن هى أعطت كل نفسها لأحدهما أن تُبتلىَ بعداوة الآخر وأذاه . وهؤلاء هم ضعاف النفوس من المسالمين الذين لا يصبرون للكفاح ولا يستطيعون تجشم أعبائه وتبعاته ، وطلاب النفع الذين لا يرون الحياة إلا طعاما يملأ البطون ، وكساء يختال على الأبدان ، ومتعا تملأ حياتهم الفارغة التافهة .

وكان حافظ إبراهيم واحدا من هؤلاء المسالمين من طلاب العيش . وكأنما كان يعنى نفسه بالبيت الأخير من قوله فى تبكيت المصريين :(٢)

وشـعب يفر من الصالحات فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمـــير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى وِرْده الأعذب

---

١ — ديوان نسيم ١ : ٤٨
٢ — ديوان حافظ ١ : ٢٥٦

وهذا يصيح مع الصائحين   على غير قصد ولا مأرب

فقد ظل هذا المسكين منذ أحيل إلى الاستيداع فيمن عوقبوا من المتهمين فى حادث تمرد فرقتى الجيش المصرى بالسودان سنة ١٩٠٠ يدير وجهه إلى عباس تارة ، وإلى السلطان عبد الحميد تارة أخرى . فإذا استيقنت نفسه قلة حيلتهما وقصر باعهما انصرف إلى الإنجليز ، وقوى صلاته بمحمد عبده صديق كرومر وعدو عباس ، ولم يترك رجلا ذا سلطة يؤمل أن يجرى خيره على يديه إلا قصده. وهو فى كل حالاته يتملق ويستعطف ، مؤملا أن يصيبه الخير آخر الأمر من إحدى هذه السلطات . وقد تتخلل سكرته صحوات يتشبه فيها بالثائرين فى مثل حادث دنشواى أو توديع كرومر . ولكن الحرص والخوف يمنع ثورته من الانطلاق ، ويقيدها بأغلال ينم عنها شعره . فهو فى الأولى يضع إنجلترا موضع الأب الذى يظن بابنه العقوق إذ يقول : (١)

لاتظنوا بنا العقوق ولكن   أرشدونا إذا ضللنا الرشاد

وهو يشعر شعورا عميقا بضعفه أمامهم ، وليس هذا شأن الثائرين .

كيف يحلو من القوى التشفى   من ضعيف ألقى إليه القيادا

إنها مُثْلة تشف عن الغيـ   ـظ ولسنا لغيظكم أندادا

وهو فى الأخرى يروى مايقول الناس من حسنات كرومر وسيئاته ، بل هو يقدم الحسنات على السيئات ، ثم يقول آخر الأمر إنه شاعر لا رأى له(٢)

فهذا حديث الناس والناس [illegible]   إذا قال هذا صاح ذاك مفنِّدا

ولو كنتَ من أ[illegible] [illegible] بينهم   لسجَّلتُ لى رأيا و بلغتُ مقصدا

ولكننى فى دهر[illegible] [illegible] شاعر   أضاف إلى التاريخ قولا مخلَّدا

وكأنما كان حا[illegible] [illegible] نفسه ، حين صور مايسيطر على رجال الجيش من رهبة الانجليز فقال (٣) :

---

١ — ديوان حافظ ٢ : ٢٠

٢ — ديوان حافظ ٢ : ٣٠

٣ — ليالى سطيح ص ١٠٠

« ينظر المصرى إلى الانجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة، فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته . ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس الإنجليزى فيه . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لاتجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر .

هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام ، لا كبار النفوس والأحلام . فالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم. فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كؤوسا من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث . حتى إذا صدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى . وهو على حفظ أمره أحرص من الفنوغراف على حفظ الصوت .

اللهم إن العيش مع الأبيضين وإن أبردا العظام، أروحُ للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم ، فيروقك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء .

فليت سيوفهم كانت عصيا   وليت نجومهم كانت رجوما»

مدح حافظ عباسا سنة ١٩٠١ بقصيدتين ، إحداهما فى عيد الفطر ، والأخرى فى عيد جلوسه(١) ، وهنأ السلطان عبد الحميد فى نفس العام بعيد جلوسه ، متقربا إليه بمهاجمة حزب تركيا الفتاة(٢) . ثم لم يلبث أن انصرف إلى تهنئة إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه ، فإذا كل بيت من أبيات قصيدته ينطق بما يملأ قلبه

---

١ — ديوان حافظ ١ : ١١ و ١٣
٢ — « « ١ . ١٥

من رهبة الإنجليز . يبدأ قصيدته بقوله(١)

لمحتُ فى مصر ذاك التاج والقمرا ... فقلت للشعرِ هذا يومُ من شعرا

ثم يصور قوة إنجلترا القاهرة إذ يقول :

من ذا يناويكِ والأقدار جارية ... بما تشائين ، والدنيا لمن قهرا
إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم ... وإن كشرتِ لنا عن نابه كشرا

ويخرجه الخوف عن وقاره وكرامته حين يقول :

اليوم يلثم تاجُ العز محتشما ... رأسا يدبر ملكا يكلأ البشرا
يصرِّف الأمر من مصرٍ إلى عَدَنٍ ... فالهند فالكاب حتى يعبر الجزرا

بل إنه ليدعو الله أن ينصر جنده فى الآفاق إذ يقول :

إدواردُ دُمتَ ودام الملكُ فى رغد ... ودام جندك فى الآفاق منتصرا

ويقرنه فى عدله بعمر بن الخطاب إذ يقول :

هم يذكرونك إن عدُّوا أسد ولتهم ... ونحن نذكر إن عَدُّوا لنا عُمرا
كأنما أنتَ تجرى فى طريقته ... عدلا وحلما وإيقاعا بمن أشِرا

ثم ينصرف حافظ إلى مدح محمد عبده والدفاع عنه فى سنتى ١٩٠٢ و ١٩٠٣(٢) ويعود فى سنة ١٩٠٤ إلى عباس ، فيمدحه بقصيدتين فى عيد الأضحى وفى عيد العام الهجرى(٣) ، معتذرا عن سكوته فى العامين الماضيين ، ويقول فى القصيدة الثانية مستعطفا

عسى ذلك العام الجديد يسرنى ... ببشرى . وهل للبائسين بشير؟
وينظر لى ربُّ الأريكة نظرةً ... بها ينجلى ليلُ الأسىَ وينير

فإذا عين سعد وزيرا للمعارف فى وزارة صبره مصطفى فهمى سنة ١٩٠٦ . مدحه متقربا إليه بصلته بأستاذه محمد عبده(٤)

---

١ — ديوان حافظ ١ : ١٨
٢ — » » ١ : ٢١ — ٢٧
٣ — » » ١ : ٢٨ و ٣١
٤ — » » ١ : ٢٦٤

فاردد لنا عهــدَ الإما ... مِ وكنْ بنا الرجال المفدَى

فإذا انتهى به المطاف إلى دار الكتب وعين بها سنة ١٩١١ ، بلغ به اليأس والاستسلام أن يصحح السلطان حسين كامل ، حين وضع على عرش مصر بعد خلع عباس سنة ١٩١٥ ، بموالاة الإنجليز والاخلاص لهم إذ يقول :(١)

ووالِ القومَ إنهم كِرامٌ ... مَيَامينَ النقيبة أين حلوا
لهم ملك على التاميز أضحت ... ذُراه على المعالى تَستَهِل
وليس كقومهم فى الغرب قوم ... من الأخلاق قد نهلوا وعَلوا
فإن صادقتهم صدقوكَ وُدًّا ... وليس لهمْ إذا فتشتَ مثلُ
وإن شاورتهم والأمرُ جِدٌّ ... ظفرتَ لهم برأيٍ لا يَزِلُّ
وإن ناديتهم لبّاكَ منهم ... أساطيل وأسيافٌ تُسَلُّ
فما دِدْهم حبال الودِّ وانهض ... بنا فقيادُنا للخير سَهْلُ

ويقنع بطلب الإصلاح فى ظل الراية البريطانية فى قصيدته التى استقبل بها السير آرثر مكماهون سنة ١٩١٥ :(٢)

نرجو حياة حرةً ... مضمونة فى ظل رايهْ
ونروم تعليما يكو ... نُ له من الفوضى وقايَهْ
ونود أن لا تسمعوا ... فينا السِعاية والوشايه
أنتم أطباء الشعو ... ب وأنبلُ الأقوام غايهْ
أنىَّ حللتُم فى البلا ... د لكم من الإصلاح آيه
رسخت بنايةُ مجدكم ... فوق الروِّية والهدايه
وعدلتمُ فملكتم الـ ... دنيا وفى العدل الكفايه
إن تنصروا المستضعَفِ ... ين فنحن أضعفهم نكايه

* * *

١ ديوان حافظ ١ : ٦٧ ، ٧١

٢ — » » ٢ : ٨٢ والسير آرثر مكماهون هو أول مندوب بريطانى عين فى ظل الحماية . وقد وصل إلى مصر فى ٩ يناير سنة ١٩١٥

وإزاء هذا النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية انقسمت مصر إلى معسكرين كبيرين، أحدهما يحارب الاستعمار، ويتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة، فيعتمد على نفوذ الخديوى آنا، وعلى نفوذ تركيا آنا آخر، وعلى نفوذ فرنسا فى بعض الأحيان. وذلك هو الحزب الوطنى، يؤيده شباب مصر المثقف وطلبة المدارس فى مختلف المعاهد أما المعسكر الآخر فقد جنح إلى موالاة الإنجليز واكتساب رضائهم، معتقدا أن مصر فى ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم، وأن الطريق الأمثل لتحريرها هو إصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع المستعمرين. وذلك هو حزب الأمة، يؤيده كبار الملاك، ويشايعهم نفر من أعداء الخديوى مثل الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وفتحى زغلول.(١) وبين هذين الحزبين الكبيرين كان هناك فريقان آخران. فريق يعبر عن اتجاهات الخديوى، استحدثه عباس حين فسد ما بينه وبين الحزب الوطنى، ويمثله الشيخ على يوسف ومعه قلة من الأشياع يسمون أنفسهم حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية. وفريق باع نفسه للاستعمار وسمى نفسه الحزب الوطنى الحر، وما هو بوطنى وما هو بحر، وتمثله صحيفة المقطم. وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين الفريقين فريقا ثالثا كان مستقلا عن هذه الأحزاب جميعا. وكان يقاوم النفوذ الإنجليزى، ولكنه لا يقاومه من وجهة النظر المصرية أو التركية، وإنما يقاومه من وجهة النظر الفرنسيه، التى كانت — قبل الاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ — تدور حول إحراج الإنجليز وإقلاق مركزهم فى مصر، بإثارة المشاكل ووضع العقبات فى طريقهم. وكانت صحيفة الأهرام هى الممثلة لهذا الاتجاه. (٢) وربما كان مقال الجريدة « تعالوا نتفق أو نختلف » من

---

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب: ١٠٢ و١٢٩ و١٤٣، تاريخ الأستاذ الامام ١: ٥٩١

٢ — راجع نشأة هذه الأحزاب وبرامجها والظروف التى مهدت لظهورها فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب: ١٢٦ — ١٣٢، الدولة العربية المتحدة ٣: ٩٦-١٠٣، تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٣ — ٢٩

أوضح ما كتب فى بيان الفروق بين هذه الأحزاب. وقد جاء فيه (١) «... (فالمؤيد) يتحيز دائما فى سياسته العامة إلى إحدى السلطتين، وأما فى جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجرى من النقيض إلى النقيض، أى من (اللواء) إلى (المقطم). فأحيانا يكون كالأول، وأحيانا كالثانى، وغالبا يفرد فى هذا الميدان الفسيح بذينكم النقيضين، مراعيا فى ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التى ذكرناها. وأما (الجريدة) فإنها لا تتحيز لجهة من السلطتين، ولا تتفق مع طرف من طرفى النقيض. وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقا. بل قلبها وقف على خدمة الأمة دون سواها، وليس أمام نظرها إلا أن تصبح الأمة ذات إرادة ثابتة ووجود مستقل عن كل سلطة، تقف فى مركز مكين لمطالبة السلطتين جميعا بحقوقها من غير استكانة ولا محاباة(٢). وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة السياسة مع (المؤيد). وأما (المقطم) فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملؤها الخطل، ويقول بالرضى عن الاحتلال. وأما (الجريدة) فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقا. وإنها لا تناقش الآن فى أصل الاحتلال، لأن الوقت لم يحن بعد. ولا تتحيز لجهة، لأنها تنتقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة، وتبين صالحها من طالحها، وتقول الحق فى الحالتين من غير محاباة. وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) (والمقطم) متفقى المذهب... وأما (اللواء) فإنه يدعو إلى الاستقلال بالطفرة، وخطته عدائية للمحتلين. ونحن نرى أن الطفرة محال، وعواقب التشبث بها خطرة جدا، وأن الاستقلال لا يكون

---

١ — صحيفة (الجريدة) عدد ٣٠ سبتمبر سنه ١٩٠٧ المقالة الافتتاحيه

٢ — كذلك تزعم (الجريدة). والواقع أنها كانت تتحيز لكرومر وتتحامل على عباس. وقد كانت فكرة المصرية والتمصير وقتذاك من خلق الانجليز. وهى فكرة — على ما فيها من حق فى ظاهرها — لم يكن يراد بها إلا الباطل. فهى شبيهة بفكرة السودنة التى خلقها الانجليز فى السودان للتفريق بين المصريين والسودانيين. وليس من محض الاتفاق أن يكون المنادى بفكرة التمصير وقتذاك هو حزب الامة، وأن يكون المنادى بفكرة السودنة الآن هو الحزب المسمى بهذا الاسم نفسه.

إلا بمعداته التى شرحها سعادة حسن عبد الرازق باشا فى خطبته . كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التى لا يحكم العدل بقبحها ليس من الاعتدال الذى هو شعارنا فى شىء . »

وقد تكلمت فى الفصل الثانى من فصول هذا الكتاب عن الفوارق الأساسية بين هذه الأحزاب. ولكنى أحب أن أشير هنا إلى أن الخلاف بين هذه الأحزاب قد انتهى إلى خوض الصحف فى مهاترات لم تكن تستهدف الحق دائما ، وقد كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة.(١) وقد أفسدت هذه المهاترات الأخلاق والأذواق ، فتولد فى المصريين ميل جامح لتتبع هذا السباب والتشفى بسماعه ، وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا فى شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدهم فى حفل مصارعة الثيران، وقد غدا أقدر الناس على السباب وعلى رده هو أبرعهم فى أعين الناس . وبذلك استُنفِدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصرفت عن مواجهة الاستعمار ، عدوهم الأول ، الذى استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حربا على صاحبه. وارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة فى تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم، حتى ضج المصلحون من هذه الفوضى المؤذية للأذواق ، والمفسدة للأخلاق، والباعثة على بلبلة الأفكار .

يقول عبدالله النديم (٢) «أطلقت إنجلترا حرية المطبوعات والأفكار ، فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد ، وتتصرف فى أفكارها كيف تشاء . هذه تقول : أنا وطنية، أنادى بأن خير البلاد وصالحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وفت وعدها ، وأجلت جندها ، وتركتهم يتمتعون بحريتهم فى بلادهم ،كما تمتع البلغار والجبل الأسود والسرب

١ — راجع أمثلة لذلك فى تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٦٤ ، ٦٦٨ ، ٤٠٦ ، ٧٠٤ ، ٧١٠ ، ٨٣٣ ، ٨٥٣

٢ — الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣

وغيره مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها . وهذه تقول : مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ، ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء ، حتى يتهيأ المصريون لاستلام أعمالهم . لاتبالى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول إن فرنسا هى الدولة الوحيدة فى المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوى ، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس . وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان مايوقعهم فى الشك والتردد . وهذه دينية . وهذه حقوقية . وهذه طبية . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لارقيب عليم ولا جاسوس . ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبهم إلى طلب حقوقهم ، وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية ، استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم ، تركت الجرائد تخوض فى المواضيع المتضادة ، وتلعب بالأفكار الجامدة ، ونحن فى بحار اللهو غارقون . »

وصور حافظ إبراهيم فساد الصحف التى لا ينفق سوقها إلا بتبادل الشتائم الباطل ، وقد أصبح الناس لا يتقبلون كلاما فى الأدب أو الأخلاق ، ولا يستهويهم إلا السباب. فقال فى (ليالى سطيح) على لسان صاحبه إذ يبثه شكاته(١) « فتق لى الدهر أن ألقى بنفسى فى غمار المحررين ، وأن أنشىء صحيفة أسبوعية . فصحت عزيمتى على الدخول فى زمرة الكتاب وإن لم أكن منهم . . . وجعلت أكتب فى الفضيلة وأدعو الناس إلى الأخذ بها . وأستعين بما سطره الأول وجرى عليه الأخير ، وأستمد من بطون الكتب أحكم الأمثال وأمثل العظات ، وأكد ذهنى فى الاستنباط . . . ولكن فاتنى أن أنظر نظرة فى أخلاق الأمة التى أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة فى وجوه عاداتها ، فلم تنفق لذلك سلعتى ، ولم تنتشر صحيفتى . . . فقلت لنفسى : أيتها النفس . لقد أعذر صاحبك وما قصّر ،

---

١ — ليالى سطيح ص ٣٣ — ٤٧

فأنت اليـــوم بين أمرين ، إما الفضيلة والنعش ، وإما الرذيلة والعيش . وكانت من غير تلك النفوس المطمئنة ، التي بشرها الله بالجنة فشمست عن الأولى وسكنت إلى الثانية . فما زالت تأمرني بالسوء ، حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص ومستناما للعيوب ، وأصبح يراعي وقد أستمد بن لعاب لأفاعي لعابه ، واستعار من المسامير سبابه (١) فما زلت أطعن على زيد لأجتعل من عمرو ، وأغض من خالد لأشد من بكر ، حتى زل الرأي وعثر القلم ، فأصبحت غريم الحكومة ، وخوصمت إلى المحاكم فأصبحت مخصوما ، وبت وقد اصطلحت على الخطوب » .

ثم يقول على لسان سطيح في الرد على صاحبه « أيْ فلان ! إن للصحافة رجالا ، وللسياسة أبطالا ، طرّفوا لها إلى الضمائر ، وتناولوا بها ماوراء السرائر ، فسددوا الكلام كما تسدد السهام . وبلغوا بالمقال مالا تبلغه النصال . يـّعجبونك فتعجب ، ويستغضبونك فتغضب . . . وهم كما قال صاحب كليلة (يحقون الباطل ويبطلون الحق . كالمصور الذي يصور في الحائط صورا كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) » .

ثم قال على لسان صاحبه إذ يسأل سطيح عن معنى الحرية وحدودها « ألا يحدثنا وليّ الله عن تلك الكلمة التي أخذها الناس على غير وجهها . وذهبت بها الظنون مذاهبها ، وركبت الأوهام مراكبها . ثم أسكنوها في غير معناها ، وأرادوا منها غير ما أرادت منهم . فذلت بهم وذلوا بها . وكان ذلك علة هذه الفوضى التي تراها في الصحف ، وذلك الفساد الذي سرى في الأخلاق ؟ »

ويقول على لسان سطيح في مضار ما وقعت فيه الصحف من مهاترات « أما وجوه المضرة في بقائها فقد أصبحت شيئا يُحسّ ، وأصبح مثلها كمثل الهواء ،

---

١ — المسامير كتيب لعبد الله النديم في هجاء أبي الهدى الصيادي الذي كان مسلطا على السلطان عبد الحميد . وقد ألف النديم مساوئه مدة إقامته في الآستانة بعد إبعاده عن وطنه عقب تعطيل صحيفة (الأستاذ) . والمسامير مملوء بالفحش المقذع

حقد كنا نشعر به ولا نراه ؛ حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى همت الأيدى بلمسه ، وتلون حتى وقع فى النظر تحت حسه .

فنها أنهم نصبوها حبائل لصيد المال . فأقاموا لها سوقا فرشت فيها الصحف وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراض الناس ، فتراهم يجلسون للمساومة فى تلك الأعراض . ويأتى حامل الضّب (الحقد) لأخيه ، فيساومهم فى تمزيق عرض من أراد ، ويشهر ذلك فى المزاد .

ومنها دبيب الفساد إلى أخلاق العامة ، لكثرة مايقرءون ويسمعون من ألفاظ السباب . فإذا فسدت الأخلاق فى الأمة فقد فسد فيها كل شىء .

ومنها دخول السقاط من القوم فى زمرة المحررين . اللهم إلا نفرا من أنصار الفضيلة ، ذهب صرير أقلامهم ضياعا فى وسط تلك الضجة القائمة . وهذا قليل من كثير » .

ويقول محرم فى تصوير هذا الفساد والشقاق . (١)

ولقد بلوت الكاتبين جميعهم ... فوجدت أكثر ما يقال دعاويا
شدوا العيابَ على هنات لو بدت ... ملأت مناديح الفضاء مساويا(٢)
لا بوركت تلك الأكف فإنها ... ضربت على الألباب سدا عاتيا
حجبت صديع الرشد عنها فارتمت ... تجتاب ليلَ الغىّ أسفع داجيا(٣)
سلنى أنبئك اليقين فإن لى ... علما بما تخفى السرائر وافيا
ألفيتُ أصدق من بلوت مداهنا ... ورأيتُ أمثل من رأيت مداجيا
بعثوا الصحائف يلتوين كأنما ... بعثوا بهن عقاربا وأفاعيا
صحف يَزِل الصدقُ عن صفحاتها ... ويظل جدُّ القول عنها نائيا

---

١ — ديوان محرم ٢ : ٩٧ - ١٠٠

٢ — العياب جمع عيبه (بفتح العين) وهى الحقيبة . مناديح جمع مندوحة وهى ما اتسع من الفضا .

٣ — الصديع الصبح

... صدقوا العدوّ ولاءَهم وتمزقوا — خصماءَ فيما بينهم وأعاديا
فهم المعاولُ إن رماهم هادما — وهم الدعائم إن علاهم بانيا
وهم السلاح إذا يُشيح مناجزا — وهم العديدُ إذا يصيح مناويا
مالى أهيب بمن لو انى نافخ — فى الصور ما نبهت منهم غافيا
... ليت الزلازل والصواعق فى يدى — فأصبها للغافلين قوافيا
فنيت براكين القريض ولا أرى — ما شَفَّنى من جهل قومى فانيا
فلئن صمتُّ لأصمتن تجلدا — ولئن نطقت لأنطقن تشاكيا

من أجل ذلك أخذ الناس يتصايحون بالدعوة إلى الاتحاد وإلى ضم الصفوف، فكانوا كالذين يصرخون وسط الضجيج ينشدون الناس السكوت ، فيضيفون إلى الضجيج ضجيجا جديدا . أو كالذى يحاول أن يوحد بين الأديان فلا يزيد على أن يضيف إليها دينا جديدا ، أو كالذى يريد توحيد اللغات فينتهى إلى خلق لغة جديدة . فالمختلفون لا يملون الخلاف ، كما أن دعاة الخير لا يستيئسون من الدعوة إلى الوحدة وإلى الوئام .

يقول حافظ إبرهيم فى قصيدة وجهها إلى (البرنس) حسين كامل حين وكلت إليه رياسة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سنة ١٩٠٩ ، طالبا إليه أن يعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة :(١)

هلاك الفرد منشؤه توان — وموت الشعب منشؤه انقسام
وإنا قد وينا وانقسمنا — فلا سعىٌ هناك ولا وئام
فساء مُقامنا فى أرض مصر — وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا عجبٌ إذا مُلكت علينا — مذاهبنا وأكثرنا نيام
حسينُ حسينُ ، أنت لها فنبه — رجالا عن طلاب الحق ناموا
أفِضْ فى قاعة الشورى وئاما — فقد أودَى بنا وبها الخصام

---

١ — ديوان حافظ ٢ : ٥٥ ، ٥٦

وعلمهم مصادمة العوادى ... فمثلك لا يروّعه الصدام
ففى حزب اليمين لديك قوم ... وإن قلوا فإنهمُ كرام
وفى حزب الشمال لديك أسد ... كماة لا يطيب لها انهزام
فكونوا للبلاد ولا يَفُتْكم ... من النُهُزات والفرص اغتنام
فما سادوا بمعجزة علينا ... ولكن فى صفوفهم انضمام

ويقول محرم :(١)

بلوتُ المدَّعين بلاءَ صدقٍ ... فلا أدبا وجدتُ ولا خَلاقا
دُعاة الشر يتفقون فيه ... ولا يرجون فى الخير اتفاقا
إذا كان الهوى دَلفوا سراعا ... وإن كان الهدى ركبوا الأباقا(٢)
كأن بهم غداةَ يُقال سيروا ... إلى العلياء قيدا أو وثاقا
أسارَى فى قيود الجهل تأبَى ... لهم أخلاقهم منها انطلاقا
لَبئس القومُ. مامنعوا ذمارا ... ولا رفعوا لصالحةٍ رواقا
ألستَ ترى مجال الجِد فيهم ... على سعة الجوانب كيف ضاقا
أضاعوا الشعب حين تواكلوه ... وساموه التفرق والشقاقا
ولو أنى وَليتُ الأمر فيه ... جعلت مكانه السبعَ الطباقا
ولكنى امرؤ لا شىء عندى ... سوى قلمٍ يذوب له احتراقا

ويقول :(٣)

ليس الشقاء بزائل عن أمة ... حتى يزول تفرق وتحزُّب
من لى بشعب فى الكنانة لا القوى ... تنشقُّ منه ولا الهوى يتشعب
متألب يبغى الخباة كأنه ... جيش على أعدائه يتألب

ويقول شوقى فى الهمزية النبوية التى نشرت سنة ١٩١٢ ، متوجها بخطابه إلى

---

١ — ديوان محرم ٢ : ١٢٥
٢ — أبق العبد أباقا استخفى وهرب من سيده
٣ — ديوان محرم ٢ : ١١١

الرسول صلوات الله عليه :(١)

ما جئت بابك مادحا بل داعيا ‏ ‏ ‏ ومن المديح تضرع ودعاء
أدعوكَ عن قومِي الضعافِ لأزْمة ‏ ‏ ‏ فى مثلها ُيلقَى عليك رجاء
أدرَى رسول الله أن نفوسهم ‏ ‏ ‏ ركبتْ هواها والقلوبُ هَواءُ
متفككون فما تضم نفوسُهم ‏ ‏ ‏ ثقةٌ ولا جمع القلوبَ صفاءُ
رقدوا وغرهم نعيم باطل ‏ ‏ ‏ ونعيم قومٍ فى القيود بلاء

ويقول فى قصيدة أخرى هنأ بها عباسا بعيد الفطر :(٢)

وطنى! أسفتُ عليك فى عيد الملا ‏ ‏ ‏ وبكيت من وجدٍ ومن إشفاق
لا عيدَ لى حتى أراك بأمّةٍ ‏ ‏ ‏ شماءَ راويةٍ من الأخلاق
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم ‏ ‏ ‏ وبقيت فى خَلفٍ بعير خَلاق
أيظل بعضُهم لبعض خاذلا ‏ ‏ ‏ ويقال شعبٌ فى الحضارة راق
وإذا أراد اللهُ إشقاءَ القرى ‏ ‏ ‏ جعل الهداةَ بها دعاةَ شِقاق

ويقول فى ختام القصيدة الحزينة التى هنأ بها السلطان حسين كامل بعد عزل عباس : (٣)

يا أهلَ مصر كِلُوا الأمورَ لربكم ‏ ‏ ‏ فاللهُ خيرٌ مَوْئلاً ووكيلا
جرت الأمورُ مع القضاء لغايةٍ ‏ ‏ ‏ وأقرّها من يملك التحويلا
أخذَتْ عـ[illegible] ‏ ‏ ‏ سبحانه متصرّفا ومُديلا
هل كان ذاك [illegible] وقفا ‏ ‏ ‏ للسلطتين وللبلاد وبيلا(٤)

---

١ — ديوان شوق . ، (نشرت فى المؤيد ٧ مارس سنة ١٩١٢)
٢ — ديوان شوق ٢ : ٩٢
٣ — ديوان شوق ١ : ٢١٧
٤ — يشير إلى تنازع السلطه الشرعية الممثلة فى الخديوى والسلطة الفعلية الممثلة فى المندوب البريطاني .

يعتز كلُّ ذليل أقوام به ... وعزيزكم يُلقى القياد ذليلا(١)
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت ... إلا نتائج بعدها وذيولا
وانفضَّ ملعبه وشاهدُه ، علىَ ... أن الرواية لم تتم فصولا(٢)
فأدمتم الشحناء فيما بينكم ... ولبثتمُ فى المضحكات طويلا
كلٌّ يؤيد حزبَه وفريقه ... ويرى وجودَ الآخَرين فضُولا
حتى انطوت تلك السنون كملعب ... وفرغتمُ من أهلها تمثيلا
وإذا أراد الله أمراً لم تجد ... لقضائه ردا ولا تبديلا

١ — يقصد بالعزيز عباسا الذى أذله الانجليز ، وخصوصا فى السنوات الأخيرة ، حين كان كتشنر هو ممثل بريطانيا

٢ — كان هذا البيت والذى قبله ممادعا الانجليز إلى أن لا يطمئنوا إلى شوقى فأبعدوه عن مصر

الفصل الخامس

نزعات اصلاحية

ليس التفريق بين ما هو من السياسة وما هو من الإصلاح بالأمر الهين . بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية أو اصطلاحية فكل حركة إصلاحية تخدم هدفا سياسيا فى حقيقة الأمر . وكل مهج سياسى يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح ، تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية ولكن العرف جرى على إدخال مايتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى فى نطاق السياسة ، بينما أطلق اسم الإصلاح على البرامج التى ترمى إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله فى شتى نواحى الحياة . ولذلك اقترن اسم السياسة فى الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة ، فى الوقت الذى لا تثير فيه كلمة (الإصلاح) إلا التفكير الهادىء الذى يتسم بالاتزان والإنصاف ، والذى تسيطر عليه النزعة الإنسانية . والذى ينأى بصاحبه عن المخاطر ، ولا يجره إلى المجازفة فى ميادين النزاع العنيف. فالذين يتعرضون للسياسة ممن يجدون فى أنفسهم الجسارة عليها ، والذين يشتغلون بالإصلاح ممن يغلب على طبائعهم الهدوء والروية، ولا يريدون أن يزجوا بأنفسهم فى طريق محفوف بالمكاره وبمكامن الخطر ، هؤلاء وهؤلاء يعملون فى ميدان واحد هو الوطنية ، أو السياسة بمعناها الواسع الذى يدخل فيه كل مايتصل بتدبير علائق أفراد الأمة أو الوطن بعضهم بالبعض، ودفعهم فى مـــدارج التطور والرقى . بيد أن من الناس من يجمع بين الصفتين ويشتغل بالناحيتين ، ومنهم من يقصر نفسه على ناحية واحدة . فكل الذين يشتغلون بالسياسة يشتغلون فى الوقت نفسه بالإصلاح ، لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لاتقوم إلا على سلامة جبهتها الداخلية . ولكن كثيرا من المشتغلين بالإصلاح لايزجون بأنفسهم فى شئون السياسة، لأنهم لايانسون فى أنفسهم الجسارة عليها،

أو لأنهم يؤثرون البعد عن مواطن الزحام حين يتكالب على المورد كل منافق وكل طامع وكل مغامر من الذين يطلبون الغنم الكبير من أقرب طريق، وممن لا يبالون أن يقعوا على الثروة العريضة أو الموت الذريع .

كذلك كان شأن المشتغلين بالإصلاح فى هـــذه الفترة التى نؤرخ لها . كان بعضهم من المشتغلين بالسياسة ممن تكلمنا عنهم فى الفصل السابق . وكان بعضهم الآخر ممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم فى هذا المعترك العنيف ، فآثروا أن يسلكوا طريقا لا يعرضهم لغضب السلطان ، بعد أن رأوا ما رأوا من سوء مصير العرابيين ، وما يتعرض له المجاهدون للاستعمار من أذى واضطهاد . وقد كان لهؤلاء المصلحين مندوحة ومتسع فى المجتمع المصرى الذى آل إلى حال بغيضة من الانحلال والفساد . وكانت المشكلة الكبرى التى تواجه كل سياسى وكل مصلح هى: كيف نخلق أمة قوية راقية من هذا المجتمع المفكك ، الذى انتهى به الجهل والفقر ، مع تحكم الاستبداد فيه أجيالا طويلة ، إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكترث لشىء مما يجرى حوله ، بل أصبح فى حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع ، واختلط عليه فيها الخير بالشر ، وأنس إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذى عينيه ؟ قال رجال السياسة إن الاحتلال هو أصل البلاء، فلا بد من مناجزة المحتل . وقالوا إن الاستبداد هو جرثومة الداء فلا بد من المطالبة بالدستور . ولكن المشكلة ظلت باقية تنتظر الحل فى رأى رجال الإصلاح ، لأن مجاهدة المستعمر أو الحاكم المستبد تحتاج إلى تضافر القوى واتحاد الجهود . وكيف تتضافر القوى فى شعب خيم عليه الجهل والفقر ، وتحكم فيه اليأس والتخاذل ، حتى بلغ حالة تشبه الموت، إن لم تكن هى الموت عينه ؟

كان الفتور والتبلد قد استولى على المجتمع المصرى ، بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان ، فماتت فيهم الآمال ، وفقدوا بتوالى العصور أخص ما يميز الإنسان وهو الإرادة ، فتركوا أنفسهم للتيارات المعتركة تقذف بهم حيثما قذفت ، وهم فى سكون الجماد الذى لا يحس شيئا .

وقد رسم عبد الله النديم فى رواية « الوطن » صورة حية ناطقة لهذا المجتمع الذى أفقده الاستبداد إرادته ، وأماتت المصائب المتراكمة إحساسه ، حتى فقد الأمل ، وترك العمل ، وارتاح للكسل ، وانحصرت لذته فى ألوان من المتع الرخيصة التى يغرق فيها همومه التماسا لتسكين الآلام . (١) وربما كان تلخيص مسرحية النديم مفسدا للصورة التى التقطت من صميم الشعب ، وصوّرت بألفاظه كما ينكلم بها الناس . ولذلك أرى من الخير أن أقدم قطعة من هذه المسرحية تمثل حوارا بين الوطن وبين أفراد من مختلف طبقات المصريين ، بعضهم من سكان القرى وبعضهم من المدن ، وبعضهم من الفقراء وبعضهم من السادة المترفين الفارغين للذاتهم ، وبعضهم من الفلاحين الذين يعيشون على ماتخرج الأرض وبعضهم من الصيادين الذين يعيشون على مايخرج البحر ، وبعضهم من الجهلة الذين يكسبون عيشهم من احتراف الحرف المختلفة وبعضهم من الموظفين الذين أصابوا حظا من التعليم المدنى الحديث . عرض النديم صورا لهذه الطبقات جميعا تبين أنها على تباينها فى مظهرها لاتختلف فى جوهرها ، فكل منهم يعانى من آثار الاستبداد ومن فادح المغارم والتكاليف مثلما يعانى الآخر . وكلهم مشغول بنفسه عما حوله ، وكلهم مصابون بشلل فى أعصابهم، مبتلون ببلادة فى إحساسهم، لايزعجهم البلاء الذى يُصَبّ على رءوسهم والذى يجرى من حولهم . ولا يحلمون بخير مما هم فيه ، ولا يرون الذين يحاولون ذلك إلا مجانين يتعلقون بالأوهام ويحاولون المستحيل .

انظر إلى هذا الحوار بين « أبو دعموم » و « أبو الزلفى » وهما من الفلاحين سكان القرى ، وبين الوطن : (٢)

أبو دعموم : كنت فين دى الغيبة ؟

١ — مثلت مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية التى كان يشرف عليها النديم هذه المسرحية على مسرح زيزينيا بحضور الخديوى توفيق . وهذه الجمعيه هى جمعية أخرى غير الجمعية الحالية

٢ — سلافة النديم ٢ : ٣٣

أبو الزلفى : فى جهنم الحمرة .

أبو دعموم : ليه من غير شر ما انت بخير .

أبو الزلفى : مابار علينا . مابخير ولا . . .

أبو دعموم : إيه بس ماتقلش نصيبتك إيه ؟

أبو الزلفى : يبقى ما انت شايف الطوافة نازلين علينـا بالشماريخ، ومشايخ البلد نازلين علينا بالصرم، وحاكم الخُطّ مترمطنا بالكَرَميش، و المدير مكسرنا بالنبابيت . له الواحد بقا حديد ولاّ إيه .

أبو دعموم : يادم يلهفك ياأخى . يبقى ماترميش للكلب منهم بريزه وتخلص .

أبو الزلفى : عوّار يحوِّل عينك . هى كام بريزه . داللى بيطلبوه الصبح مايطلبهش المغرب .

الوطن : أين أهلى ؟ أين أولادى ؟ أين رجالى ؟ أصبحت حائرا فى أمرى لا أدرى مايفعل بى من يرانى هكذا ، ويقول هذه مصر المعشوقة لكل إنسان .

أبو دعموم : آى غور ياخىّ . يعشقوك على إيه .

أبو الزلفى : حرام عليك ياشيخ ماتشتموش . دا من غلبه

أبو دعموم : بقى لماتبقى أهله دايره تقطع فى بعضها ، والكبير ينهب الصغير ، والغنى يقتل الفقير ، اللى راح يعشقه مين كده ؟

الوطن : إذا لم تصلحوا أنفسكم من يصلحكم ؟ وإذا لم تحفظونى من يحفظكم ؟

أبو دعموم : بقى مقصودك يعنى إنتا نجتمع ونبقى عصا وَحْده ؟

الوطن : نعم . فإنكم لاتنجحون إلا بالاتحاد

أبو دعموم : طيب ادينى واحـــد من الناس ، هات لى واحد قلبه على قلبى بسّ .

الوطن : عجيبة بقى كل أهلى مختلفين

أبو الزلفى : أهلك إيه ياغاير . لَهُ الولد بيحب أبوه .

الوطن : كل هذا سببه الجهل

أبو دعموم : جينه للسّت والعجن بقه . مادى فقى البلد كل نهار جمعه يقول ياعباد الله اتقوا الله . ولاحد بيتّقى ولا بيزَرْوَط .

أبو الزلفى : إى هو الفقى يبقى يخطب وشيخ البلد مدور العِدّه .

أبو دعموم : دا نهار مايقول الفقى بم يدّيه لما يقطع قابه .

الوطن : بلغ من الجهالة أن تضرب العلماء فى بلادى ؟

أبو دعموم : ايه لهُ يعنى العالم زايد ؟ مش فلاح زيّنه وله طين قدمه ؟

الوطن : إهانة العلماء أول دليل على خراب البلاد فوا أسفاه .

أبو الزلفى : آه مايسلط عليك واحد ناظر قسم ويبطّلك قولة العلما والجهال .

الوطن : لهذه الدرجة صارت سطوة ناظر القسم .

أبو دعموم : ناظر القسم إيه يا اهبل . دا جرجريوس الصريف يضرب ويشمخ . اسكت اسكت .

الوطن : أرجع لقولى وأقول : كل هذا سببه الجهل .

أبو دعموم : ربنا يرزقنا بواحد قواص يرطن عليك بالتركى ويرفصك فى كرشك وهو يطلع العلم والجهل من عيبك الاتنين .

أبو الزلفى : لا وان قال بم يخبطه بطبنجه يطلع روحه .

الوطن : بقى يقدر يضرب بالنار

أبو دعموم : نار إيه ياهايف. داقتل الراجل عنده أهون من قتل الفرخه .

الوطن : عار عليكم أن تتركوا أنفسكم حتى تصيروا لهذه الدرجة . لم لم تشتكوا للحكومه ؟

أبو دعموم : حكومة إيه ياوَطا. داللى بتبعتوا لنا من المخسيف المأمير بتبعته له بيعه تجزّارى .

الوطن : إذا اتفقتم على كلمة واحدة ورفعتم أمركم إلى الرئيس الأكبر فإنه لاشك يريحكم من هؤلاء الظلمة .

أبو الزلفى : اللى أنا يوم يقـــولو لى كلم شيخ البلد افوت عيالى وَهِجْ . يبقى

اللى راح يلقى له قلب يصُف رجليه قدام الحاكم مين ؟

الوطن : إياك تؤثر فيكم هذه الحالة وتعلموا أولادكم

أبو دعموم : نعلمهم فين ياخى .

الوطن : تعلموهم فى الكتاتيب

أبو دعموم : لهم عمى يا اجور العين . إن شا الله مايروح الكتاب الا انت .

الوطن : مادمتم تأنفون من العلوم تعيشون أذلاء وتموتون أذلاء .

أبو دعموم : قل للى قاعدين فى البنادر قبله. أهم دول عندهم معلمين وكتاتيب يا امه .

ثم انظر إلى هذا الحوار الذى يدور بين « أبو دعموم » و « ابو الزلفي » الفلاحين من ناحية ، وبين « الحاج حسين » و « المعلم أبو العلا » البندريين من الناحية الأخري . يصور كل طرف منهما ما يعانى من فوضي الاستبداد : (١)

الحاج حسين: دا بقا حال ظفت . إحنا رايحين نلاّها منين ولا منين .

أبو دعموم : خبر ايه يا أخينه ؟

أبو العلا : بآمنتش عارف خبر ايه ؟ دا بآمنطش فى الدنيه ؟

أبو دعموم : ليه . أنا يعنى معاشركم فى بلادكم؟ وانا عارف عندكم إيه ؟

أبو العلا : بآ مجاش عليكم حاجه من الفرده ولا الشخصية ولا حب الوطن ولا الطلنبه ولاالغفر ولا النضافه ولا نزح الكنفان ولا الدواهى الحاره اللى بنشوفهه دى ؟

أبو دعموم : الله يرحم أبوك ! لهُ عندكم شيء من اللى عندنا ؟ خد على صبعك خد . أدحنا متحرحرين ياأخى من المال والمقابلة والسدس ومصاريف الرى والسهوم والمصلح والشخصية وعوايد البهايم والوطنية والأغنام والنخيل والدخولية .

أبو الزلفى : لا وفاتك ياخى عادة الحكيم والمهندس والمزين والمشدات والطوافه وقواسة المدير وخدميه وسنويّة ناظر القسم وخدمينه

---

١ — علاقة الندم ٢ : ٣٦

والعُونه والصُّخرة وطلوع البهايم للشّفْلكْ والبنات للقطن والولاد لتنقية الرز والبهايم للشيل والحطب للوابورات وعليقة خيل القوّاسه وتبنهم .

أبو دعموم : لا ولا تِنْساش شيخ البلد وأخذ البهايم فى غيطه والنسوان فى دوّاره والأولاد تجرى وراه . ويروح يدّاين من الخواجات ويجى يقول هاتو يافلاحين . وأولاده دايره ترقع فى اصداغنا وخدّامينه بتلطش فينا ونسوانه بتسفّخ لنسوانا .

أبو الزلفى : لا وخد عندك يبقى الإنسان طالع من المصلّه والمُشدّ ينادى . يوم يقول : المدير عاوز ميت فرخة . ويوم يقول غربلو له أردبين غلة . ويوم يقول عاوز بهيمة حلاّبه . ويوم يقول عاوز بلاّصين سمن . ودا كله يلمه شيخ البلد وشوف بَقى يايودّيه يما يودّيه .

أبو دعموم : لا ونسيت يا أخى نزلة المساحة علينا كل ساعه والثانى . يقول انتم عندكم زيادة والبحر خلّف لكم جريره . ويمسك قصَبْته ويدور يتنطّط فى الغيطان . ولا ينكشح عنا إلا لما ياخدله سبعين ثمانين ريال .

أبو الزلفى : لا وفتْنا الداهيه التقيله اللى هو الصّرّيف ، لما يفضل يدّيله الواحد ، يوم اتنين جنيه ، ويوم عشره ريال ، ويوم تلاتين بريزة ، ويوم عشر خرْيات ، ويوم ميت قرش . ويجى آخر السنة يقول له : وصلنى منك سبعين قرش ، وفاضل عليك عشرَ جنيه . وتتكلم الواحد منا ماشكمه شيخ البلد ويقول له : بقى عقلك ولاّ حساب القلم ؟

واستمع بعد هذا إلى حديث «الوطن» مع «الحاج حسين» و«لعمر ابو العلا» حين يفاجئهما وهم غارقان فى الحديث عن أحسن «غررة» لشرب «المشيش» فيزعجان .

ابو العلا : بسم الله الرحمن الرحيم . دا باين عليه عفريت ياجدع

الحاج حسين: لا ياجدع . دا باين واحد مقطوع من بتوع التكيه .

ابو العلا : ميل بنا والنبي نشوف الداهية دى ايه . إنت يا عم — بدستور — اسم الكريم إيه ؟

الوطن : أنا يا ابنى محل نشأتك واسمى الوطن

ابو العلا : ومالك كده مبهدل وحالتك عبره ؟

الوطن : بهدلتنى أهلى يا ولدى .

ابو العلا : وفين أهلك دول اللى بتؤل عليهم

الوطن : ذهبت بهم الأيام والليالى

ابو العلا : طيب وقاعد بتعيّط ليه بقى وبتبكى على إيه ؟

الوطن : أبكى وأنوح على من ورثنى بعدهم . فإنهم أموات فى صورة أحياء .

ابو العلا : ومين دول اللى ورثوك يا أخى ؟

الوطن : أنت وأمثالك

ابو العلا : ياحاج حسين !

الحاج حسين: يا نعم

ابو العلا : ياخويه دا قال بيعيّط علينا المشوم .

الحاج حسين: يمكن ولى يا معلم ابو العلا ومكاشف على موتنه .

أبو العلا : يا أخى لا لا . دا قال احنا أهله وبيعيط علينا النطع .

الحاج حسين: والله ياشيخ صعب على الوطن ده .

ابو العلا : يا الله ياخويه بلا وطن بلا وحل . إحنا بتوع وطن ياعم .

الحاج حسين: أقول لك . اللى ماله ، الله له . فوت بنا .

ثم استمع إلى حديث السادة المترفين « السيد على » و « السيد ابراهيم » يتحدثان عن السهرات والأفراح والعزايم ، ويخوضان فى أحاديث تافهة عن جمال أحدهما فى صباه . وحب والد الثانى له وتغزله فيه . ويخرج إليهما « الوطن » وهما فى هذا الكلام الفارغ

الوطن : أين رجال الفتوة ؟ أين رجال النجدة ؟

السيد ابراهيم : جاك داهيه فى لتّك وعجنك
السيد على : ودى إيه كان ياسيد ابراهيم
السيد ابراهيم : دا ياسيدى راجل كل ساعة يلت ويعجن فى الكلام الفارغ
السيد على : بقى حضرتك تعرفه من زمان .
السيد ابراهيم : أعرفه جاته داهية
السيد على : واسمه إيه ياسيد ؟
السيد ابراهيم : يقولوا عليه اسمه الوطا ، ولاّ هو الوطن .
السيد على : وإيه قصته ياسيد ؟
السيد ابراهيم : قصّته أنه تمَلّى يقول أهلى أولادى . ويدوّر على الأقدمين .
السيد على : واحنا مالنا ومال الأقدمين ؟ إحنا فى إيه ولاّ فى إيه ؟
السيد ابراهيم : بالله متكدّرش ذهنك فيه ، احسَنْ كلامه زىّ الحبل الصوف ، كل ماتشدّه يتمَطّ .
السيد على : لكن الذوق ياسيد اننا نسأله عن حاله
السيد ابراهيم : استحسانك ياسيد على
السيد على : اسعدتم ياسيد
الوطن : اسعد الله لياليكم . أين أنتم أيها السادات ؟
السيد على : نحن نتذاكر فى حالك كيف أصبحت .
الوطن : أصبحت فى حالة بؤس ، وأنتم مشتغلون عنى بالملاهى ، ولا همة لكم .
السيد على : المقادير تأخذ حدودها ياسيد . إحنا بيدنا إيه ؟
الوطن : ارتكانكم على المقادير عجز وخروج عن حد الشريعة . فإنها ماجاءت إلا بالإصلاح وخروج الإسان من دركة الجهل إلى درجة العلم ، والانتقال من الخشونة إلى التمدن ، ومن الهمجية إلى الإنسانية .
السيد على : أما التمدن فلا يخفاك أن المصريين أهل ذوق وإحساس . وأما الإصلاح فإن كلاً منا له مندرة واسعة وحوش عظيم . فلا كلام لك فى ذلك .

الوطن : الإصلاح غير ماتعرفون ، فإنه عبارة عن افتتاح المدارس ونشر المعارف والتفنن فيما يجلب الثروة ويحفظ الأمة .

السيد علي : المدارس دي شغل النصارة . ونحن عندنا الكتاتيب وهي مليانةمن العمي والمكسحين .

الوطن : هذا هو عين الخراب . تتركون الأصحاء جهلاء لا يتعلمون، فيخرجون كالبهائم .

السيد علي : هو احنا ياسيد رايحين نعمل قضاة . بزياده في كل بلد واحد عالم يعمل الدعاوى ويرد الطلاق

الوطن : العلم واجب على كل إنسان حتى يعرف نفسه وثمرة وجوده .

السيد علي : الكلام ده للإنقليز والفرنحيله . وأما احنا أولاد مصر أهل الرقة والذوق والنكته .

الوطن : هذا لا يفيد إلا التأخير والذل وضياع الحقوق وخراب الديار .

السيد علي : سيد ابراهيم ! دا بيّه مصطول فإنه مابيدركشي شيء .

السيدابراهيم: قلت لك إنه يلت ويعجن ، عملت لي الذوق مع النحس

السيد علي : هو كلامه صحيح . ولكن مع مين ؟

السيدابراهيم: بالله عليك احنا بتوع علوم ولاّ معـــارف ؟ أهو كله كلام هلس والسلام .

السيد علي : تفضل بنا نروح الفرح . بلا خوته كدابه

السيدابراهيم: تفضل بنا . داهيه تضايقه . دا واحد يخنق

ثم يقدم المديم حوارا بين « الوطن » وبين صيادين من الاسكندرية لايختلف في دلالته عما مضى . ثم يلتقي « الوطن » باثنين من المتعلمين في المدارس الأوربية هما « عزت افندي » و « مظهر افندي » فاذا هما يتحدثان عن السهرات في الحمارات . ويتفاخران بما ينفقان فيها من مال ، في حين تتحللها الرطانة بالفرنسية . فيقول «الوطن» :

الوطن : إن تمادى الناس ، خصوصا مثل هؤلاء على هذا الحال ، فقل على الوطنيةوالوطن يارحمن .

عزت : سكر دى كشون ودهده ده

مظهر : دا ياسيدى اللى اسمه الوطن .

عزت : وماله صبح فى حالة زى الزفت

مظهر : واحنا مالنا داشيء يكدر . بالله ماتشغلش بالك به .

عزت : أصبر لما نسأله احسن له أصل

مظهر : طيب ياخويه دى الوقت ماتسمع منه إلاالترزيل والكلام الفارغ .

عزت : بو سوار يامسيو الوطن

الوطن : أنا عربى محض ، وأعرف اللغات على قواعدها ، وأراك تتكلم بالفرنساوى على غير انتظام .

عزت : كِسكُ سِكساه! على غير انتظام ! أمواه متعلم فى إكس

الوطن : مادا تعلمت هناك ؟

عزت : تعلمت شيء كتير . ويمكن اقول لك كل العلوم .

الوطن : وما الذى صنعت هنا بعلومك ؟

عزت : أنا رايس ترجمان فى القنصلاته

الوطن : أواه على ضياع أهلى . حتى الذى يعرف منهم كلمتين تنتفع به الأجانب

عزت : مسيو الوطن . انت بدك أموت من الجوع . وكم ألف غيرى يعرفوا ألسن ودايرين صايعين من الجوع.

الوطن : كل هذا من جهلكم . لو كنتم تعرفوا المعارف والصنايع ، كانت الحكومة فتحت لكم الورش والمعامل وعمرتمونى بثمرات أتعابكم

عزت : إحنا كلنا نكره بعضنا . وان شفنا واحد من أهل المعارف نضحك عليه . المقصود من المعارف إيه ؟ مش الإنسان يتحصل

على المعاش والأشياء اللازمة للنكتة ؟

الوطن : أنا شايف أهل المعارف عندكم قليلون ، والبعض فى زوايا الإهمال. والله ماسبب نكبنى إلا أهل النكته .

عزت : بقى اشكوزى انت بتخرف . دى النكتة هى المقصودة . وهى ثمرة الإنسانية فى بلادنا .

هكذا كانت الحال قبيل الثورة العرابية ، لايدرك الناس من المصالح إلا الدانى القريب الذى يمس أشخاصهم ، ولا يعرفون من المتع إلا أدناها مما يتصل بملذات الجسد ، ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس القرية (الكتاتيب) إلا أن يكونوا عميانا يرتزقون بقراءة القرآن . وهم بعد ذلك مستكينون لما يقع عليهم من الظلم ، لا يكادون يطمعون فى دفعه . ولذلك فهم يعيشون فى ذوات أنفسهم وفى أضيق حدود الجماعة التى لا تتجاوز نطاق الأسرة ، لا يعنيهم شىء مما يجرى من حولهم ، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتصل بهم ولا يغيِّر من الواقع المر البائس الذى هم فيه شيئا . ذلك شأن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون . أما المرزوقون ممن أتيحت لهم وسائل العيش فهم لا ينظرون لمن حولهم ممن ابتلى بألوان المحن إلا ليحمدوا الله على ما رزقهم من خير وما كفاهم من شر . وهم يملؤون الفراغ الممل من أعمارهم الضائعة بالسهرات وبالأحاديث التافهة فى مجتمعاتهم وفى ندواتهم ، ويقتلون البقية الباقية من أحاسيسهم ويقظتهم — إن كان فيها بقية — بطلب ما يغيبهم عن شعورهم من ألوان الخمور والمخدرات ، وقد أعجزتهم اللذة فى اليقظة فهم يلتمسونها فى أحلام المخمورين وخيالات المخدرين . لا يميز الجاهل من المتعلم إلا أن الثانى يدير لسانه بألوان من الرطانة يحشرها فى كلامه ، ويتخذها عنوانا للكياسة والظرف والتمدن ، ويظن أنها تميزه عن غيره ممن لا يعرفها .

* * *

ومرت الثورة العرابية فى حياة الناس سريعا وكأنها لم تكن ، فعادوا إلى يأسهم

أبلغ ما يكون اليأس ، وإلى انطوائهم أشد ما يكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث وكأن الأمر لا يعنيهم فى شيء . ولم يكن ينتظر من هذه حالهم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الإسراع لاستقبال الخديوى الظافر عند عودته للقاهرة بمثل ما استقبلوا عرابى الظافر من قبل . فلم تكن هذه الجموع التى فتك بعقولها الجهل ، واغتال نخوتها اليأس ، وأفنى قدرتها على الكفاح طول الاستعباد ، لم تكن هذه الجموع هى التى صنعت المعجزة حين ثارت فى وجه الطغيان والفساد وتغلغل النفوذ الأجنبي. ولكن الذين فعلوا ذلك هم قلة مؤمنة واعية ، تابعتهم هذه الجموع مبهورة بجرأتهم . مأخوذة بصنيعهم الذى لم يكن يخطر لأحد ببال . فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم المؤلم كما يقول البارودى

وكنا جميعا ، فلما وقعـ ـتُ صبرتُ وغادرنى معشرى

واستأنفوا حياتهم كأن لم يكن مما كان شيء .

وأدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل أى نهضة . فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرض فى حياتنا وينبهون إليها فى لين الواعظ المشفق على قومه الحريص على هدايتهم حينا ، وفى عنف المغيظ المحنق الذى غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حينا آخر . وكان من أثر ذلك أن ظهر فى أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعى الذى يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجرى من حوله ، فاحتل مكانا بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة . وطالعتنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التى تلهب المجتمع بسياط النقد المر ، وتهاجم معايبه ، وتتهكم بأساليب حياته الفاسدة. فمن ذلك قول الكاشف فى تصوير جهل الجماعات التى تتبع كل ناعق . فلا تلبث أن تنقاد لمن يزعم أنه المهدى المنتظر، حتى يوردهم الهلاك :[1]

كل يوم نرى ونسمع مهديـ ـيًا ينادى فى قومه إتبعونى

١ — الديوان ١ : ٨٠

موهما أنه رســـول من اللـ ـه أتى يستعيد مجـد الدين
وهو خال من التجارب والقو ة والعلم والهـدى واليقين
فإذا التف حوله الناس أغرا هم بإيقـاد كل شرّ كمين
وادّعىَ أنه بذلك مأمو رٌ من الوحى كالنبىّ الأمين
ومتى قام فى جمـاعته يطـ ـلب إعلان سره المكنون
فضى مورثا عشيرته كلَّ بلاءٍ مرٍّ وذكر مهين
وهى ذكرى للمسلمين فهلا خذلوا كل كاذب مفتون
ورأوا أن دينهم فى غنى عن دعوة من مضلل مجنـون

وقوله فى تصوير استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم القدرة على كل شىء : (١)

ومريدٍ لشيخه ناذر عجـــ ـلا سمينا به إليه تقرَّب
كلمـا قدم الطعام له كبَّـ ـر مستبشرا به وتأدَّب
وسطا اللص فى الدجى فتلقا ه ابنه فانثنى وما نال مأرب
ودرى الوالد الجهول بما كا ن فأثنى على الولى وأطنب
قائلا إنى رأيتُ مُغيثى فى منامى على جواد أشهب
حارساً منزلى يرد مغـيرا بالحسام المنصور فى كل مضرب
فأهان ابنه بنسبته الفضـــ ـل إلى شيخه البعيد وأغضب
فنأى عنه تاركا بل مبيحا داره بعـده لمن يتوثب
وأتى اللص ثانيا ومضى بالـ ـعجل لا يتقى خفيرا ويرهب
ثم هب المريد لا يجد العجـ ـل وعاد ابنه إليه وأنَّب
فدعا أهـله وقال لهم ما أخذ العجلَ غيرُ شيخى المحبب
فلقد خاف أن يفاجئـا اللـ ـص فلم يرض أن نُهان ونُسلب

١ — الديوان ١ : ٨٠ — ٨١

وأرانيه وهو يأكل في مرعاه في صادق المنام ويشرب

ومن ذلك قوله فى تصوير ما يسيطر على الناس من جهل ، حتى إنهم ليتعلقون بكل مشرّد مجنون وكل أحمق يغلب عليه ضعف العقل فيجعله غريب الأطوار مختلف الحال . وهم يظنون لسوء فهمهم للدين أن هذا الجنون هو دليل الولاية والقرب من الله(١)

في قريتي كان فتى مجنون — يضحك من أحواله المحزون
كأنه القرد إذا ما يطرب — والأرنب الوحشي حين يثب
فظنه قوم وليا هاديا — يكتشف الغيب ويدني النائيا
ويعلم الواقع والمستقبلا — فاتخذوه مرجعا وموئلا
وما كفاهم طاعة لحكمه — حتى دعوا من يلدون باسمه
يعطيه كل منهمُ إن نذرا — له جميع ما اقتنى وادخرا
وناب للقوم بعيراً مرضُ — فاسرعوا إلى الفتى وركضوا
فأحضروه ورجوا أن يدركه — بسره وروحه والبركة
فطاف بالبعير ثم صاحا — هاتوا له الجزار والسلاحا
فأوسعوه بالعصى ضربا — وأشبعوه حسرة وكربا
لا يُقْبَلَ النصحُ من النبيه — فكيف بالمخبول والمعتوه
وقد يُهان ذو الحجى إن ذكرا — فكيف بالجاهل حين أنذرا
هذا وعندي أن من تعلما — بمثل ذا الأحمق كان أحمقا

ومن هذا الشعر الهجائي الساخر قوله أيضا فى تصوير نفاق الذين يدعون الولاية من المشعوذين(٢) :

هاجه احد شمالا — يذكر الله تعالى
مرغيا كالجمل الصعب إذ حل عقالا

---

١ — الديوان ١ : ٨٣

٢ — ديوان ١ : ٨١

قلت هل تبغي بهذا الـ ـرقص بالله اتصالا
قال هذا خير ما ارتا ض به الراجى كمالا
تترك النفسُ به للـ ـجسم أغلالا ثقالا
فهَوَى ديناره منـ ـه وقد تاه اختيالا
ورآه أحد القو م فأخفاه احتيالا
وأحس الشيخ بالحا دث فاعتل اعتلالا
ودعا بالغوث حتى أتعب القلبَ ابتهالا
قلت يا هذا أيبكى زاهد مثلك مالا
لم لا يلهمك الذكـ ـر عن الحزن اشتغالا
فتجرد من دعاو مكنت منك الخبالا
إنما نفسك من جسـ ـمك لا ترضى انتقالا

وقوله فى وباء الكوليرا الذى اجتاح مصر سنة ١٩٠٢، مصورا فتكه بالناس، وتفشيه نتيجة للجهل والاستسلام وانتشار الخرافات وسوء فهم الناس للدين :(١)

وكم ليلٍ قضيتُ حليفَ وجدٍ وسهد فى الضراعة والصلاة
فإن أغفيتُ نبهنى مخيفا صياحُ الثاكلات الباكيات
فمن أم مضى عنها بنوها ومن أم أصيبت فى البنات
وهذا كان لى جارا وفيًّا وكانت تلك إحدى التابعات
فأحسب أننى فى الظهر مَيْتٌ إذا أبصرتَ ميتا فى الغداة
وذى هَوَسٍ يقول لقيت ليلا شياطين المنايا الدائرات
بأيديها سيوف لامعات كلمع عيونها المتوقدات
... وما حيلُ الحكومة فى مغير به وجد البلادَ مرحِّبات
إذا ماطاردته فى مكان رأت منه مِراسَ الراسخات
وكان له من الأهلين عَوْنٌ علينا فهو موفور الثبات

---
١ — ديوان الكاشف ١ : ٥٥ — ٥٧

ساوى عندهم نَفْع وضر | فما عرفوا الحُماة من العُداة
إذا لاقَوا الأطباء استعاذوا | وخاضوا فى الظنون السيئات
وأبدوا للعقاقير احتقارا | وظنوها سموما مهلكات
وقالوا : فى منازلنا دَعُونا | فإن الموت فى المستشفيات
وإن لنا من الدايات عنكم | غنىً لعلاجنا ومن الرُقاة
ولولا غفلة العلماء عنهم | لما تركوا الوساوس غالبات
إذا استهدوهُمُ قالوا استعينوا | بصبر واخضعوا للكارثات
نرى أن لافرار من المنايا | فنهزأ بالدواء وبالأساة
وما العدوى وإن نقموا علينا | سوى وَهْم النفوس الحائرات
وإن تكُ نقمةٌ فقد احتمينا | بأسرار البخارى الشافعات
وإن لنا على الله اعتمادا | وأسبابا إليه واصلات

ومن ذلك قول حافظ إبرهيم ، من قصيدة له فى الحرب اليابانية سنة ١٩٠٤ ، يصور يأسه من إصلاح المجتمع الذى شاعت فيه روح الانحلال والتخاذل والنفعية : (١)

أنا لولا أن لى من أمتى | خاذلا ما بت أشكو النُوَبا
أمة قد فت فى ساعدها | بغضُها الأهل وحبُّ الغُرَبا
تعشق الألقاب فى غير العلا | وتُفَدّى بالنفوس الرُتبا
وهى والأحداث تستهدفها | تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب القوم بها | أم بها صرْفُ الليالى لعبا

وقوله من قصيدة أخرى : (٢)

---

١ — الديوان ٢ : ٧

٢ — الديوان ٢ : ١١٠ . وقد وردت القصيدة فى «ليالى سطيح» — ص ٢٦ — الذى طبع للمرة الأولى سنة ١٩٠٦

سكتُّ فأصغروا أدبى | وقلتُ فأكبَروا أرَبى (١)
وما أرجوه من بلد | به ضاق الرجاءُ وبى ؟
وهل فى مصر مفخَرَةٌ | سوى الألقاب والرتب ؟
وذى إرثٍ يكاثرنا | بمال غــير مكتسب
وفى الرومى موعظةٌ | لشعب جد فى اللعب
يقتّلنـا بلا قَوَدٍ | ولا دية ولا رَهَب
ويمشى نحــو رايتـه | فتحميه من العطَب (٢)
فقل للفاخرين : أما | لهذا الفخر من سبب ؟
أورنى بينكم رجلا | رَكِيناً واضحَ الحسب
أرونى نصف مخترع | أرونى رُبع محتَسِب (٣)
أرونى نادياً حَفَلا | بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم | من التعليم والكتب ؟
وماذا فى مساجدكم | من التبيان والخطب ؟
وماذا فى صحائفكم | سوى التمويه والكذب ؟
حصائد ألسُنٍ جرّت | إلى الويلات والحَرَب
فهبوا من مراقدكم | فإن الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابا | ن جازت دارة الشهب
فهامت بالعلا شعفا | وهِمْنا بابنة العِنَب

ويقول محرم مصورا اشغال كل رجل بنفسه وبتحقيق مصلحته، وتوفير أسباب الثروة والجاه، لا يبالى شيئا غير ذلك :(٤)

---

١ — يقول إنه سكت حين انتابه اليأس فلامه الناس لسكوته. فلما تكلم أكبر الناس مايقول وظنوا أن مايطلبه شيء كبير لا سبيل لتحقيقه.
٢ — يشير إلى الامتيازات الأجنبية
٣ — يقصد بالمحتسب الخبير بشئون المال والاقتصاد
٤ — الديوان ٢ : ٧٦ — ٧٧

أكلُّ أمرىءٍ فى مصر يسعى لنفسه ويطلب أسباب الحياة لذاته ؟
طَرُوبُ الأمانى ما يبالى بشعبه وإن ملأ الدنيا ضجيج نعاته
يرى نفسه فوق الملائك عفة وقد ضجت الجِنَّانُ من فتكاته
إذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ سواه ولم يحفل بطول شكاته
يظل كأن الحق يتبع خَطْوَهُ إذا سار يبغى الغُنْم فوق رفاته
سواء عليه منزل السخط والرضى إذا نال ما يرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا ثراءً يصيبه وقصرا تزلُّ العين عن شرفاته
يفوق الصلاب الصمَّ إن سيم نائلا ويعتدُّ لجَّ البحر من حسناته
ويجهل ما يدرى الصبى ، ويدعى من العلم ما ينسيك ذكر ثقاته
ويأتيك بالأخبار يزعم أنها بقيةُ وحى وهى من نزغاته
ويحلف ما داجىَ ولا خان صاحبا وقد عبَّ سيلُ الغدر فى لحظاته
ولعمرى لقد مارست أهلى ودهره فأربت مساويهم على سكباته

* * *

رأى بعض رجال السياسة أن الاحتلال هو أصل البلاء ، وأن مصر لن تصبح لها نهضة إلا بإجلاء العدو الجاثم فى أرضها ، المتحكم فى أرزاق أهلها وفى مصائرهم ، والذى يعترض كل حركة حقيقية تهدف إلى النهضة . ورأوا أن الجهود يجب أن تنصرف إلى محاربته ، فإذا حققت هدفها من الجهاد بإجلائه فكل شىء بعد ذلك سهل يسير . ورأى آخرون أن ما انتاب مصر من تفكك وانحلال ، وما فتك بأهلها من أدواء ، لم يجىء نتيجة للاستعمار ، بل إن الاستعمار هو الذى كان من نتائجه وآثاره . فالاستعمار عندهم ليس هو علة هذا التأخر وإن كان من المسلم به أنه يضع العراقيل فى سبيل التقدم . ورأوا بعد ذلك أن جمع الناس على كره الاستعمار لاسبيل إليه . فالعدو قوى متحكم موفور العدة . والناس فى يأسهم واستسلامهم لا يعنيهم إلا ما يمس أشخاصهم ، لأنهم يدركون أن ما يصيب مصر من خير أو شر لا يصل إليهم منه إلا الضر ،

وإنما خيره كله لمن كانوا يسمون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية . ومن ليس له في مصر مصلحة كيف يمكن أن يحس مصريته ويدافع عنها ويقتل نفسه في سبيلها ؟

ولقى الذين يسعون إلى الإصلاح تشجيعا من كرومر ، لأن هذا الإصلاح يحقق له هدفين . فهو يشغل الرأى العام بما يطرح على بساط البحث من مسائل وما يثار من مشاكل ، فينصرف عن الانسياق فى تيار الكراهية للمستعمر التى كان يذكى نارها الحزب الوطنى الثائر . ثم إن الإصلاح يدعم فى الوقت نفسه حجة الاستعمار فى أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها ، ويقدم لكرومر مادة جديدة لفخر جديد يضيفه إلى تقريراته السنوية التى كان يتشدق فيها بما تم فى عهده من إصلاح . وهو قادر دائما على أن يضع حدا لما يراه خطيرا وضارا بمصلحة دولته بما لا يروقه من وجوه الإصلاح ، لا تعوزه الوسائل فى صرف الناس عنه بالحيلة أو العنف .

لذلك أطلقت حرية الصحافة فى الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل علاجه . وطرح على بساط البحث كثير من المسائل ، واحتد النقاش حول بعضها . وبرز بين المصلحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ، طائفة تدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو إلى الاحتفاظ بتقاليدنا الإسلامية والشرقية .

* * *

كان قوام الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربة عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين ، بعضهم من الشاميين المسيحيين الذين استقروا فى مصر ، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم فى أوروبا أو فى المدارس الأوروبية ومدارس الإرساليات الدينية التى كان عددها فى ازدياد مطرد(١)

---

١ — يراجع فى مدارس الارساليات الدينية والجاليات الاجنبية الفصل الثانى من الكتاب الخامس فى (تاريخ التعليم فى مصر) ٢ : ٨٢١ — ٨٧٥

أما الشآميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسى والنفوذ الإنجليزى . وكانت صحيفة « الأهرام » تمثل الاتجاه الأول ، بينما كان « المقطم » و « المقتطف » يمثلان الاتجاه الثانى . وكانت هذه الصحف — والصحيفة الأخيرة منها بنوع خاص — دائبة على تعريف المذاهب الغربية فى الفلسفة والأدب وسائر ضروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شىء من قديم الشرق وتراثه الفكرى . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر فى تاريخها الحافل الطويل . كما كانت تعمل من طريق خفى على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك فى العقيدة ، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يراد بها إلا تقريب الفوارق بين المصرى والمستعمرين لكى يسكن إليهم ويألفهم ، من مثل قوله فى مقال عنوانه « الناس إخوه »(١) :

« وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لترقيتها وإضعاف خلق الأثرة والتباغض وتقوية خلق الإيثار والتواد . فعلى الدين يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسدا وعقلا أن يسعوا فى إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة ، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة . وإن كانت الأديان قد فرقت بينهم فيما مضى فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن . وإن كان رجال السياسة يسعون إلى إحكام أسباب العداء بين أمة وأمة وشعب وشعب ، فعلى علماء الاجتماع أن يحبطوا مساعيهم ويسفهوا آراءهم . وعلى رسل الخير دعاة الأديان أن يجعلوا غرضهم الأول التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض . »

« ولا يخفى أن الكلام لا يفيد عشر ما يفيده العمل ، وأنه إذا كان عمل المعلم مخالفا لتعليمه ذهب تعليمه أدراج الرياح . فالمبشر الذى يعلّم أن الناس من دم واحد ويقاطع أخته أو ابنته إذا تزوجت رجلا أجنبيا لمجرد كونه من غير أمته ، ينقض بعمله كل ما يقوله بلسانه ، ويثبت للملإ أنه جاهل لا يفهم معنى ما يعلّم

---

١ — المقتطف عدد سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٨٢٧ — ٨٢٩

به ، أو منافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر . »

«ولا مثل الزواج بين الأمم لتمكين عرى الاتحاد ، فضلا عن تقوية النسل . . فإباحة التزواج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطة تربط الشعوب . وإذا سلمت من التباغض الديني والمذهبي وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع، وأصلحت ماعجزت عن إصلاحه الشرائع والسنن. ولكن اختلاف الأديان وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين به يبقى فاصلا بين الأمم وسدا منيعا يمنع اتصالها . »

«والواقع أن مثل هذه الدعوات التي تنادي بالإخاء البشري تمس قلوب كثير من الناس ، لأنها تناجي أقدس ما في الإنسان وأطهر ما تنطوي عليه فطرته . ولكنها تؤثر أكثر ما تؤثر في الأمم الضعيفة ، وفي نفوس الشباب البريء منها بنوع خاص ، لأن الضعيف وحده هو الذي يحلم بالعطف والرحمة . أما القوى فهو لا يتحدث إلا عن الفتح والغلبة . وهو يروج هذه الدعوات بين الضعفاء وهو أولى الناس بأن تستيقنها نفسه . وليس بين دعوات المبطلين شيء يشبه الحق ويلتبس به في الأفهام كهذه الدعوة إذا انتشرت بين الضعفاء الواقعين تحت عدوان الطامعين وأذى المعتدين . فقد سبقت إرادة الله (سبحانه) وهو الفعّال لما يريد ، واقتضت حكمته وهو العليم الخبير ، أن يكون التنافس بين الأفراد والجماعات هو سبيل التقدم. ولذلك خلق الناس شعوبا وقبائل وجعلهم شيعا وأحزابا . ولو شاء لجعلهم أمة واحدة . ولو شاء لجمعهم على الهدى. ولكن ليبلو بعضهم ببعض ، وليجد الضعيف نفسه مدفوعا إلى استكمال قوته وحشد كل ما أوتي من مواهب وملكات حتى يتخلص من ظلم القوي . ولا يزال الناس في كفاح وجهاد ، وفي تنافس يستهدف التفوق وبلوغ الكمال ، حتى يفنى من وجه الأرض كل ضعيف ، وحتى لا يكون على ظهرها إلا الأقوياء أصحاء العقول والعواطف والأجسام . وعند ذلك يتحقق السلام . ذلك هو ما دعانا إلى أن نقول في مقال المقتطف السابق إنه لا يستهدف إلا ترويض المصريين ، وتمكين الفارس الإنجليزي من مطيته

الجامحة بعد أن تسكن وتسلس القياد .

أما المصريون من الداعين إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فقد كانوا من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة حين عاشوا فى البلاد الأوروبية واستمدوا مثلهم العليا فى حياتهم من ثقافتهم التى لا تمت إلى الحضارة الشرقية أو الإسلامية بسبب قريب أو بعيد . فهم يعرفون عن تاريخ إنجلترا وفرنسا أضعاف مايعرفون عن تاريخ مصر أو الشرق . وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وحركات الإصلاح المسيحى أكثر مما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامى وتطوره . وهم يعرفون أعلام الفكر الأوروبى وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الشرقية والإسلامية إلا قليلا . وهم بعد ذلك يعيشون فى بيوتهم حياة تحاول أن تقلد فى مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبيات تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم . وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب ، بينما فترت الصلات الروحية والمادية بينهم وبين الشرق والإسلام ، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترن فى أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين ، فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد فى القرن العشرين .

يقول كرومر إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين . ولكنه فاشل كنظام اجتماعى . فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنسانى . ويعدد كرومر مايراه من معايب الإسلام فيقول إنه يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أحط من الرجل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لأتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم فى العقيدة أسرى حرب ورقيقا ، ويكفر كل من لا يعتقد

برسالة محمد ، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لاتتسع صدورهم لأى تسامح ، مهم لايفهمون أن الخلاف فى الرأى ليس موجبا للكراهية والحقد . ثم يأخذ كرومر فى مقارنة بين المسيحية والإسلام ، يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها . ويوازن بين أسلوب الشرق وأسلوب الغربى فى الحياة والتفكير . محاولا تحقير أسلوب الأول وتسفيهه . فالشرقيون أسرع الناس إلى تصديق الشائعات . وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذى ينتظرون فيه الملق ممن هم دونهم ، وهم لايكترثون للمستقبل ولا يتبصرون فى العواقب ولايدبرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم . وهم يدسون فى الخفاء ولا يعملون فى الضوء ، نتيجة للعصور المتوالية التى عانوا فيها من الاضطهاد . وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدفعهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ المطلق لكل ذى سلطان.(١)

هذا نموذج مما كان تكتبه ساسة الغرب ومفكروه عن الإسلام والمسلمين ، تستطيع أن تلتمس له نظائر فى مثل مقال هانوتو الذى رد عليه محمد عبده فى مقالاته المشهورة سنة ١٩٠٠ . (٢) وقد انتهى بهؤلاء الغربيين تفكيرهم إلى أن الاسلام والتقاليد الإسلامية وأسلوب الشرقى فى حياته وتفكيره — وهو يختلف اختلافا بيناعن أسلوب الغربى — كل ذلك يحول دون إيجاد علاقة مستقرة بين الشرق والغرب ، ويجعل مركز الغربى المستعمر فى الشرق دقيقا محفوفا بالخطر ، ويحوجه إلى أن يقف على حمايته بقوة دائمة يقظه . لذلك كان كرومر يحاول ابتداع روابط صناعية مفتعلة لكى تسد النقص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة والعادات والتفكير ، وهى الروابط الأساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم . ومن بين ما اقترحه فى هذا الصدد أن يكون هناك نظام مدبر لعرض

---

١ — Modern Egypt ٢ : ١٣٤ — ١٥٤ . وقد نقد روشتين هذه الآراء فى كتابه Egypt's Ruin ص ٣١١ ، ٣١٢ من الترجمة العربية .

٢ — راجع ترجمة مقال هانوتو فى تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠١ — ٤١٤ . وراجع رد محمد عبده ٢ : ٤١٥ — ٤٢٨

وجهات النظر التى تبدى عطفا معقولا على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ، لاعن طريق الحكومة . وكان يؤمل من وراء ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة من الحكمة وسعة الأفق — حسب تعبيره — ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص فى تعاون مع الأوروبيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين الذى لم يعد صالحا لأن يوضع موضع التطبيق.(١)

كل ذلك يعلل لنا ماكان يجد هذا النفر من المفكرين الذين يحتذون أساليب الحياة الغربية من تشجيع ممثل الاحتلال فى مصر ورضاه . وقد قرر كرومر فى كتابه عن عباس الثانى أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوروبية لايصلح لحكم مصر ، كما أكد أن المستقبل الوزارى سيكون للمصرين المتربين تربيةأوروبية.(٢) وهو يعترف بأن المتفرنجين من المصريين — وكثرتهم فى رأيه من المسلمين — لم يتشربوا روح الحضارة الأوروبية ولم يدركوا إلاقشورها . وهم بذلك قدفقدوا أحسن ما فى الإسلام وأحسن ما فى المدنية الأوروبية كما يقول. فهناك فرق — فى رأيه — بين المفكرين الأحرار فى أوروبا وبين من تطلق عليهم هذه التسمية فى مصر . فأحرار التفكير الأوروبيين ينسجمون مع من حولهم من المسيحيين ولا يعادونهم . بل هم لا يختلفون عنهم فى أسلوب حياتهم وتفكيرهم العملى . أما الذين يسمون أنفسهم أحرار التفكير فى مصر فهم يختلفون مع بنى جلدتهم من المتدينين ويحتقرونهم ولايدركون المدنية الغربية إلا إدراكا سطحيا . فهم لا يعرفون عنها إلا أنها تؤمن بالمادة وحدها . يقرر كرومر ذلك ، ولكنه يقول مع هذا إن المتفرنجين من المصريين ، إذا قيسوا إلى مواطنيهم ، كانوا أصلح الناس للتعاون مع الإدارة الإنجليزية .(٣)

---

١ — Modern Egypt ٢ : ٥٦٩ — ٥٧٠
٢ — عباس الثاني ص ٦٧
٣ — Modern Egypt ٢ : ٢٢٨ — ٢٣٢

ذلك شأن السابقين الأولين من المصريين الذين دعوا إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . ولكن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا على مر الأيام أن يكسبوا أنصارا من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة ، ويتوقون إلى النهضة بوطنهم ، ويرون أن من الخير أن نستفيد بتجربة الغرب ونسلك الطريق الذى سلكه فى سيره من الهمجيه إلى المدنية ، ومن وهده الضعف إلى قمة المجد ، ولايرون فى ذلك بأسا على الإسلام والمسلمين ، والشرق والشرقيين

نظر بعض هؤلاء المفكرين إلى الشرق فى تأخره من بعد عزة وغلبة ، وإلى الغرب فى تفوقه من بعد ذل وقلة ، فخيل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين هو أن يأخذوا بأساليب الغربيين فى الحياة والتفكير ، وأن يقتدوا بهم أو ينافسوهم كما يقول حافظ إبرهيم فى قصيدته التى ألقاها فى حفل كلية البنات الأمريكية بمصر سنة ١٩٠٦ : (١)

أىْ رجالَ الدنيا الجديدة مدوا — لرجال الدنيا القديمة باعا
وأفيضوا عليهمُ من أياديـ — ـكمْ علوما وحكمة واختراعا
.. ليتنا نقتدى بكم أو نجاريـ — ـكم عسى نسترد ماكان ضاعا
إن فينا لولا التخاذل أبطا — لاً إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمولُ تولاّ — ها لفاضت غرابة وابتداعا
ودعاةً للخير لو أنصفوهم — ملأوا الشرق عِزّةً وامتناعا
.. قد مللنا وقوفنا فيه نبكى — حَسَباً زائلا ومجدا مضاعا
وسئمنا مقالهم كان زيدٌ — عبقريا وكان عمروٌ شجاعا
ليت شعرى متى تنازع مِصرٌ — غيرَها المجدَ فى الحياة نِزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحـ — ـياء فخرا فى الخافقين مذاعا

ورأى هؤلاء المفكرون أن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول

---

١ — ديوان حافظ ١ : ٢٥٩

فى انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلا بعد جيل ، حتى انتهى بهم الأمر إلى ماهم فيه من تخاذل وتواكل وفتور ، وأن هذا الاستبداد قد أفسد الدين وقتل كل فضيلة ، قتل العلم ، وقتل الطموح ، وقتل الأخلاق ، وأفقد الفرد ثقته بنفسه فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرّك . ورأوا أن صلاح الأمة بصلاح الفرد ، وأن الفرد لا يصلح حتى يتخلص من أسر العبودية ورق الاستعباد ، وتكفل له الحرية فى أن يقول ما يشاء وفى أن يفعل مايشاء . ورأوا أن أوروبا لم تحقق نهضتها إلا بتقييد قوى الحاكمين ، وأنها قد وضعت لذلك نظاما يحقق سيطرة الشعب وولايته على شؤونه عن طريق الدساتير الحديثة والمجالس النيابية . فنشط الأفراد للعمل حين عرف كل منهم قدر نفسه ، وحين تحققوا أن ثمرة جهودهم لا تعود إلا عليهم ، ولا يتصرف فيها الحاكم إلا برأيهم ، ولا ينفقها إلا فيما يرون أنه عائد عليهم بالنفع والخير . عند ذلك قال هؤلاء المصلحون . لماذا لا يكون للمصرى أو المسلم أو الشرقى مثل هذه الحرية ؟ ولماذا لا ينعم بمثل هذا النظام ؟ ولماذا لا يدخل النهضة من الباب الذى دخلت منه أوروبا ؟

وتجلى أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوروبى فى دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأى العام فى مستهل القرن العشرين . أما الدعوة الأولى فقد كانت تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفتها الأمم الغربية الحديثة . وأما الدعـــوة الثانية فقد كانت تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ، على النمط الذى قامت عليه النهضة الأوروبية الحديثة بعد التخلص من نفـــوذ الكنيسة ، وتطلب من رجال الدين أن لا يقحموا الدين فى شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغى أن تتجاوز دائرة نفوذه تنظيم صلات المخلوق بالخالق ، أما تنظيم صلات الناس بعضهم بالبعض فينبغى أن يترك للساسة وللمتخصصين فى شتى فروع المعرفة . وأما الدعوة الثالثة فقد كانت تطالب بتحرير المرأة من الجهل والحجاب ، اللذين حالا بينها وبين أن تكون عضوا نافعا فى الحياة ذا أثر

فى المجتمع ، على النحو الذى بلغته المرأة الأوروبية .

***

أما الدعوة إلى الحرية فقد شملت العصر كله ، وكانت الأمنية التى يحلم بها الكتاب والشعراء ، لم يكد يخرج منهم أحد على هذا الإجماع . كانوا يطالبون بحرية الفرد فى أن يفعل مايشاء ، وفى أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وفى أن يدعو إلى الاجتماعات والندوات التى يروج فيها لمذهبه دون قيد ، وإن كان بعضهم يبدى إشفاقة فى بعض الأحيان مما يجر إليه إطلاق الحريات من بلبلة الأفكار وإفساد تفكير السذج وعقائدهم ، فى مثل المجتمع المصرى الذى يغلب عليه الجهل ، والذى لم يتكون فيه رأى عام ناضج .

وأما المطالبة بالحياة النيابية فقد تزعمها مصطفى كامل ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء ، ولم يزالوا ينفخون فيها من روحهم حتى تقدمت الجمعية العمومية فى مارس سنة ١٩٠٧ بمطالب غاية فى الجرأة ، كان من أهمها طلب دستور وبرلمان [١] ثم نقل كرومر على أثر حادث دنشواى سنة ١٩٠٧ ، وقامت من بعد ذلك الثورة التركية ، وصدر الدستور العثمانى فى يوليو سنة ١٩٠٨ ، فكان لذلك أثر عظيم فى تشجيع المطالبين بالحياة النيابية على المضى فى جهادهم . فقرر مجلس شورى القوانين فى جلسته التى انعقدت فى أول ديسمبر سنه ١٩٠٨ أن يضم صوته إلى صوت الجمعية العموميه فى المطالبة بالحكم النيابى رغم معارضة الخديوى وممثل الاحتلال . (٢)

وقد قدمت فى الفصل الرابع بعض نماذج من الشعر والنثر فى هذا الصدد ، ولكنى أحب أن أشير هنا إلى كتاب ظهر سنة ١٩٠١ ، كان من أجرأ ما كتب فى الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية . وفى محاربة الاستبداد وبيان أثره السىء فى شتى نواحى المجتمع ، علمية وخلقية ودينية واقتصادية

---

١ — روتشتين ٣٤٥ ، محمد فريد ٥٦

٢ — روتشتين ٣٤٩ ، محمد فريد ٥٦ — ٦٢

وعمرانية ، وذلك هو كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » للكواكبي . (١)

يقول الكواكبي فى أثر الاستبداد فى إفساد الأخلاق ، مبينا أن الإنسان يمتاز بالإرادة ، والاستبداد يفقده الإرادة . (٢)

« لا تكون الأخلاق أخلاقا مالم تكن مطردة على قانون ، وهذا ما يسمى عند الناس بالناموس. ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو كالحيوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد ، ويعيش كالريش يهب حيث يهب الريح ، لا نظام ولا إرادة . وما هى الإرادة ؟ هى أمّ ناموس الأخلاق . هى ما قيل فيها تعظيما لشأنها « لو جازت عبادة غير الله لاختار العقلاء عبادة الإرادة . » هى تلك الصفة التى تفصل الحيوان عن النبات فى تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حق الحيوانية فضلا عن الإنسانية ، يعمل بأمر غيره لا بإرادته . ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق فى كثير من أحواله ، إنما هو تابع لنية مولاه . »

ويبين الكواكبي الحكمة فى احتمال ما فى الحرية من مضار ، لما فيها من مزايا كثيرة ، وذلك لأن النهى عن المنكر من أهم الأركان التى يقوم عليها المجتمع السليم (٣) .

« أقوى ضابط للأخلاق النهى عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ . وهو فى عهد

---

١ - ولد عبد الرحمن الكواكبي مؤلف هذا الكتاب فى حلب سنة ١٨٤٨ م ورحل إلى مصر حين ضاقت به الحياة فى ظل الحكم العثمانى الذى كان يطارد الأحرار ، بعد أن طوف فى كثير من البلاد الاسلامية . وقد نشر فى مصر كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) فى سنتى ١٨٩٩ ، ١٩٠١ . وتوفى سنة ١٩٠٢ . وترجمته الكاملة فى (زعماء الاصلاح فى العصر الحديث) ص ٢٤٩ ـ ٢٨٠

٢ طبائع الاستبداد ص ٩٣

٣ — طبائع الاستبداد ٩٥ ـ ٩٦

الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوى المَنَعة مع الغيرة ، وقليل ماهم ، وقليلا ما يفعلون ، وقليلا ما يفيد نهيهم ، لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضرا ولا نفعا ، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئا وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم فى الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدِّرون فى عهد الاستبداد للوعظ والإرشاد فيكونون مطلقا — ولا أقول غالبا — من المتملقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير ، لأن النصح الذى لا إخلاص فيه هو بذر ميت . أما النهى عن المنكرات فى الإدارة الحرة فيمكن كلُّ غيور أن يقوم به بأمان وإخلاص ، ويوجهه إلى الضعفاء والأقوياء سواء ، ويفوِّق سهام قوارصه على ذوى الشوكة والزعماء ، ويخوض فى مواضيع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصح الذى يُغْدِى ويجدى . ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور ، أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت أن تحمل مضرة الفوضى فى ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد يخنقون بها عدوتهم الطبيعية أى الحرية . وقد حمى القرآن قاعدة الإطلاق بوضعه قاعدة (ولا يضارّ كاتبٌ ولا شهيد) »

ويقول فى إفساد الاستبداد للدين :(١)

والاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كلَّ ساعة فى شأن . وهو مفسد للدين فى أهم قسميه أى الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه فى الأكثر . ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبارات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد فى تطهير النفوس شيئا ، فلا نهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الإخلاص فيها تبعا لفقدها فى النفوس التى ألفت أن تتلجأ وتتلوى بين يدى سطوة الاستبداد فى زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق . ولهذا لا يُستغرب فى الأسير الأليف تلك الحالَ أن يستعملها أيضا مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه

١ — طبائع الاستبداد ص ١١٢

وجنسه ، حتى مع نفسه . »

وقول فى إفساد الاستبداد للتربية :(١)

« الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس ، إلى آخره . وينتج من ذلك أنه يربى الناس على هذه الخصال بناءً عليه يرى الآباء أن تعبهم فى تربية الأبناء التربية الأولى لابد أن يذهب يوماً عبثا تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت تربية آبائهم لهم سدى . ثم إن عبيد السلطة التى لا حدود لها هم غير مالكين أنفسهم ولاهم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم ، بل هم يربون أنعاما للمستبدين وأعوانا لهم عليهم . وفى الحقيقة أن الأولاد فى عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهوان والخوف والتضييق. فالتوالد من حيث هو زمنَ الاستبداد حمق ، والاعتناء بالتربية حمقٌ مضاعَف . . وغالبُ الأُسَراء لا يدفعهم للتوالد قصدُ الإخصاب ، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الملذات الحقيقية التى يُحَرمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجد والحماية ، ولذة الإثراء والبذل ، ولدة إحراز مقام فى القلوب ، ولذة نفوذ الرأى الصائب ، إلى غير هذه الملذات الروحية . وأما ملذاتهم فهى مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت ، وإلا فزابل للنباتات، ومنحصرةً فى استفراغهم الشهوة ، كأن أجسامهم خُلقت دمَّلا على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه و هذا الشره البهيمى الناشىء عن فقد الملذات العالية المذكورة هو ما يعمى الأُسراء ويرميهم بالزواج والتوالد، مع أن العِرْض كسائر الحقوق غير مصون زمن الاستبداد ، بل هو معرَّض لهتك الفساق من المستبدين والأشرار من أعوانهم ، خصوصا فى الحواصر الصغيرة والقرى المستضعف أهلهـــا . »

---

١ — طبائع الاستبداد ١١٩ — ١٢٠

ويقول فى بيان أن المجد الصحيح لا ينشأ فى ظل الاستبداد ، وإنما ينشأ فى ظله طبقة ممن سماهم « المتمجدين » . ووصف التمجد والمتمجدين بقوله :(١)

« التمجد خاص بالإدارات المستبدة، وهو القربى من المستبد بالفعل، كالأعوان والعمال ، أو بالقوة ، كالملقبين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو رب العزة ورب الصولة ، أو الموسومين بالنياشين ، أو المطوقين بالحمائل . وبتعريف آخر التمجد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف الإنسانية . وبتعريف أجلى : هو أن يتقلد الرجل سيفا من قِبَل الجبار يبرهن به على أنه جلاد فى دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وساما مشعرا بما وراءه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزركشة تنبيء بأنه صار أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر : هو أن يصير الإنسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم . »

« المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة — ومايخدعون إلا أنفسهم — بأنهم أحرار فى شئونهم ، لا يزاح لهم نقاب ، ولا تصفع لهم رقاب . فيحوجهم هذا المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التى تقع عليهم من قِبَل المستبد، بل للحرص على كتمها ، بل على إظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدّعى خلافَها ، بل على تغليط أفكار الناس فى حق المستبد ، وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم . وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل ، أنصارا للجور . وهذا ما يقصده المستبد من إيجاد المتمجدين . »

ويقول إن الاستبداد يسرى فى سائر موظفى الدولة المستبدة ، كبيرهم والصغير :(٢)

« الحكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة فى كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صِنف إلا من

١ — طبائع الاستبداد ٤٩ — ٥٢
٢ — طبائع الاستبداد ٦٠ — ٦٤

أسفل أهل طبقته أخلاقا، لأن الأسافل لايهمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبدفيهم بأنهمعلى شاكلته وأنصار دولتهوشرهون لأكل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه ... إن العقل والتاريخ والعيان ، كلٌّ يشهد بأن الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم فى الأمة ، ثم من دونه من الوزراء يكونون دونه لؤما ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم فى التشريفات ..... كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الأمة ، وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء ما لم يتفق معها على المستبد ، وما هو بفاعل ذلك أبدا إلا إذا يئس من إقباله عنده . وإن فعل فلا يقصد نفع الأمة . إنما يريد تهديد المستبد أوفتح باب لمستبد جديد عساه يستوزره فيؤازره على وِزْره . والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الدولة كما هو فى الحكومات الدستورية ... بناءً عليه لايغتر أحد من العقـــلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح ، وإن تلهفوا وإن تأففوا . ولا ينخدع النبهاء لهموإن ناحوا وإن بكوا . ولا يثقون بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا . لأن ذلك كله ينافى سيرهم وسيرتهم ، ولا ضامنَ على أنهم أصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه ، بل هم أقرب أن لايقصدوا بتلك المظاهر غـــير تهديد المستبد واستدرار دماء الرعية أى أموالها . نعم . كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد إلقاء سيفه للأمة لتكسره ، وهو قد ألف عمراً طويلا لذة البذخ وعزة الجبروت، وهو من تلك الأمة التى قتل الاستبداد فيها كل الأميال الشريفة العالية ، حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندية وهو يبكى ، فلا يكاد يلبس كُمّ ثوبها إلا ويتنمَّر على أمه وأبيه ، ويتمرَّد على أهل قريته وذويه ، ويكظّ أسنانه عطشا للدماء لا يميز بين أخ أو عدو » .

ويقول الكواكبى إن الاستبداد يفسد الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة ،

ويقلب الحقائق فى الأذهان ، وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم :(١)

« الاستبداد يتصرف فى أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حقّ الملك ليحمده عليها حقّ الحمد . ويجعله حاقدا على قومه ، لأنهم عون الاستبداد عليه . وفاقد حب وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودّ لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته ، لأنه ليس مطمئنا على دوام علاقته معها . ومختل الثقة فى صداقة أحبابه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئا ليحرص على حفظه ، لأنه لا يملك مالا غير معرض للسلب ، ولا شرفا غير معرّض للإهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالا مستقبلة ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل فى سبيلها . وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق فى الكون لذة نعيم غير الملذات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها . أين هو من الحياة الأدبية ؟ أين هو من الحياة الاجتماعية ؟ أمّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم ، بعد مراتب عديدة ، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم أو كشف الله عن بصيرته . ومثال ذلك الشيوخ ، فإنهم عندما تمسى حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون من أبواب القبور ، يحرصون على حياتهم أكثر من الشباب فى مقتبل العمر ، فى مقتبل الملاذ ، فى مقتبل الآمال » .

« الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فيضنى الأجسام فوق ضناها بالشفاء ، فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة فى الناس . والعوامّ الذين هم قليلو المادة فى الأصل ، قد يصل مرضهم العقلى إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر ، فى كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل

---

١ — طبائع الاستبداد ص ٨٧ — ٩١

تسفّل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التى يرونها على المستبد وأعوانه تبهر أبصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم فى وصفه وحكايات قوته وصولته يُزيغ أفكارهم . فيرون ويفكرون أن الدواء فى الداء . فينصاعون بين يدى الاستبداد أنصياع الغنم بين أيدى الذئاب ، حيث هى تجرى على قدميها جاهدة إلى مقرٍّ حتفها ...... وقد قَبِل الناسُ من الاستبداد ماساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى المتظلم مفسد . والنبيه المدقّق ملحد ، والخامل المسكين هو الصالح الأمين . وقد اتبع الناس الاستبداد فى تسميته النصح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة عُتوًّا ، والحمية جنونا ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضا . كما جاروه على اعتبار أن النفاق سياسة ، والتحيّل كياسة ، والدناءة لطف ، والنذالة دماثة . »

ويقول : (١) « ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا وأوتاده عملا ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنّون . ولهذا يرسخ الذل بين الأمم التى يكثر أغنياؤها أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، ويتحبب إليهم ببعض الأعمال التى ظاهرُها الرأفة ، يقصد بذلك أن يغصب أيضا قلوبهم التى لايملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوفَ دناءةٍ ونذالة ، خوفَ البُغَاث(٢) من العُقاب فهم لايجسرون على الافتكار ، فضلا عن الإنكار ، كأنهم يتوهمون أن داخل رءوسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الأخلاق فى الفقراء أن يسرّهم فعلا رضاء المستبد عنهم بأى وجه كان رضاؤه . »

هكذا صور الكواكبى فى كتابه آثار السلطة المطلقة التى لايحدها قيد فى الحكام وفى المحكومين على السواء . فتعمق فى دخائلهم ، وتسربَ إلى زوايا نفوسهم ،

---

١ — طبائع الاستبداد ص ٨٣

٢ — البغاث صغار الطيور وضعافها

محللا مدققا، لينتهي آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن تُرَدّ آخرَ الأمر إلى الاستبداد، وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع إلى الجهل أو إلى الفقر أو إلى ترك الدين هم بين مخطئين وبين عارفين يمنعهم الاستبداد وخوف الحكام أن يقولوا ما يعرفوه. وانتهى الكواكبي في آخر كتابه إلى تقديم مجموعة من المشاكل التي تتصل بنظام الحكم، وضعها بين أيدي المفكرين، ودعاهم إلى بحثها وتمحيصها ووضع الحلول لها. وختم هذه المشاكل بالمسألة الكبرى وهي (كيف نتخلص من الاستبداد؟). وتناول هذا السؤال الأخير وحده بالتحليق فقال :(٢)

« إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم لاتسأل قط عن الحرية. وقد تنقم على المستبد، ولكن طلبا للانتقام من شخصه، لا طلبا للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئا. إنما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع. وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر. فإذا نجحت لايغسل هذا السائق يداه إلا بماء الاستبداد، فلا تستفيد أيضا شيئا. إنما تستبدل مرضا مزمنا بمرض جد .... إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس وهذا لا يتأتى إلى بالتعليم والتحميس.... ومبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد، هو أن معرفة الغاية — ولو إجمالا — شرط طبيعي للإقدام على كل عمل. لكن المعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقا، بل لابد من تعيين المطلب تعيينا واضحا موافقا لرأي الكل أو لرأي الأكثرية.... ثم إذا كانت الغاية مبهمة في الأول، فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر، فيفسد العمل أيضا، وينقلب إلى فتن صماء وانقسام مهلك. ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص، واشهارها بين الناس، والسعي في إقناعهم واستحصال رضائهم بها؛ بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم. »

* * *

٢ — طبائع الاستبداد ص ١٧٢ — ١٧٧

أما الاتجاه الثانى الذى تأثر أصحابه بالحضارة الغربية فهو الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، أو فصل الدين عن الحياة وشئونها . ومن المعروف أن النهضة الأوروبية الحديثة كانت ثمرة جهاد طويل بين طلائع دعاة النهضة ، وبين الكنيسة التى كانت تبسط نفوذها على كل شىء ، وتحارب كل دعوة إلى تحرير العقل أو الرقى بالعلم . وقد ذهب ضحية هذا الجهاد الطويل كثير من العلماء ومن رجال الفكر ، منهم من قتل ، ومنهم من أحرق وأحرقت معه كتبه ، ومنهم من زج به فى السجون . وكان سيف الحرمان مسلطا على رقاب الأمراء والعلماء والملوك لأدنى خلاف يقع بينهم وبين البابا الذى كان يستمد قوته من جهل الشعوب . ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجورى السابع للإمبراطور هنرى الرابع . حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعلن حرمانه ، وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائبا فى كانوسا سنة ١٠٧٧ ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام ، متدثرا بالخيش وهو حافى القدمين وسط الثلج فى فناء القلعة . ولن ينسى التاريخ من أحرق ومن نكل به تحت آلات التعذيب فى محاكم التفتيش ، من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود. وقد انتهى هذا الصراع الطويل المرير الذى وقفت فيه الكنيسة سدا بين أوروبا وبين التقدم ، ووقف فيه العلماء موقف الاستشهاد فى الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت ، انتهى هذا الصراع الطويل المرير بانتصار الأحرار والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها فى نطاق الدين . وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وانكمش نفوذ البابا فلم يعد يجاوز حدود العقيدة ، وأصبحت شئون الدولة وتدبير نظام المجتمع فى يد رجال السياسة واستتبع ذلك تحرير الفكر الذى نشط من عقاله ، واندفع يرتاد ويكشف فى حرية لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوروبا فى مكان الذروة من القوة والمال ونفوذ السلطان والعرفان.

وكانت الشعوب الإسلامية ـ ومصر واحدة منها ـ تعيش فى حالة تشبه حالة أوروبا

فى العصور الوسطى . فقد كان الجهل السائد يجعل الناس آلات فى أيدى رجال الدين . وكان السلطان أو الخليفة يجمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية . فهو الحاكم الأعلى لمعظم الأمم الإسلامية ، وهو فى الوقت نفسه خليفة الله وظله على الأرض . وكان يسخر رجال الدين لخدمته ، فيحشدون الجماهير فى ركابه ، ويغرونهم بكل رجل حر . وبمثل ماكان البابا ورجال الدين يستغلون نفوذهم الدينى فى فرض سلطانهم السياسى وفى محاربة المفكرين ، كان الخليفة — ومن ورائه رجال الدين ومشايخ الطرق — يستغل نفوذه الدينى فى إقرار سلطته واضطهاد الداعين إلى الإصلاح . وكان البابا ورجاله غارقين فى الترف منهمكين فى الملذات وفى جمع المال ، يفرضون ضريبة العشر على كل المسيحيين ، ويبيعون صكوك الغفران ، حتى أصبحت الكنيسة تملك مايزيد على ربع الأراضى فى كثير من الممالك . وكذلك كان الخليفة غارقاً فى الترف الذى يذكرنا بقصص ألف ليلة وليلة الخياليه ، تجبى إليه الأموال من كل مكان ، وكان رجال الدين ومشايخ الطرق يعيشون فى سعة من العيش ، بفضل مايجبون من مريديهم وماتدر عليهم الأملاك الكثيرة التى وقفها أصحابها السذج على وجوه ظنوا أنها تقربهم من الله . وبمثل ماتنبه الأوروبيون إلى أن رجال الدين ليسوا من البراءة والطهر بحيث يظنون ، بدأ بعض المسلمين المثقفين يشككون الناس فى نزاهة رجال الدين . وبمثل ماتعالت الصيحات فى مختتم العصور الوسطى فى أوروبا مطالبة بعدم الاحتكام إلى الدين فيما لا يدخل فى دائرته من العلوم ، بدأ كثير من المفكرين يطالبون بالتحرر من سلطان رجال الدين ، الذين كانوا يقحمون أنفسهم ويدسون أنوفهم فيما لاعلم لهم به ، فيفتون بتحريم العلوم الطبيعية والفلسفية ، ولايرون فيما زاد على علوم الدين إلا اشتغالا بما لا يعود على المجتمع إلا بفساد العقيدة . من ذلك ما كتبه عبد القادر حمزة فى سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « خطر علينا وعلى الدين » وهو واضح الدلالة فى تأثر صاحبه بتاريخ النهضة الأوروبية ، وفى دعوته

إلى اقتفاء أثرها . وقد جاء فيه :(١)

« . . . ولقد كنت منذ عامين أحببت أن أكتب الكلمة التى أنا اليوم كاتبها نصيحة لأمتى ، واحتراما لدينها . ولكنى اعترتنى الرهبة ، وخشيت أن استفز غضبها لدعوة كنت لايزال يعتريني بعض الشك فى صحتها ، ففضلت أن أطويها خاطرا فى صدرى ، وتركت للزمن أن ينضجها ، بعد أن تثقف وتصقل فى نار البحث والتدقيق . . . والآن بعد مرور عامين طويلين ، قلبت فيهما تلك الدعوة على جميع وجوهها ، وعرضتها على محل النقد والمناقشة ، لاأجدنى أخطأت إلا فى عدم الجهر بها إلى الآن مع شدة احتياجنا إلى معرفتها والعمل بها ، لاسيما فى هذه الأيام التى شاعت فيها كلمة الدين من أناس اتخذوها تجارة ، فلم يعد يهمهم إلا أن ترددها أفواههم صباح مساء ، وسيلة للتغرير . واحتيالا لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذى يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل ، فكانت النتيجة وبالا على المسيحية والمسيحيين » .

ثم عرض موضوعه بعد هذه المقدمة فقال :

« قالوا إن الأمة إذا كانت جاهلة متأخرة ، ثم قدر لها أن تخطو إلى الأمام وتنهض راغبة فى التقدم ، فلا بدلها من أدوار كثيرة طبيعية تتناوبها واحدا بعد الآخر . وأول هذه الأدوار أن يكثر فيها الناصحون والمرشدون ، فلا يزالون يقرعون الآذان إيقاظا للنائم ، وتنبيها للغافل ، ولاتزال الأمة تغضى عن أكثر مايقولون ردحا من الزمان ، حتى يتأثر مجموعها ، كما تتأثر الصخرة الصماء من قطرات الماء ، فتهم إلى السعى وإتباع القول بالعمل . وحينئذ يصح أن يقال إنها نشطت من عقالها ، وقامت تنفض الغبار عن أكتافها ، ودخلت فى دور آخر

---

١ — المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ — ٢٤٠ . وقد رد عليه رفيق العظم فى عدد مايو سنة ١٩٠٤ بمقال يحمل العنوان نفسه « خطر علينا وعلى الدين » ، كما رد عليه محمد كرد على فى العدد نفسه بمقال عنوانه « الدين والعامة »

هو دور الحياة والعمل . »

« فإذا صح قولهم هذا — وهو مما لاشك فيه — وصح أن الأمة المصرية كانت ولا تزال متأخرة جاهلة — ولاأظن مصريا ينكر ذلك — فإنها فى الدور الأول من نهوضها . ولذلك تجدها على كثرة الصائحين بينها والمنادين فيها ، تكاد لاتفقه كلمة من عشر كلمات يلقيها عليها الناصحون والمرشدون . وخليق بنا ونحن لا نزال فى أول الطريق ، أن نتساءل : إلى أين نساق ؟ وأى سبيل نتبع ؟ وهل فيما نحن سائرون إليه نفع أوضرر ؟ حتى لانرمى بقصور النظر ، ولا نكون كالتائه فى البيداء ، لا يعلم إلى النجاة أم إلى الهلاك يسير . . . دُرْ فى البلاد طولها وعرضها واستجل غوامض أفكار أبنائها ، وسل كل من تريد منهم عن أسباب تأخرنا وانحطاطنا ، ثم عن الطريق الذى يؤدى إلى نهوضنا وارتفاعنا ، وبالجملة عن دائنا ودوائنا ، تجده مهما أطال فى الشرح وعدد من الأسباب ، لايحوم إلاحول سبب واحد تنتهى إليه جميع الأسباب . وهـــذا السبب هو الدين . فتركه والجرى على خلافه هما علة مانحن فيه . والعمل به هو الدواء الوحيد لتشفينا من كل ما أصابنا من الأمراض . دع هؤلاء وراقب معلمى أبناء الأمة ومربى أطفالها واستطلع خلاصة مايبثون من النصائح والإرشادات ، تجد أن الدين هو القدوة التى يغرسونها فى الأذهان ، مثالا لكل كمال ، ومنبعا لكل حياة ، وأساسا لكل عمران » .

ويمضى الكاتب فى استقراء طبقات الأمة المختلفة ، من كتاب وشعراء وصحفيين ، مصورا إجماعهم على أن إهمال الدين هو علة تأخرنا . ثم يقول :

« هذا كله ، وكثير غيره لا يتسع المقام لإفاضة الشرح فيه ، يدل على مبلغ تسلط الدين على عقولنا ، وانخداع أفهامنا انخداعا لا مثيل له لكل ما يأتى من جانب الدين . بل يدل على استسلاما استسلاما أعمى إلى ماضينا الذى يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد ، إن كنا نريد أن لا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء » .

ويهاجم الكاتب الذين يقحمون الدين فى كل شىء تقربا إلى العامة الذين

استولى عليهم ما يسميه الكاتب "هوَساً دينيا"، ويقول إن الذين ينادون بالدين هم أجهل الناس بالدين، ولكنهم يتاجرون باسمه، ويتخذونه مطية للتغرير والتضليل. ويعلل الكاتب ذلك بما ورثناه من الميل إلى تقليد أسلافنا المعروفين بالتقوى والورع. ثم يقدم أمثلة من تاريخ الحضارة الإسلامية، ماضيها وحاضرها، وقف فيها رجال الدين الذين أساءوا فهمه فى وجه العلم والعلماء واتهموهم بالخروج عليه ويختم هذا العرض متسائلا «هل فى النداء بالدين فائدة؟» فيقول إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين فى كل شىء، بعد أن صار إلى ما صار إليه، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالى المضر، ثم يقول:

«هذه بلاد أوربا. كان أهلها قبل العصر الذى يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعرى الدين المسيحى، متشيعين لكل ما يأتى من جانبه. فما زالوا يتغالون ويتطرفون، حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين برمته فى الكنيسة. ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم، توجههم إلى الحروب الصليبية، فيعانون المشاق ويكابدون الأهوال ويهلكون ألوفا ومئات ألوف حبا فى الدين، ثم تستأثر بالأموال فلا تجد منهم إلا ملبين خاضعين، يقدمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين. ثم تستولى على الكتاب المقدس وتحرم على غيرها فهمه وتفسيره، فيتلقون أوامرها بالرضى والطوع عملا بأوامر الدين. ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين. وما زالت على حالها، تفتئت كل يوم على الدين باسم الدين، والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمى الدين، يتفانون فى جهاد الغيرة عليها، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان، وابتدأ دور النهضة، فقام القسوس وقعدوا، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها، ينادونها: الدين الدين! اطلبى الكمال والرقى والنهضة من جانب الدين. وظلوا يصدعون آذانها بهذا النداء، حتى تنبهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوّروه لها، فنبذه البعض، وضعفت صلطته على البعض الآخر.»

ويختم الكاتب مقاله مطالبا بأن يترك الدين بيننا فى زيه الحقيق ، ذلك الثوب الأبيض الطاهر ، وأن لا تنفر الناس منه باقحامة فيما ليس من شأنه ، مناديا بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعا. ولكل أمة أن تتصرف فى مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها ، دون تقييد أو حجر على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين .

والواقع أن اندفاع بعض المفكرين إلى اقتفاء الحضارة الأوروبية قد جاء نتيجة لفساد الحكم العثمانى ولتطرف السلطان عبد الحميد فى الحجر على العقول وفى محاربة الحضارة الأوروبية ، التى كانت تغزو الشرق الإسلامى ، وتغزو تركيا نفسها ، فى أشكال مختلفة : معاهد علمية ، وشركات أجنبية ، وبضائع وملابس ، وفرش ، وأثاث . وقد أقبل الناس على المعاهد الأوروبية حين حرموا العلم الصحيح فى المدارس الحكومية ، فتلونت مشاريعهم الإصلاحية باللون الغربى الغالب على ثقافتهم . وقد نبه محمد عبده إلى الخطر الكامن فى إهمال الدولة للتعليم فى مشروع اللائحة التى كتبها فى منفاه ببيروت ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام بالأستانة سنة ١٩٠٤ هـ (١٨٨٩ م)(١) . فبين أن ذلك قد أدى إلى استحواذ الجهل على أكثر المسلمين ، وإلى دخول العلم عليهم من طريق الأجانب أصحاب المطامع فى البلاد .

وقد كان السلطان عبد الحميد والحكم التركى الفاسد هو المقصود بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية والمناداة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . كان الذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابى يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد . وكان الذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية بوصفه خليفة للمسلمين فى جمع السلطة فى يده ومحاربة أعدائه ، ويطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطانا ، وبأن تكون الخلافة أو الولاية الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم أقدر

---

١ — تاريخ الاستاذ الامام ٢ : ٥٠٥ ـ ٥٢٢

الناس على فهم الدين .

وكان كل ما كتب من هذا اللون يطبع في مصر ، لتعذر نشره في أي قطر من الأقطار العثمانية. وكانت كثرة هذه الكتب تصدر عن الشام ، ولكنها كانت تطبع في مصر ، وتقرأ في مصر ، ولا تكاد تصل في الأقطار العثمانية إلا إلى أيدي المغامرين ممن يجازفون بأنفسهم ، ويخاطرون بالتعرض لما ينتظرهم من سوء المصير إن ضبطت هذه الكتب .

ومن هذه الكتب التي طبعها الشآميون في مصر كتاب (أمّ القرى) للكواكبي (١) . وقد عالج فيه أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها . ودعا في آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحا جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك . فبين أن الترك يقدمون السياسة على الدين ، وأن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب رعاياهم من المسلمين (٢) . وعدد جملة من الحقائق التاريخية ، تثبت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب سياسي يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم (٣) . والسلطان محمد الفاتح قد اتفق سرا مع فرديناند وإيزابلا على تمكينهما من إزالة ملك بني الأحمر ، آخر الدول العربية في الأندلس ، ورضي بما جرى على خمسة مليون من المسلمين من التقتيل والإكراه على التنصر فشغل أساطيل إفريقيا عن نجدة المسلمين . في مقابل خذلان روما للإمبراطورية الشرقية عن مهاجمة مقدونيا ثم القسطنطينية . وبينما كان الأسبانيون يحرقون بقية العرب في الأندلس ، كان السلطان سليم يستأصل آل عباس بعد أن غدر بهم ، مجاوزا في ذلك كل حد ، حتى قتل كل حبلى من النساء . ورأى السلطان

---

١ — طبع في مصر سنة ١٨٩٩ . ومؤلفه هو مؤلف (طبائع الاستبداد) انظر أشرنا إلى ترجمته في هامش ص ٢٥١

٢ — أم القرى ص ١٦٣

٣ — المرجع نفسه ص ١٦٤ — ١٦٥ ، ١٧١

عبد المجيد أن من مؤيدات إدارة ملكة أن يبيح الربا والخمور وأن يبطل الحدود. والترك هم الذين أعانوا الروس على التتار المسلمين ؛ وأعانوا هولندا على جاوة والهند ، وتركوا المسلمين أربعة قرون ولاخليفة، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع ، وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولامرشد . ويبين المؤلف أن لقب الخلافة إنما طرأ على العثمانيين فى زمن متأخر ، حين كان بعض وزراء السلطان محمود يخاطبونه بهذا اللقب تفننا فى الإجلال وغلوا فى التعظيم ، ثم توسع الناس فى ذلك من بعد[١] . وعدّد مزايا العرب التى ترشحهم لخلافة المسلمين . فهم مشرق النور الإسلامى ، فيهم الكعبة والمسجد النبوى والروضة المطهرة، وبلادهم متوسطة فى موقعها الجغرافى بين المسلمين . وهى أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسيّة وأدياناومذاهب. وهى أفضل أرض لأن تكون ديار أحرار ، لبعدها عن الطامعين والمزاحمين. وأمراؤهم يجمعون بين شرف الآباء وشرف الأمهات، لبعدها عن اختلاط الأنساب بالإماء من الأجنبيات . . . إلى آخر مايعدّد المؤلف من مثل هذه الصفات[٢]. ودعا آخر الأمر إلى نقل خلافة المسلمين للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية (٣) . ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها فى شئون السياسة العامة الدينية . فليس من حقه أن يتدخل فى شيء من الشئون السياسية والإدارية فى السلطنات والإمارات . ولكنه يصدق على توليات السلاطين والأمراء احتراما للشرع . ويذكر اسمه فى الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يذكر فى المسكوكات . وهو يتولى بعد ذلك رياسة هيئة شورى إسلامية ، تنعقد مدة شهر فى كل سنة ، قبيل موسم الحج فى مكة . ويبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول إنه يختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد

---

١ — أم القرى ص ١٦٧

٢ — المرجع نفسه ص ١٥٤ — ١٥٨

٣ — المرجع نفسه ص ١٢٩ ، ١٢١

انتخابه كل ثلاث سنوات . (١)

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة ، مثل ماجاء فى تحديد وظائف الشورى العامة التى لاتخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل فقال فيما قال « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب.»(٢) ومثل قوله « والغالب أن الدول المسيحية التى لها رعايا من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من أن يجر جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حروبا دينية ، فتعمد هذه الدول إلى عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساسا . فما هو التدبير الذى يقتضى اتخاذه أمام تحذر الدول ؟ » (٣) وردَّ على ذلك بكلام طويل ، فى أن المسلمين المتنورين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد فى سبيل الله ليس محصورا فى مجرد محاربة غير المسلمين . فكل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهادا . وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة فى نفوس الدول الأوروبية (٤) « ولدى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلامية لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة . وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم ، كما أنهم لم ينفروا من الأمم التى حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر ، بخلاف الأتراك . بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله ، لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه (تلك الأيام نداولها بين الناس).

---

١ — المرجع نفسه ١٦٨ — ١٦٩

٢ — المرجع نفسه ص ١٦٩

٣ — المرجع نفسه ص ١٧٢

٤ — المرجع نفسه ص ١٧٤

فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لايتحذرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذى قرأته عليك . »

وكلام الكواكبى هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الأمم الاستعمارية عن الجامعة الإسلامية ، من تخيل الخطر الذى يهدد الغربيين فى اجتماع كلمة المسلمين ، وارتباطهم برابطة الإسلام الذى يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين ، والذى يعتبر هذا الجهاد ركنا من أهم أركان الدين.

على أن الناظر فى كلام الكواكبى يجده متأثرا بفكرة البابا الذى اتخذ مقره فى روما ، مهد المسيحية الأولى فى أوربا ، والذى يرأس المجمع الدينى ، ويتوج الملوك رعاية لسلطان الدين . كما أن الناظر فى كلامه يريبه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ، ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم .

ومن هذه الكتب التى طبعها الشآميون فى مصر كتاب لسليمان البستانى سماه (ذكرى وعبرة - الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) طبع سنة ١٩٠٨ ، وصور فى شطره الأول فساد الحكم العثمانى قبل صدور الدستور الذى أكره السلطان عبد الحميد على إصداره فى يوليو سنة ١٩٠٨ ، وصور فى الشطر الأخير بعض الآمال التى يعلقها اللبنانيون على العهد الجديد ، الذى وضع حدا للظلم والفوضى والإرهاب ويعنينا فى هذا المقام أن نقطتف من الشطر الأول من كتابه ما يوضح السبب فى كراهة بعض المصلحين لفكرة الربط بين الإسلام والإصلاح ، ومطالبتهم بالنظام البرلمانى الأوروبى ، وبفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

يقول البستانى فى تصوير فســاد الحياة الاجتماعية ، وتحكم الظلم والاستبداد(١)

---

١ — ذكرى وعبرة ص ١٨ - ١٩

« ولكن هذا الجسم(١) على قوته الكامنة ، وإن شئت فقل : على ضعفه الظاهر — لم يقو على تحمل أذية الحكومة الغابرة ، بما انتابته من ضروب الظلم ، فى عصر ليس كالعصور السالفة ، يساق الناس فيه سوقا ، ويتخذ فيه من دون الله أربابٌ ظالمون . فألوية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتنفتنا من الجهات الأربع . هـــذا وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا فى ظلمة مدلهمة . . . . فمعظم الشكوى إذاً ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وإن كانت دولة هذا الحكم قد دالت . وإنما هو من ذلك الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذى أباح الموبقات واستباح المحرمات . استبدادٌ حكم الأنذال برقاب الرجال ، فنكس الرءوس وذلل النفوس . استبداد لا مرشد له إلا التعنت عن هوى تميل به النفس إلى حيث لا تدرى ، ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غدا . . . الخ »

ثم يقدم المؤلف صورا مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله فى شتى نواحى الحياة ، حتى بات الناس مراقبين فى كل حركاتهم . يحصى عليهم الجواسيس أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يفاجئه طارق فى دياجى الظلام فيختطفه من بين ذويه ليزج به فى السجون ، أو يقذف به منفيا إلى أقصى الأرض ، أو يلقى به فى مياه البسفور ، لمجرد شبهة لا تقوم عليها بينة . « وهذه القيود والأغلال فى أعماق السجون تكاد تنتبك غيظا لكثرة ما أثقلتها المعاصم والأقدام . وهذه بنغازى وبعض المدن النائية فى أطراف السلطنة تضج متحمة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور لهفا على ملك الجثث . فيقذف بها إلى ثغريه خشية أن تبيت دفينة فى بطون الحيتان »(٢) . ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة

١ — يقصد جسم الدولة العثمانية

٢ — ذكرى وعبرة ص ٢٥ وراجع كذلك مقالا لولى الدين يكن يصور فيه إلقاء أحد الضحايا فى مياه البسفور ، وكان قد نشره فى صحيفة المقطم بعنوان « خليج البسفور فى احدى ليالى الشتاء » (الصحائف السود ٧٢ — ٧٦)

من حذر الوشاية فيقول « كانو سجينين فى بيوتهم . توجس منهم الخيفة ، إذا تجاوزوا الأبواب . وعليهم العيون مبثوثة فى المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم فى الطريق ، أم قاعدون بين جلسائهم وندمائهم فى بيوتهم، أم جاثمون بين خدمهم فى غرف نومهم ومطابخهم . لا يجسر الوزير أن يزور وزيرا ولو كان حبيبا له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلا قبل أن يفوه بكلمة ، خوف أن تؤوّل أو تنقل . تأخذه الهواجس فلا يعلم مصيره مساءَ يومه . . . ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد ، حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمثل هذا اليوم ، وطلبوا ملجأ يتقون به شر السعايات(١)

ويصور هذه الأداة المخيفة التى كانت تبعث الرعب فى قلوب الناس كبيرهم والصغير ، وهى التى يطلق عليها (الخفية) فيقول «أما الخفية عندنا فلم تكن على شىء مما تقدم، بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل فى تاريخ العالم . أقيمت لها دائرة منظمة فى المابين ؛ ودعى رئيسها بأسماء لا يدل منها شىء على مسماها ، كقولهم : مدير سياسة المابين «**Directeur de la politque du palais Imperial**» أو مدير السياسة الخارجية . ولم يكن يباح لأحد أن يدعوه باسم رئيس الخفية . . . وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعب العروق فى الجسم ، إذ كان عمالها مبثوثين فى كل دوائر الحكومة ، من الباب العالى ، إلى النظارات المنفصلة عنه ، إلى كل فرع من فروعها . وهناك شعبة منها لقراءة الكتب والجرائد وترجمة ما كان منها باللغات الأجنبية . وهناك أيضا عمال مقيمون خاصة لتناول زبدة الأخبار وتقديمها إلى المراجع العليا . وكم كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعدل على هواها ، أو تستنبط من مخيلاتها مالم يكن له أثر فى تلك التقارير ، فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الأعظم »(٢)

ويصور إسراف عبدالحميد فى التضييق على الصحافة فيقول « فكم من جريدة

---

١ — ص ٦٣ من المرجع السابق

٢ — ص ٨٤ – ٨٥ من المرجع السابق

ألغيت أو أوقفت لزمن محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوروبا ينبيء بمقتل وزير فى الصين أو أمير فى إفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير فى الهواء أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة أمر بتعطيلها ، وظل صاحبها يبحث أشهرا فلا يعلم لذلك سببا غير (الإيجاب) بل كم من مرة انقضت الصواعق على رأس الصحافى لجهله أن هذه الكلمة أو تلك قد انتزعت بحكم الاستبداد من معجم الألفاظ الكتابية ، كالقانون الأساسى ، والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية ، والديناميت والثورة ، والإنصاف ، والحرية ، أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الإنشاء ، كقولك : العدل أساس الملك ، والظلم مرتعه وخيم ، والحرية منتهى غايات الأمم بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفا عرف به علم مشهور ، كعبد العزيز ومراد ورشاد »(١)

ويصور القيود المفروضة على حرية التأليف فيقول إن هذه القيود لم تكن تحددها إلا (الإرادات السنية) . ولم يكن يباح نشر كتاب من الكتب إلا بعد أن يعرض على (مجلس التفتيش والمعاينة) فى الأستانة نفسها ، فيقرأ حرفا حرفا ، ويتعرض خلال ذلك للتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، ثم تختم كل صفحة من صفحاته إن أسعد صاحبه الحظ بالموافقة على نشره بعد طول الانتظار . والويل له إن وشى به واش بأنه غير حرفا أثناء الطبع . هذا إلى أن التأليف لم يكن مباحا إلا فى التافه من الأغراض التى لا تغنى شيئا فى تثقيف العقول أو إعلاء الهمم . وقد كان يبدو للرقابة فى بعض الأحيان أن تصادر كتابا وتحظر النظر فيه بعد أن يقرأ ويتداول بين أيدى الناس أزمانا ، لكلمة أو لعبارة تنبهت الرقابة إليها بعد حين . وقد يزج بصاحب الكتاب أو بائعه إلى ظلمات السجن . وكثيرا ما كانت تتعرض المكاتب العامة والخاصة للتفتيش المفاجيء ، وكثيرا ما كان يتذرع الوشاة بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة ، حتى ضاق تجار الكتب وهواتها بها ، وأصبحوا يفرون من اقتنائها(٢) .

١ — ص ٢٢ — ٢٨ من المرجع السابق
٢ — ص ٤٠ — ٤٦ من المرجع السابق

ولم تسلم الرسائل بعد من المراقبة « حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد إلى صديقه يحسب أن عينا أثيمة تنظر إلى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل أن يقع تحت نظر صاحبه ، فيودع كتابه من العبارات ما يدرأ شر الوشاة وشبهات المتعنتين »(١) « وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحارير وفض الأختام ولو كانت بالشمع ، حتى يخيل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الإحاطة بجميع وسائل فض الأختام لرقوا بالبلاد درجات . » (٢) . لذلك كان الناس يفضلون التراسل عن طريق مكاتب البريد الأوروبية المنبثة فى سائر الأقطار العثمانية . وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتمتع بحماية الدولة التى يتبعها ، مما يمنع يد الرقابة أن تصل إليه . وقد كانت هذه المكاتب تخدم أنصار الفساد وأعداءه على السواء . فقد كان الثوار والمتآمرون على عبد الحميد يتبادلون الأخبار عن طريقها . وكان رجال عبد الحميد يهربون ما يجمعون من المال الحرام عن طريقها كذلك . (٣)

ثم بين المؤلف أن الجماعات والأندية كانت خاضعة لمثل هذه الرقابة . فلم يكن يسمح بتألفها ، إلا ما كان منها خيريا محضا ، حيث لا بحث ولا خطابة . ومن طرائف مايرى المؤلف فى هذا الباب عن (جمعية المقاصد الخيرية) التى ألفها وجهاء المسلمين فى بيروت لإسعاف الفقراء وتربية الأيتام وإنشاء المدارس أن الوشاة وشوا بتلك الجماعة ، فقالوا : تلك جمعية ينم اسمها عن مرمى خفى . ولا حاجة بالجمعيات الخيرية أن يكون لها (مقاصد) . فلا بد من أن تكون تلك المقاصد لأمر آخر . واقضوا عليها قبل أن تقضى عليكم . (٤)

وبمثل ذلك تناول المؤلف فساد نظم التعليم الذى حرمته الرقابة من كل علم نافع ، وضيقت فيه على العقول « حتى حار المعلمون فى أمرهم . وكانوا وهم

---

١ — ص ٥٠
٢ — ص ٥١
٣ — ص ٤٧ — ٥٤
٤ — ص ٥٨ من المرجع السابق

يلقون حتى ولو مسألة نحوية أوحسابية صرفا يخشون أن توجس منهم إشارة إلى عدد يوافق أعداد سني الظلم ، أو فتحة أوكسرة تشيران إلى فتح الأعين وكسر القيود . » (١) وقد أدى ذلك إلى أن يلجأ الناس إلى المدارس الأجنبية «التي كانت متمتعة بحرية حرمت على سواها . ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال . وبثت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا . ولكنا مع اعترافنا بجزيل ماثقفت وأفادت ، لا يسعنا إلا القول جهارا إن فيها ثلمة متسعة لا يمكن سدها إلا بتغيير الأحكام . فمن من أرباب تلك المدارس ، على فضله ، يهتم ببث روح الوطنية بين تلامذته . بل من منهم ، وهم منتمون لأمم متناظرة ، لا يسعى جهد طاقته فى استمالة تلامذته إلى أمته ودولته . وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف فى الأفكار والمذاهب . وهكذا عمل الأجانب بطريق العلم على اقتسام عقــــولنا ، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا . »

هذه صورة مما آل إليه فساد الحكم كما عرضها أحد الشآميين . ومهما يكن من إنصافه وحياده فيما قال ، أومبالغته وتحامله ، فذلك ما شاع وماناقله الناس . وأعان الثــوار من الاتراك ، والمستعمرون الذين كانوا يبيتون النية على اقتسـام الإمبراطورية العثمانية ، على نشره والمبالغة فى تصويره والتهويل من شأنه ولـكن أثر ذلك كان محدودا فى الشعر ، لما قدمنا فى الفصل الأول من أسباب

فمن ذلك قول نسيم من قصيدة رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥، ينصحه فيها بالاستجابة لدعوة المصلحين . (٢)

وليتَ بلادا حلّق الجور فوقها ... وحط عليها كالعقاب فخيما
تناوىءُ فيها الحادثاتُ أديبها ... وتنـــبذ منها الحاذقَ المتعلما
إذا لم تَدارَكْها برأى وحكمة ... تبيت لفُتّـاح الممالك مغنما
بحيث يكون الملكُ فرعا مشذبا ... وحيث يصير التاج نهبا مقسما

---

١ — ص ٣٦
٢ ـ الديوان ١ : ٢٩

هناك يبيد اللهُ شعبك مثلما
أبادت صروفُ الدهر طسما وجرهما (١)

فهل لك أن تجرى العدالة بينهم فيلهج بالشكران من كان مسلما
دع العلم يفشو فى البلاد لعله يكون لإدراك السعادة سلما
وأقص الجواسيس الذين تألبوا على ضفة البسفور جيشا عرمرما

ويقول فى قصيدة أخرى :(٢)

إلى الله يرفع هذا الأنينْ ليضرب فوق يد الظالمين
بلاد غدت ملجأ للطغام وكهفا تموج بالفاجرين
فياعين نوحى على حالة ستدمى المآقى بدمع سخين
ويا قلبُ صبرا لعل الزمان ينيخ على العصبة الكاذبين
وياسيدى أجب الشعب عاما يلبٌّ نداءك طول السنين
فتلك الجواسيس أودت بنا وهم يلعبون بدنيا ودين
أتصغى إلى الزور من قولهم وماهو منهم بقول مبين
وتنفى العباد بلا زلة وماهم من الفئة الآثمين
فراقب إلهك فيما بقى وإلا عفا كله بعد حين
ولاترج تكدير ملك صفا بظلم كما كدّر الماء طين
فما أيّد اللهُ من مالك بغير العدالة فى العالمين
ومن أين يُعرَف سلطانُ قوم إذا ما نَفى قَومَه أجمعين ؟

ويقول حافظ ، من قصيدة بعث بها إلى داود عمون الشاعر اللبنانى ، يدعوه إلى الهجرة لمصر(٣) :

وخِلٌ أقام بأرض الشآم فباتت تُدِل على جارها

---

١ — طسم وجرم قبيلتان من قبائل العرب البائدة
٢ — الديوان ١ : ١٢٤ تحت عنوان (أجب الشعب ياأمير المؤمنين)
١ — الديوان ١ : ١٦٨

وأضحت تتيه برب القريض ... كتته البَوادى بأشعارها
وللنِّيلُ أولى بذاك الدلال ... ومصـــر أحق بيشّارها
فشمِّر وعجِّل إليها المآب ... وخلِّ الشآم لأقدارها
فكيف لعَمرى أطقتَ المقام ... بأرض تضيق بأحرارها ؟
وأنت المشمِّر إثر المظالـ ... ـم تسعى إلى محو آثارها

ويقول على لسان بعض المتصوِّفة فى محبوب نافر ، معرِّضا بالشيخ أبى الهدى الصيّادى ، الذى كان يتمتع بنفوذ عظيم فى بلاط عبد الحميد ، مشيرا إلى ما شاع من أمر غلامه (شكيب) ، وصلته المريبة به(١)

أخرقُ الدُّفَّ لو رأيتُ شكيبا ... وأفُضُّ الأذكار حتى يغيبَا
هو ذِكْرِى وقِبْلَتى وإمامى ... وطبيبى إذا دعوت الطبيبا
لو ترانى وقد تعمدت قتلى ... بالتنائى رأيت شيخا حَريبا
كان لا ينحنى لغيركَ إجلا ... لا ولا يشتهى سواك حبيبا
لا تعيبَنَّ يا شكيبُ دبيبى ... (إنما الشيخُ من يَدبُّ دبيبا)
كم شربت المدامَ فى حضرة الشيـ ... ـخ جهارا وكم سقيتَ الحليبا
فسلوا سبحتى ، فهل كان تسبيـ ... ـحى فيها إلا شكيبا شكيبا ؟

ويصور الشاعر السورى سليم عنجورى حادثا صحيحا أو مزعوما ، يروى فيه قصة لص ، دفعته الحاجة إلى السرقة ، فزج به فى السجن . ثم ذهبت زوجته تلتمس نجاته بالرشوة ، فلم يُرضِ المرتشين من الحكام إلا أن يجمعوا إلى الرشوة مساومتها على عرضها(٢).

يقول فى تصوير فقر اللص الذى دفعه إلى السرقة :

---

١ — الديوان ١ : ١٦٠ ، وراجع فى قصة أبى الهدى وشكيب وهربه إلى مصر سنة ١٩٠١ واستغلال الخديوى عباس له فى التشنيع بأبى الهدى الصيادى ، وما جرى من مفاوضات لإعادته إلى الآستانة : مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٤٨ — ٣٤٣

٢ — المقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٠٤ ص ٦٧٩ — ٦٨١

صبيةٌ بعضهم يسبق البعـ ض هزالا بفضل سوء الغذاء
وبنات مثل الملائك حسنا عاريات يندبن حال الشقاء
حول أمٍّ تقرّحت مقلتاها من دواهي الزمان والأرزاء
تشتكي البرد ، لا كساءٌ يقيها لدعة القرّ . لا وقودَ اصطلاء
كم نهارٍ ، كم ليلةٍ قد قضتها بين نوح وحسرة وبكاء
ظلماتٌ صواعقٌ وبروق ورياحٌ تهبُّ فصلَ الشتاء
لا بساطٌ ولا فراشٌ وثير لاسراجٌ ينيل بعضَ الضياء
شرفات بلا سُدولٍ وسقفٌ دامَ بالوَكْفِ ممطرا سيلَ ماء

ثم يقول في سعي زوجته لإنقاذه :

زوجةُ اللص بادرت بعد شهر نحو مَغْنَى رئيس رهط القضاء
حال دون اللقاء حُجّابُ باب نفحتهم بليرة صفراء
أدخلوها مقصورةً ذات عرشٍ فوقه ما كرٌ كثير الدهاء
قبّلت هُدْبَ ثوبه ثم خرّت فرماها بنظرة الكبرياء
سألته فكاك زوج أثيم رحمة بالبنات والأبناء
وحبته بعض المئات نقودا فاحتواها بغلظة وجفاء
قال هلاّ أقنعتِ بعض رفاقي فقوام الرءوس بالأعضاء
خرجت تذرف الدموع غزارا نحو عضوٍ يعز بالفحشاء
رام منها لكي ينال رضاه ما إليه نشير بالإيماء

ويختم قصيدته مقارنا بين اللص الصغير السجين واللصوص الكبار الطلقاء ، فيقول :

لزم السجنَ زوجُها ورجال السّـ ـبْي فازوا بسؤدد وعلاء
واللصوص الكبار صاروا قضاة واللصوص الصغار أهل الشقاء
سلبوا المال رشوة واستباحوا الـ ـعرض جهرا وهم من العظماء
وإذا قيل : من لنيل المعالي ؟ قيل : هذا وذاك ، دون امتراء

وإذا عُد معشرُ الفضل يوما   حسبوهم من أفضل الأذكياء
أبهذا ومثل هـذا صلاح ؟   لا ، وربّ الأنباء والأنبياء .

ويقول ولى الدين يكن ، مشيرا إلى إلقاء أحد الضحايا فى مياه البسفور ، بعد اختطافه من بين أهله فى ظلام الليل(١) .

فى ليلة ليس بها كوكب   كأنما مشرقها مغرب
يمسى سوادا كل ما بينها   ففوقها وتحتها غيهب
لا يدرك الفكر بها مطلبا   فكل ما يطلبه يهرب
جاءوا بمظلوم إلى ظالم   قالوا له هذا هو المذنب
بكى وفى الدار بكوا مثله   فكل من داره ينحب
وقد رأينا حوله صبية   تندب حين أمهم تندب
قالوا اجعلوه مثل أترابه   من كان من مذهبه يذهب

. . . .
. . . .

وأقبل الصبح على أيتم   وصبية ليس لديهم أب
يابحر لو تنطق أخبرتنا   ماقال من غُيِّب إذ غُيبوا

هذه صور من اضطراب الحكم العثمانى وفساده ، كان لها أثر ملحوظ فى مطالبة الناس بتقيد سلطة الحكام ، وبفصل السلطة الدينية عن السلطه المدنية .

* * *

أما الاتجاه الثالث الذى تأثر أصحابه بالحضارة الأوروبية وهو المطالبة بتحرير المرأة من الجهل والحجاب ، وتمكينها من أن تكون قوة فعالة وأداة نافعة فى المجتمع ، فقد كان يتصل اصالا رثيقا بالاتجاهين السابقين ، لأنه يعتمد أولا على أن الحرية الشخصية قد أصبحت فى العصر الحديث حقا لكل إنسان — ذكرا كان أو أنثى — ثم هو يعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعى من سلطان

١ — الديوان ص ٦ ، الصحائف السود ص ٧٢

رجال الدين الذين يعتبرون التقاليد والأوهام التى ورثناها عن أسلافنا جزءا من الدين .

وقد كان أهم ماظهر فى هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين ـ الذى استحق من بعد عن جدارة لقب (محرر المرأة) ـ وهما (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) . وقد طبع الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ ، وطبع الثانى سنة ١٩٠٠ . وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة فى ذلك الوقت ، وكانا موضع أخذ ورد فى الصحف ، خرج فى كثير من الأحيان إلى مايشبه المهاترة .

أما كتاب (تحرير المرأة) فقد انصرف جهد المؤلف فيه إلى التدليل على أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غلب المنهج العلمى الحديث على كتابه الثانى (المرأة الجديدة) ، فأقام بحثه فيه على التفكير المنطقى الذى تدعمه الأرقام والوقائع ، وتؤيده آراء الباحثين الغربيين . وقد كان موضع الحديث عن الكتاب الأول أن يجىء عند كلامى عن الإصلاح الإسلامى ، ولكنى رأيت أن أعجل به لأضعه فى مكانه من الكلام عن شئون المرأة ، ولأصل بين الحديث عنه وبين الحديث عن (المرأة الجديدة) ، الذى هو أكثر تصويرا لأثر الثقافة الأوروبية فى تفكير المؤلف .

يرى قاسم أمين فى كتاب (تحرير المرأة) أن « الشريعة الإسلامية إنما هى كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق لها أن تكون شرعا عاما يمكن أن يجد فى كل زمان وكل أمة مايوافق مصالحها . . أما الأحكام المبنية على مايجرى من العادات والمعاملات ، فهى قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان . وكل ماتطلبه الشريعة فيها هى أن لايخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة . »(١) ولكنا ظلمنا الإسلام وعرضناه لأن ينسب

---

(١) تحرير المرأة ص ١٦٩

إليه الغربيون تأخر المرأة الشرقية . ولو كان لدين من الأديان سلطة على العادات لكانت المسلمة فى مقدمة نساء العالم ، لأن الإسلام سبق كل شريعة سواه فى تقرير مساواة المرأة بالرجل . (١) وهو يتناول فى كتابه أربع مسائل وهى : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . ويبرهن على أن الإسلام قد أنصف المرأة فيها جميعا .

أما الحجاب ، فهو يعتبره أصلا من أصول الأدب يلزم التمسك به . ولكنه يطالب بأن يكون منطبقا على الشريعة الإسلامية (٢) ثم يقول إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة . وإنما هى عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين ، والدين منها براء (٣) ويورد قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن ، إلا ماظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن . ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أوآباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو أخوانهن أو بنى أخواتهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن .) فالآية قد أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبى عنها ، غير أنها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها و تعيينها إلى ما كان معروفا فى العادة وقت الخطاب. واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء فى الآية .

---

١ — ص ١١

٢ - ص ٥٥

٣ — ص ٥٩ . ويراجع فى بيان دور الحجاب عند المسلمات كتاب (المرأة الجديدة) ص ١٤٧ — ١٤٨

ووقع الخلاف بينهم فى أعضاء أخر كالذراعين والقدمين . ويمضى قاسم أمين فى التدليل على فساد الحجاب . فيقول إن للمرأة حق التعاقد شرعا ، فكيف يتعاقد معها الرجل دون أن يتحقق من شخصها . ويقول إن الشرع قد أباح للخاطب أن ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، ولكنا ضيقنا على أنفسنا فيما وسّع الله . ويرد على الذين يتذرعون بخوف الفتنة فيقول إن خوف الفتنة يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال ، وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات به . ثم يتساءل متهكما (ولماذا لا يؤمر الرجال بالتبرقع خوفا على النساء من الفتنة ؟ هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر على ضبط النفس ؟ ثم ينتقل قاسم أمين إلى الكلام عن الحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها وحظر مخالطتها بالرجال . فيقول إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبى ،ويستشهد على ذلك بالآيتين (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم.. . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا . إن ذلكم كان عند الله عظيما .) و (يانساء النبى لستن كأحد من النساء . إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى .) أما نساء المسلمين عامة فهم منهيون عن الخلوة بالأجنبى فقط ويستشهد على ذلك بما ينقل عن الطبرى من قصة عمر بن الخطاب وقد دخل عليه ضيف فأمر له بالغداء . ودعا زوجته (أم كلثوم) إلى مشاركتهما.

أما اشتغال المرأة بالشئون العامة ، فهو يقدم فيه من الأمثلة التاريخية ما يدل على أن عددا غير قليل من النساء قد كان لهن أثر واضح فى مصالح المسلمين العامة فى صدر الإسلام . فمكانة عائشة وأم سلمة من رواية الحديث معروفة . وتدخل عائشة فى مسألة الخلافة العظمى أيام على معروف. وقد غزت أم عطية مع النبى سبع غزوات وكانت تخلف المحاربين فى رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوى الجرحى وتقوم على المرضى . وهو يرى أن الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا المرأة على

الرجل مثل الخلافة والإمامة والشهادة فى بعض الأحوال إنما روعى فيها عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى الأسرة وحصر الوظائف العامة فى الرجال، وهو تقسيم طبيعى . على أن الإسلام قد خول المرأة حقوقا عظيمة فى كل الأعمال المدنية ، ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل .

أما تعدد الأزواج فهو يرى أن الإسلام قد أنصف المرأة فيه،ولكن الفقهاء هم الذين انصرفوا إلى مناقشة الألفاظ . وهو يوازن بين تعريف الفقهاء للزواج، وبين وصف القرآن له . والفقهاء يعرفون الزواج بأنه (عَقْد يملك به الرجل بُضْع المرأة) . والله تعالى يقول فى شأنه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . والناظر فى التعريف الأول الذى فاض به علم الفقهاء ، والتعريف الثانى الذى نزل من عند الله ، يرى إلى أى حد وصل انحطاط المرأة فى رأى الفقهاء ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين . ويبين قاسم امين أن الإسلام قد منح المرأة حقوقا لا تقل عن حقوق الرجل . فالله تعالى يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) ويقول (وعاشروهن بالمعروف) ويقول جل شأنه تعظيما لحقهن (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) . والرسول صلوات الله عليه يقول (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله) وقد كان صلوات الله عليه يخدم النساء حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت الركوب . ثم يبين أن نصوص القرآن فى تعدد الزوجات تحتوى إباحة وحظرا فى آن واحد . فالله تعالى يقول (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أوماملكت أيمانكم. ذلك أدنى أن لا تعدلوا)

ويقول (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة . وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) فقد علق الشارع وجوب الاكتفاء بوحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع . ولكن الفقهاء هم الذين قصروا ما أوجب الله من العدل

بين النساء على النفقة وما شا كلها . ويبين المؤلف أن تعددالزوجات من العادات القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ، ومنتشرة فى جميع الأنحاء . وأنه تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فتكون غالبة فى الأمة التى تكون حال المرأة فيها منحطة، وتقل أوتزول عندما تكون حالها راقية . ويقول إن الشعور بحب الاختصاص طبيعى فى المرأة كما أنه طبيعى فى الرجل . أوهو على الأقل ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته الحيوانية إلى ما أعدله من الكمال الإنسانى ،وأن خيرما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة، إلا فى حالات الضرورة كالمرض المزمن ومثل أن تكون عاقرا . أما فى غير ذلك فليس تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية .

أما الطلاق، فيبين قاسم أمين أنه كان منتشرا عند اليهود والفرس واليونان والرومان، ولم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن نشأتها . ثم يقول إن الذين يريدون بالزواج أن لا يحل عقدته إلا الموت إنما يطمحون للكمال المطلق ، ولا يراعون الطبيعة البشرية والضرورات التى تجعل الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر . وهذا هو الذى دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق . ولكنه يلاحظ أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها . ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلا يجب أن ترد إليه جميع الفروع فى أحكامه ، وهو أن الطلاق محظور فى نفسه مباح للضرورة ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث. فالله تعالى يقول (فإن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من اهلها . إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح. وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) وجاء فى الحديث (أبغض

الحلال عند الله الطلاق) (لا تطلقوا النساء إلا لريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات .) والإمام علي يقول (تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش.) ثم يقول إن الأصل فى الطلاق الحظر ، والإباحة للحاجة إلى الخلاص. أى أنه محظور إلا لعارض يبيحه . ولكن الفقهاء لم يراعوا فى التفريع تطبيق هذا الأصل الجليل على طريقة واحدة متساوية ، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع. ويورد أمثلة من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها . ثم يقول إنه لا ينبغى أن يقع الطلاق بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . فاللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلا على النية . وينتهى المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام القاضى ، فى وثيقة رسمية بحضور شاهدين ، بعد نصح الزوج أولا ، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجة ثانيا ، على أن يتقدما بتقرير فى حالة إخفاق مسعاهما فى الصلح .

ذلك عرض موجز لكتاب (تحرير المرأة) ، يتضح منه منهج المؤلف فى التوفيق بين الإسلام وبين حاجات العصر . وهو يعرض فى خلال كلامه لبيان المضار الناشئة عن الجهل والحجاب . فالمرأة التى تبيع جسدها ليست مدفوعة بالشهوة ، ولكن الذى يدفعها إلى ذلك هو الجهل والعجز عن كسب قوتها من طريق شريف . والنقص الذى نشاهده فى أخلاقنا ، وما أصابنا من فتور وقلة اكتراث ، وما ابتلينا به من بلادة فى الإحساس وفى تذوق الجمال ، كل ذلك إنما هو ناشىء من نقص تربيتنا الأولى التى تقوم عليها الأم . والتعليم وحده لا يكفى فى نظر قاسم أمين لتكوين المرأة تكوينا سليما يجعل منها أداة صالحة للقيام على الأولاد وعلى خلق الرجال فلا قيمة للقراءة إذا لم تؤيدها التجربة والمشاهدة . ولذلك فهو ينادى برفع الحجاب، لأن حجاب المرأة فى منزلها يحبسها فى هذا العالم الضيق ويحول بينها وبين العالم الحى ، عالم الفكر والحركة والعمل ، ويجعلها لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع فى عالمها الضيق من سفاسف الأمور . ويدحض المؤلف فى مواضع متفرقة من كتابه بعض الأوهام المستولية على عقول الناس ،

مثل ما يزعمون من أن تعليم المرأة يؤدى إلى فساد أخلاقها ، وما يتخيلون من أن رفع الحجاب يمهد للفساد ، وما يحتج به بعض المعارضين من خوف الفتنة إذا انتشر السفور .

ولا يخلو الكتاب من تهكم فى بعض المواضع بجمود الجهلة من رجال الدين الذين أساءوا إلى الإسلام وشوهوا جماله وسماحته. مثل قوله مشيرا إلى انصرافهم عن دراسة العلوم[1]: « من رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشئون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى إعراب البسملة ما يزيد من غير مبالغة على ألف وجه على الأقل . يزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب الرزق من غير وجهه ، وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ، ونيل ما يتوهمونه شرفا ورفعة . ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم . » ومثل قوله فى تصوير انصرافهم عن لب المسائل إلى البحوث اللفظية فى الطلاق(٢) « والذى يطلع على كتب الفقه يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ ، والتفنن فى فهم معانيها فى ذواتها ، بقطع النظر عن الأشخاص . لهذا قصروا أبحاثهم جميعا على الكلمات والحروف ، وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم : طلقتُكِ ، وأنتِ طالق ، وأنت مطلّقة، وعلىّ الطلاق ،وطلّقتُ رِجْلك،أو رأسك ، أو عرقك وما أشبه ذلك . . . . على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق جديدة . وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية ، كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقةً كلّ من له إلمام — ولو سطحى بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم . »

---

١ — تحرير المرأة ص ١٠٨

٢ — المرجع السابق ص ١٥٣

أما كتاب (المرأة الجديدة)، وهو الأكثر اتصالا بهذا الموضع الذى نتحدث فيه عن أثر الحضارة الغربية، فقد نهج فيه قاسم أمين منهجا علميا دقيقا. فهو يرفض أن يقبل أى دعوى من الادعاءات الذائعة دون أن يقوم عليها الدليل العلمى القاطع. فيطلب إلى المصريين أن يتخلصوا مما وقر فى نفوسهم من أن عاداتهم هى أحسن العادات، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات. فطالب الحقيقة لا يجب أن يجرى فى إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجرى نقده للحوادث الاجتماعية على أسلوب علمى.(١) وينبه فى موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمى، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة صحيحة فى معرفة حقوق النساء، فننظر فى الوقائع التى تمر أمامنا، فنتصور نظريتنا مطبقة فى قرية ثم فى مدينة ثم فى إقليم، ونتمثل النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل. ونصورهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى المصانع. ثم نستعرض حال النساء فى غير بلادنا ونقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها.(٢) ويبين قاسم أمين فى موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتاب يبنون أحكامهم على الشهوات. وإن وجد بينهم المنصف كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملة. وأشدهم اقتصادا فى ذمه يرميه بالطيش والخفة، توهما منه أن الاعتراف بفضل الأجنبى مما يزيد طمع الأجانب فينا. والواقع أن السبب فى طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه(٣). ويؤكد فى موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافيا للإحساس الدينى كما يزعم كثير من الناس. ويضرب لذلك مثلا بالذى يثنى على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه. ثم يتساءل: فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته؟ ويؤكد أن خدمة

---

١ — المرأة الجديدة ص ٧٥

٢ — المرجع نفسه ص ٨٣

٣ — المرجع السابق ص ١٩٤

العلم هى عبادة ، لأنها اعتراف ضمنى بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وذلك يقود حتما إلى الاعتراف بعظمة خالقها . هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس وينمى الإحساس الدينى ، لأنه يكسب صاحبه الاعتياد على ضبط النفس ، الذى هو من أهم أركان الأدب (١)

يناقش قاسم أمين فى كتاب (المرأة الجديدة) كثيرا من الادعاءات الشائعة التى توارثها الناس والتى يتناقلونها ويبنون عليها تفكيرهم كأنها مسلّمات . فمن هذه الادعاءات مايزعمون من أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات . وهو يرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجى والتجربة فى البلاد التى منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل فى الملكات . كما يرد عليه بأن الحكم على استعداد المرأة لايكون عادلا ومنصفا ومستوفيا لشرائط البحث العلمى المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التى منحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة . ويرفض قاسم أمين أن يصدق مايذاع من أثر حرارة الجو فى إثارة الشهوة ، مما يتذرع به الداعون إلى الحجاب فى البلاد الشرقية الحارة ، مالم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمى . ويستشهد بكلام عالم إيطالى يقول إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة ، وأن اختلاف الأجواء لا أثر له فى ذلك ويعتمد المؤلف على علم النفس وعلى علم وظائف الأعضاء فى التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم مايعين الإنسان على ضبط نفسه ، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء . وهو يطبق هذه النتائج العلمية على نسائنا ، فيرى أن نظام الحياة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل إلى الشهوات ، لأن سجنها والتضييق عليها فى وسائل الرياضة يعرضها دائما لضعف الأعصاب . ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . ثم إن زيادة الحجر على البنت كلما تقدمت فى السن ، والتشدد فى نهيها عن مخالطة

١ — المرأة الجديدة ص ٢٠١ — ٢٠٣

الرجل ، يلفت ذهنها فى سن مبكر إلى مابين الجنسين من اختلاف . هذا إلى أن الألفاظ والصور المحركة للشهوة ، التى تستقر فى نفس الطفل والصبى من الأحاديث التافهة التى تترامى إلى أذنه بغير تحفظ من أحاديث الأمهات الجاهلات تترك أثرها العميق فيه.

ويقيم قاسم أمين الدليل من حياتنا السياسية على أن الحرية هى منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته بأساس كما له الأدبى ، ثم يطبق ذلك على المرأة ، فيقول : « عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى . فكانت النتيجة انحطاطا عاما فى جميع مظاهر حياتها ، انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق ، وانحطاط فى الأعمال . ومازالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسما ضعيفا عليلا ساكنا يعيش عيشه النبات أكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ماذا تصنع بحريتها الجديدة » « وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء . أول جيل تظهر فيه حرية المرأة تكثر الشكوى منها ويظن الناس أن بلاء عظيما قد حل بهم ، لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية. ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقى ملكاتها العقلية والأدبية . وكلما ظهر عيب فى أخلاقها يداوى بالتربية ، حتى تصير إنسانا شاعرا بنفسه . »[1] ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبى لا يختلف فى سيره عن النمو المادى. فالطفل يحبو قبل أن يمشى . ثم يتعلم المشى بالتدريج مستندا إلى الحائط أو إلى قائد يقوده ، فإذا استقل بالمشى لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات تلك سنة الله . فلا يجوز أن نتخيل أن فى إمكاننا الخلاص منها أو الفرار من قيودها . ولا ينبغى أن نكون كالأب الأحمق الذى يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشى حتى إذا كبر عاش مقعدا مشلول الرجلين .

---

١ — المرأة الجديدة ص ٧٠ — ٧١

ويقسم المؤلف مسئوليات المرأة تقسيما علميا إلى ثلاثة أقسام (١) ما تحفظ به نفسها (٢) ماتفيد به أسرتها (١) ما تفيد به المجتمع الإنسانى. وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذى يتصل بمشاركة المرأة فى الأعمال العامة،لأن دورها فيه لم يكن فى نظره قد جاء وقتداك. ويقول فى القسمين الآخرين إنه مهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة، فليس فيهم من ينكر أنها لاتستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قوتها الحيوية، وتعدها للقيام بحاجات الحياة الإنسانية وضروراتها، كما أنها لاتستغنى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها فى الأسرة. ثم يبين أننا قد ورثنا الصورة التى كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم على الغزو والنهب، ومن ثمّ لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به فى الدولة. ثم لم يكن لها نصيب فى تربية الولد، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه، ليشب مقاتلا لاعالما فاضلا: فصورة المرأة هذه التى ورثها المسلمون عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضى، ولكنها مزورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل، لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية قد تغيرت تغيرا تاما. فقد اتسع الميدان لتجادل العقول. والمرأة إنسان مثل الرجل، زينته الفطرة بموهبة العقل. فمن حقها أن تسمو إلى مرتبة الرجل أوما يقرب منها على الاقل. ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧، الذى يدل على أن جملة النساء اللاتى يشتغلن بحرفة أوصنعة هو ٦٠٣ر٧٢١ وهذا العدد يساوى ٢ ./. من النساء، ولا يدخل فيه الفلاحات اللاتى يشتغلن بالزراعة، ولا الأجنبيات اللاتى تبلغ نسبة المحترفات فيهن ٢٠ ./.، كما لا يدخل فيه النساء اللاتى لاعائل لهن ممن يعيش عالة على أقاربهن، أو ممن يستعملن لكسب العيش وسائل لا يعترف بها. ولا يدخل فيه الزوجات اللاتى لايكفى كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن. ثم يتساءل قاسم أمين: أفلا ينبغى لهذا العدد من النسوة اللاتى تقضى عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعنيهن فى معركة الحياة؟ وهو لايعارض فى أن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد. ولكنه يرى

أن من الخطأ أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة . ففى النساء من لم تتزوج ، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت ، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله . وفى المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد . ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة . فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن ، ويقولون إن الضرورات تبيح المحظورات . ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة ، كالخدمة فى البيوت ، وبيع السلع الزهيدة فى الطرقات .

أما القسم الثانى الذى يتكلم المؤلف فيه عن مسؤلية المرأة أمام أسرتها ، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال فى القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الموتى من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن . ويرجع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية . وهو يقول إن المرأة المهذبة الحرة هى وحدها التى يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم فى أسرتها . أما المرأة الجاهلة المستعبدة ، فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم فى البيت . فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها ، ولا يمكنها أن تدير بيتها ، ولا تصلح لأن تربى أولادها . ذلك لأن أعمال الإنسان تصدر عن أصل واحد هو علمه وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقيا كان أثره فى كل شىء كبيرا نافعا حميدا . وإن كان منحطا كان أثره فى كل شىء حقيرا ضارا غير محمود . ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثر جهل الأم ، مثل منع الطفل من اللعب كى لا يشوش عليها ، ومثل تخويفه بموهمات تثير فى ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ومثل وعده بوعود لا تفى بها إذا أرادت مكافأته ، وإظهار الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد ، ثم ضمه وتقبيله وإظهار غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ما أتت .

ويتساءل المؤلف عن علة تأخر الأمم الإسلامية . ويفترض لذلك ثلاثة

أسباب ، هى الإقليم ، والدين ، والأسرة . ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمة صحيحة أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا . ولأن المسلمين قد برهنوا فى ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقى فى المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الامم التىرقية التى لاتدين بالإسلام تشاركهم فى ذلك ، لأن وضع المرأة فيها لايختلف عن وضعه فى الأمم الإسلامية . ويقول المؤلف إن العلوم التى يتلقاها الأبناء فى المدرسة لاتزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لاينفذ منها شىء إلى باطن نفوسهم ، فتكون داعية للعمل حافزة إليه . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم فى أول السن «هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل ، لايظهر ولايقويه ولاينميه إلا التربية البيتية ، ولاعامل لها فى البيت إلا الأم . فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل ،وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة . وتنفث فيها روح العواطف الكريمة . » (١) ويختم كلامه عن هذا القسم بقوله : « ولكن المتأمل إذا روّى فى الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصه يجب مراعاة أحكامها لنمو الحياة واستكمال قواها ، سواء فى الأفراد أو فى الجماعات . وإن كل مخالفة لهذه القوانين لها أثر سىء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية . فالتعويل على حرمان المرأة من حريتها فى اتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد فى منع بعض النساء من إتيان ماينشأ عن ذلك الضرر . ولكن من المحقق أنه بجانب هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجلب ضررا عاما مستمرا ، وهو تعطيل النمو فى ملكات صنف النساء بتمامه . » (٢)

وقد اتسم كتاب (المرأه الجديدة) إلى جانب هذا الطابع العلمى الغالب.

---

١ — المرأة الجديدة ص ١٣٨ - ١٣٩.

٢ — المرأه الجديدة ص ١٥٤

عليه بالاعتماد على آراء العلماء الغربيين(١) ، وبمهاجمة رجال الدين الذين شنوا عليه هجمات قاسية ، واتهموه بالتفرنج وبإفساد تقاليد الإسلام ، بعد أن نشر كتابه الأول (تحرير المرأة) . وقد جرته مهاجمة رجال الدين إلى القسوة فى الحكم على الحضارة الإسلامية فى بعض الأحيان . فقد كان معارضو قاسم أمين يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الإسلامية وحدها . ولذلك فهو يرد على ذلك بأن الحضارة الإسلامية قامت على دعامتين : الأساس الدينى الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة ، والأساس العلمى الذى ارتقت به الأمة الإسلامية وآدابها . ثم يقول إن العلم كان وقتذاك ضعيفا فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضربا من الظنون التى لم تؤيدها التجربة . ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال الدين ، ووضعوهم تحت رقابتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التى يؤولونها . وبذلك حملوا الناس على إساءة الظن بالعلم ، فنفروا منه وهجروه ، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعا باطلة إلا العلوم الدينية . بل قالوا فى العلوم الدينية نفسها إنها يجب أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقدمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة . واستطاع العلم أن يشيد بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر فى هدمه . وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وينتهى قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التمدن الإسلامى قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم . فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشرى ؟ ثم يبين أن كثيرا من ظواهر التمدن الإسلامى لا يمكن أن تدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . ويضرب الأمثلة من نظم هذا التمدن فى الحكم ، وهى فى رأيه أقل من المستوى الذى بلغه اليونان والرومان فى كفالة الحريات . كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية فى

---

١ — تراجم أمثلة لاعتماد قاسم أمين على آراء الغربيين فى كتاب المرأة الجديدة ص ٨ — ١٧ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٦ — ١٢٧ ، ١٦٧

الانحلال ، وأن الفرق واسع بينه وبين النظم والقوانين التى وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الأسرة . ويختم ذلك متسائلا : إذا كانت هذه حالهم ، فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟ وأى شىء منهـا يصلح لتحسين حـالنا اليوم ؟ ثم يقول : « متى تقرر أن المدنية الإسلامية هى غير ماهو راسخ فى مخيلة الكتـاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت فى الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاب المرأة كان من أصولها أولم يكن . وسواء صح أن النساء فى أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أولم يصح . فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها فى عصرنا . » (١)

ويدعو قاسم أمين فى آخر كتابه دعوة صريحة إلا الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، فيقول — بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضى هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز : « هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه . وليس له دواء إلا أننـا نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . إذا أتى ذلك الحين — ونرجو أن لا يكون بعيدا — انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة . وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت، وسواء كانت مادية أوأدبية ، خاضعة لسلطة العلم . لهـــذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيهـا وطرقهـا ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل . . . هذا هو الذى جعلنـا (نضرب الأمثال بالأوربيين) ونشير بتقليدهم ، وحملنا على أن (نستلفت الأنظار

---

١ ـ المرأة الجديدة ١٨٣

إلى المرأة الأوروبية) . » (١)

ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث فى الشرقيين من شوق إلى مجاراة الغربيين، بعد أن اختلطوا بهم فتبينوا سوء حالتهم الاجتماعية حين قاسوها بحالة الغربيين . ويقول إن الكتاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم لا يترك أثرا إلا إذا وصل إلى النساء ، الذين هم حجر الزاوية فى تربية الأجيال . فإذا أراد المصريون أن يصلحوا حالهم ، فعليهم أن يبدءوا الإصلاح من أوله « وهذه الحقيقة مع بساطها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها فى العام الماضى ضربا من الهذيان . وحكم الفقهاء بأنها خرق فى الإسلام وعدها الكثير من متخرجى المدارس مبالغة فى تقليد الغربيين . بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهموا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أمانى الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامى ، ومن يعضدها من المسلمين فليس منهم ، إلى غير ذلك من الأوهام التى يصغى إليها البسطاء ، ويتلذذ باعتقادها الجهلاء ، لعدم إدراكهم منافعهم الحقيقية . ونحن لا نرد عليهم إلا بكلمة واحدة ، وهى أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا ، فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا ، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فيما من حالتنا الحاضرة . » (٢)

* * *

إلى جانب هذه الطائفة التى كانت تحاول النهضة بمصر وبالشرق وبالمسلمين عن طريق الأخذ بأساليب الحضارة الغربية التى أثبتت نجاحها وتفوقها ، كان هناك فريق آخر يرى أن الأمم الإسلامية التى سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن نهض على أساس اعتناق مبادىء الغرب، لأن هذا لا يؤدى إلا إلى إفناء نفسها فيه ، ولا ينتهى إلا إلى إعجابها بالمستعمرين، وسكونها إليهم ، وأنسها بهم. وعند ذلك لا تجد فى نفسها ما يحفزها للتخلص منهم ، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها . لذلك

١ — المرأة الجديدة ص ١٨٥ — ١٨٦
٢ — المرأة الجديدة ص ٢١٥ — ٢١٦

نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا .

وقد كان من أشد ما أفزع أصحاب هذا المذهب أن شباب المسلمين ممن فتنتهم المدنية الغربية قد استقر فى وهمهم أن النسبة إلى الدين سُبَّة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه معرة ، حتى لقد احتاج أديب من أدباء ذلك العصر وهو الشيخ طه حسين إلى أن يعتذر عن بدء محاضرة له فى اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال: «سيضحك منى بعض الحاضرين إذا سمعنى أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر .»(١)

لذلك أخذ هؤلاء المصلحون يضربون للناس الأمثال بزعماء الغرب أنفسهم ممن يحترمون دينهم ولا يرون الوطنية إلا شعبة من الإيمان . وهذا هو محمد عبده ينقل عن بسمارك قوله:(٢) «لو نقضت عقيدتى بدينى لم أخدم بعد ذلك سلطانى ساعة من زمان . إذا لم أضع ثقتى فى الله لم أضعها فى سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إلىّ تجدونى ملكت من موارد الرزق ما يكفينى ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ولم أجهد نفسى فى العمل ؟ ولم أعرضها للهموم والآلام ؟ لا يبعثنى على شىء من هذا إلا شعورى بأننى فى جميع ذلك أعمل عملى لوجه الله .... اسلبونى هذا الإيمان تسلبونى محبتى لوطنى . اعلموا أننى لو لم أكن مسيحيا مخلصا لم يكن لكم وزير كبير مثلى يدبر أمر الاتحاد الألمانى . »

واتجه الشعراء إلى تدعيم هذه الفكرة وإقرارها وإحلالها محل العقيدة من الشباب ، بتذكيرهم بمجد الإسلام القديم .

يقول محرم :(٣)

---

١ — مجلة الهداية عدد أكتوبر و وفمبر سنة ١٩١١ ص ٨٦١

٢ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٣٨١ — من مقال له عن (بسمارك والدين) نشر فى صحيفة المنار ٢١ يناير سنة ١٨٩٩

٣ — ديوان محرم ١ : ١١١

تذكّرَ ماضى دينه فتوجعا وأحزنه ما نابـه فتفجعا
وأهلكه من قومه أن قومه بعمياء يأبى غيمُها أن يقشعا
وكائن دعاهم بالقوافى إلى الهدى فلو أسمع الصمّ الدعاءُ لأسمعا
لقد زادهم ذاك الدعاءُ ضلالة فياليته لم يسمع الصوت إذ دعا
وكيف وجوم المرء أصبح دينه مهانا وقد كان العزيزَ الممنَّعا
... هُم ُضيعوا مااستودعوا من نفائس أراها بأيدى القوم نهبا موزعا
وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا جوانبه حتى وهى وتضعضعا
... وما كنت أخشى أن أرى الدين ذِلّةً ولا أن أراه بعد أمنٍ مروّعا
تصدع قلبي . رحمة لمصابه وليس عجيبا منـه أن يتصدعا

ويقول (١) :

هل الدين إلا معقل نحتمى به إذا دلف العادى إلينا فأسرعا
هو الدين ، إن يذهبْ فلاعز بعده وإن جدّ ساعينا على إثر من سعى
ولا دينَ حتى ينزعوا عن ضلالهم ويصبح منهم موطنُ الغى بلقعا
وحتى يكونوا للكتاب زمامه وحتى يكونوا ساجدين وركّعا
هنالك يقوَى منهمُ ما تضعضعا ويثبت من بنيانهم ما تزعزعا

ويقول : (٢)

ياداعىَ الله مُدّ الصوت وادعُ إلى جناته من يريدُ النارَ مسرورا
أما ترى الناس لا يبغون صالحةً ولا يخافون فوق الأرض محذورا
أما تراهم كأنعامٍ مشرّدة فوضى تهيم وتمضى جُنّحا زُورا
ياداعى الله إن القوم قد لبسوا ليل العماية فابعث فيهم النورا

---

١ — ديوان محرم ١ : ١٩٣

٢ - الديوان ٢ : ٨١

أطلِع لهم من كتاب الله بيِّنة ... تجلو اليقين وتمحو الشك والزوُّرا

ويقول :(١)

أما وجلالِ الله فى ملكوته ... وآلائه العظمى وآياته الكبرى
لقد فدحَ الخَطْبُ الذى هالَ دينَه ... فما يملك المحزون من أجْله صبرا
ألاَ نهضةٌ بكريّة عُمَريّة ... تعيد إليه مجدَه تارةً أخرى
وما أنا من رَوْح الإله بآيسٍ ... وإن ملأ الهمُّ الجوانح والصدرا
فياربِّ لاتبعثْ إلىَّ منيّتى ... إلى أن أرى البعث المؤمَّل والنَّشْرا
وهوِّن خطوب الدهر إن حان حينها ... وطمِّت على الأحياء ترهقهم عُسرا

ويبيِّن لهم الكاشف أن الغرب لم يتقدم إلا حين أخذ بتقاليد الإسلام فى الكفاح وفى طلب العزة والسعى للمجد ، وأن المسلمين لم يتخلَّفوا إلا حين تخلوا عما أمرهم به دينهم من ذلك . ولذلك فهو يدعو الشرقيين إلى مجاراة الغربيين فى الأخذ بأسباب القوة لأنهم أحق منهم باتباع ماجاء به الإسلام ، فيقول : ٢)

بنى الشرق ! أدعوكم إلى خير منهج ... يعيد إليكم نضرة العيش ثانيا
فجاروا بنى الغرب الذين تشبَّهوا ... بأجدادكم حتى تنالوا المعاليا
وأنتم بتقليد الجدود أحق من ... عِدىً سلبوكم مظهرا كان زاهيا
أسَرَّكمُ أن المحارم تُستَبَى ... ولم تلق فيكم عن حِماها محاميا
وأعجبكم أن الطرائق تعتفى ... ولم نر منكم يانى الشرق واقيا
وإن لكم سيفا من الدين ماضيا ... يفل إذا جردتموه المواضيا
فأحيوا به نهج النبى وجددوا ... مقاما لدين الله أصبح باليا
ورُدُّوه حتى تستعيدوا شبابه ... نضيرا وإلا عاش ظمآن ذاويا
كفاه ! كفتنا بامامضى من سكوتكم ... وغفلتكم عن أمره وكفانيا

---

١ ــ ديوان محرم ٢ : ٨٢
٢ ــ ديوان الكاشف ١ : ٩١

فأرضوه عنكم بانتهاج طريقه ... فما أجمل الدنيا إذا بات راضيا
هنالك نحيي فى نعيم ونضرة ... ونأمن عدوان العدى والليا ليا

وأخذ أصحاب هذا المذهب الإسلامى يزيلون من أوهام الناس ما اختلط عليهم من أمر دعوتهم ، إذ ظن بعضهم أن الإسلام الذى يدعون إلى إقامة النهضة على أساسه هو هذا الخليط من التقاليد التى غلب فيها الفاسد على الصالح ، أو هو الستار الذى يختفى من ورائه السلطان عبد الحميد ، يحكم باسمه ، ويستمد سلطانه على العامة من رجاله ، الذين يحرمون فى دين الله ما يكره السلطان ، ويحلون فيه ما يريد . فشرع هؤلاء المصلحون يبينون للناس أن الإسلام فى جوهره وفى حقيقته يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال ، وعما انتهى إليه أمره بعد أن أقحم عليه ما ليس منه ، وعما تزعمه الطائفة التى ادعت لنفسها صفة الوصاية عليه. فاتجهوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام وما خالطه من معتقدات مفسدة ، ليقدموه للناس فى صورته الصحيحة ، وليبينوا لهم أن الإسلام سهل يسير بعيد كل البعد عن التعقيد الذى أقحم عليه فجعله شيئا صعبا لا يفهمه إلا المحترفون ، ولا يطيقه إلا أصحاب الأمزجة الشاذة من المتزمتين . وأخذوا فى الوقت نفسه يهاجمون البدع والأدعياء الذين جعلوا أنفسهم أوصياء على الدين ، يستغلونه ويتاجرون باسمه ويروّجون الأباطيل بين الجماهير الجاهلة استجلابا للنفع ، وحرصا على ما آل إليهم من نفوذ وسلطان ، بعد أن عقدوا مسائله واحتكروا تفسيره . وأصبح الحلال والحرام معقودا بألسنتهم ، وقد جعلوا أنفسهم شركاء لله فيما اختص به ذاته — سبحانه — من القضاء بين خلقه والفصل فى مصيرهم .

من ذلك مقالان لمحمد عبده نشرا فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ . هاجم فيها أساليب مشايخ الطرق فى الموالد . وقد صور فيهما ما يصحب الأذكار من ضرب الطبول ومن هياج الذاكرين الذين يهيمون هيام المعاتيه ، ويتجردون من ثيابهم ، ويأتون أعمالا هى أدخل فى الشعوذة منها فى الدين ، من مثل أكل النار والزجاج. وندد محمد عبده فى مقاليه بما يحدث فى الموالد من اختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم

ومكافتهم فى بيوت الله ، وهاجم بدعة (الدوسة) التى ينطرح الناس فيها على الأرض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحدا بعد الآخر حتى ينتهى إلى آخرهم ، متعجبا من أن يجرى هذا بين مسلمين من أهل الإيمان، قد أمر الله بتكريمهم، وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعى(١).

وتابع عبدالله النديم من بعد ذلك الحملة على هذه البدع الفاسدة فى مجلة (الأستاذ) . فندد بهذه الطوائف «التى تبتدع أمورا تضحك السفهاء وتبكى العقلاء، وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة ، وسلط عليها الأجنبى ، يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ، ظنا منه أن مايجريه هؤلاء الجهلة من الدين.» وهو يتساءل «أين تصفية الباطن التى هى مدار الطريق ؟ وأين الخمول مع هذا الظهور ؟ وأين التواضع من ركوب الخيل والبغال ، يقدمها الطبل والمزمار، كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد ؟ وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية ؟ »

ويعجب النديم لما يدعيه جهلاء هؤلاء المرتزقة من علم ما أنزله الله ، زاعمين وصوله إليهم من طريق الفتح او الإلهام ، ولهجومهم على تفسير القرآن بما لا يقوله إلا مجنون ، ضالين فى كل ما يقولون ومُضِلين . ويقتطف الكاتب من كلام السلف الصالح من رجال الطريق ، أمثال الرفاعى والجنيد والخواص والبسطامى وذى النون والجيلانى والسهروردى ، ما يؤكد أن الطريق الصحيح فى التمسك بالقرآن والسنة .(٢)

ثم هاجم الكواكبى من بعد هذه البدع المفسدة فى (أم القرى) مهاجمة عنيفة ، فقال(٣): « إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين

---

١ — راجع القائلين فى تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ١٣٣ فى مقال عنوانه (إبطال البدع فى نظارة الأوقاف العمومية) ، ٢ : ١٣٦ فى مقال عنوانه (بطلان الدوسة .)

٢ — مجلة الأستاذ عدد ١١ ابريل سنة ١٨٩٣ ص ٧٨٦ (الطرق وما فيها من البدع) ، عدد ٢٥ إبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٢٨ (الطرق وإصلاحها)

٣ — أم القرى ص ٢٧ — ٣١

وغلاة المتصوفين ، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله . وذلك أن الدين يعرف بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين ، وأعمال العلماء قيامهم فى الأمة مقام الأنبياء ، فى الهداية إلى خير الدنيا والآخرة . ولاشك أن لمثل هذا المقام فى الأمة شرفا باذخا ، يتعاظم على نسبة الهمم فى تحمل عنائه والقيام بأعبائه . فبعض ضعيفى العلم وفاقدى العزم تطلعوا إلى هذه المنزلة التى هى فوق طاقتهم ، وحسدوا أهلها المتعالين عنهم ، فتحيلوا للمزاحمة والظهور مظهر العلماء والعظماء ، بالإغراب فى الدين ، وسلوك مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والأثاث. فصار هؤلاء المتعالون يدلسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم ، فيفسرون مثلا البسملة أو الباء منها بسفر كبير تفسيرا مملوءا بغلط لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه . ثم جاءوا الأمة بوراثة أسرار ادعوها ، وعلوم لدنيات ابتدعوها ، وتسنم مقامات اخترعوها ، ووضع أحكام لفقوها ، وترتيب قربات زخرفوها . »

ثم يبين الكواكبى بعد ذلك تأثر رجال الطرق ببدع اليهودية والنصرانية وبطقوس الكنيسة ، ويرد كثيرا من تقاليدهم ورسومهم إلى نظائرها فى النصرانية وفى التقاليد الكنسية . ويقول إن عبادتهم الله قد أصبحت أشبه شىء بعبادة مشركى العرب التى وصفها الله تعالى بقوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَة) أى صفيرا وتصفيقا . وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا ، وخلاعة ونعيقا . وسحروا بهذه الخزعبلات عقول الجهلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء من النساء وذوى الأهواء والأمراض العصبية ، بتزيينهم هذه الرسوم التى تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة ، التى تستصعب تحصيل الدين من طريق العلم الشاق الطويل . ثم يقول : « وقد قام لهؤلاء المدلسين أسواق فى بغداد ومصر والشام وتلمسان قديما ، ولكن لا كسوقها فى القسطنطينية منذ أربعة قرون إلى الآن ، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هى دين معظم

أهلها الا الإسلام . . . . . فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذا عظيما به أفسدوا كثيرا فى الدين ، وبه جعلوا كثيرا من المدارس تكايا للبطالين الذين يشهدون لهم زورا بالكرامات المرهبة ، وبه حوّلوا كثيرا من الجوامع مجامع للبطالين الذين ترتج من دوى طبولهم قلوب المتوهمين ، وبكفير أعصابهم ، فيتلبسهم نوع من الخبل يظنونه حالة من الخشوع . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقا لهم وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم ، مما يسمى فى البلاد العثمانية (دعاكو وطعامية) »[١]

ويقول محرم فى جهل رجال الدين ، وتكالبهم على الدنيا ، وإذلال أنفسهم لأصحاب السلطان ، يرضونهم بكل سبيل ، ويُفتونهم بما يحبون[٢]

أرى علماء الدين لا يحفظونه ... ولا يعرفون اليوم رتبته العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه ... سبيلا إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة ... همو شرعوا فيها الضلالة والغيّا
إذا المفسد استفتا يريد تماديا ... أتوه بأعلام الهدى تحمل الفتيا
أيُعجب قوما من أولى العلم أنهم ... يسيرون بين الناس فى نوره عميا ؟
ألا هل أرى من جِلة القوم شافيا ... لشعب مريض لا يموت ولا يحيا
محته عوادى الدهر إلا بقية ... من الدين والدنيا لمن يُؤْثر البُقيا

* * *

وتزعم محمد عبده حركة الإصلاح الإسلامى التى تدعو إلى فهم الدين فهما صحيحا ، وإدراك روحه وحقيقة مراميه ، ورده إلى بساطته الأولى التى تتفق مع فطرته السليمة ومع حاجات الحياة . وكان من أهم ما اتجه إليه فى الشطر الأول من حياته أيام اتصاله بالأفغانى ، محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد، ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجرى عليهم لأنه من قضاء الله . يقول

١ - وراجع كذلك ص ٦١ ٦٤ من المرجع السابق .
٢ - ديوان محرم ٢ : ٨٠

فى إحدى مقالاته عن القضاء والقدر(١)

« مضت سنة الله فى خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الأعمال البدنية . فما يكون فى الأعمال من صلاح أو فساد ، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها ، على ما بينا فى بعض الأعداد الماضية. ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف الأفكار، فيتبعها عقائد ومدركات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم أثرها فى النفس. ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال إذا عرضت على الأنفس فى تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ، فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة ، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه . وفى كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها . وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ فى الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد ، ولا كيف يصرفه اعتقاده . والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة . ومن مثل هذا الانحراف فى الفهم وقع التحريف والتبديل فى بعض أصول الأديان غالبا ، بل هو علة البدع فى كل دين على الأغلب . وكثيرا ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال ، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به إلى الهلاك ، وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن فى دين من الأديان، أو عقيدة من العقائد الحقة ، استنادا إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة . »

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر ، التى تعد من أصول العقائد فى الديانة الإسلامية الحقة . كثر فيها لغط المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون ، وزعموا

---

٣ — نشرت فى العروة الوثقى عدد أول مايو سنه ١٨٨٤ . ونشرت بعد ذلك مرة أخرى فى مجلة (الأستاذ) عدد ١٦ مايو سنة ١٨٩٣ (تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٢٥٩ـ٢٦٧)

أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا سلبتهم الهمة والقوة ، وحكّمت فيهم الضعف والضعة . ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطوارا ، ثم حصروا علتها فى الاعتقاد بالقدر . »

ثم يأخذ محمد عبده فى بيان الفرق بين الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مضطر فى جمع أفعاله اضطرارا لا يشوبه احتيار ، وبين الاعتقاد بالقضاء والقدر الذى ترشد إليه الفطرة . فيقول بأن « كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان . والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها . وإن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده ، بتقدير العزيز العليم . وإرادة الإنسان إنما هى حلقة من حلقات تلك السلسة . » ويقول إن الإفرنج الذين ينسبون تأخر المسلمين إلى القضاء والقدر يجهلون حقيقة هذه العقيدة ، ويخلطون بينها وبين مذهب الجبر ، الذى انقرض أصحابه فى أواخر القرن الرابع الهجرى . فالاعتقاد بالقضاء والقدر ، إذا تجرد من شناعة الجبر . تتبعهُ صفة الجراءة والإقدام ، ويبعث على اقتحام المهالك ومقارعة الأهوال ، وعلى الجود والسخاء . ذلك لأن الذى يعتقد أن الأجل محدود ، وأن الرّزق مكفول ، وأن الأشياء بيد الله يصرّفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته وملته ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى سبيل تعزيز الحق وتشييد المجد ؟

ثم يبين محمد عبده أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذى دفع المسلمين الأولين إلى أن يفتحوا العالم فى مدة لا تتجاوز ثمانين عاما . ويقول إنه لم يظهر فى التاريخ قائد عظيم ، إلا كان مؤمنا بالقضاء والقدر . ويضرب الأمثال لذلك بكورش الفارسى ، والإسكندر اليونانى ، وجنكيز خان التترى ، ونابليون الفرنسى .(١)

ويقول محمد عبده فى مقال آخر له نشر فى العروة الوثقى عن (النصرانية

---

١ — راجع مقالا آخر لمحمد عبده فى الموضوع نفسه نشر فى المؤيد سنة ١٩٠٢ (تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩١)

والإسلام وأهلها .) (١) ، إن المسيحية قد بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القصاص ، ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغلب والتفنن في اختراع أدوات الغلبة والقتال . والإسلامُ قد بني على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ، ومع ذلك نرى الأمم التي تدين به متهاونة بالقوة متساهلة في طلب لوازمها . ثم يتساءل هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الأبدان فيهما على الأرواح ؟ ويستعرض الكاتب حال المسلمين منذ اتصالهم بالمسيحيين ، ويرى أن المسلمين كانت لهم في الحروب الصليبية آلات نارية فزع لها المسيحيون فكانت السبب في انهزامهم . ويرى أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعـــوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين ، وهم أصحاب حرب وفروسية . ثم يرى أن المسلمين إنما وهنت قوتهم بسبب مادخل عليهم من بدع ليست من الدين ، حين اندثرت قواعد الجبر . وحين أدخل الزنادقة والسوفسطائيون والكذابون من نقلة الحديث مافيه السم القاتل لروح الغيرة ، الموجب لضعف الهمم وفتور العزائم

ويقول محمد عبده في مقال آخر له عن (الأمل وطلب المجد) (٢)

« ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلمحهما الذهن تارة بعد أخرى . ويعبر عنهما بليت لى كذا من الملك وكذا من الفضل ، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو بما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته في سير الإنسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة ، فيسوق إليه مايهجس بخاطره بدون أن يصيب تعبا أو يلاقي مشقة . إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل للنفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب ، وتوطينها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل مُلمّ يعرض لها في سبيل

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٢٣٧ — ٢٤٣

٢ — العروة الوثقى العدد ١١ ـ ١٩ يونية سنة ١٨٨٤ (تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٢٩٠ ـ ٢٩٧)

الغرض من الحياة ، حتى يرسخ فى مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد ، فضلا عن المال الذى لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون . »

ويمضى محمد عبده فى بيان أن الميل للرفعة أمر فطرى . فكل واحد يطلب الكرامة ، والتمكن فى قلب الآخر . لذلك يتزاحم النـــاس فى الآمال والأعمال ، حتى يكونوا جميعا شرفاء بما يأتون من أعمالهم . حكمة من الله ، ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ثم يقول إن بعض الناس تضعف هممهم حين يتوالى عليهم الصدام ، فيصيبهم الانحطاط الذى قد يؤول إلى اليأس والقنوط . وعند ذاك يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، إذ يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من إهانة ، فينزل إحساسهم إلى مرتبة الأنعام ، ويرضون بما ترضى به البهائم . وهم مع ذلك لا يستريحون بذلك من الكد ، فهم إن تركوا العمل لأنفسهم سلط الله عليهم من يكلفهم بالعمل لغيرهم ، فيكونون كالنمال الحمالة ، لا تستفيد مما تحمل شيئا وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح .

ثم يبين بعد ذلك أن السبب فى ضعف الهمم هو ضعف الإيمان فيقول :

« عجبا . كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ، والأمل وحب الكرامة طبيعيان فى الإنسان ؟ بعد إمعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال ، وأن قوته هى سلطان أعماله . وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر . فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول ، رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة . فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل ، اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته . ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته ، فلا سبيل إلى العمل ، لاستحالة قهر المانع . فينقطع الأمل ،

فيقع فى الشقاء الأبدى . »

« أما لو أيقن بأن لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة ، تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه ، يصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط. فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته، لايفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن إليها فى أعماله ، ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقا . فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا فى مدافعتها ، معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب . فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقى قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصى الأقوياء . . . ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين (إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه إبرهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) . فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر والضلال . ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة ؟ » ويختم محمد عبده مقاله هذا بالتوجه إلى المسلمين . يخاطبهم بقوله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

هكذا مضى محمد عبده فى هذه الفترة من حياته ينبه الغافلين ويوقظ النائمين ، ويبين للناس أن الدين ليس كلمات تقال فى صلاة ، أو تقليدا يتبع فى صوم ، أو نطقا بالشهادتين فحسب. ولكن الإسلام فى حقيقته عقيدة تهيمن على كل تصرفات المسلم وتوجهه فى كل أعماله وكان من أخطر ماصنعه محمد عبده فى هذه المقالات العنيفة الثائرة ، أن خرج على الناس بجملة من الآيات القرآنية ، كان الناس قد أهملوا الاستشهاد بها والتأمل فى معانيها ، حتى بدت حين عرضها محمد عبده على الناس ، وبثها فى ثنايا مقالاته ، ربط بينها وبين الظروف التى تجتازها الأمم

الإسلامية ، وكأنها شيء جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التي كان يستشهد بها الوعاظ في خطبهم ومقالاتهم منذ شدد الاستبدادقبضته على الناس ، لم تكن تتجاوز مايتصل بما أعد الله من حسن الثواب للمتقين ، وما أعد من العذاب للعصاة والمفسدين . ولكن محمد عبده أبرز في مقالاته جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة . فهو يكتب عن امتحان الله المؤمنين (١) ، فيصدر المقال بالآية (آلم . أحسب الناسُ أن يترَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتَنون ؟ ولقد فتنّا الذين من قبلهم . فليعلمنّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين .) ويبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ، ثم لا يسهّل عليهم الإيمانَ احتمال المشاق وتجشم المصاعب في سبيله ، ليسوا بمعزل عن المنافقين. ويستشهد بالآية (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبُهم ، فهم في رَيبهم يترددون .) ويختم مقاله بقوله « إن امتحان الله للمؤمن سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن ، إلى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أولى بأس شديد . فإن يطيعوا يؤتهم أجرا حسنا . وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما . فميزان عدل الله منصوب إلى يوم القيامة . وهنالك الجزاء الأوفى . »

وفي مقال آخر له عن أسباب حفظ الملك (٢) ، يصدره بالآية (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . فإنها لا تعمىَ الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور .) ويطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك الله من شعوب ، ومن أباد من قبائل ، ومادمر من بلاد ، للاعتبار بأسباب هلاكهم . ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد ، مستشهدا بالآية (واعتصموا

---

١ — تاريخ الامام ٢ : ٢١٧ — ٢١٩

٢ — المرجع السابق ٢ : ٣٢٠ — ٣٢٥

بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا) و (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم.) ويذكر منها عدم الاعتماد على الأجنبي، مستشهدا بقوله تعالى (لا تتخذوا عدوى وعدوّكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق.) وقوله (لا تتخذوا من دونكم بطانة لا يألونكم خبالا. ودّوا ما عنتم.. قد بدت البغضاء من أفواههم. وما تخفى صدورهم أكبر.) ويذكر منها انصراف الناس عن التوغل فى الشهوات، مما يغفل قلوبهم عن الفرائض المفروضة عليهم، ويصرفهم عن القيام بواجباتهم مستشهدا بالآيات (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها. فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا. وكنا نحن الوارثين) (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لا تجأروا اليوم، إنكم منا لا تنصرون.) (ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون.)

ويذكر منها الشورى، مستشهدا بأمر الله نبيه، وهو المعصوم من الخطأ، بقوله (وشاورهم فى الأمر)، وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين فى قوله (وأمرُهم شورَى بينهم.). ويذكر منها إعداد القوة، صونا للأمة من أطماع الطامعين. ويستشهد بالآية (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة). ويختم المقال بحث العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب الله، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين. وعلى أن يزيلوا اليأس، بتذكيرهم وَعْدَ الله — ووعده الحق — فى قوله (وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم. وليبدلنهم من بعد أمنهم خوفا.)(١)

ثم اتجه محمد عبده بعد عودته من المنفى إلى التوفيق بين الدين وبين المدنية الحديثة. وإلى الرد على ما يتهم به الإسلام من أنه دين متخلف، كان ملائما لحاجات البدو حين نزل، وإلى تقريبه من نفوس الشباب المثقف الذى أخذ ينصرف عنه، متوهما أن الجمع بينه وبين أساليب العلم والمدنية غير ممكن. واتخذ

١ — وراجع كذلك مقاله فى العروة الوثقى (سنن الله فى الأمم) — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٣٢٥ — ٣٣١

محمد عبده إلى غرضه عدة وسائل . منها مشاريعه التى تقدم بها لإصلاح الأزهر ووصله بالحياة المعاصرة ، بعد أن انقطعت بينه وبينها الأسباب ، وأصبح علماؤه والمتخرجون فيه غرباء بين الناس، وكأنهم أهل الكهف ، بعثوا من بعد أن رقدوا فى كهفهم سنين ، تبدلت فيها الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس ، فهم ينكرون من حولهم ، كما ينكرهم من يراهم أو يستمع إليهم . ومما اتخذ محمد عبده لغرضه ذلك من وسائل ، ما أتى فيه من مسائل ، وما نشره من آراء ، تدل على رحابة فى الأفق وحسن فهم لحقيقة الدين ومقاصده ، فسر فيها القرآن وأول فيها الأحاديث بما يتفق مع سنن الكون وطبائع الأشياء . وخرج بذلك عما ألف الناس من الخضوع لتراث العصور المتأخرة ، التى تحول فيها الدين إلى جسد ميت لا روح فيه ، وأصبح جدلا عقيما حول الألفاظ وتخريجها . وكان مما اتخذه من وسائل كذلك ، رده على مايوجه إلى الإسلام من شُبهات أوهنت إيمان الناشئة به وصرفتهم عنه ، وأقرت فى نفوسهم ماكان يزعم المستعمرون من أن الأمم الإسلامية لا تتحقق لها نهضة مادامت متمسكة بالإسلام .

أما الأزهر فكان قد آل إلى حال من الفساد المادى والعقلى يستحيل معها أن يخرج رجلا حرا كريما صالحا يحبب الناس فى الدين ، ويزين فى قلوبهم الإيمان. ويكفى أن تقرأ فى ذلك وصف محمد رشيد رضا لحياة طالب العلم فيه ، إذ يقول : (١)

« كانت أمكنة الجامع الأزهر من صحنه إلى مقاصيره إلى أروقته إلى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ . ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أمراض معدية . فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكرات والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس من مواضع النوم أكواما . وإلى جوانبها مايراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وماتحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مداسه

١ — المرجع السابق : ٤٨٠ — ٤٨١

بلا نفض ولا تنظيف . وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة .
ثم إذا ذهب إلى جهة الميضأة وجد حواليها أمثال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول
تعوم فى مائها ، وهى تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء
وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . (بل كان بعضهم يستنجى بمائها من
جوانبها . وقد أخبرنى الأستاذ الإمام أنه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الأزهر ،
بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمّى بالسلسول على قلته ، ويتوضأ منه وكانت
ميضأه الجامع الأحمدى أقذر من ميضأه الأزهر ، ولا سيما أيام الموالد الثلاثة . فقد كان
النساء يغسلن أولادهن من العذرة فيها ، حتى ترى سابحة وراسبة فيها . ومع هذا كله
كان الخرافيون يعدون إبطال الميضأه المكشوفة واستبدال الانابيب بها (الحنفيات)
من سيئات الإصلاح الذى ذهب ببركات الأزهر)[1] وإذا قصد المعاطس وجد
على مياهها طبقة كالدهن من الأدران ، وشم منها مالا تحمل الأنوف والأبدان . »

« وإذا وصل إلى غرف السكنى فى الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق
الماء بين يديه ، فيمنعه الكسل أن يمضى بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان
يسود وجه الحائط وداخل المسكن . وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط
بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع
والأسبوعين بلا كنس ، فتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات هذا إلى
ازدحام السكان فى الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين ، رأسُ الواحد عند رجل
أخيه . ومعهم فيها — على ضيقها — متاعهم وفِراشهم وخبزهم وملابسهم وخزائن
كتبهم وأدوات الطبخ والوقود . »

« وإذا طاف الطائف فى جوانب الجامع وحول الأساطين وفى الأماكن
التى يسمونها بالحارات ، وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب القائم بعضها فوق
بعض صفوفا بلا نظام ، تجرى بينها اقذارتها الميزان ، حتى يخالها الرائى لقدم
عهدها من آثار الأقدمين . وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش

---

١ — العبارة التى بين القوسين منقولة عن الهامش

وعفن الخبز ، فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا إلى حيث ينتهى به الفرار . »

ويقول فى وصف ما آلت إليه حالهم الخلقية والعلمية : (١)

« ولقد كان محمد عبده ، على شدة عنايته بالأزهر وأهله والدفاع عنهم ومبالغته فى تكريمهم ، شديد الاحتقار لهم فى نفسه ، إلا أفرادا منه . وكان للأزهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص ، عند شدة تألمه من فساد حالهم ، وهى : الاصطبل ، والمارستان ، والمخروب (بهذا اللفظ العامى) ... وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم من شهادة الزور ، حتى من قضاة الشرع والمفتين ، الذين لقب المحقق ابنُ القيم أمثالهم (بالموقعين عن رب العالمين) . وكان قد اطلع على مالم يطلع عليه أحد من مخازيهم بعمله فى إدارة الأزهر ، وتفتيشه للمحاكم الشرعية ، كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى ، وعلى ماهو أشد ضررا منه ، وهو المحاباة فى امتحان شهادة العالمية، ثم ناهيك بما هو المُعِدُّ لهذه المخازى كلها ، وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم ... وقد أشار الشيخ عبدالكريم إلى شيء من شتائمهم البذيئة المزرية ، التى لاتبقى فى النفس أثرا للكرامة الفطرية الموروثة ولا عزة الإيمان المكتسبة ... دعْ تأثير القذارة والأمراض فى توطين النفس على الذل واحتمال الضيم . »

« وشرٌّ من ذلك كله تمكن الخرافات والأوهام من أكثر القوم ، حتى إن الشيخ حسونة ، الذى كان يعده الأستاذ الإمام أمثلهم ، كان يقبل يد أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيأمنونه على نسائهم ، حتى إنهن كن يدخلن معه الحمام !! وناهيك بما يفعلونه فى احتفالات الموالد المبتدعة ، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما يُنذر لها من المال والفول النابت وغير ذلك . »

١ — تاريخ الأستاذ الامام ١ . ٤٩٥ — ٤٩٧

ويقول [١] : « كان طلبة الجامع الأزهر لا نصيب لهم فى صناعة الكتابة والإنشاء . وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصّرت صحيفته عن بيان المطلوب له ، ولم ينفعه ماحصّله من قواعد العربية بشىء ، وجاء خطه فى مكتوبه نقشا مكسّر الخطوط ناقص الحروف. وإذا أراد أن يبين ماصرفه وما يلزمه عبّر عن ذلك باللفظ لا بالرقم ، لعدم معرفته به . »

« هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء . وهى باقية فى الكثير من الأكابر إلى اليوم . وإنى لأعرف واحدا منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ الإنبابى إلى الإفطار عنده فى رمضان ، فاعتذر إليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلها الراءون ، إذ كتبه إليه فى ورق من أوراق العطّار . والكتابة فيها غير منتظمة الشكل . والخط لا يُقرأ إلا لمن تعود قراءة هذه الخطوط . والأربعة الأسطر التى كتبها اعتذارا للشيخ ،كان فيها أكثر من عشر لحنات نحوية لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية ، ولو مع التأويل الذى تعوّدوه. وهذه الرقعة من عالم كبير إلى عالم أكبر . »

من أجل ذلك كان محمد عبده يرى أن إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام ، فإصلاحه إصلاح لجميع المسلمين ، وفساده فساد لهم ، لأنه عنوان الدين . فالناس لا يعرفون من أمر الإسلام إلا ما يقوله رجل الأزهر . فإن كان جاهلا ضعيف الرأى ، كان الناس بين ناقل عنه هذه الجهالات — وهم الكثرة — ، وبين زار عليه محتقر له ، ينصرف عن الدين ويفر منه . وإن كان صالحا مستنيرا سرى صلاحه وحسن فهمه فى جمهور الناس من الأميين ، فارتفع مستواهم الخلقى والعقلى ، وكسب احترام المثقفين فأقبلوا على الدين بعد نفورهم منه .

وقد بدأ محمد عبده بإصلاح أحوال الأزهر المادية ، فنظم شئون الطلبة والأساتذة فى الجرايات والمرتبات وكساوى التشريفة ، والمواظبة على حضور الدروس ، وضبط الامتحانات وتحديد مواقيتها — وكان الطالب من قبل يجاور

---

١ — المرجع السابق ١ : ٤٤٩ – ٤٥٠

الأزهر طول عمره، ينتظر السماح له بالتقدم للامتحان، الذى لم يكن إليه من سبيل إلا الشفاعة والتوسل بذوى الجاه والسلطان. وقلما كان يتجاوز عدد الذين يسمح لهم بأداء الامتحان ستة نفر فى العام.(١) وأصلح محمد عبده المبانى والأروقة، وأدخل المياه الجارية والنور، وأنشأ مكتبة تضم الكتب المبعثرة المهملة بغير رقابة. وكان طريقه فى كل ذلك سهلا ميسرا يصادف الرضا من رجال الأزهر فى أكثر الأحيان(٢). فلما دخل فى صميم مايهدف إليه من إصلاح التعليم نفسه، بإدخال العلوم الحديثة كالحساب والجبر ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان، وبتوسيع ثقافتهم الإسلامية وتقويمها بتدريس تاريخ الإسلام وآداب اللغة العربية والتمرين على الإنشاء، لقى معارضة شديدة من رجال الأزهر الذين بلغ من إلفهم القديمَ وجمودِهم عليه أن أصبحوا يعتقدون أن تغيير هذا القديم تغيير للإسلام نفسه. فحاربوه فيما يقصد من إصلاحهم، ولم يمكنوه من بلوغ ما يريد من ذلك، حتى امتلأ قلبه مرارة، وظهر أثر ذلك فيما أثر عنه من كلمات، مثل قوله: «ما رأيت بلدا جعل فيه الدينُ دكانا مثل هذا البلد.» وقوله «هذه رءوس ما خُلقت إلا لتتفكر، لا لوضع العمائم ينافس بعضُها بعضا فى تضييع الزمن. وفى هذا خسران الدنيا والآخرة.» وقوله «أشـد التعب أن ترى مَن حولك مرضى، وأنت لا تستطيع علاجهم»

أما فتاوى محمد عبده وآراؤه الجريئة، فقد كانت تذيع بين الناس عن طريق دروسه فى الأزهر، وعن طريق الندوات التى كان يعقدها فى منزله أو فى منازل بعض مريديه، وعن طريق المقالات التى كان ينشرها فى الصحف. وقد كان تفسيره للقرآن أحفل الدروس وأنفعها فى الدين والاجتماع والسياسة والأدب والبلاغة. وكان يحضر دروسه كثير من علماء الأزهر وأساتذة المدارس الثانوية والعالية وكبار رجال القضاء الأهلى وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة ومنهم محافظ القاهرة

---

١ — المرجع السابق ١ : ٤٤٢

٢ — المرجع السابق ١ : ٤٢٨ — ٤٢٩ ، ٤٤٢ ، ٤٥٧،٤٥٢

وكان يلقى بعض هذه الدروس فى دار أحمد تيمور ، وهناك التقى به كثير من الأساتذة الذين عرفوا من بعده بالفضل والعلم ، مثل الشيخ أحمد إبرهيم وحافظ إبرهيم ومحمد كرد على وأحمد فتحى زغلول ورفيق العظم وقاسم آمين وعبد العزيز جاويش (١) وكانت جرأته فى الملاءمة بين الإسلام وبين حاجات العصر ، ومعارضته ما ألف رجال الدين فى عصره من التضييق على الناس فيما وسع الله لهم فيه ، سببا فى كثير من الحملات الظالمة التى خاضت فيها الصحف ، بدافع من الجهل حينا ، وبدافع من الحسد والعداوة الشخصية حينا آخر . وقد أعان على ذلك عداوه للخديوى عباس ، الذى بلغ من كراهيته له أن غضب على الذين شيعوه بعد موته(٢)

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة ما عرف فى ذلك الحين بالفتوى الترنسفالية ، فقد كانت من أعظم ما تلمسته الصحف المعادية والعلماء الجامدون للتشنيع به . وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين فى الترنسفال أرسل إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه فى ثلاثة أمور ، أولها لبس البرانيط ، وثانيها أكل اللحوم التى يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين ، إذ يضربونها بالبَلط ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيدين خلف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين . وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة التى سأل عنها الترنسفالى . ولكن المسألة التى أثارت عليه التشغب خاصة هى المسألة الثانية ، التى أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى ، مستندا إلى قوله تعالى (اليومَ أُحِلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم) فقد قال الله تعالى هذا بعد تحريم الميتة . وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ، ويعلم ما يعتقدون بعُزَير والمسيح . ورأى محمد عبده فى فتواه أن المضروبة بالبلطة هى غير الموقوذة التى حرّمها الله . فالوقيذ والموقوذ هو الذى يُقتَل

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٧٦٩ ، ٧٠٣

٢ راجع فى ذلك مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٣٤ - ٣٧ ، ٣٩ وتاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩

بغير محدَّد من عصا أو حجر(١) .

ومن أمثلة هذه الفتاوى الجريئة ما أفتى به من جواز الاستعانة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، وذلك حين استفتاه بعض مسلمى الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين ، مستعينين فى ذلك ببعض الأجانب وغير المسلمين . وقد جاء فى هذه الفتوى :(٢)

« إن مايفعله أولئك الأفاضل دعاة الخير هو الإسلام ، ومن أجل مظاهر الإيمان . وإن الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله ، وخرجوا عن أحكام دينه القويم . . . بقى أن بعض المتشدقين ربما تعرض لهم الشبهة فى فهم قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا) إلى آخر الآية . » وبعد أن أورد المفتى جملة من الآيات التى تصرح أو تشير إلى المنع من موادّة المؤمنين لغير المؤمنين قال « على أنه لاشبهة لهؤلاء الجهلة فى مثل هذه الآيات تسوّغ لهم تفسيق إخوانهم أو تكفيرهم بعد ماجاء فى الآية المحكمة من قوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولَّوْهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون .) ، وبعد ماجاء من القصص الذى قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة ، إذ قال (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما فى الدنيا معروفا) ، وبعد ما أباح الله لنا فى آخر ما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم نكاح الكتابيات . ولا يكون نكاح فى قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة . ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة . » ثم أورد محمد عبده فى فتواه أمثلة كثيرة لاستعانة النبى والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمويين والعباسيين بغير المسلمين من الذميين.

---

١ — راجع التفاصيل فى تاريخ الاستاذ الامام ١ : ٦٦٨ ـ ٧١٦

٢ - المرجع السابق ١ : ٦٤٨ ـ ٦٦٦

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة الخارجة على جمود عصره ماقال فى ختام بعض دروسه فى المنطق، يحض على التفكير الحر، الذى كان يحذر علماءُ الدين الناسَ منه، خشيةَ أن يؤدى إلى الزّيغ والضلال : (١)

« ما الذى يعتق الأفكار من رقها، وينزع عنها السلاسل والأغلال، لتكون حرة مطلقة ؟ الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل، لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور. ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع إليها كل مايقال، وهى (الشجاعة). الشجاع هو الذى لايخاف فى الحق لومه لائم. فمتى لاح له يصرخ به ويجاهر بنصرته، وإن خالف فى ذلك الأولين والآخرين . . . لايرجع عن الحق أويكتم الحقّ لأجل الناس إلا الذى لم يأخذ إلا بما قال الناس. ولايمكن أن يأتى هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة . »

« إن استعمال الفكر والبصيرة فى الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنَان، وأن يكون طالب الحق صابرا ثابتا لا تزعزعه المخاوف. فإنّ فِكر الإنسان لايستعبده إلا الخوفُ من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم، أوالخوفُ من الضلال إذا هو بحث بنفسه. وإذا كان لابصيرةَ له ولافهم، فما يدريه، لعل الذى هو فيه عينُ الضلال . »

وقوله فى الحث على تعلم اللغات الأوروبية والاستفادة منها حتى فى العلوم الإسلامية : (٢)

« إننا لو أردنا أن نكتب فى تاريخ علم الكلام مثلا فلايوجد فى تواريخنا مادة تفى بالغرض. يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة. واعتزل مجلس الحسن البصرى. ولكن ماسبب ذلك ؟ من أين جاءه هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وماالذى حدا بالشيخ أبى

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٧٦٢ ـ ٧٦٣

٢ — المرجع السابق ١ : ٩٢٧

الحسن الأشعرى للقول بأن الوجود عين الموجود ؟ ومتى دخلت الفلسفة كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء من إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد فى وقت واحد ؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا . ويمكننا أن نعرف كثيرا من شؤون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية . فإن فيها مالا نجده فى كتبنا . إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حالُ هذا العصر إلا إذا كان متقنا للغة من اللغات الاوروبية ، تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها فى الإسلام وأهله من مدح وذم ، وغير ذلك من العلوم . »

وقوله فى إباحة الصور والتماثيل التى يحرمها بعض الجامـــدين من علماء الدين : (١)

« الرسم ضرب من الشعر الذى يُرَى ولا يُسمع . والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا » وبعد أن أفاض فى بيان مزايا التصوير قال : « ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهى : ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية ؛ أو أوضاعهم الجسمانية ؟ هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان . وإما أن تفهم الحكمة من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى ، وهو يجيبك مشافهة . فإذا أوردت

---

١ — المرجع السابق ٢ : ٤٩٨ — ٥٠٢ وراجع رأيا كذلك فى إباحة التصوير فى مجلة الهداية عدد يونيو ويوليو سنة ١٩١١ ص ٤٨٩

عليه حديث (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون) أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول اللهو ، والثانى التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين . والثانى مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور فى الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به . فإذا زال العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزله تصوير النبات والشجر . . . ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فإنى أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضا مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ . . . على أن المسلمين لا يسألون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها . وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو من سماهم بعضهم بالأولياء ، وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عناية الله سبحانه وتعالى . لاشك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية . »

أما دفاع محمد عبده عما يوجه للإسلام من شبهات ، فقد كان أشهر أعماله فيه رده على هانوتو ، الذى كتب مقالا عن الإسلام فى معرض الحديث عن سياسة فرنسا فى المستعمرات الإسلامية ، قارن فيه بين الإسلام والنصرانية ، ونشرت ترجمة مقاله فى المؤيد سنة ١٩٠٠ ، فرد عليه محمد عبده ردا طويلا فى ثلاث مقالات ، كانت حديث الناس وشغلهم فى ذلك الوقت .

تكلم هانوتو فى مقاله (١) عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية ، وتحقق

---

١ — تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٤٠١ — ٤١٤

الظفر للديانة الأخيرة فى القرن التاسع عشر . وقال إن فرنسا قد صارت بكل مكان فى صلة مع الإسلام ، بل صارت صدر الإسلام وكبده، فالإسلام يحيط بها فى إفريقيا ، ويمتد فى آسيا إلى الصين ، وهو قائم بأوروبا فى الأستانة « حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض . » . ثم قال إن المسلمين فى سائر أقطار الأرض يتجهون إلى الكعبة ، وتجمعهم رابطة واحدة ، وأنهم يكرهون الدول المسيحية التى تحتلهم ، فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث حلوا فى تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن . وقال إن المتعصبين من المسلمين (مثل السنوسى) ، تقوم عقيدتهم على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهية المدنية الحاضرة . وقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية ، بسبب ما بينها وبين المسيحية من علاقات . وانتهى من هذا الاستعراض إلى قوله « توجد بالآستانه نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب . ويخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف . » .

ثم دخل هانوتو فى موازنة بين الدينين ، فقال إن المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر ، والمغفرة ، والحساب . وقال إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل فى اتجاهين : «ا» اتجاه يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، ويجعل الإنسان فى حضيض الضعف ودَرْك الوهن. «ب» واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القربى من الذات الإلهية ، بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات . ثم قال هانوتو إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى قلبه ، وتثبيط همته . أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى فهو يؤدى إلى الجلاد والعمل . ومثل للاتجاه الأول بالديانة البوذية ، كما مثل للاتجاه الثانى بالثقافة اليونانية . ثم قال إن المسيحية هى الوارثة لآثار الآريين ، وهى منقطعة الصلة بالمذاهب السامية ،

وإن كانت مشتقة منها . أما الإسلام فهو متأثر بالمذهب السامى ، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإله عنه فى علاء لانهاية له . وأصول الثالوث السرى مشتقة من ضرورة وجود إله بشرى يمحو ذنب الجنس البشرى ، ويحمل المسيحى على إتيان الأعمال التى تقربه من الله . أما الإسلام فهو يتمسك بالوحدانية ، ويرفض ذلك ، فيجعل المسلم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لايتحول ، ولا يملك فى ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات . فلفظ الإسلام معناه الاستسلام المطلق لإرادة الله .

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيين الفرنسيين فى تصور العلائق التى تربطهم بالمسلمين . (١) فالمسيو كيمون يعتقد أن « الإسلام جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاذريعا . بل هو مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظهمنهما إلاليسفك الدماء . » وهو يرى المسلمين وحوشا ضارية. ويعتقد أن الواجب إبادة خمسهم ، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح « محمد » فى متحف اللوفر . (٢) والمسيولوازون (القس ياسنت سابقـا) ، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحى محسّناً ومحوّرا . فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدأ وأسمى كعبا من المسيحية . (١) وهنـاك فريق ثالث يتوسط بين الفريقين ، ويقـول إن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية ، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية .

ثم قال هانوتو إن هذه الآراء المتباينة هى التى أحدثت التناقض فى أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية . وطالب بأن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام . ثم قال إن الإسلام دين وسياسة ، وأن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطنُ عندهم فى الإسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الألوهية . فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار هانوتو إلى نجاح

فرنسا فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحذق ، دون أن تثير ضجيجا أو تذمرا . فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان المحمدى . وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض . ودعا فى آخر مقاله إلى أن تتخذ تونس مثالا يقاس عليه ، ونموذجا ينسج على منواله .

ورد محمد عبده على مقال هانوتو فى ثلاث مقالات .

أما المقال الأول فقد اتهم فيه هانوتو بتحريك نيران العداوة فى الفرنسيين ، وإثارتهم على حرب المسلمين . ولفت إلى ذلك نظر الشباب المصرى الذى يتعصب للثقافة الفرنسية . وقال محمد عبده إن أصل التمدن الآرى هو الهند . وهم يعتقدون بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش . وقال إن الإسلام هو الذى حمل إلى أوروبا مدنيات العالم ، من فارس ومصر واليونان والرومان ، بعد أن صفاها وهذبها ، وذلك عن طريق الأندلس . ثم تساءل بعد ذلك عما يعنى هانوتو من المقارنة بين المدنية السامية والمدنية الآرية . فليس هناك علاقة بين الدين المسيحى وبين المدنية الحاضرة . فالإنجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها . ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قميصا أن يعطوه الرداء أيضا ، وإذا ضربهم الضارب على خدهم الأيمن أن يديروا له خدهم الأيسر . ويقص عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى فى ملكوت السماوات . فهل تقوم المدنية الأوروبية على هذا الأساس ؟ ثم قال إن الفينيقيين من الساميين ، وهم أساتذة العالم فى الصناعة والتجارة ، بل القراءة والكتابة . ومنهم الآراميون ، وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين . ولازالت الأمم يأخذ بعضها من بعض فى المدنية ، لا فرق فى ذلك بين آرى وسامى . ثم أشار محمد عبده إلى ما قرره هانوتو من أن الدين الإسلامى يراد به التوحيد ، والدين الآرى

يقصد به مايقابله . وقال إن هذا خطأ واضح ، لأن التوحيد هو دين عبرانى فقط ، عرف به إبراهيم وبنوه ، ومنهم عيسى . أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة فى الكتاب المقدس فقد كانوا وثنيين مشبهين . (١)

وتناول محمد عبده فى مقاله الثانى(٢) مناقشة مسألة القدر والجبر عند الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين . فقال إن الآرية والسامية لادخل لها فى هذه المشكلة ، فقد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم . ثم قال إننا لانعرف يهوديا استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالا على القدر . ولكن نعرف ذلك فى الأديرة وبين الرهبان . ونعرف بين المذاهب اليونانية ما يذهب إلى أن الأشياء توجد بالاتفاق والمصادفة ، ولايحتاج الممكن فى وجوده إلى سبب . وذلك الاعتقاد أدخلُ فى باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون . ثم بين أن النبي وأصحابه جاهدوا فى سبيل نشر الدعوة ، ولم يكتفوا بالتسليم للقدر فى إتمامها ، قائلين إن الذى كفل لهم النصر يكفيهم التعب . كما بين أن الآريين الذين دخلوا فى الإسلام ، من فرس ورومان ، هم الذين أفسدوا العقائد الإسلامية ، فأدخلوا فيها ماليس منها . وأن الأوهام التى يبثها المتصوفة فى الدين ترجع إلى أصول فارسية وهندية .

أما المقال الثالث ، فقد تناول فيه التوحيد والتنزيه ، وتجسد الألوهية والتشبيه (٣) فقال إن الوثنية وتوهم السلطان الإلهى ظاهرا فى بعض الموجودات المادية ، كان عقيدة الواقفين على ابواب الإنسانية ، لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها . وكلما ارتقى الإنسان فى العلم ، تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى . وقد كان هذا شأن اليونانيين ، حتى جاء سقراط وأفلاطون

١ — تاريخ الأستاذ : ا ، ط ٢ . ٤١٥ ـ ٤٢٠
٢ — المرجع السابق ٢ : ٤٢ ـ ٤٢:
٣ — المرجع السابق ٢ : ٤٢٥ ـ ٤٣٢

وأرسطو . وكذلك كان المصريون ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد . غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم ، واستبقوا صور العبادات الأولى. ثم بين أن أهل التشبيه قسمان : قسم يعتقد بألوهية بعض الموجودات المشهودة ، وقسم آخر يعتقد أن بارىء الكون يظهر فيها . وبين هذين قسم ثالث ، يعتقدون بالوسائط ، ويقيسون الله على الكبراء وأهل السمو منهم ، فيتخذون بعض من يظنون بهم القرب من الله شفعاء ، يلجأون إليهم ليقربوهم منه سبحانه . وهؤلاء قد استعبدوا أنفسهم للسادن والكاهن وللزعماء ووارثيهم ، واستسلموا لهم فى جميع شئونهم . ثم قال إن ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل، لأن المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الأرض من الوثنية، وكان التنزيه قوام دعوتها ، ولم تظهر آثار التشبيه إلا بعد قرون من نشأتها . وقال إن من المسيحيين الآن - مثل بعض طوائف البروتستانت — من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبيا مختارا بعثه الله لخلاص البشر. ومن غير المعقول أن تجاهد المسيحية منْ حولها من الوثنيين ، لتخرجهم من وثنية إلى وثنية . أما الإسلام ، فقد دعا إلى التوحيد ، وصرح بأن دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام . ولم ينكر الإسلام أن فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه . وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجوع لأصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويُعْتق من سلطة الرؤساء والزعماء ، الذى اغتصبوا عقله وملكوا هواه ووهمه . وبهذه العقيدة التى تدعو إلى التوحيد فتح المسلمون الدنيا، وجالوا فى علوم السماوات والارض ، ونبغوا فى مختلف فروع العلوم . وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ماليس منها . وردّ محمد عبده على ما ظنه هانوتو خطأ ، من أن الإسلام قطع الصلة بين العبد وربه . فالإسلام قد أفضى بالعبد إلى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه . ثم قال إن ثورة المستعمرات لاترجع إلى أن فرنسا مسيحية. فلو أسلمت

الأمة الفرنسية بأسرها ، ثم كانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهد فى الجزائر ومدغشقر ، لما أحبها أهل المستعمرات ولا مالوا إليها .

وبعد هذا المقال ، انبرت جريدة (الأهرام) لمناقشة محمد عبده والرد عليه ، زاعمة أنه بنى رده على ترجمة محرفة لكلام هانوتو . ولما اطلع هانوتو على ماجاء فى النسخة الفرنسية من الأهرام ، كتب مقالا جديدا نشرت المؤيد ترجمته ، حاول فيه الاعتذار عما رمى به من إغراء دولته بالمسلمين . وقال إنه لم يحاول فيما قال إلا الإصلاح وإقامة السلام . ثم نشر (الأهرام) بعد ذلك حديثا لصاحبه مع هانوتو قال فيه إنه روى آراء كثيرين ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، وهو لا يعتقدها . وقال إن أوروبا لم تتقدم إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية . ونصح الشرق بأن يحذو حذو أوروبا . ورد بعض مفاسد الشرق إلى أسلوب الحكم العثمانى . كما رده إلى مايتوهمون من أنهم يستطيعون تحقيق النجاح باستغلال مابين الدول الأوروبية من تنافس ومن خصومة ، وبإقامة البراهين على عدالة قضيتهم . والواقع أن الدول الأوروبية لا تهمها العدالة ، ولكن تهمها مصالحها الاستعمارية . ونصح الشرقيين بأن ينهجوا نهج أوروبا كما فعلت اليابان ، ويعملوا على نشر العلوم العصرية فى بلادهم ، وعلى إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب . وقال إن العبرة ليست فى إقامة المدارس ونشرها ، ولكنها فى وضع مناهج الدراسة السليمة. وختم مقاله بأن السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهى التى كانت قاعدة أوروبا الأولى فى سياستها ، وبها تقدمت وتمدنت ونجحت(١) .

ورد محمد عبده على هذا المقال الأخير فى ثلاث مقالات أخرى شرح فيها علل الأمم الإسلامية ، ورسم الطريق لعلاجها (٢)

وقد سجل الشعراء الذى رثوا محمد عبده فضله على النهضة الإسلامية فى قصائد كثيرة . فمن ذلك قول حافظ إبراهيم فى رثائه ، مشيرا إلى منهجه الجديد فى التفسير

---

١ — المرجع السابق ٢ : ٤٤٠ — ٤٤٨

٢ — المرجع السابق ٢ : ٤٤٩ — ٤٦٨

وإلى توفيقه بين العلم والدين ، وما لقى فى ذلك من أذى(١) .

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا ... مكانك حتى سوّدوا الصفحات
رأيتَ الأذى فى جانب الله لذة ... ورُحْتَ ولم تَهْمُمْ له بشكاة
لقد كنتَ فيهم كوكبا فى غياهب ... ومعرفةً فى أنفُسٍ نكِرات
أبنت لنا التنزيل حُكما وحكمة ... وفرّقتَ بين النور والظلمات
ووفّقتَ بين الدين والعلم والحجا ... فأطلعتَ نورا من ثلاث جهات
وقَفْتَ (لهانوتو) و (رينان) وقفةً ... أمدّك فيها الرُّوح بالنفحات

ومن ذلك رثاء الكاشف ، الذى أشار فيه إلى ما ذهب إليه محمد عبده من أن صلاح الأمة بصلاح الرعية لا السلطان ، وإلى ما غرس فى المسلمين من روح التسامح الذى يتفق مع حقيقة الإسلام كما أشار إلى عبارته المشهورة « لا يصلح الشرق إلا مستبدٌّ عادل » ، ودافع عما اتهمه به خصومه من موالاة الإنجليز ، فقال(٢) :

فأرَيتَ أهل الشرق أن صلاحهم ... بنفوسهم لا بالملوك مؤكَّد
وأبنت للمغلوب علة عجزه ... ومراسَ غالبه فهَم يقلد
من بعد ما أمضى الليالى خائفا ... مترقبا أو ذا شكاةٍ يَحقِد
وأعله نَفَرٌ يرون نجاته ... فى أن يسبُّوا من بَغى ويعربِدوا
... يتطلب الدستورَ أقوامٌ ، ولو ... وُليت حُكم شعوب قيصر أخلدوا
وغدا يود غلانه وحُماته ... لو أطلقوا لك أمرهم وتَقيَّدوا
وقضيتَ فيهم مستبدًّا عادلا (٣) ... فجمعت شملهمُ وأنت المُفرَد

---

١ ديوان حافظ ٢ : ١٤
٢ — ديوان الكاشف ٢ : ١٢٢ ـ ١٢٤
٣ — راجع مقاله (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل) تاريخ الأستاذ الامام ٢ : ٣٩٠ . وقد تمنى فيه أن يحكم مصر دكتاتور صالح لمدة خمس عشرة سنة ، وهى سن مولود يبلغ الحلم . يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولى الصالح ، الذى يحمل الناس على رأيه فى منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة .

... أنصَفْتَ حتى ما يُسِرُّ لمسلم ... متَضرِّرٌ حِقدًا ولا مُتَهوِّدُ
ما قُمْتَ بالإصلاح إلا بعدما ... قدَّرْتَ قوة من يكيد ويُفسِد
وجعلتَ عفوَكَ عن عِدَاتِك سنة ... للقادرين بهـا إليهم تَعْهَد
ما الحربُ تقتيل العِدا ، لكنها ... نَزْعُ الحكيم من الورَى ما عُوِّدوا

* * *

وسرت روح محمد عبده في معاصريه وفي الذين خلفوه على دعوته من تلاميذه وأتباعه. فأخذ عبدالله النديم يوالى نشر المقالات في مجلة (الأستاذ) في سنتي ١٨٩٢، ١٨٩٣، داعيا إلى إقامة نهضتنا على أساس الإسلام ، مناديا بأن اللغة العربية من أبرز مقومات "قومية(١) . وأخذ يهاجم المتفرنجين ممن استهوتهم المدنية الغربية فأخرجتهم عن دينهم وعن قوميتهم(٢). كما هاجم الجامدين من رجال الدين ، والجهال من خطباء المساجد ، الذين يدعون الناس للزهد في الدنيا ، ونبه إلى أنهم أصل البلاء ، فقال فيهم(٣) :

« ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول : العز في الخمول ، والسعادة في العزلة، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدى الناس ، فإنّ من توكل على الله كفاه. وهذا الفريق متخلل بين العامة ، يزعم أنه من الهداة وهو من المُضلين . فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، وفتش في سياسته السماوية والأرضية ... فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم سوّلت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما دروا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس عن التعلق بحوافظ الدين والملك معا ومن هذا

١ — راجع على سبيل المثال مقاله « لم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد » الأستاذ : عدد ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩٢ ص ٣٢٧

٢ — راجع على سبيل المثال العدد الاول من مجلة الأستاذ ص ١١ — ١٥

٣ — الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ « انتقلت الامم تنقلب الأحوال ونحن نحن ؟ » ص ٤١٤، ٤١٥

القبيل الذين دوّنوا دواوين الخطابة ، وجعلوها قاصرة على التزهيد فى الدنيا ، والتحذير من المال وجمعه ، والفرار من المجامع والظهور ، والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان ، وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة ... فلو تصدّت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس ، وقطعت دهورا فى اختراع طريق تصل به هذه الغاية ، ما اهتدت إلى مافعله الخطباء ، من تحويل الخطابة عن عهدها النبوى إلى ماقاله المتملقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة . ونحن نستفتى هؤلاء المثبطين ، إذا كانت الدنيا يحذر منها ، فلمن خلقت ؟ وإذا كان الاشتغال بها بهتانا وضلالا ، ولا يشتغل بها إلا أعداءُ الله فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا فى أيدى المتغلبين ، ونَعُدُّ الرضا بذلك ذنبا ومعصية ؟ » ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضاربا لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة فى صميم الحياة ، تتصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وطلع عبد الله النديم على الناس بآراء طريفة كان فيها سابقا لعصره فى بعض الأحيان . مثل دعوته لتكوين مجمع للغة العربية ، [1] ونداثه بضرورة توحيد التعليم ، ومزج الدينى منه بالمدنى ، حتى يكون رجل الدين واحدا من الناس ، ولكى يخرج عما أخلد إليه من الانكماش والتحاشى عن خوض السياسة لجهله بأدواتها ، مع أن كل العلوم الشرعية هى فى حقيقة الأمر من قواعد السياسة . (٢)

وظهر كتاب الكواكبى (أم القرى) سنة ١٨٩٩ . وقد حاول فيه المؤلف أن يتقصى عيوب الأمم الإسلامية ويبين عللها ويردها إلى أسبابها ، فردها جميعا إلى الانحراف عن تعاليم الإسلام . فبعضها يرجع إلى الاستبداد وفساد نظام الحكم . وبعضها الآخر يرجع إلى فساد العقيدة ، بفساد رجال الدين الذين

---

١ — الأستاذ عدد ١١ اكتوبر سنة ١٨٩٢ «اللغة والانشاء» ص ١٠٠

٢ — الاستاذ عدد ١٨ اكتوبر سنة ١٨٩٢ «تربية الأبناء» ص ٢٠٢ — ٢٠٨

انحدروا إلى وهدة الجهل والضلال ، وبانتشار أدعياء التصوف ، الذين أصبح همهم محصورا فى إرضاء السلطان وفى استغلال جهل الناس وفساد الحكم . وبعضها يرجع إلى تشويش العلماء المتأخرين للدين ، بكثرة التفريع فيه ، وبتصعيب مسائله ، والتضييق على الناس فيما وسع الله لهم فيه . وهكذا مضى المؤلف فى منهجه ، يستقصى ماتفرع عن انحراف الناس عن الإسلام الصحيح ، وفصل فى ذلك تفصيلا طويلا .

وأخرج قاسم أمين — وهو أحد تلاميذ محمد عبده — فى هذه السنة (١٨٩٩) كتاب تحرير المرأة الذى أشرنا إليه من قبل . وحاول أن يبين فيه أن الإسلام لايعارض تطور المرأة ونهضتها .

ونشر رفيق العظم — وهو أحد الذين تتلمذوا على الشيخ محمد عبده كذلك — ردا على مقال عبد القادر حمزة (خطر علينا وعلى الدين) الذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل : (٣) . فبين فيه أن نهضتنا الصحيحة لايمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب . وأن الذين يطالبون بعدم إقحام الدين فى شئون الحياة لايفرقون بين الدين فى حقيقته ، وبين الدين كما انتهى إليه أمره ، ولايميزون بين المصلحين من رجال الدين ، وبين المحافظين من الجامدين الذين يدافعون عن بدع مستحدثة وعادات بالية فاسدة يسمونها الدين . ثم رد على الذين يزعمون أن سبيل الإصلاح هو فى اتباع الغربيين الذين نبذوا الدين ، فقال : « رب قائل يقول : ماأغنى هؤلاء المصلحين عن إصلاح الدين ، وأحراهم بالدعوة إلى إصلاح أمر الدنيا ، وبيان وجوه الخير والسعادة ، التى تتم بها سعادة الأمم الراقية التى نبذت الدين . فالجواب عن ذلك أن المرض إنما يزول بزوال سببه . وإذ علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذهم البدع والعوائد دينا ، وهى ليست من الدين ، واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين ، لزمنا أن نسعى بإزالة السبب . ومتى زال ونشطت العقول من عقال الأسر

---

٣ — المقتطف عدد مايو سنة ١٩٠٤ ص ٤٠٢ — ٤١٠

للعوائد ، والإغراق فى الاستسلام لكل مايقال إنه من الدين ، حق وقتئذ على العقلاء والمصلحين أن يحوّلوا وجهتهم إلى الإصلاح المدنى ، إذ يجدون يومئذ كل الأمة آذانا مصغية لما يقولون ، وقلوبا واعية لما به ينطقون . »

ومضى الكاتب فى بسط نظريته التى تقوم على أن الإصلاح المدنى ، يتبع الإصلاح الدينى وأن المجتمع القوى الناجح لايقوم إلا على أساس العقيدة السليمة ، مؤيدا رأيه بالنظر إلى تاريخ النهضة الأوروبية نفسها . التى يدعو بعض المصلحين إلى اقتفاء آثارها . فقد بدأت هذه النهضة فى القرن السادس عشر الميلادى بالإصلاح الدينى الذى دعا فيه لوثر إلى ترك البدع الدينية ، وتطهير العقائد من شوائب الحشو القاتلة للعقول . ثم كان الإصلاح المدنى من بعد نتيجة لهذا الإصلاح الدينى الذى أطلق العقل من قيود السيطرة الجائرة ، بمثل ما كان الإصلاح السياسى نتيجة للثورة الفرنسية .

ثم تتبع رفيق العظم تاريخ دخول البدع على الدين مما استدعى ظهور طائفة من المتشددين ، فرأى أن الإسلام كان فى أوله سهلا يسيرا ، لا يزيد على أن يلقن الداخل فيه كلمة التوحيد ، ويعلم أركان الصلاة ، ويؤمر بحفظ شىء من القرآن ، ثم يقال له : هذا هو الإسلام فى بساطته ويسره. وكان المتفقهون قلة من الصحابة. ولم يكونوا يجاوزون فى فقههم واقع الأمر الذى يعين على معرفة أحكام الدين . فلما دخل كثير من الوثنيين وأهل الكتاب فى الدين ، نقلوا معهم جملة من الآراء الفلسفية والبدع العقلية ، مثل بدعة معبد الجهنى وغيلان الدمشقى فى القول بالقدر ، واختلف أرباب المقالات بين جبرية وقدرية ومشبهة ومالا يُعَدّ من الفرق التى جمعها الإسلام ، وفرقتها الوثنية والابتداع . » و « رأى ذلك فريق آخر من الأمة فهالهم مارأوا . فنادوا : واغيرتاه على الدين وبالغوا فى الإنذار والتحذير ، وقول : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا يمس الدين ، وهذا تقليد للوثنيين ، وهذا يشكك المسلمين ، حتى أحرجوا صدر الأمة ، بإلصاقهم كل شىء بالدين . فالقيام والقعود والأكل والشرب والتخاطب والتعامل والعلم والتعلم كله بالدين

ومن الدين وللدين . وبالجملة لم يدعوا شيئا من العوائد إلا أدخلوه فى الدين . »

وخلص رفيق العظم من كلامه إلى الإجابة على السؤال الذى ختم به عبدالقادر حمزة مقاله (هل فى النداء بالدين فائدة ؟) فأجاب على ذلك بأن الكاتب قد أخطأ حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على مادخله من الحشو واللغو المضر . فنحن فى حاجة إلى النداء باصلاح الدين لاالنداء بالدين مطلقا كما ظن . « وإنما ينفع النداء بالدين ، إذا امتاز تجار الدين والمتعصبون للتقاليد، عن علماء الدين والإصلاح الغيورين ، وتركوهم وشأنهم فى الدعـــوة إلى تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذى تلبس به سواد الأمة ، فأصبحوا بعيدين عن قبول السعادة المدنية بُعدَ الأرض عن السماء . »

وتابع عبد العزيز جاويش أستاذه الشيخ محمد عبده فى منهجه الإصلاحى ، فأنشأ مجلة (الهداية) سنة ١٩١٠ . وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه ، مستمدا منه العبرة والعظة بما ينفع الناس فى حياتهم ، رابطا بينه وبين الظروف والملابسات التى يعيشون فيها . وأفسح من صفحات مجلته لنقل النافع من العلوم والمعارف فى علم النفس والتربية والاجتماع والأدب الغربى شعره ونثره . وخطا خطوات جريئة فى طريق الإصلاح الدينى الذى بدأه أستاذه ، بما كان ينشر من مقالات للكتاب المتحررين ، الذين يوفقون بين الدين والعلم ، وبين الدين والمدنية، وبين الدين وحاجات الحياة .

فمما نشر فى التوفيق بين الدين والعلم مقال للشيخ طنطاوى جوهرى فى التوفيق بين الإسلام وبين مذهب دارون فى التطور ، يقول فيه(١) :

« إنى قرأت تلك المحاورات ، وعلمت مافى تلك القضيات ، ولم أر شيئا يغاير الدين ، ولا فكرا يضر بعقائد المسلمين . فالإسلام يأمر الناس باليقين ، ولا يقين إلا بالعلوم التى يسميها الناس عصرية ، وهى فى الحقيقة علوم إسلامية. »

ثم يقول :

---

١ — الهداية عدد أكتوبر سنة ١٩١٠ ص ٥٨٣ - ٥٩٦

« إن الإيمان بالله تعالى قضية كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ، ولا ينافيها منهج من المناهج . فإذا قلت إن الله وضع العالم منظما مرتبا سائرا على القانون والترتيب والحكمة والتناسق ، كما هو القضية الأولى(١) ، أو قلت إن الخيل والحمير تولد بينهما بغل ، فلا كفران ولا خسران . كل ذلك حكمة إلهية وعجائب حكمية . وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون فى العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء . فإن عقولهم لا تسع نظاما وترتيبا وإلها قادرا حكيما . ومثلهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير فى الأمراض ، ويكتفون بالإيمان ، وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه . »

ثم رد نظرية دارون فى التطور إلى علماء المسلمين فقال :

« قد علمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين ، وهما لا ينافيان الألوهية(٢) . فدلالة العالم المنظم على الله قضية كلية لا يختلف فيها المحققون ، وإن غفل عنها الكثيرون . ولقد كانت هذه القضية الناموسية سرا مكنونا عند علماء الإسلام . وكم أخفوها عن العوام . وتسمى عند علمائهم (دائرة الوجود) ، وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر ، وتسمى فى القرآن بالميزان . وورد الترتيب النظامى بذكر الإنسان فالحيوان فالنبات فالسماوات وكواكبها وشموسها فى سورة النحل ، رجوعا بالعوالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب . وقد قال الغزالى رحمه الله : لا يعرف هذا السر إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم . »

ودعا طنطاوى جوهرى علماء المسلمين وشبابهم إلى الاستعانة على توثيق إيمانهم بدراسة العلوم . « فقراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم

---

١ — رد الكاتب فى مقاله مذهب دارون إلى قضيتين ، أولاهما هى أن العوالم العضوية من النبات والحيوان والانسان متشابهة منتظمة متناسقة ، يتصل أولها بآخرها . وثانيتهما هى أن الاجناس العليا مشتقة من الاجناس الدنيا . ومسألة القرد والانسان جزء من آلاف من تلك القضية . ورجع كلها إلى التوالد الذاتى من الجماد .

٢ — القضيتان اللتان أشرت إليهما فى الهامش السابق

العصرية ، ودراسة الحيوان والنبات والإنسان ، أجَلّ عبادة . وهى أفضل من سائر القربات كما شرحه العلماء . وهى أفضل من صلاة النافلة والإحسان للفقراء . ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون ، وما أحاطت بهم عاديات الدهر ، ولا أصابهم كوارث الحدثان (١) .

ورد على ما يزعم الزاعمون من أن دراسة العلوم الطبيعية يورث الزيغ عن الدين وزعزعة اليقين فقال :

« إن أولئك الملحدين أحد اثنين . إما رجل جهل الطبيعة ودرس قشورها فهو من الشاكين . وإما رجل ضعفت قوته الحاكمة ، فملأ عقله المحفوظات . وليس له من قوة الحكم من نصيب . إن بعض الشرقيين أسرعوا إلى الإلحاد لقلة بضاعتهم من العلوم (علوم الطبيعة يقين للحكماء ، شكٌّ لمن دونهم) فما مثلهم إلا كالخفافيش أو الفَراش يبهرها ضوء الشمس ، أو كالفقير أصابه الغِنَى فجأة ، أو كثيران الأسبان بهرتها بعد حين حمرة الألوان . هذه طبائع بعض الإنسان . ومن الناس من يمل هذا الكلام ، إما لفسوق فيه ، وإما لكبر وخيلاء ، لئلا يقول الناس رجع عن رأيه ، وإما ليتظاهر بأنه أعلم مَنْ حوله من العالمين وما درى المسكين أن الإنكار أسهل شيء على الجاهلين . وليس يُعْوِزه إلا العناد الذى ماله من نَفَاد . »

ومما نشرته (الهداية) فى التوفيق بين الدين والمدنية . مقال لعبد القادر المغربى فى حجاب المرأة (٢) ، بين فيه أن الغرض من الحجاب فى الإسلام هو صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض . وأن الإسلام لم يحدد له صورة خاصة

---

١ — راجع أم القرى ص ٧ - ٣٨ ، طبائع الاستبداد ص ٣٤ - ٣٦ فى بعض الأمثلة على ما يستفيده علماء الدين من العلوم الحديثة فى فهم دينهم وما كشفه العلم الحديث من بعض أسرار القرآن .

٢ الهداية . عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ص ٧٠٩ — ٧١٤

ولا كيفية بعينها ، وإنما نهى عن التبرج وعن الخلوة بالأجنبي . ولكن المسلمين جروا فى حجاب نسائهم على طرائق اختلفت باختلاف بيئاتهم وأقطارهم وعمرانهم وأمزجتهم وسائر المؤثرات التى تحيط بهم. وأورد أمثلة كثيرة على جواز السفور منها أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد وليمة عرس، وكانت العروس نفسها تخدم المدعوين. ومنها أن زوجة عبدالله بن عمر كانت تنزل إلى المسجد فتصلى الفجر غَلسا . ومنها أن أبا بكر كان يجتمع بالنساء الأجنبيات ويحادثهن . وأن سفيان الثورى وأضرابه كانوا يزورون رابعة العدوية ويسمعون كلامها . وأن عائشة الباعونية (فى القرن الحادى عشر من الهجرة) كانت تقرأ درسا عاما فى الجامع الأموى بدمشق ، وكان يحضر درسها العلماء والصلحاء وعامة الناس . وأن عمر بن الخطاب كان إذا رأى امرأة مرخية قناعا على وجهها كشف القناع ونظر إليها ، فإن وجدها جميلة أقرّها ، وإلا ألزمها بالسفور وترك القناع . وأن عائشة بنت طلحة كانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها (أى أنها تشعر من نفسها بأنها أعظم من أن يحدّث نفسه بها محدّث) ،وأن سُكَينة بنت الحسين كانت تجالس الجِلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ، وتأذن للناس إذْنا عاما حتى تغتصّ بهم الدار ، فتأمر لهم بالطعام ، ثم تسأل الشعراء وتنقد أعمالهم .

ومما كتبه عبد العزيز جاويش فى التوفيق بين الدين والحياة رأى جرىء ألقاه فى المؤتمر المصرى سنة ١٩١١ ، ينادى فيه بوجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق الشريعة الغراء . وقد جاء فيه(١)

« ألا ليهدأ روعُ أولئك الذين يتّقدون غَيرةً على الدين كلما عرضت حالٌ يدعو فيها داع إلى الإصلاح ، واهمين أنه لا يكون شىءٌ من ضروب الإصلاحات إلا حيث يكون المساس بأحد أصول الدين . وإذا لم يكن بد من أن يغار ، فإن أحقّ ما تحق عليه غيرةُ المؤمن ، بل أولى ما تسكُبُ عليه حباتُ القلوب دما

---

١ — الهداية . عدد مايو سنة ١٩١١ ص ٢٩٧ - ٣١٢ ، مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول ص ١٢٥ - ١٣١

من المحاجر ، هذا الشرع الذى لحق به التوهين ، وتلك الأمة التى كادت تكون فى الغابرين . ليهدأ روعهم ، وليخففوا عنهم بعض ما بهم . وليعلموا أن من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية ، التى قررها نفر من أهل العلم ، دون رعاية للمصلحة العامة ، التى هى أصل من أصول الشرع الشريف . . . .

لقد سنّت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة ، حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضِرار . بل رخّصت أن يُعْدَل عن النص ، إذا ثبت ثبوتا قاطعا أن الضرورة توجب هذا العدول ، وكانت المصلحة التى تنتج من أتباع النص أقل مما ينتجه هذا العدول . »

ثم بين الكاتب أن قوانين الشرع عامة كلية ، وأن الذى نُصّ عليه فيها من أحكام التعامل قليل ، وأن الباقى ترك لاستنباط ما يناسب الضرورات والحاجات التى ستجد للناس . كما بين أن تقيد الناس بآراء الفقهاء الأقدمين ، الذين استنبطوا من الأحكام ما يناسب أحــــوال زمانهم ، قد أوقع الناس فى حَرَج لامسوّغ له من الشرع ، واضطرهم إلى الأخذ بنظم الأمم الغربية . وقدّم فى مقاله أمثلة لعدول النبي والصحابة عن قاعدة الشرع رعاية للأصلح . منها أن النبي نهى أن تقطع الأيدى فى الحدّ فى حالة استثنائية هى الحرب . ومنها أن عمر نهى أن يجلد فى حدٍّ من كان يباشر الحرب . ومنها إسقاط الحدّ فى عام المجاعة . ودعا الفقهاء إلى الخروج عن عزلتهم ، وإلى دراسة المجتمع . ليتعرفوا أعراضه وأطواره . كما دعاهم إلى الاختلاط بسائر طبقات الأمة ليعرفوا عناصر الحياة الاجتماعية ، ومِمّ تتركب ، وكيف تمتزج ، وما يطرأ عليها من التغيرات ، وكيف تترقى . وطلب إليهم أن يرجعوا لأهل الرأى من الأمة ليستعينوا بهم على مراعاة المصلحة العامة ، فيكون تقريرهم مجمعا عليه ، لانطباقه على الحاجات المتنوعة والضرورات المتعددة .

وقد كان مما استتبعه هذا المنهج أن أعاد الكتاب النظر فى بعض أحكام الشرع ، فى ضوء الظروف التى تخضع لها الأمم الإسلامية . فمن ذلك ما كتبه عبد العزيز

جاويش سنة ١٩١٠ (١) ، فى زواج المسلم بالكتابيات من الأوروبيات — وهو مباح شرعا — طالبا أن يعدل المسلمون عنه ، لما ينتج عنه من مضار اجتماعية وسياسية . « فإن مصر لا تتحرر بالهجين من أبنائها ، ولكن بالمصرى الصحيح الذى لم تشبه شائبة أجنبية . »

وكتب طه حسين فى الموضوع نفسه سنة ١٩١١ ، فقال فيما قال : (٢)

« أقول إن مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا فى عصر غير العصور الماضية . تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح ، ومن جميل إلى ردىء . ذهبت مقوماتنا وضعفت أنفسنا ، وزالت مميزاتنا الجنسية ، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا فى طباع غيرنا من الأجانب . بل أصبح تقليدنا للفرنج أمرا محببا إلى نفوسنا مستحسنا منها . فنحن نقلدهم فى الحسن والقبيح ، ونقفو أثرهم فى النافع والضار ، وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد . فإن أحدنا يفتن بكل شىء صدر عن الفرنج ، لا يبالى أصدر عن رجل أم امرأة ، عن كبير أو صغير . فلا شك عندى فى أنه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط فى استعمال هذا الحكم ، أى إباحة تزوج المسلم بالكتابية . ولست أرى على من بأس إن قلتُ إنه الآن حرام ممقوت . »

وأخذ عبد العزيز جاويش فى تفسيره للقرآن يبين للناس حقيقة الإسلام ، ويربطه بحاجات الأمم الإسلامية ، ويقيسه إلى ظروفهم وأحوالهم ، متنقلا فى ذلك بين العلم والتاريخ والأدب والاجتماع والسياسة . فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت أن لا يلى الأرض إلا المصلحون ، وذلك فى تفسيره لقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء

١ — الهداية . عدد مارس سنة ١٩١٠ ص ١١٣ ، ١١٤

٢ — الهداية عدد مارس سنة ١٩١١ ص ١٨٣ — ١٨٧

هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .) وقد جاء في تفسيره : (١)

« كيف تكفرون بالله بعد إذ أرادت الملائكة أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون البشر ، وذلك لمكانتهم من الله تعالى ، ولعكوفهم على عبادته وتسبيحهم بحمده وتقديسهم له ، فبين الله لهم أن شرائط الخلافة في الأرض ليست تقطيع الليل في التسبيح والتهجد ، ولا قضاء الأعمار في الحفوف من حول العرش . وإنما شرائط الاستيلاء على الأرض ، والاستمتاع بما على ظهرها ، والتصرف فيما تضمنه جوفها ، لا تكاد تخرج عن وجود العقل المفكر ، وما زود الله به بني آدم من الجوارح والنظام البديع . . لو أن عمران الأرض واستحقاق الخلافة فيها كانا معقودين بمجرد طاعة طائفـــة من عباده ، وانهماكهم في تسبيحه وتقديسه ، والتزامهم لقواعد عرشه الرفيع ، لاختص الله من عباده بذلك ملائكته المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكنه تعالى سبقت حكمته أن لا يرث الأرض إلا العاملون ، الذين يستخدمون مواهبهم العقلية والجسمية فيما خلقت له ، والذين لا يطلبون الغايات إلا من طرائقها الطبيعية . . . وإذا كانت هذه هي سنته القديمة ، وتعاليمه التي هدى إليها الأخيار من ملائكته ، فعلام يستند جهال المسلمين من خاصتهم وعامتهم ، إذ يحاولون أن يدفعوا عنهم غارات المغيرين بتلاوة الآيات ورمي الجمرات واستصراخ الأموات ؟ وإذ يقابلون تهاطل الرصاص وتقاطر الجلل وانفجار كرات (الديناميت) بقراءة السور ومدارسة البخاري والابتهال بالدعوات ، وقطع الأوقات بالركعات والسجدات ، وتأبط (الجلجلوتية) وحزب البحر وأشباهها ، مما لم يأت به من الله سلطان . ولا يتقبله عقل إنسان ؟ علام يستـــند أولئك الذين عطلوا سنة الله الفطرية ، واستمسكوا بسخافات

---

١ — الهداية عدد فبراير سنة ١٩١١ ص ٦٨ — ٧٦

الخرافات، وتربصوا خوارق العادات، ومالم يأذن به الله من المنجيات؟ . . . وليت شعرى ماذا أفادتهم اللحى الكثة المرسلة، أوالسبح الغليظة المتدلية؟ ثم ما ذا أفادتهم يقظات الأسحار، وقد استغرق منامهم سائر النهار؟ وهل ينفعهم التعفف عن الدرهم والدينار، إذا تركوهما لأعداء بلادهم ودينهم، يحاربونهم بها، ويملكون رقابهم بمحكم أطواقها؟ لقد والله ذل من يغنى أعداءه ويفقر نفسه. كما ذل من يترك لخصومه ميادين المنافسة، ينفردون فيها بالكر والفر، والنهى والأمر، والتصرف فى كل شأن . »

ومن ذلك إبرازه لما ينطوى عليه الإسلام من سماحة وإنصاف. وذلك فى تفسير قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، فلهم أجرهم عند ربهم. ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.) إذ جاء فى تفسيره: (١)

« وما كان الله أن يظلم هؤلاء ليهوديتهم ولا أولئك لنصرانيتهم. اللهم إلا إذا أشركوا به غيره، أو أنكروا اليوم الآخر، أو هجروا صالحات الأعمال. فأولئك لا يأجرهم الله ولا يؤمنهم من الفزع والخوف. أما الذين آمنوا من قوم إبراهيم واليهود والنصارى والصابئين الذين ليسوا على دين من تلك الأديان، فإن الله لا يفرق بين أحد منهم، ماداموا يؤمنون بتوحيده وبالحياة الآخرة، ويأتون من الأعمال صالحاتها. فما الله بمفضل قوم على قوم حتى يقيموا توحيده وتطمئن نفوسهم إلى دينه. فإن فعلوا ذلك، ثم أتوا من الأعمال مايصلح الحياتين الدنيوية والأخروية، فلهم أجرهم عند ربهم، لا ينقصهم منه شيئا . »

أما الأعمال الصالحة، فقد سبق أن المراد بها كل مايكسب الإنسان قوة فى الدنيا وازدلافا إلى الله فى الآخرة. فمن صالحات الأعمال كل مايفضى إلى غنى الأمم وعلو مكانتها. كما أن من صالحات الأعمال كل مايخفف ويلات أصحاب

---

١ — الهداية عدد فبراير ومارس سنة ١٩١٢ ص ٨٢ — ٨٣

او يلات ، ويؤدى إلى إصلاح الشئون العامة ، اجتماعية كانت أو علمية أو اقتصادية.
ومن البديهى أنه ماعنيت أمة بذلك إلا ذهب الخوف والفزع عن نفوسها ، وملأ السرور والفرح صدورها . »

« ولقد خالفنا المفسرين فى تأويل قوله تعالى (إن الذين آمنوا) ذلك أن القرآن الكريم سمّى إبراهيم بالمسلم ، ودعا دينه الإسلام (إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، يابنىّ إن الله اصطفى لكم الدين ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.) والمراد من هذه الآية بيان أن الدين عند الله الإسلام ، وأنه من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . »

« أما معنى الإسلام الذى كان دين إبراهيم الخليل فإنه توحيد الله تعالى بالربوبية واختصاصه بالعبادة . (وأن إبرهيم كان قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين). على تلك القاعدة بنى دين إبرهيم ومن تبع سنته من أهل مكة ، كما بنى دين سيد الكائنات محمد المصطفى وأهل مكة (إن أولَى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا . والله ولىّ المؤمنين .) »

* * *

وغذى معظم الشعراء هذا الاتجاه الإسلامى فى الإصلاح ، بما كانوا ينشرون من شعر يمجد أبطال الإسلام ، ويستنبط الموعظة من تاريخهم ، ويقدم القدوة الحسنة للشباب من حياتهم . وكان شوقى أبرز الشعراء الذين غذوا هذا الاتجاه ، بما كتبه من قصائد إسلامية ، حاول فيها أن يتغلغل إلى روح الإسلام وصميمه ، لا تشغله الفروع عن الأصول ، ولا تصرفه التفاصيل والقشور عن اللب ، منتفعا بكل ما كان يجرى حوله من أحداث ، ومايذاع من آراء . وكان شعره صدى لهذه الدعوات الإصلاحية التى قدمنا صورا منها ونماذج فيما مر .

وقد أبرز فى كثير من قصائده الإسلامية مايحرص عليه الإسلام من دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة . وابتغاء العزة واستهداف السيادة ، جريا على

نواميس الكون التى تقوم على التنافس بين الأفراد والأمم

فيقول فى (نهج البردة) التى نشرها سنة ١٩١٠ (١) :

قالوا غزوتَ ، ورسْلُ الله ما بعثوا ... لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم
جهلٌ وتضليل أحـــلام وسفسطة ... فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كلُّ ذى حسب ... تكفل السيفُ بالجهّال والعَمَم
والشرُّ إن تلقه بالخير ضِقْتَ به ... ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغرّاء ، كم شربت ... بالصاب من شهوات الظالم الغَلِم
طريدة الشِّرْك يؤذيها ويُوسِعها ... فى كل حينٍ قتالا ساطع الحَدَمَ
لولا حماةٌ لها هبُّوا لنصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُم

ويقول من قصيدة له . كتبها سنة ١٩١١ ، فى استقبال الأسطول العثمانى(١)

زِدْهُم أميرَ المؤمنين من القُوى ... إن القُوَى عِزٌّ لهم وقوام
الملك والدُّولات ما يبنى القنا ... والعلمُ ، لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس وإن علا بمؤيَّد ... حتى يحوِّط جانبيه حسام
خطّ النبيُّ براحتيه خندقا ... ومشى يحيط به قنا وسهام
. . . يامعشر الإسلام ، فى أسطولكم ... عزٌّ لكم ووقاية وسَلام
سيلُ الممالك جارف من شدّةٍ ... وقوىً ، وأنتم فى الطريق نيام
حبُّ السيادة من شمائل دينكم ... والجِدُّ روحٌ منه والإقدام
والعلمُ من آياته الكبرى إذا ... رجعتْ إلى آياته الأقوام
لو تُقرئون صغارَكم تاريخَه ... عرف البنون المجدَ كيف يُرَامُ

ويقول فى قصيدة (الهمزة النبوية) التى نشرها سنة ١٩١٢ ، موجها خطابه للرسول :(٣)

١ — الهلال . عدد فبراير سنة ١٩١٠ ص ٣١٤ . الديوان ١ : ٢٥١
٢ — الديوان ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ . نشرت فى مجلة الهلال عدد يونيو سنة ١٩١١
٣ — الديوان ١ . ٢٤ نشرت فى مجلة المؤيد ، عدد ٧ مارس سنة ١٩١٢

وتمُدُّ حلمَك للسفيه مداريا ... حتى يضيق بحلمك السفهاء
فى كل نفس من سُطَاك مَهابةٌ ... ولكل نفسٍ من نَدَاك رجاء
والرأىُ لم يُنْضَ المهندُ دونَه ... كالسيف لم تضرِبْ به الآراء

ويقول فى قصيدة (ذكرى المولد) التى نشرها سنه ١٩١٤ ، متحدثا عن النبى :(١)

وكان بيانُه للهَدْى سُبْلا ... وكانت خيلُه للحق غابا
وعلّمنا بناء المجــد حتى ... أخذنا إمْرةَ الأرض اغتصابا
وما نَيلُ المطــالب بالتمنى ... ولكنْ تؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ مَنَال ... إذا الإقدامُ كان لهم رِكابا

ثم هو يبين ما امتاز به الإسلام من اتزان ، فهو مزاج معتدل من القوة والرحمة، يقود جهادَه وحروبَه الخيرُ والهدفُ الشريف ، ويحد من شِرّتها الإنصاف وتنكب البغى . وهو يدعو إلى السلام ، ولكنه يخوض الحروب إن ألجأه إليها السفهاء دفاعا عن هذا السلام .

يقول من قصيدة له فى رثاء عثمان باشا الغازى ، نشرت سنة ١٩٠٠ :(٢)

إنما المُلك صارمٌ وَيرَاع ... فإذا فارقاه ساد الطَّغام
ونظام الأمور عقل وعدل ... فإذا ولّيا تولّى النظام
وعجيبٌ ، خُلِقتَ للحرب ليثا ... وسجاياكَ كلُّهن سَلام
فهى فى رأيكَ القويم حَلاَلٌ ... وهى فى قلبكَ الرحيم حَرَام
لك سيف إلى اليتامى بفيض ... وحنان يحبه الأيتام
مستبدٌ على قوىٌّ ، حليم ... عن ضعيف ، وهكذا الإسلام

ويقول فى الهمزية النبوية :

الحربُ فى حَقٍّ لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

---

١ — الديوان ١ : ٦٢ نشرت فى مجلة سركيس ، عدد ١٥ فبراير سنة ١٩١٤
٢ — الديوان ٣ : ١٤٣ نشرت فى المجلة المصرية ، ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ ص ٤٩

... إن الشجاعة فى الرجال غَلاظةٌ ... ما لم تَزِنْهـا رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب، فإن بغوا ... فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوىُّ تجبُّراً ... وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غَزَاةٍ للرسول كريمة ... فيها رضىً للحق أو إعلاء
كانت لجند الله فيها شِدّةٌ ... فى إثرها للعالمين رخاء
ضربوا الضلالة ضربةً ذهبت بها ... فعلى الجهالة والضلال عفاءُ
دعموا على الحرب السلامَ، وطالما ... حَقَنَت دماءً فى الزمان دماءُ

وهو يبين فى أرجوزته الطويلة (دول العرب وعظماء الإسلام)، حين يدافع عن عثمان بن عفان، أن الإسلام لا يتعارض مع الدنيا، ولا يطالب الناس بالزهد فيها، فيقول(١) :

فإن تَسَل ماذا أتى عثمانُ ؟ ... مما يردُّ الدينُ والإيمانُ
تجِدْ دعاوَى القوم لفقوها ... وسلعاً بالدين نفَّقوها
زَرَوا على الإمام مالا يُزْرَى ... وأركبوه الحسناتِ وِزْرا
واستنكروا عُلوَّه بالدُّور ... عن دَارَةِ الثلاثة البُدُور(٢)
وقالَ قوم خالف الأترابا ... وحالف الثراءَ والإترابا
وكرهوا التمصيرَ والتمدينا ... وزعموا الدنيا تُعَفِّى الدينا
ويحهمو ! مالهُمُ ومالَهْ ؟ ... طاب وطيِّب الحلالُ مَالَهْ
مالٌ كما شاء العفافُ والكرمْ ... زكا كهَدْى البيتِ أو حلى الحرم
والزهدَ حالٌ للقلوب والنُّهىَ ... ما أمر اللهُ به ولا نَهى
وهذه الدنيا يدُ العظيم ... وسرُّه فى مُلكه النظيم
أسكنَها العَقْل فكانت أشرفا ... من كلِّ زاهٍ فى السماء أشرفا

---

١ — دول العرب وعظماء الاسلام ص ٥٠ وقد نظم شوقى هذه الأرجوزة فى منفاه، خلال الحرب العالمية الأولى

٢ . . يقصد بالثلاثة البدور الخلفاء الثلاثة أبا بكر وعمر وعلى

أحلَّ منها ما صفا مَشارِعا ... وحرّم الآفاتِ والمصارعا
وساقها للأنبياء تَرْسُفُ ... هذا سليمانُ وهذا يوسُف
وأين من شأنِهما عُثمانُ ... على الذى خوّله الرّحمنُ ؟

وإنما رسم الإسلام حكومة قوامُها العدلُ والمساواة ، لا معبود فيها إلا الله. أمرُ الناس فيها شورى . لا يطغى فيها غنى على فقير ، ولا قوى على ضعيف(١)

داءُ الجماعة من أرِسْطاليس لم ... يوصَفْ له حتى أتَيتَ دواءُ
فرسمتَ بعدَكَ للعباد حكومةً ... لا سُوقةٌ فيها ولا أُمَراءُ
الله فوقَ الخَلْقِ فيها وحدَه ... والناسُ تحت لِوائها أكفاءُ
والدينُ يُسرٌ، والخلافةُ بَيْعَةٌ ... والأمرُ شورى، والحقوق قضاءُ
الإشترا كيون أنتَ إمامُهم ... لولا دَعاوَى القومِ والغُلَواءُ
داويتَ متّئداً وداووا طفرةً ... وأخفُّ من بعض الدواء الداءُ
البِرُّ عندكَ ذِمّةٌ وفريضةٌ ... لا مِنّةٌ ممنونةٌ وجِباءُ
جاءت فوحّدت الزكاةُ سبيله ... حتى التقى الكُرَماءُ والبخلاءُ
أنصفتَ أهل الفقر من أهل الغِنَى ... فالكلُّ في حقِّ الحياة سواءُ
فلو انّ إنساناً تخيّر مِلّةً ... ما اختار إلا دينكَ الفقراءُ

والإسلام يدعو إلى العمل . فالرزق مرهون بالسعى . والتوكل لا يغنى شيئا إذا صرف صاحبه عن العمل . يقول شوقى فى السيرة النبوية : (٢)

كان رسولُ الله فى شبابِهِ ... لا يَدَعُ الرزقَ وطرقَ بابه
أيُّ رسولٍ أو نبيٍّ قبله ... لم يطلب الرزقَ ويَبْغ سُبْلَه ؟
موسى الكليمُ استؤجر استئجارا ... وكان عيسى فى الصِّبا نجّارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب ... الخبز لا يُعْطى ولكنْ يُكسبُ
والرزق لا يُحْرَمه عبدٌ سَعَى ... مضيَّقا عليه أو موسَّعا

---

١ — الديوان ١ : ٢٦ من الهمزية النبوية . وقد نشرت سنة ١٩١٢
٢ — دول العرب وعظماء الاسلام ص ٢٤ ، ٢٥

لاتألُ لا سعياً ولا تُكلانا ... لاينفع التوكل الكسلانا
كان قُبيل البعث ربَّ مال ... وتاجرا ميسَّر الأعمال
يضرب فى حَزْن الفلاة وسهله ... بمال عمِّه ومال أهله
مبارك الرِّحلة والإقامه ... مستصحِبَ الجد والاستقامه
والرزقُ بين الناس بحرٌ جار ... شِراعُه يرُفع للتِّجار
فاسترزق الله وقِفْ ببابِه
واكسبْ ، فأهلُ الكسبِ من أحبابِه

ولا ينبغى أن نختم الكلام عن هذه الحركة الإسلامية فى الإصلاح ، دون أن نشير إلى سنَّة قومية دينية حسنة استنها المصريون سنة ١٩٠٨ ، بالاحتفال برأس السنة الهجرية . (١) وكان هذا اليوم يمر من قبل كغيره من الأيام لايكاد يأبه له أحد ، فى الوقت الذى كانت تحتفل فيه الحكومة رسميا بعد ميلاد الملكة فيكتوريا ، ثم بعيد الملك إدوارد السابع من بعدها. (٢) وقد كان احتفال المصريين العظيم بهذا العيد يضم أعدادا غفيرة من المسلمين . وكان الشعراء قوام هذه الحفلات ، يتبارون فى إلقاء ما أعدوا من قصائد ، يستعرض فيها ما مر بمصر فى العام الفائت من أحداث ، مستلهمين العبرة من حياة الرسول ، بما يستنهض الهمم ويدعو إلى العمل والجهاد .

* * *

انقسم زعماء الإصلاح كما رأينا إلى فريقين ، فريق ينظر إلى قديم الشرق والمسلمين يتغنى به ويسترحيه ، وفريق ينظر إلى ما حقق الغرب فى حاضره من تفوق ، يزينه للمصريين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه . وسرى هذان الأسلوبان فى كل شئون الحياة ، فأصبحنا أمام فريقين متقابلين . فريق يدعو

---

١ — محمد فريد ص ٩١ .
٢ — مصطفى كامل ص ١٠٢

الناس إلى الثورة على الماضى ، ويدفعهم إلى الجديد دفعا لا رفق فيه ولا هوادة ، ويحملهم عليه حملا لا تدرج فيه . وفريق آخر يريد أن يوقظ ضمائر الناس ووعيهم عن طريق الدين ، ثم يتركهم بعد ذلك للتطور الطبيعى ، محذرا مما تنطوى عليه الطفرة من أخطار لا يؤمن معها العثار ، مناديا بأن أى بناء لا يقوم على أساس تنقية النفس وإحياء الضمير هو بناء فوق رمال ، لا يعلو إلا لينهار

ظهرت آثار هذين التيارين فى السياسة ، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون الفريق الأول ، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثانى . وظهرت فى الأدب وفى الفن ، فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوروبيين ، وكان هناك فريق آخر يستمد قيمه من قديم العرب ومن تقاليد الشرق . وظهرت فى التعليم ، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ، ومدارس أوربية للجاليات الأجنبية أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين ، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها . وظهرت فى المجتمعات وفى سائر شئون الحياة ، فكان هناك مجددون ، أو مقلدون إن شئت ، يبغضون إلى الناس قديمهم البالى ويصرفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدث طريف ، وكان هناك المحافظون فى الأزياء وفى آداب الاجتماع وفى أساليب العيش وأنماط الحياة .

وكان بين هذين الطرفين المتباعدين طريق وسط يجمع المعتدلين من أنصار المدرستين فيكادان يلتقيان . ولكن المتطرفين من الفريقين كانوا يبلغون فى تطرفهم الشطط فى كثير من الأحيان . فكان فى المجددين من يبلغ فى دعوته حد التهور والخروج عن القومية والارتماء فى أحضان الغرب . وكان فى المحافظين من يبلغ فى محافظته حد الجمود والتنطع ومحاربة كل جديد مهما ثبت نفعه ، والتمسك بكل قديم مهما تبين بطلانه وضرره .

كان بعض دعاة التجديد الذين ينادون باقتفاء الحضارة الغربية يبالغون فى الاستخفاف برجال الدين حتى يجرهم ذلك إلى الاستخفاف بالدين نفسه ، كالذى

نجده فى بعض مقالات ولى الدين يكن ، حين يجاهر بالإفطار فى رمضان مستخفا بالصائمين ، يتهمهم بالنفاق وبالإفطار سرا ، أو بضيق الأفق والتضييق على الناس فى حريتهم الشخصية[1]. فيقول فيما يقول :

« فى البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر إلى أن يأتى اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان أكثر المفطرين يدّعون الصوم ويحسنون تقليد الصائمين ، حتى لقد بلغ أمر الكذب أن يضرب المفطر و بيته من يدخن بجانبه سيكارته . وقد خرجت بها ذات يوم فى رمضان وراء أمر عرض أريد قضاءه . فلما ركبت الترامواى رأيت جماعة من الأجانب على رءوسهم القبعات وبأفواههم سيكاراتهم ، والناس ينظرون إليهم شزرا ، ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أحد أولئك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكارتى معى فنسيت أن اليوم من أيام رمضان . فأخرجت سيكارة جعلتها فى فمى ، وأقمت أنتظر أن يمدّ إلى أحد الجالسين شيئا أشعلها به . فمشت فىّ عيون الركّاب ، وجعل بعضهم يشير بعضا مشيرا إلىّ بلحظه . ففطنت لموضع خطئى ، وقلت : أداويه لكم أيها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكانى بغتة كمن تذكر شيئا كان نسيه وقلت: لعن الله الشيطان . كدت والله أدخن سيكارتى وأنقض صومى . »

ويصور بعد ذلك احتقاره الشديد لرجال الدين وقد التقى بأحدهم عند بعض أصدقائه فيقول :

« فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى المكان المعدّ للتدخين دنا منى أحد المعمّمين ، وهو رجل كالجرادة ، له لحية كقفافة المزاد ، وعينان كزيتونتين . فنظر فى وجهى مليّا ثم قال لى : لمَ لا تصوم ؟ قلت : لا أدرى . قال : كيف لا تدرى ؟ قلت : ككلّ من لا يدرى . فغلب الضحك على الرجل وتنحّيت أنا جانبا كى لا يطير فى وجهى رشاشٌ من فيه . فقال : مالك تنأى عنى؟ أغولٌ أنا فتخافنى ؟ قلت . كلا . بل فمك رائحته منتنة ولا أقدر أن أشمها . »

١ — راجع مقاله الذى نشر فى المقطم (أكذوبة إبريل وأكذوبة رمضان) الصحائف السود ص ٢٣ - ٣٨

ونجد مثل هذا الاستخفاف فى مقال آخر له ، يسفّه فيه ذبح الأضاحى فى العيد ، فيقول : (١)

« أمس أرهفت الشِفار ، وشمر الجازرون عن سواعدهم ، وجيء بالأضاحى التى أسمنها مقتنوها وطلوا فراءها بالحناء وبالوَرْس ، وفيهم من مَوّهوا بالذهب قرونها ودهنوا بالزعفران آذانها . فأكب أهل الصناعة على صناعتهم ، فمنْ مكبرٌ ذابح ، ومن نافخ ضارب ، ومن سالخ جاذب ، ومن مقطعٌ ناصب . وعلى أبواب البيوت الأقيالُ وأبناءَ الأقيال من الساسانيين وقوفا صفوفا ، أو جُثّما قعودا ، يراقبون من كل باب مصراعه ، وكأن البدر سيطلع عليهم فى موكبه السماوى ، أو كأنْ سينجاب غشاء الأبصار فتبدو من ورائه القسم . » ثم يقول فى استخفاف :

« لا أدرى حُكم الأضاحى فيما يرجع إلى الدين ، فلا أتعرض له بشيء مجانبةً للشَطط . ولكن ماهذا الإسراف ؟ ألنَاثأرٌ عند الغنم فنثأر ؟ أم الغنم كثيرة ونريد أن نقل ؟ ماروى لنا أحد المؤرخين أن جد الغنم نطح أبانا آدم ، فجعل عداءنا محمولا على هذا السبب . » (٢)

وكان المحافظون من دعاة الإصلاح الإسلامى يهاجمون الفريق الأول ، وينهمونهم بالفرنج وبهدم الإسلام . فمن ذلك قصيدة لمحرم ، يهاجم فيها قاسم أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة ، فيقول : (٣)

أغرّكِ ياأسماءُ ماظن قاسمٌ — أقيمى وراء الخِدْر فالمرءُ واهم

تضيقين ذرْعاً بالحجاب ، ومابه — سوى ماجنت تلك الرُؤَى والمزاعم

سلامٌ على الأخلاق فى الشرق كلّه — إذا ما استُبيحت فى الخدور الكرائم

أقاسمُ لاتقذف بجيشك تبتغى — بقومك والإسلام ماالله عالم

١ — راجع مقاله (الاسراف ! الاسراف !) الصحائف السود ص ٨٢ — ٨٥ . والعجب للكاتب ، يضيق صدره بذبح الخراف ، ولا يضيق بذبح الاوروبيين للديكة الرومية مثلا فى أعيادهم

٢ — راجع كذلك أمثلة لاستخفاف الكاتب برجال الدين فى ديوانه ص ١٩ ، ٣٥ ، ٣٧

٣ — ديوان محرم ٢ : ٦٣ — ٦٥

لنا من بناءِ الأوّلين بقيّةٌ — تلوذ بها أعراضُنا والمحارِمُ
أسائل نفسى إذ دَلفْت تريدها — أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
. . . أتأتى الثنايا الغُرُّ والطُرَرُ العلىَ — بما عجزت عنه اللحى والعمائمُ ؟
فلا ارتفعت سُفُنُ الجواء بصاعدٍ — إذا حلّقت فوق النسور الحائم
عفى الله عن قوم تمادت ظنونهم — فلا النهجُ مأمونٌ ولا الرأىُ حازم
ألا إن بالإسلام داءً مخامرا — وإن كتابَ الله للداء حاسم

ومن ذلك مقال كتبه عبد الله النديم بأسلوبه الواقعى الساخر فى مجلة (التنكيت والتبكيت) ، يصور فيه أحد أبناء الريف ، وقد عاد من أوروبا بعد أن أتم تعليمه فى بعثة حكومية . فقال : (١) « ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط . وتركه يلعب فى التراب وينام فى الوحل ، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم إلى الغيط ، يسوق الساقية ، ويحوّل الماء . وكان يعطيه كل يوم أربع حندويلات وأربعة أمخاخ بصل ، وفى العيد كان يقدم له اليخنى ، ليمتعه بأكل اللحم بالبصل . وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار ، فقال لأبيه : لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنسانا. فأخذه وسلمه إلى المدرسة. فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوروبا لتعلم فن عينته له فبعد أربع سنين ركب الوابور وجاء عائدا إلى بلاده . فمن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية ووقف برصيف الجمرك ينتظره . فلما خرج من الفلوكة قرب أبوه ليحتضنه ويقبله ، شأن الوالد المحب لولده . فدفعه فى صدره ، وجرت بينهما هذه العبارة :

زعيط : سبحان الله ! عندكم يامسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا .
معيط : امّال يابنى نسلم على بعض ازّاى ؟
زعيط : قول بون أرّيفى . وحط إيدك فى إيدي مرة واحدة ، وخلاص .
معيط : لهُو يابنى أنا باقول مَنيش ريفى .

١ — العدد الأول ٦ يونيوسنة ١٨٨١ - سلافة النديم ص ٨٢ مقال بعنوان (عربى تفرنج)

زعيط : موش ريفى ياشيخ . انتم ياأبناء العرب زى البهايم .
معيط : الله يسترك يازعيط . والله جاخيرك ياابنى فُوتْ رُوح فُوت !

فلما وصل به الكفْر قامت أمه ، وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل فلما رآه قال لها :

زعيط ليه كترتى من الـ . . . .
معيكة : من ال إيه يازعيط ؟
زعيط : من البتاع اللى اسمه إيه . . .
معيكة : اسمه إيه ياابنى ؟ الفلفل ؟
زعيط : نونو . إل دِى البتاع اللى ينزرع .
معيكة : الغَـلة يابنى ؟
زعيط : نونو . دى اللى يبقى له راس فى الأرض .
معيكة : والله ياابنى مافيه ريحة التّـوم .
زعيط : البتاع اللى يدمع العينين . إسمُـو أونيون .
معيكة : والله ياابنى مافيه أونيون ولا . . دا لحم ببصل .
زعيط : سِى سَا . بصل . بصل .
معيكة : ويازعيط ياابنى نسيت البصل ، وانت كان أ كلك كله منه ؟

وشكاه معيط لأحد النبهاء ، وقال : ولدى توجه إلى أوروبا ، وحضر يذم بلاده وأهله ، ونسى لغته . فقال له النبيه : ولدك لم يتهذب صغيرا ، ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية . فهو وإن كان تعلم علوما إلا أنها لا تفيد وطنه شيئا . فإنه لا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم على أنه أصبح كالغراب لما أراد أن يقلد الحجل فى مشيته ، وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عوده لطبيعته الأولى ، فأصبح يقفز قفزا . وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية . ولا يفعل فعل ولدك إلا لئيم جاهل بوطنه . فكم من شبان تعلمت فى أوروبا ، وعادت

محافظة على مذهبها وعوايدها ولغتها ، وصرفت علومها فى تقدم بلادها وأبنائها ، ولم ينطبق عليهم عنوان (عربى تفرْنج) »

* * *

ومع ذلك كله فقد كانت الحياة الأوروبية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تنى ولا تفتر . فتأسست شركة التليفونات الإنجليزية سنة ١٨٨٤ ،(١) وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ . وافتتح أول خط للترام سنة ١٨٩٧ . ثم أنشىء البنك الأهلى ومنح امتياز إصدار الاوراق المالية سنة ١٨٩٨ (٢) وافتتحت الخمارات فى كل مكان ، حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال . (٣) وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة فى كل العواصم وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التى لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من من كل قيد ، لا يبالون دينا ولا عرفا ولا مصلحة

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض فى الحياة المصرية ، التى جمعت بين المحافظة المتزمتة ، وبين التطرف فى الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، وبين التوسط الذى يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب . وبدأ هذا التناقض فى قصر الخديوى عباس ، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء المترفين . فكان عباس يحتفل فى قصره بشهر رمضان احتفالا عظيما . فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف ، ويحضر مع حاشيته دروس التفسير منذ السنة الأولى لحكمه .(٤) ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلا راقصا فى عابدين كل عام منذ سنة ١٨٩٥ ، يمتد فيه السهر إلى الصبح ، وكان يسمى (ليلة البَلْمُلو) (٥) . وقد حج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام

---

١ - مذكراتى فى نصف قرن ١ . ٢٦٣

٢ — المرجع نفسه ٢ : ٢٢٢ . ٢٤٦ ، ٢١٢

٣ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ص ١٨٩

٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٨

٥ - المرجع السابق ٢ . ٢١٣

سنة ١٩٠٩ (١) . ولكنه كان يسافر مع ذلك فى رحلة طويلة إلى أوروبا كل عام. وقد وضح أثر هذا التناقض فى شعر شوقى ، شاعر القصر . فتجاور فى ديوانه وصف المرقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الإسلام . (٢)

وكانت هذه الصيحات المتباينة المتنافرة التى تأخذ الناس من كل جانب تفزع كثيرا من المصلحين وأصحاب الرأى ، لما ينشأ عنها من بابلة الأفكار واختلاط القيم فى أذهان الناس ولكن الحقيقة هى أن هذا الاضطراب مرحلة ضرورية لابد أن تمر بها الشعوب فى أوائل عهدها بالنهوض . وقد ساعدت هذه الآراء المتباينة التى شاركت فيها الصحف والكتاب والشعراء ، بين تعامية واقتصادية واجتماعية ودينية ، على نضج الرأى العام ، وتنبيه الوعى القومى . وكان هذا القلق فى واقع الأمر شبيها بالفوضى التى خلقت النظام ، وبالسديم الذى تكشف عن الأجرام ، وبالشك الذى يلد اليقين .

تم الجزء الأول بحمد الله

١ — المرجع السابق ٢ ب : ١٨٩ — ١٩٠

٢ راجع أمثلة لوصف حفلة اللهو فى ديوان شوقى ج ٢ ص ٨ — ١٢ ، (نثر اللآلى فى الليالى) ، ١٣ — ١٧ (رقص) — شوقى شعره الإسلامى الفصل الثانى (رسالة للماجستير للسيد ماهر حسن فهمى — مخطوطة)

قائمــــة

بطبعات الكتب التي أحلت عليها في هوامش الكتاب [1]

(ا)

ام القرى لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى (على نفقة محمود طاهر صاحب جريدة العرب)

(ت)

تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع) لجورجي زيدان الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ م (مطبعة الهلال بالفجالة . مصر)

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الأول) لمحمد رشيد رضا الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) مطبعة المنار بمصر

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثانى) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (١٩٢٥ م) مطبعة المنار بمصر

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثالث) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ (١٩٤٨ م) مطبعة المنار بمصر

تاريخ التعليم فى مصر (٣ أجزاء) لأحمد عزت عبد الكريم الطبعة الأولى ١٩٤٥ م مطبعة النصر بمصر

تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد الطبعة الثالثة ١٩١٢ م مطبعة التقدم بمصر

تاريخ المسألة المصرية (ترجمة العبادى وبدراز) تأليف تيودور روتشتين الطبعة الثانية ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م لجنة التأليف

تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده تأليف تيودور روذستين وتعريب على أحمد شكرى ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٧ م

تاريخ المفاوضات المصرية (الجزء الأول) لمحمد شفيق غربال ١٩٥٢ م مكتبة النهضة المصرية

تحرير المرأة لقاسم أمين الطبعة الثانية ١٩٤١ م مطبعة روز اليوسف

---

١ — رتبت هذه القائمة ترتيبا أبجديا حسب أوائل أسماء الكتب . وأسقطت منها الصحف والمجلات لعدم الاختلاف فى طبعاتها .

(ث)

الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بمصر

(ح)

حرب البلقان الأولى تأليف يوسف البستاني المحرر بالجريدة ١٩١٣ م

(د)

دفاع المصري عن بلاده (خطب ومقالات مصطفى كامل في صيف ١٣٢٤هـ—١٩٠٦م)
١٩٠٦ م مطبعة اللواء بمصر

دول العرب وعظماء الإسلام لأحمد شوقي ١٩٣٣ م مطبعة مصر

الدولة العربية المتحدة (الجزء الثالث) لأمين سعيد ١٣٥٦هـ ١٩٣٨م مطبعة عيسى البابي الحلبي

ديوان إسماعيل صبري ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨م مطبعة لجنة التأليف

ديوان البارودي (جزآن) (محمود سامي البارودي) طبعة المنصوري (لآخر حرف
اللام) مطبعة الجريدة

ديوان حافظ (الجزء الأول) (محمد حافظ إبراهيم) الطبعة الثانية ١٣٥٨هـ— ١٩٣٩م
مطبعة دار الكتب

ديوان حافظ (الجزء الثاني) (حافظ إبراهيم) الطبعة الأولى ١٩٣٧م مطبعة دار الكتب

ديوان شوقي (الجزء الأول) (أحمد شوقي) ١٩٢٥م مطبعة مصر

ديوان شوقي (الجزء الثاني) « ١٩٣٠ م مطبعة مصر

ديوان شوقي (الجزء الثالث) « ١٩٤٦ م مطبعة دار الكتب

ديوان شوقي (الجزء الرابع) « مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية
مع مقدمة لمحمد سعيد العريان

ديوان صالح مجدي ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م مطبعة بولاق

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الأول) (عبد الحليم حلمي المصري) ١٩١٠ م
(مع مقدمة لمحمد صادق عنبر)

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثاني) ١٩١١ م

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثالث) ١٣٣٦ هـ — ١٩١٨ م مطبعة المعارف
بالفجالة مصر

ديوان عبدالمطلب (محمد عبد المطلب) الطبعة الأولى . مطبعة الاعتماد بمصر
ديوان الغاياتى (على الغاياتى) الطبعة الثانية ١٣٥٦ ﻫ – ١٩٣٨ م مطبعة عطايا بمصر
ديوان الكاشف (الجزء الأول) (أحمد الكاشف) الطبعة الثانية ١٣٣٢ ﻫ – ١٩١٤ م مطبعة الترقى بمصر
ديوان الكاشف (الجزء الثانى) الطبعة الأولى ١٣٣١ﻫ – ١٩١٣م مطبعة الجريدة بمصر
ديوان محرم (الجزء الأول) (أحمد محرم) الطبعة الأولى ١٩٠٨ م مطبعة الجريدة بمصر
ديوان محرم (الجزء الثانى) الطبعة الأولى ١٣٣٨ﻫ – ١٩٢٠م مطبعة الفتوح بدمنهور
ديوان نسيم (الجزء الأول) (أحمد نسيم) ١٣٢٦ ﻫ – ١٩٠٨ م مطبعة الإصلاح
ديوان نسيم (الجزء الثانى) « ١٩١٠ م مطبعة الهلال
ديوان ولى الدين يكن الطبعة الأولى ١٣٤٣ ﻫ – ١٩٢٤ م مطبعة المقتطف بمصر

(ذ)

ذكرى وعبرة (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) لسليم البستانى . الطبعة الأولى ١٩٠٨ م مطبعة الأخبار

(ر)

روتشتين (راجع تاريخ المسألة المصرية)

(ز)

زعماء الإصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٤٨ م نشر مكتبة النهضة المصرية

(س)

سلافة النديم (الجزء الأول) بقلم عبدالله النديم الطبعة الأولى ١٣١٤ﻫ – ١٨٩٧م المطبعة الجامعة بمصر
سلافة النديم (الجزء الثانى) الطبعة الأولى ١٣١٩ ﻫ – ١٩٠١ م مطبعة هندية

(ش)

شعراء العصر لمحمد صبرى ١٣٢٨ ﻫ – ١٩١٠ م مطبعة الأمة بمصر

شوقى (راجع صداقة أربعين عاما)
الشوقيات (مجموعة شعره من ١٨٧١ — ١٨٩٨ م) الطبعة الثانية ١٣٣٠هـ — ١٩١٢م مطبعة الإصلاح بمصر

(ص)

الصحائف السود لولى الدين يكن ١٩١٠ م مطبعة المقتطف بمصر
صداقة أربعين عاما لشكيب أرسلان ١٩٣٦ م مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر

(ط)

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبى . الطبعة الأولى مطبعة المعارف بالفجالة بمصر

(ع)

عباس الثانى (ترجمة فؤاد . . .) تأليف اللورد كرومر . مطبعة التوفيق بمصر
عبد الحميد ظل الله على الأرض (ترجمة راسم رشدى) تأليف الدكتورة آلماوتلين ١٩٥٠ م دار النيل للطباعة بمصر
عصر الخرافة جزآن (ترجمة أبوريدة ، محمد بكير خليل) تأليف جستاف شتاشبر سلسلة الفكر الحديث (لجنة التأليف والترجمة والنشر)

(ل)

ليالى سطيح تأليف محمد حافظ إبرهيم الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م مطبعة الإصلاح بمصر

(م)

مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول ١٩١١ م المطبعة الأميرية بمصر
محمد فريد لعبد الرحمن الرافعى . الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ — ١٩٤٨م مطبعة لجنة التأليف
مذكرات عرابى (جزآن) بقلم أحمد عرابى . كتاب الهلال فى فبراير ، مارس سنة ١٩٥٣م
مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الأول: من ١٨٧٣م — ١٨٩٢م) الحاج أحمد شفيق (باشا) الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م مطبعة مصر
مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الثانى ا : من ١٨٩٢م — ١٩٠٢م) الطبعة الأولى ١٩٣٦ م — مطبعة مصر

مذكراتى فى نصف قرن (الجزء الثانى ب : من ١٩٠٣ م — ١٩١٤ م) الطبعة الأولى، ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م مطبعة مصر

المرأة الجديدة تأليف قاسم أمين الطبعة الثانية ١٩١١ م مطبعة الشعب

المسامير تأليف عبدالله النديم (عنى بطبعه الشريف ى ن . هـ . م)

المسئلة الشرقية تأليف مصطفى كامل . الطبعة الأولى ١٨٩٨ م مطبعة الآداب بمصر

مصر للمصريين تأليف سليم نقاش (نشرمنه ٦ أجزاء من ٤ — ٩)١٣٠٢هـ —١٨٨٤م مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

مصر والاحتلال الإنجليزى (مجموعة أعمال مصطفى كامل من ١٨٩٥ م — ١٨٩٦م)، ١٩١٣ م مطبعة الآداب

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال تأليف عبدالرحمن الرافعى الطبعه الثانية١٣٦٧هـ، ١٩٤٨ م مطبعة الفكرة بمصر

مصطفى كامل تأليف عبد الرحمن الرافعى الطبعه الثانية ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م مطبعة لجنة التأليف

معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث (ترجمة عبدالعزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز ١٩٥٠ م مطبعة لجنة التأليف

معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز ١٩٥٢ م مطبعة لجنة التأليف

المنتخبات (جمع إسماعيل مظهر) بقلم أحمد لطفى السيد . نشر مكتبة الأنجلو المصرية

منتخبات المؤيد (السنة الأولى ١٨٩٠ م) ١٣٢٤ هـ مطبعة المؤيد

(هـ)

هـ ج . ولز (راجع معالم تاريخ الانسانية)

(و)

وطنيتى (راجع ديوان الغاياتى)

Egypt's Ruin (راجع تاريخ المسـألة المصرية ، تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده)

Modern Egtpy (The Earl of Cromer) Macmillan and Co. 1908

فهرس

الفصل الأول — الجامعة الإسلامية

(ص ١ — ص ٤٩)

الفصل الثانى — الجامعة المصرية

(ص ٥٠ — ص ١٠٦)

الفصل الثالث — محنة الجامعة المصرية — المؤتمر القبطى والمؤتمر المصرى

(ص ١٠٧ — ص ١٢٣)

الفصل الرابع — تيارات سياسية

(ص ١٣٤ — ص ٢٢٢)

الفصل الخامس — نزعات إصلاحيـــة

(ص ٢٢٣ — ص ٣٤٥)

فهرس الأعلام

للمؤلف

١ ديوان الأعشى الكبير ١٥٠ قرشاً

ميمون بن قيس

يخرج فى صورة مبتكرة جديدة . فقد وضع بازاء النص الشعرى نثر كامل له يبرز جماله ، ويقربه للدارس ، ويقدمه فى صورة شائقة تناسب ذوق العصر ، مع شرح لظروف الشعر ومناسبته

وهو يطبع فى مصر للمرة الأولى منقحا بعد تصحيح أغلاط الطبعة الأوربية وتصحيفاتها ومزوداً بفهارس منوعة للقوافى والأغراض والأعلام والأماكن والأيام والمعانى والصور الفنية والألفاظ اللغوية . مع شرح واف للشعر الذى فات الطبعة الأوربية وقد قدم له المؤلف بمقدمة طويلة تكلم فيها عن حياة الشاعر وفنه

٢ الهجاء والهجاءون ٣٠ قرشاً

فى الجاهلية

دراسة واسعة للهجاء وأسبابه ومراميه وأنواعه مع نقد وتحليل شخصيات الهجائين والموازنة بينهم والالمام الكامل بأطراف الشعر الجاهلى من هذه الناحية .

٣ الهجاء والهجاءون ٣٠ قرشاً

فى عصر صدر الإسلام

هو كسابقه نتيجة بحث ودراسة واسعة وإلمام شامل للهجاء والهجائين فى هذا العصر